

طه حسين

حديث الأربعاء

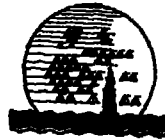


دارالمعارف

طه حسين

حديث الأربعاء

١



Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

الطبعة الرابعة عشرة



دار المعارف

الإهداء

إلى الأستاذ الصديق أحمد لطفى السيد

تَجَلَّة تلميذ ، وتحية صديق .

طه حسين

١٧ يناير سنة ١٩٢٥

مقدمة

ولإنما أسمى هذه الأسطر مقدمة لأن الناس تعودوا تسمية مثلها مثل هذا الاسم ، فليست هي في حقيقة الأمر مقدمة وما كان مثل هذا السفر ليحتاج إلى مقدمة ، وقد قرأ الناس فصوله كلها في « السياسة » و « الجهاد » فهم يعرفونها بأنفسهم ولا يحتاجون إلى أن يقدمها إليهم أحد . وما كان هذا السفر ليحتاج إلى مقدمة وأنت لا تكاد تقرأ فصلا من فصوله إلا وجدلت فيه مقدمته الخاصة . ما كان هذا السفر ليحتاج إلى مقدمة فأنا أسميه سफراً لا لشيء إلا لأنه مجلد يجمع طائفة من الصحف قد ضم بعضها إلى بعض ، فأنت تستطيع أن تسميه سफراً ، وأنت تستطيع أن تسميه كتاباً لأن هذه التسمية صحيحة صادقة من الوجهة اللغوية الخالصة ، وهي إن صححت وصدقت من هذه الوجهة فهي ليست صحيحة ولا صادقة بالقياس إلى الصورة التي أتصورها لما أسميه بحق سफراً أو كتاباً . ليست هذه الصحف التي أقدمها إليك سफراً ولا كتاباً كما أتصور السفر والكتاب . فأنا لم أتصور فصوله جملة ، ولم أرسم لها خطة معينة ولا برنامجاً واضحاً قبل أن أبدأ في كتابتها ، وإنما هي مباحث متفرقة كتبت في ظروف مختلفة وأيام متقاربة حيناً ومتباعدة حيناً آخر ، فلست تجد فيها هذه الفكرة القوية الواضحة المتحددة التي يصدر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم وأشعارهم . بل أنا أذهب إلى أبعد من هذا فأحدثك في غير تحفظ ولا احتياط : أني مهما أكن قد تكلفت في هذه الفصول من جهد ومشقة فلاني لم أعن بها العناية التي تليق بكتاب يعده صاحبه ليكون كتاباً حقاً ، وإنما هي فصول كانت تنشر في صحيفة سيارة ليقراها الناس جميعاً فينتفع بقراءتها من ينتفع ويتفكه بقراءتها من يتفكه ، ولم يكن بد لكتابتها من أن يتجنب التعمق في البحث والإلحاح في التحقيق العلمي ، إذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا . ولقد يكون من الحق على نفسي وللأدب ولقراء هذه الفصول أن أعترف بأنني ما كتبت منه فصلا إلا وأنا أعلم أنه شديد النقص ، محتاج إلى استئناف العناية

به والنظر فيه ، وأنا أقدر أن سيتاح لي من الوقت وفراغ البال ما يمكنني من استئناف تلك العناية وهذا النظر ، حتى إذا فرغت منه ونشرته السياسة أو الجهاد عرضت لغيره في مثل هذه الحال العقلية التي عرضت له فيها معتزماً أن أستأنف العناية به والنظر فيه ، مستحيماً أن أقدمه إلى الناس على ما فيه من نقص وحاجة إلى الإصلاح . والأيام تَمْضِي والظروف تتعاقب مختلفة متباينة أشد الاختلاف وأعظم التباين ، ولكنها متفقة في شيء واحد هو أنها كانت تحول دائماً بيني وبين ما كنت أريد من تجديد العناية واستئناف النظر . وأى الكتاب ، وأى الباحثين لا يشكو مثل هذا في مثل هذه الأيام التي نعيش فيها ؟ ! أليس كل الناس يحس في هذه الأيام كأن شيئاً قد طرأ على حركة الزمان فأفسد نظامها وغير اطرادها ؟ فهي مسرعة إلى حد لم نعهده من قبل ولا نستطيع معه أن ندبر أمورنا ونقدر حياتنا وحاجاتنا كما نحب ونهوى ، حركة الأيام أسرع من حركة النفوس ، حتى لقد يخيل إلى أن اليوم في هذا العصر لا يكاد يعدل ساعات من أيامنا تلك التي قضيناها قبل أن نطراً على مصر هذه الطوارئ السياسية التي تغير فيها كل شيء .

لم أفرغ إذن لهذه الفصول كما يفرغ المؤلف لكتاب ، ولم أعن إذن بهذه الفصول كما يعنى الباحث المحقق ببحث علمي وأدبي قيم ، ومع هذا فقد لقيت من الناس رضاءً وصادفت من نفوسهم هوى ، فرغبوا إلى أن أضم بعضها إلى بعض وأجمعها في كتاب منفرد يمكن حفظه ، والتصرف به ، على غير ما تحفظ الصحف السيارة ويتصرف بها . ولقد أعرضت عن هذه الرغبة حيناً لا لشيء إلا لأنني كنت أرجو أن تتيح لي الأيام شيئاً من فراغ البال يمكنني من استئناف النظر في هذه الفصول وتبويبها للجمع والنشر ؛ ولكن الأيام لم تتح لي ما كنت أرجو وما أحسب أنها ستتيحه لي قبل أمد بعيد . وأخذ الناس يلحون عليّ ، وتجاوز بعضهم الإلحاح إلى اللوم ، فكتب إليّ ينكر عليّ أني أذنت بجمع القصص التمثيلية في كتاب ، وأبطأت في جمع أحاديث الأربعاء ، ويسألني أكان مصير هذا ازدياء للأدب العربي وإسرافاً في حب الأدب الأجنبي . كلا يا سيدي الأستاذ ! إنما كان هذا ضناً بالأدب العربي وإكباراً له أن تنشر فيه فصول ناقصة شديدة الحاجة إلى الإصلاح ، وإذ كنتم قد ألحتم من جهة

وأبت الظروف على ما كنت أريد من جهة أخرى فدونكم هذه الفصول كما كتبت وكما نشرتها السياسة ، لم أغير فيها حرفاً ، ولم أضف إليها شيئاً ، ولم أصلح مما فيها من الخطأ قليلاً ولا كثيراً ، قد نشرتها صحيفة سيارة فأصبحت حقاً لكم فأنا أرد إليكم هذا الحق ولست أسألكم إلا شيئاً واحداً : وهو ألا تنظروا إليها نظركم إلى كتاب في الأدب العربي قد فرغ له صاحبه وعنى بتحقيقه وتمحيصه .

قلت إن هذه الفصول ليست متصلة ولا ملتزمة ولا خاضعة لهذه الفكرة المتحددة التي يصدر عنها المؤلفون في تأليف كتبهم ، ومع ذلك فقد صدرت هذه الفصول عن كاتب واحد وذهب فيها هذا الكاتب مذهباً واحداً وقصد بها إلى غرض واحد ، فهي متحدة مؤتلفة مهما تختلف ومهما تنقصها هذه الفكرة الواضحة المنظمة المتحددة ، فروح الكاتب فيها واضح بين ، ومذهب الكاتب فيها ظاهر جلي ، وغرض الكاتب فيها لا يحتاج إلى أن يدل عليه ، بل اشتركت فيه الدولتان العباسية والأموية ، وهي لا تكاد تتجاوز طاقة بعينها من هؤلاء الشعراء ، وهم أصحاب المحون والدعابة وطلاب اللهو واللذة ، وهي لا تكاد تتجاوز ناحية بعينها من نواحي هؤلاء الشعراء جميعاً هي ناحية مجونهم وإسرافهم ، وما كان لذلك من أثر في حياتهم العقلية، وما كان بين ذلك وبين الحياة الاجتماعية والسياسية في تلك البيئة من صلة ، ولعلك تذكر — وإن كنت قد نسيت فستذكر — أن النتيجة الواضحة التي انتهت إليها هذه الفصول كلها هي أن هذا العصر ، الذي انحلت فيه الدولة الأموية ، وقامت فيه الدولة العباسية ، قد كان عصر شك وعبث ومجون ، أو كان الشك والعبث والمجون. أظهر مميزاتة . وأنا أعلم أن هذا لم يعجب الناس ولن يعجبهم ، وأنا أعلم أنهم كرهوا وسيكروهون أن يعتمد كاتب إلى مثل هذه الناحية من نواحي الأدب العربي فيدرسها درساً مفصلاً ويظهر الناس على دقائقها وأسرارها ، ولكنني مع ذلك عمدت إليها متى أتيج لي ذلك ، لأنني أعلم أن حياة القدماء كلها ملك للتاريخ ، وأن درس هذه الحياة كلها نافع للمؤرخ والأديب بل واجب عليهما ، وأن من الإثم وتعمد الجهل أن نتكلف إخفاء ناحية من النواحي الأدبية ربما كانت أحق من غيرها أن تدرس ويعنى بها الباحثون ، وما كان لي ، ولن يكون لأحد من

الباحثين الذين يقدرون العلم وكرامته ، أن نغير التاريخ ، أو أن نظهر عصرآ من عصور الأمة العربية على غير ما كان عليه . فنحن لم نخلق أبا نواس وأصحابه ، ونحن لم نلهمهم اللهو والمجون ، ونحن لم نبعثهم على العبث وطلب اللذة ، ولكننا وجدناهم كذلك فكنا بين اثنين : إما أن نجعلهم وإما أن نعلمهم ؛ فأثرنا الثانية على الأولى واعتقدنا أن العلم خير من الجهل ، وأن الصواب خير من الخطأ ، وأن الشجاعة في التاريخ خير من الجبن فيه . ونحن نعلم حق العلم أن ليس على عقول الناس ولا أخلاقهم خطر من مثل هذه المباحث الأدبية ، فالتاس لم ينتظروا هو أبي نواس وأصحابه ليعرفوا اللهو ، والتاس لم ينتظروا هذه الفصول وأمثالها ليعرفوا العبث ، ونحن لم نكتب هذه الفصول وأمثالها لنحبب العبث إلى الناس ونرغبهم فيه ، فإن في ظروف هذه الحياة التي نحياها مرغبات في اللهو ومحرضات على العبث أقوى وأبلغ من هو أبي نواس ، وعبث « مطيع » و « حماد » . قل ما شئت في هذه الفصول ، فلن تستطيع أن تنكر أن لها نتيجتين قيمتين : الأولى ، أنها جلت ناحية من نواحي تاريخ الأدب العربي لم تكن واضحة ولا بيّنة ، وليس هذا بالشيء القليل . الثانية ، أن فيها ضرباً من مناهج البحث أحسب أن الأدباء لو يفهمونه لاستطاعوا أن يستغلوا هذه الكنوز القيمة التي لا تزال مجهولة والتي نشأ من جهل الناس إياها غضهم من الأدب العربي ، وانصرفهم عنه في أنفة وازدراء .

إن الذين يزدرون الأدب العربي ، ويفضون منه ، يجهلون منه هذا الأدب جهلامتكرآ ، وما كان لمن جهل شيئاً أن يحكم عليه . فكرت في هذا كله حين ألح على الملحنون في نشر هذه الفصول ، فأنهيت إلى أن أذنت بنشرها كما هي ، وأنا أرجو أن يكون لها ما أطمع فيه من أثر في فهم الأدب العربي وكتابة تاريخه .

أثناء قراءة الشعر القديم (١)

قال صاحبي وهو يحاورني : إنكم لتَشْتَقُّون علينا حين تكلفوننا قراءة شعركم القديم هذا ، وتلحون علينا فيه ، وتعييبننا بالإعراض عنه ، والتقصير في درسه وحفظه وتذوقه ، لأنكم تنكرون الزمن إنكاراً ، وتلغونه إلغاءً ، وتحسبون أننا نعيش الآن في القرن الأول قبل الهجرة أو بعدها ، ونستطيع أن نأتي من الأمر ما كان أهل ذلك الزمان يأتون ، وأن نحس كما كانوا يحسون ، ونشعر كما كانوا يشعرون ، ونفهم من أجل ذلك ونذوق ما كانوا يقوون ، وأنتم مع ذلك تقرأون التاريخ وتدرسونه ، وكيف يستقيم لكم درس الأدب إذا لم تقيموه على إتقان التاريخ والعلم به ؟ فأنتم إذن تعرفون أن حياتنا غير حياة هؤلاء الناس ، وأن أطوارنا غير أطوارهم ، وأن الصلة قد انقطعت أو كادت تنقطع بينهم وبيننا ، ولا سيما بعد أن أقبل العصر الحديث ، وحمل إلينا الحضارة الحديثة ، وما تفرض على الناس من أساليب الحياة والتفكير ، فباعد بيننا وبين القدماء ، وغير طباعتنا وأمزجتنا وأذواقنا ، وجعل الأساليب بيننا وبين المحدثين من أهل الغرب ، أدنى من الأسباب بيننا وبين القدماء من أهل نجد والحجاز . فنحن يا سيدي نتعلم الإنجليزية والفرنسية والألمانية فنتقنها أحياناً ، ويتاح لنا أن نقرأ الشيء الكثير أو القليل من آثار الشعراء الإنجليز والفرنسيين والألمان ، فنفهم ما نقرأ ونتذوقه ، ونجد فيه لذة ومتاعاً ، وغذاء للعقول والقلوب ؛ لا نحس بيننا وبين هؤلاء الشعراء من بعد الأمد ، واختلاف الطبع والذوق والمزاج ، مثل ما نحس بيننا وبين أصحاب شعركم هذا القديم ، لأننا نحيا حياة تقارب حياة الشعراء الأوروبيين ، ولأننا نستمد علمنا وأدبنا وفننا في هذه الأيام من النتايع نفسها التي يستمد منها الشعراء الأوروبيون علمهم وأدبهم وفنهم ، ولأن اتصال الأمر بيننا وبينهم على هذا النحو يديننا منهم ، ويقرب أدبهم إلينا ، ويحدث بيننا وبينهم صلات يسيرة هينة ، لا مشقة فيها ولا جهد . والأيام كلما مضت واتصلت زادت

البعد بيننا وبين شعرائكم هؤلاء القدماء ، والحياة كلما تطورت وتحولت زادت في تغيير طبائعنا ، وفي تغريبنا ، إن صح هذا التعبير . فكيف تريدوننا على أن نجد في هذا الشعر القديم من اللذة والمتاع ما نبحت عنه فلا نظفر به ؟ وكيف تريدون أن تفرضوا علينا عناء البحث عما لا سبيل إليه ، والدرس لما لا نفع في درسه ، والحفظ لكلام لا تسيغه أفواهنا حين نتطق به ، ولا تقبله آذاننا حين يلقى إليها ، ولا يصل إلى نفوسنا مجال من الأحوال ؟ إنكم لتضيعون وقتكم ووقتنا في غير نفع ، وإنكم لتكلفون أنفسكم وتكلفوننا ضروراً من الجهد العنيف في غير طائل . ولو أنكم تقدرون الوقت ، وتعرفون الجهد الإنساني قيمته ، لوضعتم شعركم القديم هذا حيث أرادت الحياة أن تضعه ، فقصرتم درسه وفهمه وتفسيره على هؤلاء العلماء الإحصائيين ، الذين يفرغون لما يلائم ذوقهم من ضروب العلم ؛ فيعنون به ، وينفقون جهودهم فيه ، يبتغون لذتهم الخاصة ، ويبتغون ما يسمونه خدمة العلم ، وإحياء التاريخ ، وما ينبغي لأحد أن يلوم رجلاً في العناية بالشعر الجاهلي ، أو يصدده عن هذه العناية ، ما دام في الناس من يتفق الوقت والجهد والمال في جمع طوابع البريد وما يشبهها من هذه السخافات ، التي يتهالك على جمعها أصحاب الثراء والدعة والفراغ . رفقاً بالشباب ، لا تفرضوا عليهم الترف فرضاً ، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ، ولا تأخذوهم بما تحبون أن تأخذوا به أنفسكم ، فإن الإغراق في نوع من أنواع التخصص خروج عما ألفت الناس ؛ وما ينبغي أن يخرج الناس جميعاً عما ألفت الناس .

لا تفرضوا شعركم الجاهلي ، بل شعركم القديم ، على الطلاب والتلاميذ ؛ فليس هذا الشعر منهم ، وليسوا هم من هذا الشعر في شيء . علموهم ما يستطيعون أن يتعلموا ، وخذوهم بحفظ ما يستطيعون أن يحفظوا ، ولا تفسدوا عقولهم وأذواقهم بتكليفهم ما لا يطيقون .

وكان صاحبي يقول هذا كله في صوت حازم ، ولهجة حادة ، وحماسة تكاد تبلغ العنف ، ونشاط لم يقتصر على نفسه المفكرة العاقلة ، وإنما تجاوزها إلى جسمه أيضاً ، فكان كثير الحركة والاضطراب : يقوم ويقعد ، ويتلفت إلى يمين وإلى شمال ، ويمرر يديه وذراعيه حركات عنيفة مختلفة ، كأنه كان

خطيباً يريد أن يقهر الجماهير .

ولست أخفى عليك أنى أنفقت كثيراً من الجهد ، وتكلفت كثيراً من العناء ، لأرده إلى شيء من الهدوء ولأقنعه بأن من حقه أن يقول ، ولكن من الحق عليه أن يسمع . وأكاد أعتزف بأنى يثست من حملة على الصمت والاستماع ، ولولا أنى انصرفت عنه ، وهممت بفراقه ، لما اتصل بينه وبينى الحديث في هذا الموضوع .

ذلك أنه مخلص كل الإخلاص في بُغض هذا الشعر القديم المسكين . ويظهر أن بينه وبين هذا الشعر ثأراً ، فهو قد كان يلتمس مشكله الأدبي الأعلى أول أمره عند القدماء من العرب ، وكان في هذا متأثراً بغيره من المثقفين والممتازين . وهو قد قرأ بعض الشعر العربي القديم في ديوان الحماسة وغير ديوان الحماسة من كتب المختارات ، ففهم وتذوق ولكنه لم يرض ! فاستزاد وأكثر القراءة وأراد أن يتعمق الدرس ، وتجاوز الحماسة وأمثالها من الكتب اليسيرة إلى كتب أخرى ، أقل يسراً وأشد إمعاناً في المذهب العربي الخالص في الشعر ، فأخذ ينظر في الأراجيز والمفضليات ومطولات الجاهليين ، ونقائض الفرزدق والأخطل وجرير . ولكنه لم يكده يمضى في هذا النظر حتى قامت أمامه صعاب وعقاب ، لم يجد إلى تذليلها من سبيل ، فألفاظ ضخمة تنبو عنها أذنه وتستغلغ معانيها عليه ، فإذا حاول فهمها لجأ إلى الشروح والمعاجم ، فإذا هذه الشروح والمعاجم مضطربة ، شديدة الاختلاط ، كثيرة الاستطراد ، وإذا ففهمها ليس أدنى إليه ، ولا أيسر عليه ، من فهم النص الشعري الذي يلتمس تأويله وتفسيره . وقد وقع المسكين على شرح ابن الأتباري للمفضليات ، فضل ضلالاً بعيداً في هذا الكلام الكثير الذي تختلط فيه الروايات والأقاويل ، ومسائل النحو ، ومذاهب اللغويين ، ثم وقع على النقائض ، فلم يكن ضلاله قريباً ، وإنما كان بعيداً كل البعد ، يبدأ القصة فلا يعرف كيف تنتهى ، لأنه لا يكاد يتقدم فيها خطوة أو خطوتين حتى يجد نفسه قد دفع إلى قصة أخرى ، ولا يكاد يمضى في هذه القصة الثانية حتى يدفع إلى قصة ثالثة ، وهو لا يكاد يمضى في هذه ولا تلك حتى يجد الشعر يروى من هنا وهناك ، قد ركب بعضه بعضاً ، واختلط بعضه ببعض ، ولم تقم في الصحراء أو في

هذه الغايات أعلام يهتدى بها إن مضى ، ويعتمد عليها إن رجع ، فأعرض عن الكتائين إعراضاً ، ويثس من الأدب القديم بأساً ، والنس من كتب المحدثين ما يقرب إليه هذا الأدب النافر ، ويدلل له هذا الفن الجامح ، فلم نجد شيئاً . هنالك فرع إلى الأوربيين ، فوجد من أدبهم ون نظامه الذى يقربه وييسره ما أرضاه ، فأصبح مبغضاً للأدب القديم بطبعه ، محبباً للأدب الأجنبي أعظم الحب . ثم ذكر أن الأدب القديم كان يفرض عليه فى المدرسة فيحمله من المشقة ما لا يطيق ، ويبغض إليه المدرسة تبغيضاً ، ونظر فإذا الطلاب والتلاميذ ما يزلون يشقون بمثل ما كان يشقى به ، ويجاهدون فى مثل ما كان يجاهد فيه ، وينتهون إلى مثل ما كان ينتهى إليه من العناء واليأس والإخفاق . فأصبح لا يطيق حديثاً عن الشعر القديم ، ولا يطيق التفكير فى أنه شىء يمكن أن يدرسه الشباب ، أو يفرغ له غير هؤلاء المجانين ، الذين يسمون أنفسهم ويسميهم الناس علماء .

وقد أطلت الحوار مع صاحبي فلم أظفر منه بشىء ، لأن انصرافه عن الشعر القديم ، قد أصبح علة ، قد استقرت فى نفسه استقراراً ، تؤذيه كل الإبداء ، وليس فى شفائها أمل ، ولا إلى إنقاذه منها سبيل . وقد تحدث إلى المتحدثون بأن أمثال صاحبي هذا قد أخذوا يكثرون ، ويظهر أنهم سيكثرون كلما تقلمت الأيام ، لأنها ، كما قال صاحبي ، تباعد بينهم وبين حياة القدماء . وتحول بينهم وبين فهم هذه الحياة ، وما كان يصورها من الأدب القديم . والناس مفتنونون بالسهل ، مهابكون على القريب ، يكرهون الجهد ، ويفرون من التعب . والحضارة الحديثة تغريهم بهذا ، فهم لا يعيشون إذا استطاعوا الركوب ، وهم لا يتخذون القطار والسفينة إذا استطاعوا اتخاذ الطائرة . وهم يجلون فى الأدب الأجنبي الحديث ما يرضيهم ، فإن أرادوا اللذة الفنية ظفروا بها ، وإن أرادوا اللهو انتهوا إليه ، وإن أرادوا إنفاق الوقت لم يجدوا فى ذلك جهداً ولا عناء .

ومع أن الجهود التى بذلت فى هذا العصر الحديث لإحياء الأدب العربى القديم لا بأس بها ، فقد يجب أن نعرف بأنها لم تنج عن هذا الأدب القديم شيئاً ، لأن الحضارة الحديثة تملك من الوسائل ما لا يملكه الأدب القديم ، فهى

تسمى إلينا وتبلغنا من كلّ وجه ، وهى تلحّ علينا إلخاحاً فى جميع أطوار حياتنا ، وإنتاجها الأدبى لا ينقطع ، فهو يغمزنا بكثرة ، ويغيرنا باختلافه ، ويفتننا بسحره ، ويصرفنا عن هذا الأدب القديم ، الذى لا يكاد يسعى إلينا إلا بطيئاً قد أثقلته القرون ، وهو لا يكاد يخطو إلينا خطوة حتى يتعثّر فى هذه العقبات التى تبها الحضارة الحديثة أمامه ، والى يتصل بعضها بالعلم ، وبعضها بالجهل ، وبعضها بالذوق المترف الرقيق ، وبعضها بالذوق الخشن الغليظ ، وبعضها بما شئت وما لم تشأ من هذه الخطوب ، التى تفرضها الحضارة الحديثة علينا فرضاً ، فتصرفنا عن كلّ ما يحتاج إلى الجهد والرواية والأناة . ومعنى ذلك أن الأدب القديم صائر ، إذا مضت الأمور على هذا النحو الذى تمضى عليه ، إلى أن يصبح لوناً من ألوان الترف ، لا يعنى به ولا يتوفر عليه إلا الذين يفرغون للتخصص فى بعض الفنون ، ومع ذلك نحبّ لأدبنا القديم أن يظلّ فى هذا العصر الحديث كما كان من قبل ، ضرورة من ضرورات الحياة العقلية ، وأساساً من أسس الثقافة ، وغذاء للعقول والقلوب .

ونحن لا نحبّ أن يظلّ الأدب القديم فى هذه الأيام كما كان من قبل ، لأننا لا نحبّ القديم من حيث هو قديم ، ونصبو إليه متأثرين بعواطف الشوق والحنين ، بل نحن نحبّ لأدبنا القديم أن يظلّ قواماً للثقافة ، وغذاء للعقول ، لأنه أساس الثقافة العربية ؛ فهو إذن مقومٌ لشخصيتنا ، محقق لقويتنا ، عاصم لنا من الفناء فى الأجنبي ، معين لنا على أن نعرف أنفسنا .

فكلّ هذه الخصال أمور لا تقبل الشكّ ، ولا يحسن فيها المراء ، ولكننا مع ذلك نحبّ أن يظلّ أدبنا القديم أساساً من أسس الثقافة الحديثة ، لأنه صالح ليكون أساساً من أسس الثقافة الحديثة . ونحبّ أن يظلّ أدبنا القديم غذاء لعقول الشباب ، لأن فيه كنوزاً قيمة تصلح غذاء لعقول الشباب . والذين يظنون أن الحضارة الحديثة قد حملت إلى عقولنا خيراً خالصاً يخطنون ، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا شراً غير قليل ، لم يأت منها هى ، وإنما أتى من أننا لم نفهمها على وجهها ، ولم نتعمق أسرارها ودقائقها ، وإنما أخذنا منها بالظواهر ، وقتعنا منها بالهين اليسير ، فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود و جهل ، كما كان التعصب للقديم مصدر جمود و جهل أيضاً . هذا الشاب ،

أو هذا الشيخ الذي أقبل من أوربا يحمل الدرجات الجامعية ، ويحسن الرطانة يلحدي اللغات الأجنبية أو بغير لغة من اللغات الأجنبية ، ويجلس إليك وإلى غيرك منتفخاً منتفشاً ، مؤمناً بنفسه وبلجاته وبعلمه الحديث ، أو أدبه الحديث ، ثم يتحدث إليك كأنه ينطق بوحى أبولون ، فيعلن إليك في حزم وجزم أن أمر القديم قد انقضى ، وأن الناس قد أظلمهم عصر التجديد ، وأن الأدب القديم يجب أن يترك للشيوخ الذين يتشدقون بالألفاظ ، ويمثلون أفواههم بالقاف والطاء وما يشبههما من الحروف الغلاظ ، وأن الاستمسك بالقديم جمود ، والاندفاع في الحياة إلى أمام هو التطور ، وهو الحياة ، وهو الرقى . هذا الشاب وأمثاله ضحية من ضحايا الحضارة الحديثة لأنه لم يفهم هذه الحضارة على وجهها . ولو قد فهمها لعلم أنها لا تنكر القديم ولا تنفر منه ، ولا تصرف عنه ، وإنما تحببه وترغب فيه ، وتبحث عليه ، لأنها تقوم على أساس منه متين ، ولولا القديم ما كان الحديث . وإن بين أدباء الأوربيين الآن لقوماً غير قليلين ، يحسنون من آداب القدماء ما لم يكن يحسنه القدماء أنفسهم ، ويعكفون على درس الأدب القديم أكثر مما كان يعكف كثير من القدماء ، ويؤمنون بأن اليوم الذي تنقطع فيه الصلة بين حديث أدبهم وقديمه هو اليوم الذي يقضى فيه الموت على أدبهم ، ويحال فيه بينهم وبين كل إنتاج .

هذا الشاب ضحية من ضحايا الحضارة الحديثة ، أو من ضحايا جهل الحضارة الحديثة ، وشره ليس مقصوراً عليه ، وإنما يتجاوزها إلى غيره من الناس فهو يتحدث ، وهو يعلم ، وهو يكتب ، وهو في هذا كله ينفث السم ، ويفسد العقول ، ويمسح في نفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة التجديد ، فليس التجديد في إماتة القديم ، وإنما التجديد في إحياء القديم ، وأخذ ما يصلح منه للبقاء . وأكد أنخذ الميل إلى إماتة القديم أو إحيائه في الأدب مقياساً للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم ينتفعوا بها ، فالذين تلهيهم مظاهر هذه الحضارة عن أنفسهم حين تلهيهم عن أدبهم القديم ، لم يدوقوا الحضارة الحديثة ولم ينتفعوا بها ، ولم يفهموها على وجهها ، وإنما اتخذوا منها صوراً وأشكالاً ، وقلدوا أصحابها تقليد القردة لا أكثر ولا أقل . والذين تلهيهم الحضارة

إلى أنفسهم وتدفعهم إلى إحياء قديمهم ، وتملاً نفوسهم إيماناً بالأحياة لمصر إلا إذا عنيت بتاريخها القديم وبتاريخها الإسلامى ، وبالآداب العربى قديمه وحديثه ، عنايتها بما يمسى حياتها اليومية من ألوان الحضارة الحديثة ، هم الذين انتفعوا ، وهم الذين فهموا ، وهم الذين ذاقوا ، وهم القادرون على أن ينفعوا فى إقامة الحياة الجليلة على أساس متين .

وأرأى شغلت عن صاحبي وحواره ، وعن موضوع هذا الحوار بهؤلاء الذين أفسدهم الأخذ بظواهر الحضارة ، فجهلوا القديم ثم كرهوه ، ثم اتخذوا من جهله وكراهته مذهباً يغرون به ويدعون إليه .

على أنى قلت لصاحبي فيما قلت : إنما أمر الأدب القديم عندى أشبه بحديقة طال عليها الزمن ، وأهملت إهمالاً متصلاً ، ولم تنقطع عنها مع ذلك مادة الحياة ، فضت أشجارها وشجيراتنا تنمو فى غير نظام ، هذا النمو المهمل المضطرب ، حتى اختلط أمرها اختلاطاً شديداً ، وحتى أصبح من العسير عليك وعلى أمثالك أن تجدوا فيها سبيلاً إلى ما تحبون من التزهة والراحة إلى جمال الزهر والشجر ، فأنتم قد ألقتم الحدائق التى يتعهدنا البستاني إذا أصبح ، ويتعهدنا إذا أمسى ، وينسقيها لكم تنسيقاً ، ويمهد الطرق لكم فيها تمهيداً . أنتم تريدون الراحة دون أن تتكفوا فى سبيلها التعب ، وتلتمسون اللذة دون أن تحتملوا فى سبيلها الألم . تريدون أن تسعوا فى الحدائق دون أن يعوقكم التقاف الشجر ، والتواء الأغصان ، وقيام هذه العقبات التى يكاف بها الذين يحسنون فن التزهة ، ويتذوقون الجمال الحرّ . أنتم تريدون أن تهبأ لكم لذة الفن تهبئة ، وأن يوضع لكم الطعام فى أفواهكم والعلم فى قلوبكم . وأنا أعرف قوماً يؤثرون هذه الحدائق الحرّة ، التى طال عليها الزمن وألح عليها الإهمال ، على حدائقكم هذه المنسقة المنظمة التى أعدت لكم إعداداً .

وأعرف قوماً لا يظفرون بهذه الحدائق المهملة فيبتكرونها لأنفسهم ابتكاراً ويتكفون إهمال حدائقهم ، وإرسال ما ينبت فيها من الشجر والنجم على سجيته ، ليتبأ لهم بعد زمن يقصر أو يطول ، أن يجدوا فى طريقهم أشجاراً ملتفة ، وأغصاناً ملتوية ، وعقبات خضراء ، يضطرون إلى أن يزيلوها بأيديهم ، ويتعرضون لأن يصيبهم منها قليل من الأذى أو أكثر .

أعرف هؤلاء الناس وأحب أن أكون منهم ، ولست أخفى عليك أنى إذا لم أكره الأدب السهل الميسر فلانى أؤثر عليه الأدب الصعب الذى يكلفنى مشقة وجهداً لأفهمه وأذوقه ، وإذا كان شعرنا القديم يمشك ويؤذيك ، وإذا كانت كتبنا القديمة التى ألفت لشرح هذا الشعر وتفسيره تثقل عليك ، فلانى أجد فى هذا الشعر ، وفى هذه الكتب ، متاعاً لا أجده فى هذا الأدب الحديث الذى تؤثره وتهالك عليه ، والذى أحبه أنا ولكنى لا أؤثره بالحب ، ولا أختصه بالعبارة ، ولا أرى أنه كل شيء .

وقلت لصاحبي فيما قلت : إن ما يصرفك عن الشعر القديم يغربنى به ، وما يزهلك فيه يدفعنى إليه ؛ فأنت تكره هذه الألفاظ التى تكلفك البحث فى المعاجم ، وأنا أحب هذه الألفاظ ، لأنها تكلفنى البحث فى المعاجم . وأنت تكره هذه الشروح التى تختلط فيها الروايات ، ويكثر فيها الاستطراد ، وتنبث فيها مسائل النحو ، وأنا أحب هذه الشروح لنفس هذه العلة .

وأنا أعلم أن الناس جميعاً لا ينبغي أن يؤخذوا بما أخذ به نفسى ، وأن الناس جميعاً لا ينبغي أن يكلفوا قراءة شرح ابن الأنبارى للمفصليات . وأعلم أيضاً أن العلم بهذه الأشياء يجب أن يكون مقصوداً على عدد لا بأس به من العلماء . ولكنى أعلم مع هذا أن هؤلاء العلماء لا ينبغي أن يؤثروا أنفسهم بالعلم ، وأن يحتكروه من دون الناس ، وإنما يجب عليهم أن يتعبوا لتسريح أنت وأمثالك ، وأن يشقوا لتسعد أنت وأمثالك ، وأن يستخرجوا لكم من هذه الحدايق القديمة المهمة ، التى طال عليها الزمن ، وبعد بها العهد ، زهرات لا تستطيعون أنتم أن تخرجوها ؛ فمن يدرى لعل هذه الزهرات أن تعجبكم ، ولعلها أن تغريكم بمصادرهما ، ولعلها أن تثير فى نفوسكم شيئاً من النشاط والغيرة ، وتدفعكم إلى أن تخاطروا بالسعى بين هذه الأشجار الملتفة ، والأغصان الملتوية ، لتستخرجوا مثل ما يخرجكم لكم العلماء من الزهر والثمر .

وأنا أبيع لك كل شيء إلا أن تزعم أن حديقتنا المهمة قد أماتها الإهمال ، وأذواها طول الزمن ، فلم يبق لها حظ من حياة . وأنا أبيع لك كل شيء إلا أن تزعم أن أدبنا القديم قد مات لأنه قديم ، فأنت إن زعمت ذلك ، تزعمه عن جهل ، لأنك لم تسع فى حديقتنا ، وإنما صدك عنها مظهرها المهمل

المضطرب ، الذى اشتدّ فيه الاختلاط ، فإن كنت فى شكّ من ذلك فالأمر بينك وبينى يسير ، فتعال نقض معاً ساعة أو بعض ساعة متزهين فى طرف من أطراف هذه الحديقة المهملّة : ولك علىّ ألاّ أمعن بك فيها إمعاناً ، وأن أهوّن عليك أمر هذه التزهة ما استطعت تهوينه ، فإن رجعت منها أسفاً فأنا المخطئ ، وأنت المصيب .

قال صاحبي : فإنى قد قبلت ، وإن كنت أعلم حقّ العلم أنك ستكاف نفسك وتكافئى معك . شقة لا طائل فيها ولا غناء . ولكنى أريد أن أقيم عليك الحجة ، وأكرهك على أن تعترف بالحقّ . وأضطرك إلى أن تعلن أن شعركم القديم قد بلى فلم يصبح لنا فيه أرب . قلت : لا تعجل ، ولكن فى أى طرف من أطراف الحديقة تريد أن تقضى ساعة من نهار ؟ قال : تخيّرأت فما ينبغي لى أنا أن أختار . قلت : فإنى أختار أشدّ أطراف الحديقة اضطراباً وأكثرها اختلاطاً : وأبعدها عهداً بالمحدثين ، وأريد أن تقضى ساعة أو بعض ساعة مع شاعر من هؤلاء الشعراء الذين يسمونهم الجاهليين ، ننظر فى قصيدة من هذه القصائد التى يسمونها المعلقات .

ثم تم الاتفاق بيننا على أن يكون يوم الأربعاء من كل أسبوع موعداً لهذه التزهة فى صحراء الأدب الجاهلى ، التى يراها الناس صحراء ، وأراها أنا حديقة من أجمل الحدائق وأروعها ، وسرى كيف يكون حكم صاحبي . وكيف يكون حكم القراء حين يقرءون ما يكون بينه وبينى من حوار أثناء هذه التزهة القصيرة ؟

ساعة مع شاعر جاهلي (١)

قلت لصاحبي - وقد طال الحوار بينه وبينى في نفع هذه الساعة التي أردت أن يقضيها مع شاعر من الشعراء الجاهليين هو لبيد - : وما يضرك أن تتكلف بعض الجهد والعناء ساعة من نهار ، لتسمع عن هذا الشاعر الذي كان القدماء يعجبون به إلى غير حدّ ، ويكبرون شعره في غير تحفظ ، يجتمعون إليه ليستمعوا له ، ويسعون إليه ليسألوه ، ويتناقلون شعره معجبين برصانة لفظه . ومثانة أسلوبه . واعتدال وزنه ، واستقامة قوافيه . وروعة معانيه ، في دقة لا تشبهها دقة ، ووضوح مع ذلك لا يشبهه وضوح . قال : فإني لن أفهم عنه إذا استمعت له ، ولن أذوقه إن فهمت عنه ، ولن أجد في ذوقه من اللذة والمتاع ما أجده حين أقرأ شعر المحدثين ، وأستخلص ما فيه من معان تلامّ طبيعي ومزاجي ، قد أدبت في لفظ يلامّ ذوق وحسى . ولقد حاولت منذ حين أن أقرأ لبيدًا هذا فما كدت أبلغ الأبيات العشرة الأولى من قصيدته المطولة ، حتى ضمقت بها ، وانصرفت عنها ، لا بغضاً ولا قِلَياً ، ولكن عجزاً وبأساً . قلت : فإني سأكون ترجماناً بينك وبينه ، ولئن فاتك أن تذوق ألفاظه الضخمة الفخمة ، التي قد تبلغ من الضخامة والفخامة إلى حيث تضيق بها أفواهنا المترفة الصغار ، وآذاننا التي لم تتعود قصف الرعد ولا وقع الجلاميد ، فمن يدري لعلك تذوق هذه المعاني الرائعة البارعة على بداوتها . ولعلك توافقني على أن الشعر ليس كله محدثاً ، وإنما هناك شعر قديم ، وعلى أن الشعر القديم نفسه ليس كله ميتاً ، وإنما هناك شعر قديم ما زال يتفرق فيه ماء الحياة . وإني لأعلم أن الأبيات الأولى من قصيدة لبيد خشنّة الملمس ، غليظة اللفظ ، بعيدة المعنى عن مألوفنا ، ولكن مع ذلك أجد فيها شعراً قوياً غنياً ، خصباً ممتعاً ، خليقاً بالإعجاب والإكبار خليقاً أن يثير في نفوسنا عاطفة قلما تثيرها فيها خطوط حياتنا المتحضرة ، التي تشغلنا بالعاجل من الأمر ، والتي تحول بيننا وبين الأناة والتفكير ، والتي تمنعنا من

(١) نشرت بمجريدة الجهاد بتاريخ ٦ فبراير سنة ١٩٣٥ .

أن نعود إلى نفوسنا، ونعكف عليها، ونستخرج منها ، أو نتبين فيها عواطف الشوق والحبّ والحنان والحنين أيضاً .

وما رأيك في هذا الرجل الذي أراد أن يتغنى ما يملأ حياته البدوية بالنشاط ، فبدأ كما تعود أمثاله أن يبدعوا بشيء من النسيب ، ولكنه نسيب شاحب ، فيه حزن يشتدّ حتى يؤثر في النفس ، ويكاد يبلغ بها الجزع واليأس ؛ لولا أن الشاعر قوى النفس ، شديد الأيد ، عظيم الحظ من الإرادة ، جلد صبور ، فهو لا يستسلم للعاطفة ، ولا يخضع لسلطانها ، وإنما يأخذ منها بمقدار ، إن صح هذا التعبير ، يحزن ولكن على ألا يفسه الحزن ، ويفرح ولكن على ألا يبطره الفرح . يحزن ويفرح بمقدار ما ينبغي له من هذا الحزن الذي يصلح النفس ، وهذا الفرح الذي يعتدل له المزاج . على أن تأثره بهذه العواطف ليس مقصوراً عليه، ولا على معاصريه الذين كانوا يفهمون عنه ويفهم عنهم ، بل هو يتجاوزه ويتجاوزهم إلينا نحن ، وإن بعد بينه وبيننا العهد ، وطال بينه وبيننا الزمان .

وهو يسلك إلى تصوير عواطفه هذه نفس الطريق التي يسلكها الشعراء المحدثون : طريق التصوير القوي المؤثر ، الذي يثير في نفسك الإعجاب لأنه يؤثر في عقلك وحسك وشعورك معاً . وأنا أشفق عليك ، أو أشفق منك ، فلا أرى لك الأبيات الأولى من هذه القصيدة بلفظها ، مخافة أن تنفر منها ، وإنما أترجمها لك ترجمة . وأى بأس من أن يترجم الشعر العربي القديم إلى اللغة العربية الحديثة ؟ فإن هذه القرون الطوال ، التي مضت بين القدماء وبيننا ، لم تمض عبثاً ، وإنما أنشأت بينهم وبيننا فروقاً عظيمة ، جعلت من العسير علينا أن نفهمهم إذا تحدثوا ، كما نفهم أنفسنا حين نتحدث بعضنا إلى بعض . وإذا كان الفرنسيون يحتاجون إلى أن يترجموا بعض آثارهم في القرون الوسطى ، وفي أول العصر الحديث ، إلى لغتهم التي يألّفونها الآن ، فلم لا نحتاج نحن إلى أن نترجم أو نقرب شعر القدماء من الجاهليين أو من الإسلاميين إلى هذه اللغة اليسيرة ، التي نصطفها فيما يكون بيننا من الأحاديث ؟ لا بأس عليك إذن ولا على من أن ندع لفظ « لييد » الآن ونكتفي بمعانيه ، لئلا نرى لها حظاً من الشعر ومن جماله ، أم هي بريئة من الشعر والجمال معاً ؟ أما أنا فيعجبني

جداً تصويره فذه الدير . وقد خلت من أهلها . وبعد عهدها بهم ، وطال عليها الزمن . واختلفت عليها الخطوب وأحداث الجو ، فأصبحت وكأنها لم يسكنها الناس . لولا هذه الآثار الضئيلة التي يصورها الشاعر ويتحدث عنها . ولولا هذه الذكري التي تملأ نفس الشاعر حباً وشوقاً وحناناً . ولولا هذه الأسماء التي حفظها الشاعر . فهو يجري بها لسانه استشارة لعواطف الحب والحنان .

خلت هذه الدير من أهلها . كما خلت من آثارهم ومتاعهم ، ولم يبق فيها إلا هذه الرسوم الضئيلة النحيلة التي بقيت : لأن حملها ليس ممكناً ولا ميسوراً . والتي جدّ الزمن في إزالتها . فأخذت تنمحي قليلاً قليلاً . حتى كأنها انتقش على الحجر قد طال به العهد . فأخذ ينمحي حتى كاد يزول .

خلت هذه الدير من أهلها . ومضت عابها أعوام طوال كاملة . لم يزرها إنسان . ولم يستقر بها مقيم . وهي مع ذلك معرضة لأحداث الجو . تختلف عليها الريح . وتلمّ بها العواصف والأنواء . ويصيبها المطر الخفيف . ويصيبها المضر الغزير . ويقصف في جوارها الرعد إذا كان العشي . ثم تنجلي عنها هذه الأحداث الجوية . وقد ألفت إليها الخصب . وأشاعت فيها الحياة . وأثارت فيها النبات . وجعلتها مرتعاً للطي والبقر . ومأمناً للوحش . تعيش فيها راضية لاهية مطمئنة فارغة لنفسها ولأبنائها . قد بعد عهدها بالناس فليست تخاف الناس . وإنما هي آتسة حيث لم يكن لها أن تأنس منذ أعوام . وقد وقف الشاعر على هذه الدير التي تغيرت وتبدلت شئونها . وقفه السائل المتذكر ووقفه الحزين الأسف . وهو يودّ لو تخبره بأخبار الذين كانوا فيها ، ولكنه لا يكاد يعم في هذا التفكير . حتى يردّه حزمه إلى الرويّة والرشد . فينكر على نفسه ما هو فيه . من سؤال هذه الأحجار والصخور الصمّ الخوالد ، التي فقدت كلّ حركة وكلّ نشاط . فكيف السبيل لها إلى أن تتكلم ! وكيف السبيل لها إلى أن تجيب ! وكيف السبيل لها إلى أن تبين !

وكلّ هذه المعاني مألوفة عند الشعراء الأقدمين : ولكن انظر إلى هذه الصور الجميلة . التي يؤدّي الشاعر فيها هذه المعاني . وحدثنى لو أن شاعراً محدثاً أراد أن يؤدّي مثل هذه المعاني . أترأه يستطيع أن يؤدّيها في صور خير من هذه الصور ؟ آثار الحيام في الدير ، وآثار ما كانت تحتويه الحيام

من المتاع والأثاث ، قد محبت ولم يبق منها إلا القليل ، كأنه بقايا النقش ، وقد محاه أو كاد يمحوه طول العهد ، أو كأنه رجع الوشم وقد أخذت الواشمة تعيده وتجده على اليد ؛ وهذه السماء الملحة على هذه الديار بالمطر الهادئ والمطر القوى ، والرعد حيناً والمطر في غير رعد حيناً آخر ؛ وهذا النبات الذى يثور ، فإذا الأرض تنشق عنه ، وإذا هو يمشى في ثورته حتى يرتفع ! وهذه الحياة التى تنبت في الأرض فإذا هى نبات كلها ، وإذا الوحش يجد فيها مأمناً ومرتماً ، وفراغاً للحنان والعناية بالأطفال ؛ وهذا الشاعر الذى يلم بهذه الأرض ، وقد اختلفت عليها كل هذه الأحداث ، وألمت بها كل هذه الخطوب ، وأصابها كل هذا التغيير ، فيذكر عهدها القديم وأهلها القدماء ، وما كان بينه وبينهم من صلوات ، وما كان يشاركون فيها من لذة ، وما كان يقاسمهم فيها من ألم ؛ وإذا هو في أول أمره سائل ماح في السؤال ، ثم إذا هو يثوب إلى رشده قليلاً ، وإذا هو يستبش من الجواب شيئاً فشيئاً ، وإذا هو يطمئن إلى هذا اليأس ، وإذا هو يقنع بالذكرى ، وإذا هو يستحضرها بالذكرى ، ويقصها على نفسه كما لو قصها عليه إنسان آخر ، وإذا هو يتحدث عن يوم الرحيل ، وعن هؤلاء النساء الحسان اللاتي ارتحلن ذات يوم من هذه الديار إلى أرض مجهولة ، لا يستطيع هو أن يحققها ؛ فقد تكون عن شماله نحو الحجاز ، في هذا المكان أو ذاك ، وقد تكون عن يمينه نحو اليمن ، في هذا المكان أو ذاك ؛ وهو على كل حال عاجز كل العجز عن أن يسعى إلى هذه الأماكن أو تلك ، وأن يلم بأهل هذه الديار هنا أو هناك ، فحسبه أن يذكر ويكرر الذكرى ، وحسبه أن يستحضر ويلح في الاستحضر ، وهو يرى النساء وقد دخلن الهوادج كأنهن الأطباء حين يؤوين إلى الكنس التى يتخذنها من أغصان الشجر ، وهو يرى هذه الهوادج ويتبينها ويصورها ، كأنه يمسه بيده ، فهو يذكر لنا قوائمها ، وهو يذكر لنا ما نشر عليها من الثياب ، وهو يذكر لنا أستارها الرقيقة ؛ ثم هو يرى الإبل وقد نهضت ثم دفعت أمامها في الطريق ، وهو يتبع هذه الإبل ببصره وهى تنأى عنه شيئاً فشيئاً ، وتغيب عن عينه قليلاً قليلاً ، والضحى يرتفع ، والسراب ينتشر ، وصور هذه الإبل ، وهى تخرج من سراب لتدخل في سراب ما تزال تتمثل

لعينيه . ثم تغيب الإبل حتى تقطع أو تكاد تقطع الأسباب بينه وبينها ، وما زال الضحى يرتفع ؛ وما زال الآل ينتشر ، وإذا الشاعر ينظر فلا يكاد يرى إلا تلالاً صغاراً ضئيلة ؛ قد اتخذت من هذا السراب أودية .

وليست عين الشاعر وحدها هي التي ترى وتتبع الإبل ، وليست وحدها هي التي تذكر ما رأت وما تبعت ، ولكن أذن الشاعر أيضاً قد سمعت ، وهي تذكر ما سمعت ، والشاعر يصور لنا هذا الذي سمعته وذكرته تصويراً يمر به المعلمون والمتعلمون غير حافلين به ، ولا ملتفتين إليه ، وفيه مع ذلك الشعر كل الشعر : فهذه الإبل قد نهضت وأخذت تسعى بأحمالها ، وعليها الخيام التي كانت تظل أهل الديار ، وهذه الإبل تسعى بهذه الخيام وتضطرب ، وهذه الخيام تصرّ لهذا السعي والاضطراب ، ومن يدري لعل في صرير هذه الخيام اشتكاء لهذا الرحيل الذي لم تكن تتظنه ولا ترجوه . ومن يدري ! لعلنا لا نفهم عن الأشياء كما ينبغي ، حين نرى صورها ، أو نسمع أصواتها ، وإنما الشعراء وحدهم هم القادرون على هذا الفهم ، وهم القادرون على أن يترجموا عما تريد الأشياء .

على أن شاعرنا - كما قلت لك آنفاً - ليس ضعيفاً ، ولا واهي العزم ، ولا مسرفاً في الاسترسال مع العاطفة ؛ وإنما هو صاحب حزم وإرادة وتصميم ، وقد غابت الإبل عن عينيه ، وقامت من دونها التلال والجبال ، وقد انقطع عن أذنيه صرير الخيام ، الذي قد يكون فيه الشكوى ، وقد يكون فيه الوداع . وقد مضت الأيام ، ومضت الشهور ، ومضت الأعوام ، وليس من سبيل إلى أن يرد الماضي ، ولا أن يبلغ أعباءه ، لأنه لا يعرف أين يكونون . فما استرساله في اليأس ، وما استسلامه للجزع ، وإن في الحياة لما يشغل عن اليأس ، وإن فيها لما يصرف عن الجزع ؛ وإن صاحبته هذه التي هجرته وانصرفت عنه ؛ وقطعت ما بينها وبينه من الوسائل والأسباب ، لخليفة أن تلقى منه صدأً بصد ، وإعراضاً بإعراض ؛ فما ينبغي للرجل الحازم العازم أن يحتمل الهجر والصد ، دون أن يجزى الهاجر الصاد بمثل هجره وصدّه . وإنما الرجل الذي يحسن الوصل حين يتاح له الوصل ، هو الرجل الذي يقدر على الهجر حين لا يكون له من الهجر بد ؛ وقد مضت الإبل بصاحبته إلى حيث لا يدري ،

أفتظن أن الإبل لا تستطيع أن تمضى به هو إلى حيث يدري ؟ كلا . إن له لناقة قادرة على أن تمضى به لدى حيث يريد ، ولدى حيث لا يدركه الطالبون ، ولدى حيث تجهل صاحبه من أمره مثل ما يجهل ، أو أكثر مما يجهل من أمرها . وأنت يا سيدى مخطئ أشد الخطأ حين تظهر ما تظهر من الضجر ، وحين تأخذ في التبرم بمحديث الناقة الذى يكثُر منه الشعراء القدماء ؛ فليس شاعرى حين يصف ناقته مثقلا ولا مملا ، وإن كان مطيلا مكثرا ، فناقته في حقيقة الأمر لا تعنيه ، إلا لأنها تستطيع أن تسليه عن هجر الهاجر ، وأن تمضى به إلى حيث لا يطلب ، فقدرتها على الإسراع واحتمال ما يفرضه السفر من الجهد والمشقة والمزال ، هو أهم ما يعنيه من هذه الناقة ، ومن يدري لعل الشاعر كان يتنبأ بأن القرون ستمضى وتمضى في إثرها القرون ، ثم يخلف خاف من الناس ، يضيّقون بالمألوف من وصف الإبل ، ويكروهون الحديث المطرد في غير تنوع ولا اختلاف ، ويتبرمون كما تبرم أنت بالقديم ، فأراد ألا تضيق به ، ولا تزور عن وصفه لناقته ؛ ومن يدري لعله فكر فيك وفي أمثالك الذين فتنهم الشعر الحديث ، وخلبهم ما فيه من هذه الصور المختلفة الحية التي تمر بأذانهم ، فإذا هم يرونها بعينهم ، وإذا هي تضطرب أمامهم كما يضطرب الأحياء ، فشاعرى يا سيدى قادر ماهر ، وهو ماكر أيضاً ، يخيل إلى أنه إنما اتخذ ناقته تعلقة ليتغنى ببعض المناظر الجميلة التي كانت تشيع في الصحراء ، وليعرضها عليك وعلى أمثالك عرضاً سريعاً هادئاً معاً ، كأنك تراها في دفتر من دفاتر الصور إن شئت ، وكأنك تراها على لوحة من لوحات السينما إن أحببت . وقل إن أردت إلى مفتون بهذا الشاعر القديم ، ولكن انظر معي إلى هذه الصور المختلفة التي يعرضها عليك في لفظ رائع ، لا تستطيع أن تحكم على روحته ، لأنى لا أرويه لك ، ولأنك تؤثر الكسل والراحة ، على أن تنظر فيه وتندوق جماله .

انظر معي إلى هذه الصور ، فقد يخيل إلى أنها ستفتنك كما فتنتى ، فشاعرى يا سيدى صاحب حركة ونشاط ، هو لا يثبت الشيء أمامه ليصفه ؛ هو لا يصف الشيء ساكناً مستقراً ، وإنما يدفعه أمامه ، ثم يندفع في أثره ، ثم يصفه لك مسرعاً في الحركة ، فيضطرك أنت إلى أن تنشط ، وإلى أن تتبعه

في طريقه التي مهما تبعد ، ومهما تطل ، فهي واضحة ، لا يحشى فيها الضلال .
 ناقة شاعري يا سيدي قد تعودت الأسفار ، واحتملت من أسفارها غير قليل ،
 فهي متعبة مكدودة ، قد براها السفر ، وألحّ عليها الهزال ، ولكن ذلك لم يقعد
 بها عن السرعة ، وإنما أعانها عليها ، فهي تمضي وكأنها السحاب قد أراق
 ماءه ، فحف و استسلم لأيسر الريح . على أن هذا التشبيه لا يكتفى شاعري ،
 وإنما هو يطمع في تشبيهات أخرى أبلغ منه ، وأكثر روعة وجمالاً ، وفيها من
 الحياة ، ومن الحياة القرية ، ما ليس في السحاب . فهل رأيت إلى الأتبان
 الوحشية ، وقد تنافست فيها الفحول ، وازدحمت عليها ، وكثر فيما بينها الخصام .
 ثم استطاع واحد منها أن يستأثر بها من دون أصحابه ، وأن يصطفها لنفسه ، ثم
 استيقن أن له عليها حقاً ، ثم لعب في نفسه الشك ، وثار في الرب ،
 وملكت عليه الغيرة أمره ، ففضل حياة العزلة ، وزاده حرصاً على العزلة وتأثراً
 بالغيرة ، ما يرى من تمنع صاحبتة وتجنّبها ، فهو يدفعها أمامه ، وهي تمضي
 مسرعة تود لو تفوته ، ولكنه يعدو في إثرها ، فلا يزيدا هذا العدو إلا إلحاحا
 في الإسراع ، وما تزال مسرعة ، وما يزال هو غادياً في إثرها ، حتى تمّ لهما
 العزلة في مكان مرتفع ، قد كثر فيه الثبت ، وغطاه العشب ، فهما يقيمان فيه
 فصل الشتاء ، بعيدين عن الماء ؛ وما حاجتهما إلى الماء ، وفي هذا النبات الرطب
 الذي يريانه ما يكفل لهما الري ؛ ولكن الأيام تمضي ، والشتاء ينقضي ،
 ويقبل الحر ، ويجف النبات ، ويشتد الظمأ ، فهما في حاجة إلى الماء ؛
 وقد ترددا . وطال ترددهما ، ثم تمت عزمتهما على ورود الماء ، فقدمها أمامه ،
 لتسعى بين يديه ، غير قادرة على أن تتخلف عنه أو تفات منه ؛ وهي لاتسعى
 وإنما تعدو عدواً سريعاً ، تريد أن تفوته كما كانت تفعل من قبل ، وهو يريد
 أن يدركها كما كان يفعل من قبل ، وهي لا تحفل بهذا الشوك الذي يصيب
 دوابها ؛ وهي تثير غباراً منتشرأ ، وهو يثير معها هذا الغبار ؛ والغبار ينتشر
 بينهما رقيقاً سهلاً ، كأنه ثوب يتنازعه ، أو كأنه دخان نار مضطربة
 قد أوقدت باليابس الذي يضرها تضريراً ، وبالرطب الذي يثير لها الدخان .
 وما يزالان يعدوان في طلب الماء حتى يبلغاه ؛ وباله من ماء جميل هذا الذي
 يتسبان إليه ! عين غزيرة تجرى في غابة كثيفة من القصب ، قد عبثت بها

الريح ، فبعضها قائم يقاوم الريح ، وبعضها قد عجز ؛ المقاومة ، فانكفاً على الماء كأنه صريع .

أرأيت إلى هذه الأتان في هذه القصة الحية السريعة التي تتتابع فيها الصور ، وتختلف فيها المناظر ، وتكثر فيها الأحداث ، وتثار فيها عواصف الغيرة والحرص والمنافسة ، هذه الأتان يضربها الشاعر مثلاً لناقته حين يدفع بها في الأسفار .

على أن تشبيه الناقة بالسحاب الخفيف ، وبالأتان ذات القصة الرائعة ، التي تعرض عليك من مناظر الطبيعة في الصحراء ما تعرض ، لا يكفي صاحبي ، كأنه أحس أنه لا يكفيك ، وكأنه أحس أنك في حاجة إلى قصة أخرى ، وإلى مناظر أخرى ؛ وكأنه أحس أن قصة الأتان قد أعجبتك ، فهو يريد أن يزيد إعجابك ، ومن ذا الذي ينكر على الشاعر وعلى صاحب الفن ، أن يحب الإعجاب به ، وأن يستريده ، وأن يبذل ما يملك من الجهد ليهرك ويسحرك . وهل كان الشعر والفن إلا ليهرك ويسحرك ؟

فهذا تشبيه آخر يثير قصة أخرى وأى قصة ! قصة تملؤها الحياة ، وتملؤها العاطفة ، واملؤها الصراع : وهي قصة هذه البقرة الوحشية البائسة التي عدت على طفلها العوادي فأكله السبع ، فهي تلتمسه فلا تجده ، وهي تلح في التماسه هائمة في الأرض ما قدرت على الهيام ، صائحة منادية ما وجدت قدرة على الصياح والنداء ؛ تفعل ذلك ما وسعها النهار ، ولكن الليل يدنو ، وتدنو معه الظلمة ، وتدنو معها العاصفة بما تدفع بين يديها من مطر متصل غزير ، وبما تنشر حولها من برد مهلك ؛ وهذه الأم الحزينة البائسة التي كانت خليقة أن تستئس من لقاء ابنها ، لولا أن قابو الأمهات لا تعرف اليأس ، هذه الأم البائسة قد أجهدتها الطلب والصياح ، وشق عليها البرد والمطر ، وأخافتها ظلمة الليل ، فهي تلتمس لنفسها مأمناً ومأوى في أصول الشجر المتلف ، حتى إذا انجلى الليل وأسفر الصبح ، اندفعت هائمة تصيح وتدعو ابنها هنا وهناك ، وابنها لا يجيب ، فقد أكله السبع ، ولم يبق منه إلا أشلاء قد طرحت على رمل الصحراء ، وإنها لكذلك مرتاعة ملتاعة في هيام وصياح ، وإذا هي تحس من ظهر الغيب نياة لا تتبين أصلها ، وصوتاً خفيفاً لا تعرف مصدره .

وهل يصدر هذا الصوت إلا عن الناس ؟ ! وهل للوحش أمن إذا أقبل الناس ؟
 وإذا غريزة الدفاع عن النفس ، والحرص على الحياة ، تغلب غريزة الأمومة
 والحزن على الطفل الفقيد ، وإذا هذه الأم الحزينة بقرة يطلبها القناص ،
 وهي في حاجة إلى أن تنجو ، فهي تعدو أمامها لا تلوى على شيء ، قد
 ملأها الحوف ، وملكها الرعب ، فهي تنتظر الخطر من أمام ، وهي تنتظر
 الخطر من وراء ، وهي تسلم نفسها لقوائمها النحاف كأنهن القداح . حتى
 أياست الرماة ، وفاتت النبل ، ولكن عجز الرماة وقصور النبل لم يؤمنا هذه
 البائسة ، فكلاب الصيد حاضرة ، وما أسرع ما أرسلها القناص ، فأخذت
 تعدو ، وأخذت البقرة تعدو أيضاً ؛ فلما استيأست من العدو ، وعرفت ألا نجاة
 لها إلا باستقبال الخطب ، عطفت على هذه الكلاب ، فكانت بينها وبينهن
 حرب ، أسفرت عن قتيلين .

فهذه البقرة المرتاعة المحزونة الهائمة في طلب ابنها ، الخائفة إذا جنَّها الليل ،
 الهاربة بين يدي القناص ، العاطفة على الكلاب للحرب والصراع ، هي التي
 يشبه الشاعر بها ناقته ، بعد أن شبهها بالسحاب ، وبعد أن شبهها بالأتان .
 وأظن أن الشاعر قد أرضى حاجتك إلى الصور ، وإلى القصص الساذج
 القوي ، وأرضى حاجة نفسه في تصوير ناقته ووصفها بما أحب لها من السرعة
 والقدرة على احتمال الجهد . فليس عليه بأس بعد هذا من أن يحدثنا عن نفسه ،
 ومن أن يحدثنا عن نفسه محتملاً للخطوب ، محتملاً لهجر صاحبه ، هاجراً
 لها إن هجرته ، معرضاً عنها إن أعرضت عنه ، متحدثاً إليها بما يعرف لنفسه ،
 وبما يعرف الناس له من خلال الشجاعة ، والبأس ، والكرم ، والجلود ، حتى
 إذا أرضى الشاعر نفسه ، تحدث عن قومه ، فوصفهم بما يحبون أن يوصفوا
 به ، وأنهى من قصيدته وقد نسب في أولها ، ووصف في أثنائها ، وفخر بنفسه
 وبقومه في آخرها ، وكان شاعراً بارعاً ، ومصوراً صادقاً لحياة نفسه ، ولحياة
 قومه ، ولحياة جيله من العرب في عصره في القصيدة كلها .

وأظنك تلاحظ يا سيدي أني قد أجملت وأسرفت في الإجمال ، وأنى قد
 تجنبت التفصيل ، وأبيت أن أقف بك عند كل صورة وعند كل تشبيه ،
 وأشفتت عليك من الوقوف عند الألفاظ وما فيها من جمال يأتي من هذه الجزالة

التي إن نبت عن أذنك ، فإنها لا تنبو عن آذان قوم آخرين يالفونها ويكلفون بها ، ولعلها لا تنبو عنك إذا أنت رُضت نفسك على قراءتها ومراجعتها .

وقد أشفقت عليك أيضاً مما تثيره هذه الألفاظ وهذه المعاني ، من مسائل في النحو بلذت تفسيرها ، ويروق الوقوف عندها ، لو أنك من الذين يشاركون في هذا العلم ، الذي يكره الناس المشاركة فيه الآن .

أظنك قد لاحظت هذا كله ، وأظنك توافقني على أن مثل هذا الشعر الذي يعرض مثل هذه الصور ، ويثير مثل هذا الخيال ، ويحيي في النفس مثل هذه العواطف ، لا ينبغي له أن يهمل ، ولا أن يصرف عنه الشباب صرفاً ؛ ولست أزعم أنني أريد أن يفرغ له الشباب ويتخصصوا فيه — كما يقولون — ولكنني أريد أن يعرفه الشباب ، وأن يحسنوا العلم بأغراضه ومعانيه ، وأنا واثق بأنه لن يكون أقل إلهاماً لهم ، وإحياء لنفوسهم من الأدب الحديث .

قال صاحبي : في شيء من الشك : قد يكون هذا حقاً بالقياس إلى هذه القصيدة ، ولكن كم ترك القدماء من قصيدة تشبهها ؟
قلت : تركوا كثيراً يا سيدي أكثر جداً مما تظن .

ساعة أخرى مع لييد^(١)

قال صاحبي وهو بيتسم : لقد أخطأت حين اتخذتني مثلاً للمثقفين الذين يضيقون بالشعر القديم ، أو للكثرة من هؤلاء المثقفين . فقد حمدت لك حين تحدثت إليّ عن قصيدة لييد ، أنك وقفت بي عند المعاني التي أراد إليها هذا الشاعر ، ولم تجشمني ألفاظه الضخمة ، وقوافيه الغلاظ ، ولم تكلفني تعمق هذا المعاني ولا الدخول في تفصيلها . ولكن غيري من خصوم هذا الشعر ، فضلاً عن أصدقائه وأنصاره ، لم يحمدوا لك هذا القصد ، ولم يرضوا منك بهذا الإجمال . وقد حدثني غير واحد من خصوم الشعر القديم وأنصاره ، أنهم يحبون حديثك الأخير ، لولا أنه خلا من الشعر ، تروى منه البيت أو البيتين ، لتدلّ على ما تزعم ، ولتصدق ما تنبئ به ، ولترين به حديثك من حين إلى حين . وهم لا يقبلون أن تتحدث عن الشعر والشعراء حديثاً طويلاً ، ثم لا تروى لهم في هذا الحديث من الشعر شيئاً . ولقد دافعت عنك ما وسعني الدفاع ، وزعمت هؤلاء الذين كانوا يعتبرون عليك في إعراضك عن رواية الشعر ، أنك إنما فعلت ذلك رفقاً بهم ، وإشفاقاً عليهم ، فكان كل واحد منهم يرد علىّ بأنه ليس في حاجة إلى هذا الرفق ، وليس في حاجة إلى هذا الإشفاق ، وبأنك تستطيع أن ترفق بي أنا ، وأن تشفق علىّ أنا ، فيما يكون بينك وبينى من حديث ، فإذا تحدثت إلى قرأتك في (الجهاد) فلا تأخذهم كلهم بذنبي ، ولا تعبهم كلهم بضعفي ، ولا تتخذني لهم مثلاً ، فهم عند أنفسهم ، وهم يحبون أن يكونوا عندك خيراً مني ، وأصبر على الشعر القديم وإن كرهوه ، وإن عرفوا أن آياته أشبه شيء بالصخور ؛ وهم يرون أن الخير لهم في أن يستقبلوا هذا الشعر ، ويستمعوا له ، ويقضوا فيه بأنفسهم ، وأن في موقفك هذا منهم ازدراء لهم ، وشكاً فيهم ، وتعالياً عليهم ، فأرو لهم إذن من الشعر ما هم في حاجة إليه ، واعفني أنا من هذه الرواية حين يكون الحديث

(١) نشرت بحريّة الجهاد بتاريخ ١٣ فبراير سنة ١٩٣٥ .

خاصاً بينك وبينى . قلت : فإنك تعلم يا سيدى أنى لا أتياً للحديث مرتين ، وأنى إذا تحدثت إليك بشيء فهو الذى أذيعه فى الناس ، وما رغبت فى إذاعة أحاديثنا لولا أنك قد ألححت علىّ فيها ؛ فأنت بين اثنتين : إما أن تقبل ما يريدك الناس فتصبر لرواية الشعر حين نتحدث ، كما أنهم سيصبرون لما حين يقرعون ، وإما أن تعرض عما رغبت فيه إلى من إذاعة هذا الحديث . قال : فإنك ظالم وإنهم ظالمون ، ولقد صبرنا للظلم منذ أعوام ، فما يضرنا أن نصبر لهذا الظلم الأدنى ، الذى إن كلفنا بعض الجهد فلن يؤذينا فى أنفسنا ، ولا فى أموالنا ، ولا فى مرافقتنا . فهات من شعرك القديم ما ترى أن فى روايته إقامة لحجتك ، وتصديقاً لمذهبك ، فإنى ما زلت فى شكّ مما تزعم : وما زلت بعيداً عن الإيمان بأن فى شعرك القديم هذا لنا نفعاً وغناء . قلت : فسجل قبل كلّ شيء أنى قد ظهرت عليك ، وظفرت بك ، فهؤلاء الناس الذين يلحون عليك ، ويلحون علىّ فى رواية الشعر القديم ، لا يزيدون على أن يعلنوا أنهم ليسوا من بغض الشعر القديم ، والإعراض عنه ، والزهد فيه ، بحيث وضعت نفسك ، وبحيث تظنّ ، ولكن فى نفوسهم حيناً إليه ، وكلفاً به ، فهم حين يطلبونه إنما يستجيبون لهذا الحنين ، ويصورون هذا الشوق ، ويعلمون فى صراحة أن مصر ما زالت بخير ، وأن حبّ الحديد لم يطغ على نفوسهم وقلوبهم . وأن كثيراً منهم يعرفون كيف يحبون الحديد دون أن ينصرفوا عن القديم أو ينفروا منه نفوراً . قال : فلا تعجل ولا تسرع إلى تسجيل الفوز والانتصار ، ولكن أجب إلى ما يطلبه الناس إليك ، وارو لهم الشواهد من شعر ليبد وغير ليبد من الشعراء . فما أظنّ أنك ستقف عند ليبد ، وأنا زعيم بأن رواية هذا الشعر ستفضح هذا الخداع الذى أنت ماض فيه ، وستبين للناس أنك تختلس إعجابهم بالشعر القديم اختلاساً ، لأنك تزينه لهم فى لغتهم الحديثة ، فإذا ظهوروا عليه كما هو فسيمنحونه ما أمنحه من الإعراض والنفور .

على أنى قد أمهلتك حتى تعرض علىّ وعلى الناس من معانى صاحبك ما عرضت ، ولست أمارى فى أن هذه المعانى تصور شعراً رائعاً ، وخيالاً قوياً ، وقريحة خصبة ، ولكنك توافقنى فيما أظنّ على أن هذا ليس كلّ شيء ، وعلى أن الشعر لا يقوم بمجودة المعنى وروعته ، وقوة الخيال وخصبه ، ونفاذ

البصيرة ودقتها ؛ فإذا اجتمعت كل هذه الخصال لشاعرك ليبد ، فهناك خصال أخرى يجب أن تجتمع له ليكون شاعراً حقاً ، وليكون شعره رائعاً معجباً حقاً ، فلا بد من جمال اللفظ ومثاقفه ، ولا بد من حسن الأسلوب وورصاته ، ولا بد من هذه الموسيقى التي يحسن وقعها في السمع والنفس معاً ، والتي تلامح بين الألفاظ والمعاني فتؤثر أحسن التأثير في الحس والشعور . ونحن ننتظر أن تبين لنا اجتماع هذه الخصال لشعرائك القدماء ، حين تعرض علينا الآيات من شعرهم ، وحين تدلنا على ما في ألفاظها وأساليبها وأوزانها وقوافيها من الجمال ، على أن هناك شيئاً آخر أراك تتعمد إهماله والإعراض عنه ، لأنك تشفق فيما أظن من التعرض له ، والوقوف عنده ، وهو استقامة بناء القصيدة ؛ فأنت تعلم ما يقوله الناس من أن أقيح عيب يمكن أن تؤخذ به القصيدة العربية في الشعر القديم خاصة ، هو أنها ليست وحدة ملتزمة الأجزاء ، وإنما تأتيها الوحدة من القافية ومن الوزن ، فلولا أن « لبيدك » هذا قد اختار البحر الذي اختاره ، والقافية التي اختارها ، لما تشابهت أجزاء قصيدته ، ولما اتصل بعضها ببعض ، ولكانت آياتاً منثورة لا قران لها ؛ فحدثنا عن هذه الوحدة ما صنع الله بها في شعر القدماء ؟ وحدثنا كيف يستقيم للعقل الحديث أن يسمى قصيدةً هذا الكلام المفترق الذي لا يجمعه إلا نظام ظاهر من الوزن والقافية ؟ وكيف يستقيم للعقل الحديث أن يعرض هذا الكلام المفترق على الشباب ، ليتخلوه نموذجاً ومثلاً ، وليستحوه ويستلهموه ؟ ألسنت تشفق على ملكات الشباب أن تفسدها هذه النماذج والمثل ، وأن تعوقها عن أن تبلغ ما تريد لها من فهم القصيدة وإنشائها ، على أن لها وحدة داخلية جوهرية تتصل بالمعنى قبل أن تتصل باللفظ ، بالوزن والقافية ؟

قلت : هوّن عليك ، واصطنع شيئاً من القصد ، ولا تنس أني لا أكتب ما تقول لأردّ عليه شيئاً فشيئاً ، وإنما أسمع منك فاردّ عليك ، فافرق بذاكرتي بعض الرفق ، فإنك تحملها ما لا تطيق . قال : أجبني ما صنع الله بوحدة القصيدة عند شعرائك القدماء ؟ قلت : صنع الله بها خير ما يصنع بآثاره ، فأوجدتها وأتقنها ، وأتمها إتماماً لا شكّ فيه ، ولا غبار عليه ، وما سمعت من خصوم الشعر القديم حديثهم عن وحدة القصيدة عند المحدثين وتفككها عند

القدماء إلا ضحك وأغرقت في الضحك . والعجيب أن تنشأ الأساطير في العصر الحديث ، وأن تنمو ويعظم أمرها ، وتسيطر على العقول ؛ مع أن عهد الأساطير قد انقضى ، وأصبح العقل الحديث أذكى وأرقى وأدنى إلى الحذر والفتنة من أن يذعن لها أو ينخدع بها ، وتفكك القصيدة العربية ، واقتصار وحدتها على الوزن والقافية دون المعنى ، أسطورة يا سيدى من هذه الأساطير التي أنشأها الافتنان بالأدب الأوربي الحديث ، والقصور على تذوق الأدب العربي القديم ، والذين ينكرون الوحدة المعنوية للقصيدة العربية القديمة ، إنما يدفعون إلى هذا الإنكار لسببين :

الأول : أنهم لا يدرسون الشعر القديم كما ينبغي ، ولا يتعمقون أسرارهِ ومعانيهِ ، وإنما يدرسونهُ درس تقليد ، ويصدقون فيه ما يقال لهم من الكلام ، في غير تحقيق ولا استقصاء ، وهم يحفظون منه البيت أو الأبيات ، وقلّ منهم من يحفظ القصيدة كاملة ، ويدرسها كاملة ، فضلاً عن أن يحفظ القصائد الطوال ؛ أما علماءهم فيكتفون بالأغاني وما يشبه الأغاني من الكتب ولا يلتفتون إلى الدواوين . وأما عامتهم من أوساط المثقفين فيكتفون بكتب التاريخ الأدبي وما يشبهها من المذكرات التي تزداع في المدارس بين الطلاب ؛ وكلّ هذه الكتب لا تتكلف ولا تستطيع أن تروى قصائد الشعراء كاملة ، لأنها لم تنشأ لذلك ، وإنما تختار من هذه القصائد ما يلائم الغرض الذي وضعت له ، وقصدت إليه ، فخاصة المثقفين الحديثين وعامتهم يعرفون الشعر العربي متفرقاً لأنهم يحفظونه متفرقاً ، وهم من هذه الناحية يجهلون هذا الشعر ويقضون عليه حين يقضون قضاء الجهال .

والسبب الآخر الذى يدفع المثقفين الحديثين إلى إنكار هذه الوحدة المعنوية في القصيدة يأتي من أنهم يقبلون ما يقوله الرواة ، وما ينقلونه إليهم ، في غير تحفظ ولا احتياط ولا تحقيق ، وينسون أن كثيراً جداً من الشعر القديم لم ينقل إلى الأجيال مكتوباً ، وإنما نقلته الذاكرة ، فأضاعت منه ، وخلطت فيه ، ولم تحسن الرواية ، فكثرت الاضطراب في هذا الشعر ، ونخيل إلى الحديثين أن هذا الاضطراب طبعى في الشعر العربي القديم ، ولم يفتنوا أنه علة طارئة ، ومرض عارض ، لم يصب الشعر العربي وحده ، وإنما أصاب كلّ قديم نقل

إلى المحدثين أجيالا طويلا من طريق الرواية لا من طريق التدوين .
ولو أنك يا سيدى فطنت لهذين الأمرين ، وقاومت فتنة الشعر الأوربي
الحديث ، لما ذهب مذهب هؤلاء الذين يتعللون ويتكلفون ، ويقولون فى الشعر
القديم ما لا يعلمون .

ولست أريد أن أبعد فى التدليل على أن الشعر العربى القديم كغيره من
الشعر . قد استوفى حظه من هذه الوحدة المعنوية ، وجاءت القصيدة من قصائده
ملتزمة الأجزاء ، قد نسقت أحسن تنسيق وأجمله ، وأشدّه ملاءمة للموسيقى ،
التي تجمع بين جمال اللفظ والمعنى والوزن والقافية .

وإنما أقف معك عند قصيدة لبيد هذه التي كانت موضوع حديثنا فى
الأسبوع الماضى ، وأتحداك وأسألك أن تبين لى من أين يأتيها الاضطراب
والاختلاف ، وكيف لا تتم لها الوحدة إلا من الوزن والقافية ؟ إنكم تقولون
يا سيدى إن القصيدة العربية مضطربة التكوين ، بحيث نستطيع أن نقدم
منها وتؤخر ، ونضع أبياتها فيما نحب لها من المواضع ، دون أن يصيبها من ذلك
فساد أو اعتلال . فأمامك قصيدة لبيد هذه ، فأرى كيف تقدم فيها وتؤخر ؟
وكيف تضع فيها بيتاً مكان بيت دون أن تفسد معناها إفساداً ، وتشوّه جمالها
تشويهاً ؟ انظر إليها ، فسترى أنها بناء متقن محكم ، لا تغير منه شيئاً إلا أفسدت
البناء كله ونقضته نقضاً . ألسنت ترى إلى الشاعر وقد استقبل الشعر ، فبدأ
بما يبدأ به الشعراء ، فأنشأ لنفسه ولسامعيه وقارئيّه هذه البيئة الشعرية التي يخرج
فيها الإنسان عن أطوار الحياة الواقعة المادية ، ويرتفع إلى جو آخر فيه عواطف
الحنين والشوق والاستعداد للغناء أو لاستماع الغناء ، وهو إنما أنشأ هذه البيئة
بذكر الديار وما يتصل بها ، وما ذهب منها وما بقى ، وما اختلف عليها من
الأحداث ، وما عرض لها من الخطوب ، ومن تحمل عنها من السكان .

وأنت تستطيع أن تقرأ هذا القسم من أقسام القصيدة ، فسترى أنك
لاستطيع أن تقدم فيه ولا أن تؤخر ، وإنما أنت مضطر إلى أن تدعه كما وضعه
صاحبه :

عَفَّتِ الدِّبَارُ مَحَلُّهَا فَمَقَامُهَا بِمِنى تَابَدَ غَوْلُهَا فِرْجَامُهَا
فَمَدَّافِعُ الرِّيَانِ عُرَى رَسَمُهَا خَلَقًا كَمَا ضَمِنَ الوُحَى سِلَامُهَا

دَمْنٌ تَجْرَمَ بَعْدَ عَهْدِ أَنْبِسِهَا حَجَجٌ خَلَوْنَ حَلَالُهَا وَحَرَامُهَا
لا تجزع لهذه الإلتفاظ والاسماء التي تراها في هذه الأبيات ، فالله عزّ
وجل لا يكلف نفساً إلا وسعها . وقد كان لبيد يعيش في بادية نجد . وكان
يعرف هذه الأسماء ، لأنه كان يعرف هذه الأماكن ، ولم يكن يعيش في مدينة القاهرة
ولم يكن قادراً على أن يسمى أماكن نجد بغير أسمائها ، ولكن حدثني عن هذه
الأبيات الثلاثة ، أتستطيع فيها تقديماً وتأخيراً ؟ وكيف يستقيم لك ذلك ؟ ألسنت
مكرهاً بحكم المعنى ، وبحكم التركيب اللفظي نفسه على أن تحتفظ لهذه الأبيات
بالترتيب الذي أرادها لها الشاعر ، لأن المعنى يفرض ذلك عليك فرضاً ؟
ثم يمضى الشاعر في وصف هذه الديار ، وما مر بها من الأحداث
والخطوب ، على نحو من هذا الترتيب الدقيق الذي لا سبيل إلى تغييره ،
حتى يقول :

فَوَقَفْتُ أَسْأَلُهَا وَكَيْفَ سَأَلْنَا صُمًّا خَوَالِدًا مَا يَبِينُ كَلَامُهَا
عَرَبْتُ وَكَانَ بِهَا الْجَمِيعُ فَأَبْكُرُوا مِنْهَا وَعُودِرَ نُوبُهَا وَتُمَامُهَا
وهذين البيتين قد بلغ الشاعر إربه ، وأبلغك إربك من ذكر الديار
ووصفها ، وهيبته الجوى الشعري لنفسه وذاك . فإذا أتم هذا المعنى انتقل منه إلى
أشد المعاني اتصالاً به ، ولزوماً له . وهو ذكر الأحبة الذين ارتحلوا عن هذه
الديار ، وما يثيرون في نفسك من شوق إليهم ، وكلف بهم ، ووصف ارتحالهم ،
ذاك الذي أخطى هذه الديار ، فعرضها لما تعرضت له ، وأحيا في نفس الشاعر
وفي نفسك ما أحيا من الحزن :

شَاقَتَكَ ظَنَنْتُ الْحَيَّ حِينَ تَحْمَلُوا فَتَكَنَسُوا قَطُنًا تَصِرُ خِيَامُهَا
حتى إذا أثار هذه الذكرى ، وصور هذا الرحيل ، في إيجاز ممتع مقنع ،
وأم إنشاء الجوى الشعري الذي لم يكن بد من إنشائه ، أدركه حزمه وعزمه ،
فأخرجاه من هذا البكاء الذي لا ينبغي أن يطول ، ومن هذا الحزن الذي
لا ينبغي أن يتصل ، فإذا هو يصور بأسه من صاحبه في هذين البيتين البديعين :
بَلْ مَا تَدْكُرُ مِنْ نَوَارٍ وَقَدْ نَأَتْ . وَتَقَطَّعَتْ أَسْبَابُهَا وَرِمَامُهَا

مُرِيَّةٌ حَلَّتْ بِفَيْدٍ وَجَاوَرَتْ أَهْلَ الْحِجَازِ فَأَيْنَ مِنْكَ مَرَامُهَا
 وهو يعضى فى تصوير هذا اليأس ، وتعظيم أمره ، وإقامة الأدلة القاطعة
 على أنه محتوم لا منصرف عنه ، فيذكر الأماكن التى يمكن أن تكون فيها
 صاحبتة فى الحجاز ، عن يساره ، أو فى اليمن ، عن يمينه ، حتى إذا أتم هذا
 المعنى إتماماً ، انتهى إلى نتيجة المحتومة ، وهى اليأس المريح والتعزى عن الحزن
 بالارتحال :

فَأَقْطَعْ لُبَانَةَ مَنْ تَعَرَّضَ وَصَلَّهُ وَكَخَيْرٍ وَاصِلِ خَلَّةٍ صَرَامُهَا
 وَأَحْبُ الْمُجَامِلِ بِالْجَزِيلِ وَصَرْمُهُ بَاقٍ إِذَا صَلَعَتْ وَزَاغَ قَوَامُهَا
 يقول : أقطع حاجتك من كل من لم تستقم لك مودته ، وانصرف عنه
 انصرافاً ، وأظهر المودة لمن أظهرها لك مجاملاً ، وإن اعوج عليك ضميره ، والتوت
 عليك محبته فى حقيقة الأمر ، وتعز عن هذا كله باقتحام الصحراء وتجشم أهوالها .

بِطَلِيحٍ أَسْفَارٍ تَرَكْنَ بِقِيَّةٍ مِنْهَا فَأَخْتَقَ صُلْبُهَا وَسَنَامُهَا
 فأنت تراه قد وصل إلى ناقته وصولاً يسيراً ، لا تكلف فيه ، ولا تصنع ،
 ولا جهد فيه ولا مشقة ، إنما انتهى إليها كما تنهى أنت إلى سيارتك فى مدينتك
 هذه المتحضرة ، حين يضيق بك الأمر ، وتزدحم على نفسك الهموم ، وتكروه
 المقام حيث أنت ، فتتحف إلى التزهة ، تلتمس فيها فرجاً من كرب ، وسعادة
 من ضيق . أما أنت فتعتمد إلى سيارتك فتركبها ، وتمضى بها إلى حيث تريد
 أو لا تريد ، لا تلتفت إليها ، ولا تقف عندها ، إلا من حيث هى أداة تعيينك
 على ما تقصد إليه من الأغراض ، وأما الشاعر ، والشاعر القديم خاصة ،
 فإنه لا يرى شيئاً ، ولا يستخدم شيئاً إلا حققه وتصوره ، وأمعن فى تحقيقه
 وفى تصويره ، ثم صوره فأحسن تصويره ، ثم أعرب عن هذا التصوير فأحسن
 الإعراب ، كما فعل لبيد .

ولو أن شعراءنا الأقدمين هؤلاء أدركوا السيارة ، والترام ، والطيارة ،
 والقطار ، لما رأوها ولا استخدموها جاهلين لها ، معرضين عنها ، ولا شكوا
 ما نشكو الآن من أن أدبنا العربى الحديث ما زال ينتظر وصفاً صادقاً ممتباً رائعاً
 للسيارة ، والترام ، والطيارة ، والقطار .

وما طريق الشاعر إلى التحقيق والوصف الدقيق إذا هو لم يعتمد إلى التشبيه والاستعارة والحجاز ، وإلى هذا الفن الذي عمد إليه ليبد من القصص الساذج اليسير ؟ فهو يشبه ناقته كما رأيت في الأسبوع الماضي بالسحاب الخفيف الذي يطيع أيسر الريح ، وهذا التشبيه يتأتى له في نصف بيت ، ثم هو يشبهها بالأتان الوحشية فيطيل في هذا التشبيه ، لأنه يطيل في وصف الأتان ، وفي تفصيل قصتها ، وهو لم يطل في وصف السحاب الخفيف ، لأنه لا يستطيع أن يساير السحاب الخفيف ، ولا أن يجرى معه في الجو ، ولا أن يسايقه تحت تأثير الريح اليسيرة أو العاصفة ، ولكنه يستطيع أن يتبع الأتان الوحشية ، وأن يبلو من أخبارها ، ويعرف من أمرها ، ما يعرضه عليك في هذا الشعر الرائع الجميل .

أَوْ مَلْمَعٌ وَسَقَتْ لِأَخْبَبَ لَاحَهُ طَرْدُ الْفَحُولِ وَضَرْبُهَا وَكِدَامُهَا

يَعْلُو بِهَا حَدَبَ الْإِكَامِ مَسْحَجٌ قَدْ رَابَهُ عِصْيَانُهَا وَوَحَامُهَا

يشبه ناقته بهذه الأتان الوحشية التي ظهر عليها الحمل ، وقد خلصت لفلحها بعد منافسة شديدة ، وخصومة عنيفة ، فيها مطاردة ومضاربة وعض ، ولكنه على كل حال قد استخلصها بعد هذا كله ، فهو يجشمها الهول ، ويعلو بها الإكام والمهضاب ، وقد ظهرت فيه آثار العض ، وامتلأت نفسه ريبة بما تظهر له من عصيان وتمنع ، وما تتجنى عليه بما يعرض لها من الشموات .
وما يزال الشاعر ماضياً في وصف هذه الأتان وفلحها ، وقد انتهيا إلى ربوة فأقاما عليها بعيدين عن غيرهما ، حتى انحسر عنهما الشتاء ، وجف الرطب ، واحتاجا إلى الماء فاندفعا إليه عازمين بعد تردد ، ومقدمين بعد إحجام ، فانظر إليه كيف يصور هذا العزم والإقدام :

حَتَّى إِذَا سَلَخَا جُمَادَى سِتَّةَ جَزَعًا فَطَالَ صِيَامُهُ وَصِيَامُهَا

رَجَعًا بِأَمْرِهِمَا إِلَى ذِي مِرَّةٍ حَصِيدٍ وَنُجُحٍ صَرِيمَةٍ إِبْرَامُهَا

فانظر إلى هذا البيت الأخير ، كيف صور فيه العزيمة المصممة ، والإقدام الذي لا تردد فيه ، وكيف لاعم بين هذا المعنى الحازم الشديد ، وبين هذه

الألفاظ الخازمة الشديدة ، فاستعمل كلمة المرة ، وكلمة الحصد ، ثم انظر إلى آخر البيت : كيف أرسله مثلا تجرى به الألسنة مهما تختلف العصور والبيئات ، وهو قوله : « ونجح صريمة إبرامها » يريد أن نجح العزيمة رهين بالتصميم عليها .

ثم انظر إلى هذا البيت الذى يصور فيه استباقهما فى العدو ، وإثارتهما للغبار الرقيق ، كأنما يتنازعه كما يتنازعان الثوب ، وإلى تشبيه هذا الغبار بالدخان . كل هذا فى بيت واحد لا ينقطع عما قبله ولا ينفصل مما بعده .

فَتَنَازَعَا سَبْطًا يَطِيرُ ظِلَالُهُ كَدُخَانِ مُشْعَلَةٍ يُشَبُّ ضِرَامُهَا
 ثم انظر إليه وقد شبه الغبار بدخان النار المشتعلة ، كيف أبى إلا أن يحقق تشبيهه ويتقنه ، لأن الشاعر العربى كما قلت لك لا يمر بالأشياء مرأً يسيراً ، وإنما هو يحققها ويتقنها ، فشاعرنا يحقق مصدر هذا الدخان الذى شبه به الغبار ، فيزعم أن النار التى تثير هذا الدخان ، قد شبت باليابس الذى يعينها على الاشتعال ، وبالرطب الذى يثير لها الدخان ، وقد نفخت فيها أثناء ذلك ريح الشمال .

مَشْمُولَةٌ غُلِبَتْ بِنَابِتِ عَرَفَجٍ كَدُخَانِ نَارِ سَاطِعِ أَسْنَامِهَا
 وما زالت الأتان وفحلها فى هذا العدو الطويل حتى انتهيا إلى غايتهما ، فانظر إليهما وقد بلغا الماء ، أو انظر إلى هذا الماء الذى بلغاه ، إنه ينبوع جميل ، ينساب منه غدير غزير ، تحفه غابة من القصب ، تعبت بقصبها الريح ، فنه القائم الذى يثبت لها ، ومنه الصريع الذى يعجز عن المقاومة :

فَتَوَسَّطَا عَرْضَ السَّرِيِّ وَصَدَعَا مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قُلَامُهَا
 وَمُخَفَّفًا وَسَطَ الْيَرَاعِ يُظِلُّهُ مِنْهُ مُصْرَعٌ غَابَةٌ وَقِيَامُهَا
 ولم يكفه هذا التشبيه ، ولم تكفه هذه الصور ، فانتقل إلى تشبيه آخر وعرض صوراً أخرى ، فى قصة البقرة التى فقدت طفلها ، وصارعت كلاب الصيد ؛ وأنت تستطيع أن تقرأ هذا القسم من القصيدة كما قرأت الأقسام التى سبقتة ، فلن تجد فيه - كما تجد فى غيره - سبيلاً إلى تغيير أو تبديل . ولا إلى تقديم أو تأخير .

وقد أتم الشاعر تصوير البقرة ، كما أتم تصوير الأتان في أطوارها المختلفة ، فحقق تشبيهه تحقيقاً ، وأتقنه إتقاناً ، وانتهى به إلى غايته . ثم عمد إلى ناقته فذكرها ، وذكر ما يستعين بها عليه من الأسفار :

فبِتِلْكَ إِذْ رَقَصَ اللّوَامِعُ بِالضُّحَى وَاجْتَابَ أُرْدِيَةَ السَّرَابِ إِكَامَهَا
أَقْضَى اللَّبَانَةَ لَا أَفْرَطُ رِيْبَةً أَوْ أَنْ يَلُومَ بِحَاجَةِ لَوَامِهَا

فانظر إليه يستقبل الصحراء بناقته تلك ، وقد ارتفع الضحى ، وأخذ الآل يرقص فيها . ثم انظر إليه يمعن في الصحراء وقد انتصف النهار ، والآكام والتلال قائمة منبثة أمامه ، منها القريب ، ومنها البعيد ، وكلها قد اتخذت من السراب أردية وثياباً . على أن الشاعر كما ترى لم يطل في ذكر الناقة حين انتهى إليها ، ولا في وصف الطريق حين اندفع فيها ، وإنما عاد إلى صاحبته « النوار » ، تلك التي كان يتعزى عنها في أول القصيدة ، فقال متغنياً بما فيه من خصال الخزم ، والكرامة ، والعزة ، والإباء :

أَوْ لَمْ تَكُنْ تَدْرِي نَوَارٍ بِأَنْتِي وَصَالُ عَهْدِ حَبَائِلِ جَدَامِهَا
تَرَاكَ أَمَكِنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَعْتَلِقُ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامِهَا

وانظر إلى هذا البيت الأخير ، كيف يصور إباء الشاعر للضميم أبرع تصوير وأروع ، فهو لا يقيم في مكان إذا لم يرض الإقامة فيه . ولكن انظر إلى الشطر الأخير « أو يعتلق بعض النفوس محامها » فهو غامض ولكنه جلي ، وهو مبهم ولكنه واضح ، هو لا يقيم في مكان يسام فيه الضميم ، فإن أقام ، فلا بد لبعض النفوس من أن تزهق ويدركها الموت . أي النفوس ؟ نفسه هو ، أم نفس أعدائه الذين يسومونه الضميم ؟ لا يريد الشاعر أن يخصص شيئاً لأنه لا يدري كيف يكون السبيل إلى هذا التخصيص . كل ما يعرفه هو أنه إن أقام في مكان يسام فيه الضميم فهو لن يقبل الضميم . ولكنه سيأباه ويقاومه ، فلما أن يموت في هذا الإباء وهذه المقاومة ، وإما أن يميت .

ثم يتحول الشاعر من الحديث عن صاحبته إلى الحديث إليها ، قد فكر فيها وأطال التفكير ، وقد تحدث عنها وأطال الحديث ، فارتسمت في نفسه

ارتساماً على بعد العهد ونزوح الدار ، ومثلت أمامه وإذا هو يراها ، وإذا هو يتحدث إليها عاتباً مفاخرأ ، وإذا هو يصور لها حياته في السلم لاهياً في الليل ، ولاهياً في النهار ، متردداً على الحانات ، مغالياً في شراء الخمر ، مقامراً لا ليفيد ويستكثر من الربح ، ولكن ليغني السائل ، ويطعم الجائع ، ويعطي المحروم . ثم يصف لها حاله أثناء الحرب وقد انتهى النذير إلى قومه بالغارة أو أشفقوا من الغارة ، فإذا هو أسرعهم إلى فرسه ، وماله لا يسرع إليها وقد اتخذ لجامها وشاحاً له ، كأنما ينتظر الفزع في كل لحظة من لحظات النهار . ولم يكده يعلو فرسه حتى اندفع به طليعة لقومه ، يتحسس لهم أنباء العدو ، فيشرف بفرسه على مرقب عال يقيم فيه ما أقام النهار ، ينتظر أن يرى من العدو ما يدل على مقدمه ، لينبئ قومه :

حتى إذا أَلْقَتْ يَدًا فِي كَافِرٍ وَأَجَنَ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظَلَامُهَا
 هناك يهبط إلى السهل ، فقد أقبل الليل ، ولم يبق له أرب في ارتقاب العدو من هذا المكان المرتفع ، ولكن انظر معي إلى قوله «حتى إذا أَلْقَتْ يَدًا فِي كَافِرٍ» يريد حتى إذا غربت الشمس ، أَلْسْتُ ترى في هذا التعبير الموحز روعة وجمالاً ؟

ثم يصف الشاعر لصاحبه بعد ذلك موقفه في محافل الخصومة والمفاخر فاسمع له حين يقول :

وَكَثِيرَةٌ غُرِبَاوَهَا مَجْهُولَةٌ تُرَجِي نَوَافِلَهَا وَيُحْشِي دَامَهَا
 غُلْبٍ تَشَدُّرٌ بِالدُّحُولِ كَأَنَّهَا جِنُّ البَلْدِيِّ رَوَاسِيًا أَقْدَامَهَا
 أَنْكَرْتُ بِأَطْلَهَا وَبُوْتُ بِحَقِّهَا عِنْدِي وَلَمْ يَفْخَرْ عَلِيٌّ كِرَامَهَا
 والرجل العربي مهما يعظم قدره ، ويرتفع أمره ، فرد من قبيلة لا عز له إلا إذا عزت ، ولا كرامة له إلا إذا كرمت ، فإذا تغنى لببده بحياته الخاصة ، ومكارمه ومفاخره الخاصة ، وعدد من ذلك كله ما أراد ، موجزاً في أكثر الأحيان ، مفصلاً أحياناً ، مجيداً دائماً ، فرغ إلى عشيرته ففخر بهم ووصفهم بما هم أهل له من الكرم والنجدة والبأس والساطان .
 قال صاحبي : لم تسرف عليّ فيما رويت لي من هذه القصيدة ، وقد

أخذت أحس بشيء من الحب يعطفني على شاعرك هذا ، وما أحسب إلا أن وراء هذا الشعر الرائع شاعراً بارعاً . ولكني أخشى أن تكون قد أسرفت على قرأتك ، فهذا الشعر لا يخلو من مشقة ، وفي ألفاظه ضخامة وفضامة لم يفهما الناس .

قلت : فأنبئني عن الوحدة المعنوية أتجدها في هذه القصيدة ؟ أم لا تزال ترى أن ليس لهذه القصيدة وحدة إلا في وزنها وقافيتها ؟

قال : ما أحرصك على الفوز ، وعلى تسجيل الظفر لنفسك ، فإنني ياسيدي أقرك على أن لهذه القصيدة وحدتها المعنوية ، ونظامها الشعري المتسق البديع ، ولو لم تكن وحدة هذه القصيدة إلا في هذه النفس القوية العالية السمحة الوديعية التي أنشأتها ، لكانت خليقة أن تكون من أروع ما حفظ الشعر العربي . أفيرضيك أني قد اعترفت لك بكل ما تحب ؟ ولكن لا تطمع ولا يبطرك هذا الانتصار . فما يصح لهذه القصيدة قد لا يصح لغيرها من قصائد هذا الشاعر ، وما يصح لهذا الشاعر ، قد لا يصح لغيره من الشعراء .

قلت : حسبي يا سيدي أني قد استنقدت هذه القصيدة مما تصبّونه على الشعر العربي القديم من عيب وإنكار ، على أني لست يائساً من أن أستنقد قصائد أخرى من عيبكم وإنكاركم .

قال وهو يبتسم : فهل لك ألا تترك ليبدأ حتى نلم بمقدار آخر من شعره كثير أو قليل ؟ قلت : هذا لك .

ساعة أُخرى مع لبيد^(١)

قلت لصاحبي : أما اليوم فلن أشق عليك ، ولن أجشمك الشعر الغريب في لفظه أو معناه ، فقد أحسنى حملتك من ذلك ما يبيح لك أن تطمع في أن أريحك وأرفه عليك . ولولا أنك اقترحت عليّ في الأسبوع الماضي أن يتصل حديثنا عن لبيد لما عدت إليه هذا الأسبوع ، ولتقلتك منه إلى الحديث عن شاعر آخر ، وإن كان إعجابي بلبيد لا ينتضي ، وإن كنت أؤثر أن يطول الحديث عن لبيد ما استطاع أن يطول .

وأنا أريد أن أحدثك اليوم عن الشاعر أكثر مما أحدثك عن شعره ، فقد كان القدماء يتحدثون عنه ، فيحبون الحديث ويطيلونه ، لأن لبيداً لم يكن شاعراً جيداً فحسب ، وإنما كان رجلاً كريماً أيضاً . كان أصحاب الشعر يحبون الحديث عن شعره ، وكان أصحاب المروءة يحبون الحديث عن مروءته . وما رأيك في رجل تحدث الولاة عنه على منابرهم ؟ وفي أي عصر كان هذا الحديث ؟ في عصر الخلفاء الراشدين ، لا في عصر من هذه العصور المتأخرة ، التي كان الولاة يستيبحون فيها حرم المنابر ، ويقولون فيها على المنابر ما لا يحسن أن يقال . فقد يحدثنا الرواة ، وهم يتفقون في الحديث ، أن لبيداً كان قد نذر في جاهليته ألا تهب الصبا إلا أطمع الناس ، وقد وفي بنذره في الجاهلية ، وحرص على الوفاء به في الإسلام . ويصدق حديث الرواة في هذا قول لبيد نفسه في مطولته التي تحدثنا عنها في الأسبوعين الماضيين :

وَجَزُورٍ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحَتْفِهَا بِمَغَالِيقِي مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُهَا
أَدْعُوا بِهِنَّ لِعَاقِرٍ أَوْ مُطْفَلٍ بِذِلَّتِ لِجِيرَانِ الْجَمِيعِ لِحَامُهَا

(١) نشرت بمجريدة الجهاد في ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٥ .

فَالضَّيْفُ وَالْجَارُ الْجَنِيبُ كَأَنَّمَا هَبَّطًا تَبَالَةً مُخْصِبًا أَهْضَامَهَا
تَأْوِي إِلَى الْأَطْنَابِ كُلُّ رَزِيَّةٍ مِثْلِ الْبَلِيَّةِ قَالِصٌ أَهْدَامَهَا
وَيُكَلَّلُونَ إِذَا الرِّيحُ تَنَاوَحَتْ خُلْجًا تَمَدُّ شَوَارِعًا أَيْتَامَهَا

فهو يتحدث بهذه الآيات - وأظنك قد فهمت حديثه - عن عاداته حين كان يقامر على نحر الإبل ، لا يتغنى بذلك رجماً ولا كسباً ، إنما يتغنى إطعام الجائعين الذين كانوا يأوون إليه ، فهم الضيف ، وفهم الجار ، وفهم العاقر لا ولد لها ، وفهم المطفل قد كثر ولدها ، وفهم هذه البائسة ، أو هؤلاء البائسات ، يلزمن أطناب الخيمة كأنهن النوق التي تشد إلى قبور الموتى ، لا تبرحه حتى تموت عليه ، وكل هؤلاء يرزقون عنده رغداً ، تقدم لهم الجفان قد ملئت بالثريد ، وكللت باللحم ، فهم ينعمون كأنهم نزلوا «تباله» وقد أخصبت وكثر فيها الرزق .

فيقول الرواة : إن المغيرة بن شعبة ، كان إذا هبت الصبا ، خطب الناس فقال لهم : أعينوا أبا عقيل على مروءته . ويقول بعض الرواة : هبت الصبا يوماً ، والوليد بن عقبة على الكوفة ، فصعد المنبر فخطب الناس ، ثم قال : إن أخاكم ليبيد بن ربيعة قد نذر في الجاهلية ألا تهب صيباً إلا أطعم ، وهذا يوم من أيامه ، وقد هبت صيباً فأعينوه ، وأنا أول من فعل . ثم نزل عن المنبر ، فأرسل إليه مائة بكرة ، وكتب إليه بأبيات قالها :

أَرَى الْجَزَارَ يَشْحَدُ شَفَرَتَيْهِ إِذَا هَبَّتْ رِيحُ أَبِي عَقِيلٍ
أَشْمُ الْأَنْفِ أَصِيدَ عَامِرِيًّا طَوِيلَ الْبَاعِ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ
وَفِي ابْنِ الْجَعْفَرِيِّ بِحِلْفَتَيْهِ عَلَى الْعِلَاتِ وَالْمَالِ الْقَلِيلِ
بِنَحْرِ الْكُومِ إِذْ سَحَبَتْ إِلَيْهِ ذَبُولُ صَبَاً تَجَاذِبُ بِالْأَصِيلِ
فقال لابنته : أجببيه ، فلمعري لقد عشت برهة وما أعيأ بجواب شاعر

فقال :

إِذَا هَبَّتْ رِيحُ أَبِي عَقِيلٍ دَعَوْنَا عِنْدَ هَبَّتِهَا الْوَلِيدَا
أَشْمُ الْأَنْفِ أَرَوَعَ عَبْشِيمِيًّا أَعَانَ عَلَى مُرُوءَتِهِ لَبِيدَا

بِأَمْثَالِ الْهَضَابِ كَأَنَّ رَجَبًا عَلِيَّهَا مِنْ بَنِي حَامٍ قُودًا
 أَبَا وَهَبٍ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا نَحَرْنَاهَا فَأَطَعَمْنَا الثَّرِيدَا
 فَعُدُّ إِنَّ الْكَرِيمَ لَهُ مَعَادُ وَظَنِّي بِابْنِ أَرْوَى أَنْ يَعُودَا
 فقال لما ليبيد : أحسنت ! لولا أنك استطعته . فقالت : إن الملوك لا يُستحيا
 من مسألتهم . فقال : وأنت يا بنية في هذا أشعر (١) .

وأكبر الظن أن كلا الأميرين قد تقدم إلى الناس في أن يعينوا ليبيدًا على
 مروءته ، ولكن المغيرة بن شعبة لم يعطه ، أو لم يعطه إلا قليلا لأنه كان ثقفيًا
 حريصاً على المال ، ولأنه كان والياً لعمر . فأما الوليد بن عقبة ، فكان فتي
 من فتيان قريش ، سخياً كريماً ، يغلو في السخاء والكرم ، ويحتفظ بكثير
 من السنن الجاهلية ؛ وكان غنياً ضخماً الثروة ، فساق إلى ليبيد ما ساق من
 الإبل . وكتب إليه ما كتب من الشعر .

قال صاحبني : فحقق من ذلك ما شئت إذا خلوت إلى طلابك في الجامعة ،
 ولكن ، ألسنت تعجب معي بهله الأبيات التي أرسلها إلى ليبيد هذا الفتي
 القرشي ؟ أليس يعجبك منه أنه أضاف الرياح إلى أبي عقيل لما تعود أبو عقيل
 من إطعام الناس إذا هبت الرياح ؟ ثم ، أليس يعجبك أنه يرى الخزار وهو
 يشحذ شفرته لنحر الإبل إذا هبت هذه الرياح ؟ لأنه يتوقع أن يأمره ليبيد
 بنحرها ؟ ثم أليس يعجبك هذان البيتان الأخيران اللذان يصور فيهما الأمير
 القرشي وفاء ليبيد بنذره ، ونحره للإبل حين يقبل الأصيل ، وتتجاذب الرياح
 ذبولها ؟ وهذه الأبيات التي ردت بها ابنة ليبيد على الأمير ، أليس يعجبك لينها
 ورفقها ، وهذا الصفاء الذي يترقق فيها ، ويدل دلالة واضحة على أنها صدرت
 عن نفس صافية تشكر النعمة ، وتقدر الجميل ، وتحب الخير ، وتستعين عليه ؟
 قلت : كل شيء يعجبني ، ولكن الذي يعجبني خاصة هو أنك قد
 أخذت تحب الشعر القديم ، وتدعو إليه ، وترغب فيه ، وتدل على ما فيه
 من جمال . فقال : فعد بنا إلى حديثك ، فما رأيت أعجل منك إلى تسجيل
 الفوز . قلت : لقد كنا نتحدث عن مروءة ليبيد ، وعن حديث القدماء بها

(١) الأغاني جزء ١٤ صفحة ٩٧ و ٩٨ .

ولأكبارهم لها ، فقد شهد له بها هذان الأميران من أمراء المسلمين ، وشهد له بها ابن سلام . فقال : إنه كان رجل صدق . والأخبار القليلة التي تروى عن حياته في الكوفة بعد أن أسلم ، تصور كلها رجلاً كريماً النفس ، صافى الطبع ، حلوا الشائل ، معتدل المزاج ، قد انصرف عن أكثر ما تعود من حياة الجاهليين ، لم يستبق من ذلك إلا ما لا يكرهه الإسلام ؛ فهو كريم جواد ، لأن الإسلام يحب الكرم والجلود ، ويدعو إليهما ، ويقر عليهما الكرام الأجواد من العرب . وهو معرض عن الفخر ، لا يتورط فيه إلا كارهاً ، ولا يكاد يقبل عليه حتى ينصرف عنه . وهو يستغفر الله منه ؛ ومع ذلك فقد كان ليبيد فخوراً في الجاهلية ، ملحاً في الفخر ، يكاد يتورط في الغلو والإسراف ؛ كان يفخر بنفسه محتملاً للخطوب ، متجشماً للأهوال ، وكان يفخر بنفسه مقبلاً على اللهو ، شارباً للخمر إذا أصبح ، شارباً لها إذا أمسى ، منفقاً في شربها أيام أمنه ولياليه ، يصور ذلك في مطولته التي تحدثت عنها إليك من قبل . وكان يفخر بنفسه فارساً مغوراً ، وكان يفخر بنفسه كريماً جواداً ، ثم كان يفخر بعد هذا كله بعشيرته . ترى هذا كله في مطولته ، وتراه فيما بى من شعره من هذه المقطوعات المنشورة في كتب الأدب ، وفي ديوانه . بل كاد الفخر أن يكون صناعة ليبيد طوال حياته الجاهلية ، فهو قد جعل نفسه محامياً عن أحساب قومه ، يناضل عنها كلما احتاج إلى النضال . والرواة يحدثننا عن مقامه في النضال عن قومه في مواطن مختلفة ، فهم يزعمون لنا أنه بدأ حياته الشعرية بهذا النضال ، كان فتي غراً ، فصحب قومه في سفارة لهم عند النعمان ابن المنذر ، وكان قومه يرون من النعمان إقبالا عليهم ، وتلطفاً لهم ، ثم رابهم منه ريب ، وأخذوا يحسون إعراضه وصدوده ، واتمسوا مصدر هذا الإعراض والصدود ، فعرفوا أن الربيع بن زياد ، وهو شريف من أشرف عيس ، ونخال من أهوال ليبيد ، يدس لهم عند النعمان ، وكان من ندمائه ؛ فساءهم ذلك ، وأرقوا له ذات ليلة ، وأخذوا يتحدثون فيه ، والفتى ليبيد يسمع لهم ولا يفهم عنهم ، فلما طال عليه ذلك ، سألم أن يبينوا له جلية الأمر ، فأعرضوا عنه ، واعتلوا عليه ، فألح عليهم ؛ وما زال يلح حتى قصوا عليه قصتهم . فقال لهم : أنا أكفيكم الربيع بن زياد ، فإذا أصبحتم فاصطحبوني إلى مجلس الملك ، فأبوا

عليه لحداثته ، ثم امتحنوه في قصة طويلة تجدها في الأغاني ، فوافقوا منه
فتى فصيحاً صارم اللسان ، فاصطحبوه حين غدوا على الملك ، فلما أذن لهم
دخلوا ، فإذا الملك على طعامه ، ومعه صفيته الربيع بن زياد ، وقد أخذ الربيع
ابن زياد هذا ينتقص وفد بنى جعفر ، ويصرف الملك عنهم . فوثب لبيد فقال
هذا الرجز الذي أستطيع أن أرويه لك ، ولكنى سأحذف آخره حين أذيع هذا
الحديث في الناس ، لأنه ليس مما يروى :

أَكْلُ يَوْمِ هَامَتِي مُقْلَعَةٌ يَارُبُّ هَيْجَا هِيَ خَيْرٌ مِنْ دَعَةٍ
نَحْنُ بَنُو أُمَّ الْبَيْنِينَ الْأَرْبَعَةَ سَيْوْفُ حَزٍّ وَجِفَانٌ مُتْرَعَةٌ
نَحْنُ نَحْيَارُ عَامِرِ بْنِ صَعَصَعَةَ وَالضَّارِبُونَ الْهَامَ تَحْتَ الْخَيْضَعَةَ
وَالْمُطْعَمُونَ الْجَنَّةَ الْمُدْعَعَةَ مَهْلًا أَبَيْتَ اللَّعْنَ لَا تَأْكُلْ مَعَهُ

ويقول الرواة : إن النعمان لم يكذب بسمع آخر هذا الرجز ، حتى تأذى ،
وكف يده عن الطعام ، وقضى لبني جعفر حوائجهم ، وصرفهم عنه ، فارتحلوا .
ويقولون : إن الربيع بن زياد حاول أن يبرئ نفسه مما وصمه به الفتى فلم يفلح ،
واضططر إلى الرحيل مغاضباً للملك ، مغاضباً للبيد ، وقد ثار الشر بين لبيد وبين
خاله الربيع . والرواة يروون في ذلك شعراً .

ولست أدري أكانت القصة كما يصورها الرواة أم لم تكن . أم كانت
شيئاً مقارباً لها . ولكن هذه القصة على كل حال تدل على أن لبيداً كان
عند العرب صاحب فخر ودفاع عن أحساب قومه ، نشأ على ذلك ، وجدّ
فيه منذ الصبأ . قال صاحبي : إنك لتشك في كل شيء ، وما يعنيني شكك
وارتيابك ، إن الرجز التصير يعجبني ، لأنه يصور اندفاع الشباب ، والشباب
البدوي خاصة ، ولأنه يصور هذا الفخر الساذج ، الذي يواتي صاحبه دون
أن يبحث عنه ، أو يتكلفه ، أو يجده في طلبه . قلت : فإنك تخطئ في
هذا ، فالرواة يزعمون أن الفتى أرق لهذا الموقف ليله كله ، وإنما دعاك إلى
هذا الخطأ أن هذا الشعر متقن قد صنع وصنع حتى خفيت فيه الصنعة ،
وظهر كأنه ابن البديهة وعفو الخاطر ، قال : ولا هذا أيضاً يعنيني ، وإنما

يعني هذا الإقذاع في الهجاء ، الذي يتصل بالفخر اتصالاً ، ويدعوى إلى أن ألاحظ هذه الحلف بين هذين الفنّين من فنون الشعر العربي القديم ، وهما الفخر والهجاء . قلت وماذا يروحك من هذا ؟ وإنما الشاعر يمدح نفسه وقومه حين يفخر ، ويذم عدوه وعدو قومه حين يهجو ، فطبيعة الأشياء تقتضى أن يكون الشاعر المنافر بارعاً في الهجاء ، حين يقوم من قومه مقام المحامى ، كما فعل لبيد . وما أظن إلا أنك تعرف نشاط لبيد حين كانت المفاخرة والمنافرة بين عظيمين من عظماء قومه ، هما علقمة بن علاتة ، وعامر بن الطفيل ، فقد اختلف هذان السيدان ، وعظم الشرّ بينهما ، وزعم كل منهما أنه خير من صاحبه . ويقول الرواة : لئنهما تحاكما إلى أبي سفيان بن حرب الأموي ، فأبي أن يحكم بينهما . ثم تحاكما إلى ابن هشام الخزوي ، فأبي أن يحكم بينهما . فلما استياسا من حكم قريش تحاكما إلى عيس ، وانتهى أمرهما إلى هرم بن قطبة ، وكانت قصتهما في هذا عظمة الخطر ، فاشية شائعة ، تحدثت بها العرب في الجاهلية ، وتحدثت بها في الإسلام دهرًا طويلًا ، وسأل عنها عمر ابن الخطاب هرمًا ، فأبي أن ينبتة بسرهما ، فحمد عمر منه أمانته ووفاءه وكمّانه . وكانت المخاطرة بين هذين السيدين على مائتين من الإبل : مائة للحكم ، ومائة لمن يحكم القضاء له . ولكن الحكم لم يفضل أحدهما على صاحبه ، ولم يأخذ منهما أجرة التحكيم ، وإنما نحر عنهما الإبل ، وأطعم عنهما الناس . وقد نشط لبيد مع عامر بن الطفيل في هذه القصة نشاطاً عظيماً تستطيع أن ترى صورة منه في الأغاني ، ونشط الحطيئة مع علقمة ، ولكن الفرق بين نشاطهما عظيم : فقد كان لبيد صادقاً يدافع عن عشيرته الأقربين ، وكان الحطيئة مأجوراً يبيع شعره لسيدة علقمة ، الذي كان برّاً به في الجاهلية ، وأراد أن يكون برّاً به في الإسلام ، فحال الموت بينه وبين ما أراد . وقال الحطيئة في ذلك أبياته المشهورة .

وَمَا كَانَ بَيْنِي لَوْ لَقَيْتُكَ سَالِمًا وَبَيْنَ الْغَنَى إِلَّا لَيَالٍ قَلِيلٌ

والرواة متفقون على أن لبيدًا كان شاعر قومه ، يدافع عنهم إن خاصموا ، ويمدح كرامهم ، ويرثى موتاهم ، ويهجو عدوهم ؛ فهو كان برّاً بقومه في

الجاهلية ، وهو ظل براً بقومه في الإسلام ؛ كان إذا سمع من يعيبهم رده رداً حازماً ، رقيقاً مع ذلك ، ثم استغفر الله من الفخر . فإذا عرفت أن الفخر كان صناعة لبيد ، وأنه أنفق فيه حياته الطويلة في الجاهلية ، وأنه مع ذلك قد كف عنه بعد أن أسلم ، فقد تستطيع أن تتصور الأثر العميق الذي تركه الإسلام في نفس لبيد . والرواة يقولون إن لبيداً قد أعرض عن الشعر لإعراضاً بعد الإسلام ، ويغلو بعضهم فيزعم أنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً من الشعر وهو :

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجَلِي حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرْبَالاً

وهم يروون أيضاً أن عمر أراد أن يمتحن الشعراء ، ويسأل عما أحدثوه من الشعر في الإسلام ، وكتب في ذلك إلى المغيرة بن شعبة ، وكان واليه على الكوفة ، فسأله الأغلب العجلي فقال :

أَرْجَزًا تُرِيدُ أَمْ قَصِيدًا لَقَدْ سَأَلْتَ هَيْئًا مَوْجُودًا

وسأل لبيداً فقال : إن الله قد أغناه عن الشعر بسورة البقرة ، وآل عمران . ويقال : إن عمر نقص من عطاء الأغلب العجلي خمسمائة ، وزادها في عطاء لبيد . ويقال أيضاً إن الأغلب العجلي راجع عمر ، وقال : تعاقبني لأنني أطعت أمرك ! فرد عليه عمر ما نقص منه ، وحفظ للبيد ما زاد في عطائه .

ولست أخفي عليك أن اطمئنتاني إلى هذه القصة ليس تاماً ، فسترى أن الرواة يضيفون إلى لبيد شعراً ، إن صح ، فقد كان لبيد إذن يقول الشعر في الإسلام ؛ وإن صحت هذه القصة ، فقد كان الرواة إذن يكذبون على لبيد ؛ وإذن فما يمنعهم أن يكذبوا على غيره من الجاهليين والإسلاميين . وأكبر ظني أن لبيداً ، أعرض عن الشعر في الإسلام ، فلم يتخذ صناعة ، ولم يكتر من إنشائه وإنشاده ، وانصرف عنه إلى القرآن ، ولكنه قال في الإسلام غير بيت . ولعله حين امتحنه المغيرة بن شعبة ، إن صحت القصة ، عرف سر هذا الامتحان ، فعرف كيف يجيب . ويقال إن معاوية لما قدم الكوفة ولقي لبيداً أراد أن يحط عطاءه إلى حيث كان قبل أن يزيد عمر . فقال له لبيد : إنما أنا هامة اليوم أو غد ، فدع لي هذه العلاوة ، فن يدرى ! لعل لا أقبضها . فرق له معاوية

وترك له عطاءه ، ومات ليبيد قبل أن يقبض هذا العطاء .

والرواة مختلفون في وفاة ليبيد : فقوم يظنون أنه مات في آخر أيام معاوية . وقوم آخرون يقولون : إنه مات في أول خلافة معاوية . وهم على كل حال متفقون على أن ليبيداً كان من المعمرين ؛ يقولون : إنه عاش قرناً وما يقرب من نصف قرن . ويقولون : إنه عاش خمسة وأربعين ومئة عام ، عاش منها في الجاهلية تسعين عاماً ، ومات سنة خمس وخمسين للهجرة . ولكن ابن سعد ينبتنا في الطبقات أنه مات في أول أمر معاوية ، حين قدم الكوفة ليصالح الحسن بن علي ، وقبل أن يدخل الكوفة . وإذن فابن سعد يتقص من حياة ليبيد ، التي يثبثها الرواة ، نحو أربعة عشر عاماً . ومهما يكن من شيء ، فقد عمّر ليبيد وثقلت عليه الحياة ، ونقل لنا عنه شعر في ذلك ، منه ما قيل في الجاهلية ، ومنه ما قيل في الإسلام ؛ لا سبيل إلى الشك في ذلك ، إلا أن يكون هذا الشعر مكذوباً عليه ، قد صنع لإثبات أنه كان من المعمرين . تحدث أبو الفرج عن رواته أن ليبيداً لما بلغ السابعة والسبعين قال :

قَامَتْ تَشَكِّي إِلَى النَّفْسِ مَجْهَشَةً وَقَدْ حَمَلْتُكِ سَبْعاً بَعْدَ سَبْعِينَا
فِي أَنْ تَزَادِي ثَلَاثًا تَبْلُغِي أَمَلًا وَفِي الثَّلَاثِ وَفَاءً لِلثَّمَانِينَا
فلما بلغ التسعين قال :

كَأَنِّي وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً خَلَعْتُ بِهَا عَنْ مَنْكَبِي رِدَائِيَا
فلما بلغ مائة وعشراً قال :
أَلَيْسَ فِي مِائَةٍ قَدْ عَاشَهَا رَجُلٌ وَفِي تَكَامُلِ عَشْرِ بَعْدَهَا عُمُرٌ
فلما جاوزها قال :

وَلَقَدْ سَمِعْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَسُؤَالِ هَذَا النَّاسِ : كَيْفَ لِيَبِيدُ؟
غَلَبَ الرِّجَالَ وَكَانَ غَيْرَ مُغْلَبٍ دَهْرٌ طَوِيلٌ دَائِمٌ مَمْلُودٌ
يَوْمًا أَرَى يَأْتِي عَلَيَّ وَلَيْلَةً وَكِلَاهُمَا بَعْدَ الْمَضَاءِ يَعُودُ
وَأَرَاهُ يَأْتِي مِثْلَ يَوْمِ لَقَيْتُهُ لَمْ يُنْتَقِصْ وَضَعُفْتُ وَهُوَ يَزِيدُ

فالشعر الذى قاله حين بلغ عشرًا ومئة . والشعر الذى قاله بعد ذلك ، إسلامى من غير شك . إن صححت نسبته إليه : وإذن فقد كان يقول الشعر فى الإسلام ، وإذن فليس صحيحاً أنه لم يقل فى الإسلام إلا بيتاً واحداً هو الذى رويته لك آنفاً .

قال صاحبي : ما أشد إسرافك فيما لا حاجة إليه ، ألم أطلب إليك أن تدع هذا التحقيق إلى حيث تفرغ له مع طلابك فى الجامعة ؟ أليس الخير فى أن تقف بنا عند هذه الآيات :

وَلَقَدْ سَمِئْتُمْ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَسُؤَالَ هَذَا النَّاسِ : كَيْفَ لَبِيدٌ؟

فتعجب بهذا اللفظ السهل الجزل ، وبهذه المعانى الممتعة الخصبية ، التى تصور عقلاً مفكراً ، ونفساً قد استقبلت الزمان ، ناظرة فيه ، غير معرضة عنه ، مقارنة مقبله بمدبره ، حتى أخذت من ذلك بحظها ، ثم احتملت الحياة فى شجاعة وصبر ، ثم طالت عليها الحياة ، وثقل عليها رفق الناس بها ، وعطف الناس عليها ، وسؤال الناس عنها مخلصين ، فسئمت ذلك وضاقت به ، وأعلنت فى صراحة وإخلاص هذا السأم :

وَلَقَدْ سَمِئْتُمْ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَسُؤَالَ هَذَا النَّاسِ : كَيْفَ لَبِيدٌ؟

قلت غير حافل به : والرواية يتحدثون إلينا بأن لبيداً قال شعراً قبل أن يموت ، يعلم فيه ابنتيه كيف تؤديان إليه حقه من الحزن عليه بعد أن يموت ، وهو :

تَمَنَّى ابْنَتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ رَيْبَعَةٍ أَوْ مُضْرٍ؟

فَإِنْ حَانَ يَوْمًا أَنْ يَمُوتَ أَبُوكُمْ فَلَا تَحْمِشَا وَجْهًا وَلَا تَحْلِقَا شَعْرَ

وَقَوْلًا هُوَ الْمَرْءُ الَّذِي لَا حَلِيفَةَ أَضَاعَ ، وَلَا خَانَ الصَّدِيقَ وَلَا غَدْرَ

إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ أُمُّ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَدَرَ

وأصحاب النحو يستشهدون بالبيت الثانى من هذا الشعر على أن التنوين قد يحذف من الاسم المنصوب الذى لم يمنع من الصرف . قال صاحبي : فإنك تأبى إلا أن تكون معلماً ، وما أنا وأصحاب النحو وحذف التنوين أو إثباته ! إنما يعجبني هذا الأدب الذى أدب الشاعر به ابنتيه ، ورسم لهما فيه ما يجب

عليهما من الحزن عليه بعد موته ، فهو لا يريد منهما إلا أن تذكراه بالخير :
بأنه لم يضع حليفه ، ولم يخن صديقه ، ولم يتورط في الغدر ، ثم هو معتدل
لا يشتط على ابنتيه ، ولا يكلفهما أكثر مما يطيق الناس ، يريد أن تذكراه
وأن تكياه حولا ، فإذا تم الحول فسلام عليهما ، ولا بأس من أن يلتقى بينه
وبينهما ستار النسيان في غير لوم ولا جناح ، أليستا قد بكتنا حولا ؟ ومن يبك
حولا كاملا فقد اعتذر .

اعترف أن شاعرك هذا يعجبني ، ويقع من نفسي أحسن موقع ، ويشير في
قلبي عواطف الحب والحزن والرفق معاً ؛ ولكن احذر أن تفسد شعره بالتحقيق
والتحجيص ، وأن تزعم لي أو لغيري أن هذا الشعر منحول تكلفه الرواة . قلت
باسمياً : ومع ذلك فإن في نفسي من هذا شيئاً ، ولكن إذا كان هذا النحر
من الشعر يعجبك ، ويجب الشاعر إليك ، فاسمع هذه الآيات الأخرى ،
التي يتحدث الرواة بأنه قالها لابن أخيه حين أحس الموت ، فقد تحدث
أبو الفرج أنه لما حضرته الوفاة قال لابن أخيه - ولم يكن له ولد ذكر -
يا بني : إن أباك لم يمت ولكنه فني . فإذا قبض أبوك فأقبله القبلة ، وسجده
بثوبه ، ولا تصرخن عليه صارخة ، وانظر جفنتي اللتين كنت أصنعهما
فاصنعهما ، ثم احملهما إلى المسجد ، فإذا سلم الإمام فقدمهما إليهم ، فإذا
طمعوا فقل لهم فليحضرُوا جنازة أخيم ، وأنشد قوله :

أَبْنَى هَلْ أَبْصَرْتَ أَعْمَ	هَامِي بَنِي أُمِّ الْبَنِينَا
وَأَبِي الَّذِي كَانَ الْأَرَا	مِلُّ فِي الشَّأءِ لَهُ قَطِينَا
وَأَبَا شُرَيْكٍ وَالْمَنَا	زِلَ فِي الْمَضِيْقِ إِذَا لَقِينَا
مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعَ	تُ بِمِثْلِهِ فِي الْعَالَمِينَا
فَبَقِيْتُ بَعْدَهُمْ وَكُنْتُ	تُ بِطُولِ صُحْبَتِهِمْ ضَنِينَا
دَعْنِي وَمَا مَلَكَتْ يَمِي	نِي إِنْ شَدَّدَتْ بِهَا الشُّوْنَا
وَأَفْعَلُ بِمَالِكَ مَا بَدَا	لَكَ مُسْتَعِينَا أَوْ مُعِينَا

وَإِذَا دَفَنْتَ أَبَاكَ فَاجْ مَلْ فَوْقَهُ خَشْبًا وَطِينًا
وَسَقَائِفًا صُمًّا رَوًّا سُبُّهَا يُسَدِّدُنَ الْعُضُومَنَا
لِيَقِينَنَّ حُرَّ الْوَجْهِ مَسْفَسَفَ التُّرَابِ وَلَنْ يَقِينَنَا

قال صاحبي : فلست أدري أيهما أحب إلى ، وأحسن موقفاً من نفسي ، أهذه القصة المثورة التي سبقت هذا الشعر ، والتي هي شعر كلها ، شعر فيه ثقة وحزن واطمئنان إلى الموت ، وبر بالناس إلى اللحظة الأخيرة ، أم هذا الشعر الرقيق الخفيف ، ذو اللفظ اللين ، والمعنى المتين ؟ قلت : ومع ذلك فلاني أخشى أن تكون هذه القصة مصنوعة ؟ فأبو الفرج وأصحابه يزعمون في هذه القصة أن ليبيداً لم يكن له بنون . ولكن ابن سعد يثبتنا في الطبقات ، أنه هاجر إلى الكوفة مع بنيه ، فلما مات دفن في صحراء بني جعفر ، وعاد بنوه إلى البادية فأقاموا فيها . وأكبر الظن أن ليبيداً مات كما يموت غيره من الناس بين أبنائه وبناته وسائر أهله ، وأن ما يروى من هذه القصص والأخبار إنما صنع في الأمصار صنفاً . قال صاحبي : إنكم معشر المعلمين لتلحون على الشعر الجميل بالنقد والتحليل ، حتى تذهبوا جماله ونضرته ، وتردوه كلاماً كغيره من الكلام ، فحقق حياة ليبيد إن شئت ، واحذف منها وأضف إليها ، ولكن في غير هذا الحديث ، فلاني لم ألتك لأخذ عنك هذا النحو من العلم ، وإنما لقيتك لتعجب إلى شعر ليبيد ، وقد وفقت من ذلك إلى ما أردت ، فحبيت إلى الشعر والشاعر جميعاً . قلت : فإنك حين تحب الشعر والشاعر ، لا تعدو أن تكون كالقدماء من العرب ، فقد كانوا يحبونهما حباً شديداً . فأما حبهم للشاعر ، فقد رأيت منه طرفاً . وأما حبهم للشعر ، فأبهم لم يعجب بالمطولة ، وأبهم لم يعجب بغيرها من شعره الذي كان كثيراً شائعاً ، فلم يبق لنا منه إلا الشيء القليل .

وقد زعموا أن الفرزدق سمع قوماً ينشدون مطولته فلما انتهوا إلى قوله :

وَجَلَّا السُّيُولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا زُبُرٌ تُجَدُّ مُتُونَهَا أَقْلَامُهَا

سجد . فأنكر الناس منه ذلك ، وقالوا : ما هذا يا أبا فراس ؟ قال أنتم تعرفون

سجدة القرآن ، وأنا أعرف سجدة الشعر . وكانت في الفرزدق محافظة بدوية لا تخلو من دعاية . قال صاحبي : لو لم يكن في هذا البيت إلا هذه الموسيقى التي تأتي من الملاءمة بين كلمة السيول والطلول لكان الفرزدق خليقاً أن يسجد له ! فكيف بهذا التشبيه الجميل !

قلت : ومع ذلك فإن للبيد فناً آخر من فنون الشعر جوّده كل التجويد ، وبرع فيه كل البراعة ، وأعجب القدماء به كل الإعجاب ، وهو فن الرثاء ، ولست أدري كيف يمكن أن تقدّم عليه الخنساء في رثائها ! وهو عندى أبرع منها في تصوير الحزن ، وصبّ اليأس في القلوب صبباً في غير ضعف ولا وهن . ولعلك تذكر أن الرواة كانوا يتحدثون بأن لبيداً كان شاعر قبيلته ، يمدح أحياءها ، ويرثي أمواتها ، فدعنا من هذا الرثاء الذي كانت تفرضه عليه حياته في قبيلته . وقف بنا عند هذا الرثاء الخاص ، الذي اختص به أخاه لأمه « أربد بن قيس » وأنت تعرف قصة أربد من غير شك ، فهو قد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم مع عامر بن الطفيل ، وكانا يريدان الغدر به ، فعصمه الله منهما ، ثم ارتحلا عنه مندرين ، فدعا النبي عليهما . فأما عامر فأدركه الطاعون قبل أن يبعد عن المدينة ، فمات عند امرأة من بني سلول . وأما أربد فأتى إلى قومه ، ولكن حياته فيهم لم تطل ، وإنما أصابته صاعقة فقتلته . ووقع موته من لبيد أشدّ المواقع ، وأعمقها في نفسه أثراً ، فرثاه بشعر كثير جيد كله ، يصور برّ لبيد ووفاءه وحزنه أجمل تصوير ، وكله يصور في الوقت نفسه حكمة لبيد ، وفلسفته البدوية — إن صح هذا التعبير — وتفكيره في الحياة وانصرافه عنها ، وزهده فيها بعد طول التأمل والتفكير . ومن يدري لعل ما أصاب عامر بن الطفيل ، وأربد بن قيس ، بعد انصرافهما عن النبي مغاضبين ، قد كان مما حمل لبيداً على أن يفد على النبي فيسلم ، ويحفظ شيئاً من القرآن ، ثم يعود إلى بلاده ناسكاً أو كالتناسك ، ثم يهاجر إلى الكوفة أيام عمر ، فيقيم فيها منقطعاً إلى الخير والبر والقرآن . ولست أروى لك من رثاء لبيد لأخيه إلا هذه الأبيات ، وأنت تستطيع أن تقرّ غيرها من الرثاء في الأغاني ، ولكن اقرأ معي هذا الشعر ، وحدثنى عما فيه من حكمة وفطنة ، ومن جزالة وحرصانة ،

ومن جمال في اللفظ والمعنى والأسلوب جميعاً :

بَلِينَا وَمَا تَبَلَى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ وَتَبَقَى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ
 وَقَدْ كُنْتُ فِي أَكْنَافِ دَارِ مَضْنَةٍ فَفَارَقَنِي جَارٌ بِأَرْبَدٍ نَافِعُ
 فَلَا جَزَعُ إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا فَكَلُّ أَمْرِي يَوْمًا لَهُ الدَّهْرُ فَاجِعُ
 وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالدِّيَارِ وَأَهْلِهَا بِهَا يَوْمَ خَلَوْهَا وَتَغْدُو بِلَاقِعُ
 وَيَمْضُونَ أَرْسَالًا وَتَخْلَفُ بَعْدَهُمْ كَمَا ضَمَّ إِحْدَى الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ
 وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشُّهَابِ وَضَوْئِهِ يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ
 وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا مُضْمَرَاتٍ مِنَ النَّقَى وَمَا الْمَالُ إِلَّا عَارِيَاتٌ وَدَائِعُ
 أَلَيْسَ وَرَأَيْتِي إِنْ تَرَخْتُ مَنِيَّتِي لَزُومُ الْعَصَاتِحُنِي عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ
 أَخْبِرُ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ أَدَبٌ كَأَنِّي كَلِمًا قَمْتُ رَاكِعُ
 فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ السَّيْفِ أَخْلَقَ جَفْنَهُ تَقَادُمُ عَهْدِ الْقَيْنِ وَالنَّضْلُ قَاطِعُ
 فَلَا تَبْعَدَنَّ إِنْ الْمَنِيَّةُ مَوْعِدُ عَلَيْنَا فَذَانِ لِلطَّلُوعِ وَطَالِعُ
 أَعَاذِلُ مَا يَدْرِيكَ إِلَّا تَطْنِيًّا إِذَا رَحَلَ الْفَتِيَانُ مَنْ هُوَ رَاجِعُ
 أَتَجَزَعُ مِمَّا أَحْدَثَ الدَّهْرُ بِالْفَتَى وَأَيُّ كَرِيمٍ لَمْ تُصِبهُ الْقَوَارِعُ
 لَعْمَرُكَ مَا تَدْرِي الضُّوَارِبُ بِالْحَصَى وَلَا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللَّهُ صَانِعُ

أتعرف أجمل من هذا الشعر معنى ، وأرصد منه لفظاً ، وأروع منه أسلوباً ، وأدنى منه إلى الصدق ، وأنطق منه بالحق ، وأعظم منه حظاً من هذه السذاجة الحلوة التي لا تتناول معانيها الراقية من بعيد ، وإنما تتناولها من قريب ، وتتناولها من أقرب ما تتناول المعاني ؟ فالشاعر لا يجهد نفسه ولا يبجهدك ، وإنما ينظر ويحملك على أن تنظر معه إلى النجوم التي تطلع وتغيب ، وإلى الجبال المستقرة على الأرض ، ثم إلى الإنسان ، وإذا هو يرى - وأنت ترى معه - أن النجوم على اختلافها طلوعاً وغروباً باقية ، تذهب الأجيال والأجيال ، وهي تشرق في السماء وتغرب ، لتشرق مرة أخرى وتغرب . وإذا الجبال كذلك ثابتة مستقرة ،

تذهب الأجيال والأجيال ، وهى فى مكانها لا تريم ، وإذا الإنسان شىء يسير ، لا يستطيع أن يشرق ويغرب ، كما تشرق النجوم وتغرب ، ولا يستطيع أن يثبت ويستقر ، كما تثبت الجبال وتستقر ، وإنما هو كالشهاب ، يشرق ساطعاً فيهر الأبصار ، ثم لا يلبث أن يستحيل رماداً تندروه الريح . وإذن فما أشد غرور الإنسان وجهه للباطل ، وثقته بما لا ينبغي أن يثق به ، واطمئنانه إلى ما لا ينبغي أن يطمئن إليه ، وتعلله بالسخف من أحاديث العائفين ، والقائمين والمستشيرين للحصى ، والمتحدثين عن الغيب ، وإنما أمر هذا كله باطل ، وأمر الغيب إلى من استأثر بعلم الغيب :

لَعَمْرُكَ مَا تَدْرَى الضَّوَارِبُ بِالْحَصَى وَلَا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللَّهُ صَانِعُ

ثم قلت لصاحبي بعد صمت غير قصير : ألسنت ترى أن شاعرى مجيد حين يقصد إلى ما يقصد إليه الشعراء من باطل الحياة : وصفاً ، وفخرأ ، ومدحاً وهجاء ؟

أو لست ترى أنه مجيد حين يقصد إلى ما يقصد إليه الحكماء من جد الحياة : تأملاً ، وتفكيراً ، وزهداً ، ونسكاً ؟

قال : بلى ! ولكن ما أقل ما حفظت لنا الأيام من هذا الشعر الجميل ! قلت : فاقراً معى هذا الحديث الذى يرويه أبو الفرج ، فهو أحسن ختام لحديثنا عن لييد ، ولا بأس هنا برواية الإسناد ، فقيمة الحديث فى إسناده . قال أبو الفرج : حدثنا محمد بن جرير الطبرى قال : حدثنا أبو السائب سالم بن جنادة قال : حدثنا وكيع عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها كانت تنشد بيت لييد :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَيَقِيتُ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

ثم تقول : رحم الله لييداً ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ! قال عروة : رحم الله عائشة ! فكيف بها لو أدركت من نحن بين ظهرانيهم ! قال هشام : رحم الله أبى ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ! وقال وكيع : رحم الله هشاماً ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ! قال أبو السائب :

رحم الله وكيعاً ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ! قال أبو جعفر :
 رحم الله أبا السائب ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ! قال أبو الفرج
 الأصماني : ونحن نقول : الله المستعان ! فالقصة أعظم من أن توصف .

قال صاحبي : وكذلك تمضى الأجيال لا يستقبل بعضها الحياة إلا أحب
 الماضي وآثره ، وكره الحاضر وضاق به ؛ فرحم الله هؤلاء الناس جميعاً ! فليت
 شعري ! ماذا كانوا يقولون لو عاشوا في هذه الأيام ، ورأوا ما نحن فيه من خير
 قليل ، وشر كثير ؟ أكانوا ينشدون قول ليبيد :

ذَهَبَ الدِّينَ يُعَاشُ فِي أَكْثَانِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ

أم كانوا يستقلون هذا البيت ، ويرون أنه لا ينبي بوصف ما يجدون من
 الضيق كما رأى أبو الفرج ؟

قلت : أما أنا يا سيدي ، فراض على الجيل الذي أعيش فيه ، ولعلي لو
 خبرت أن أعيش في الأجيال التي كان يعيش فيها هؤلاء الناس الصالحون ،
 لآثرت عصرى ، وجيلي ، وبيتي ، ولقنعت بحظي من ذلك ، ولأنشدت قول ليبيد :
 فَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَ المَلِيكُ فَإِنَّمَا قَسَمَ الخَلَائِقَ بَيْنَنَا عَلَامَهَا

ساعة مع طرفة^(١)

قال صاحبي : أما اليوم يا سيدي فلن يكون أمرك يسيراً ولا ممهداً ، فقد اخترت « طرفة » موضوعاً للحديث الذي أردت أن يكون بينك وبينى ، والذي أذنت في أن أقترح موضوعه عليك من حين إلى حين ، وقد اخترت مطولته التي يسمونها المعلقة ، وأكاد أعتزف بأنى لا أعرف له شعراً آخر ، فقد أقرأ له البيت أو البيتين في هذه القصة أو تلك ، وقد سمعتك وقتاً ما تتحدث بأن له ديواناً مطبوعاً ، ولكن يدي لم تصل إلى هذا الديوان ، فأنا أجهل صاحبك جهلاً تاماً ، وقد حاولت أن أعرفه من قصيدته المطولة هذه فلم أجد من نفسى صبراً عليها . ولم أستطع أن أقرأ منها إلا الأبيات الأولى التي يبكى فيها الديار ، وينسب فيها بصاحبته في غير سهولة ولا براءة من التكلف . فلما بلغت وصف الناقة عجزت عن التقدم ، وأعلنت الإفلاس وطويت الكتاب . فهلم يا سيدي أنبئني عن هذه القصيدة ، وحدثني بمظاهر الفن الرائع والشعر البارع فيها ، وما أرى أنك ستفعل ، فليس الشعراء القدماء كلهم ليبدأ . وليست تستقيم لهم جميعاً هذه الخلال التي استقامت للبيد ، ولولا أنى كنت أؤثر النفع ، ولا أريد أن أشق عليك ، ولا أن ألزمتك الحجة منذ ابتدأنا الحديث ، لما رضيت منك ليبدأ موضوعاً لأوّل الحوار ، ولا قترحت عليك طرفة أو أشباه طرفة من أصحاب المطولات ، ولكنى لا أكره أن أنهزم لك لأطمعك في الفوز الآن ، وقد استمتعت بالفوز أسابيع ، لا تكره أن تلتى الجلد كما ينبغي أن تلقاه ، وأن تعترف بالحق كما يفرض نفسه عليك ، وأن تؤمن لى بأن هذا الكلام الذي يقوله طرفة كلام ليس منا ولسنا منه فى شيء ، لانفع فى قراءته ، ولا قدرة لنا على قراءته ، ولا أثر له فى تثقيف عقل ، أو تهذيب طبع ، أو تقويم إنسان ، وإنما هو كلام مات ، والخير فى أن يموت . أم تراك ستحاور وتداول وتقسّم الشعرة إلى نصفين لتثبت لنا أن فى شعر « طرفتك » هذا بقية من حياة ،

(١) نشرت بجريدة الجهاد فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٥ .

وقدرة على النفع ، وغناء في التثقيف والتهديب والتقويم .

قلت ضاحكاً : وهل عرفت منى إلا المحاوررة والمداورة ، وتقسيم الشعرة إلى نصفين أو إلى أثلاث أو إلى أرباع ، والجد في إثبات ما ألف الناس أن ليس إلى إثباته سبيل ، ونفى ما استيقن الناس أن ليس إلى نفيه سبيل ! وقد يقال إنى رجل شاذ في التفكير ، شاذ في الحديث ، شاذ في الفهم والحكم . فلم تريد أن تحولنى عن هذا الشذوذ وأن تجعلنى رجلاً مثلك ، مستقيم المنطق ، معتدل المزاج ، أقر ما يقره الناس ، وأنكر ما ينكرون ، أعلم ما يعلمه الناس ، وأجهل ما يجهلون ؟ على أنى أظن أنك إنما تكلف بالتحدث إلى . والاستماع لى بهذا الشذوذ نفسه ، فأنت ترى عندى ما لا تراه عند غيرى ، فتسليك هذه الغرابة ، وتلهيك وتريحك من هذه الحياة المطردة التى لا نبو فيها ولا اختلاف . قال وهو يظهر الدهش : فأنت إذن تريد أن تشذ ، وأنت إذن تزعم أو تتكلف أن لقصيدة « طرفة » هذه نفعاً وغناء ، وأن فيها شعراً وجمالاً . قلت : نعم ، أريد أن أشذ ما دام الناس يروننى شاذاً ، وإن كنت أنا أرى الشذوذ فيك وفي أصحابك . فأنا أحب قصيدة طرفة حباً شديداً ، وأكبرها إكباراً لا حد له ، وقد أعجب ببعض أجزائها إعجاباً لم أمنحه قصيدة لبيد . وأنا لا أرى في هذا إغراباً ولا شذوذاً ، ولا ميلاً إلى الإغراب والشذوذ ، وإنما أذهب في هذا مذهب الذين لهم بالشعر علم من القدماء ، وأزعم أن المحدثين سيذهبون هذا المذهب يوم يكون لهم بالشعر علم . وما أشك في أن بين المحدثين المعاصرين من يجب طرفة كما أحبه ، ويمنحه مثل ما أمنحه ، أو أكثر مما أمنحه من الإعجاب . وأى شيء أيسر من أن تجهل شعر طرفة ، أو تعجز عن فهمه ، أو تكسل عن محاولة فهمه ، فتنكره وترفضه ، وتقضى على الذين يفهمونه ويحبونه بالإغراب والشذوذ ! وإذا كنت تعرف بأنك لم تقرأ من هذه القصيدة إلا الأبيات الأولى ، وبأنك لم تكده تنهى إلى وصف الناقة حتى عجزت ، وأقررت بالعجز ، وأعرضت عن القصيدة ، وطويت الكتاب ؛ فهل ترى من العدل الذى تطمئن إليه نفسك ، ويرضى به ضميرك ، أن تقضى بأنها لغو ، وعلى من يجب القصيدة بأنه شاذ ؟ ومع ذلك ، فما أظن إلا أننا سنتفق على حب طرفة ، والإعجاب بمطلته هذه في غير مشقة ولا جهد ، بعد أن ننظر فيها معاً نظرة صدق وإخلاص

للحق والفن جميعاً . والخير في أن تقرأ القصيدة من أولها إلى آخرها دون أن تتكلف فهماً ، أو تحاول تعمقاً واستقصاء ، وأن تنبئني إذا فرغت من هذه القراءة بما تركه في نفسك من الأثر . قال : وأي أثر تريد أن تركه في نفسي وقد أنبأتك بأنى أخذت في القراءة فلم أستطع أن أمضي في وصف الناقة ؟

قلت : فاقراها ، لعلك تستطيع أن تمضي في وصف الناقة ، ولعلك تستطيع أن تجد فيه شيئاً ، ولعلك تستطيع بنوع خاص أن تجد بعده شيئاً . قال : فإنني مطمئن إليك ، وأنا أعلم أنك قرأتها ، فحدثني عنها ، وأبني لي عن رأيك فيها ، ولك على أن أقرأها بعد ذلك .

قلت : كلا يا سيدي ! إني لا أريد أن ألقى عليك درساً ، وإنما أريد أن أصل بينك وبينى حواراً ، فإما أن تقرأ هذه القصيدة ، وإما أن ينقطع الحوار . قال : إن إلحاحك هذا ، واستبدادك بي ، ليدلان على شيء من الضعف لا أكرهه ، فأمهلي إذن لحظة لأقرأ القصيدة ، وإن كنت أكره القراءة في غير فهم ، ولا سبيل إلى الفهم . قلت : لك من الوقت ما تشاء .

ثم انصرفت عنه إلى بعض الأمر ، وتركته خالياً إلى هذه القصيدة ساعة أو بعض ساعة ، ثم عدت إليه ، فإذا هو في مكانه لم يتحول ، وإذا هو ما زال ينظر في القصيدة ، ويطيل النظر فيها ، وإذا هو قد نهض من مكانه فأخذ قاموس « الفيروزابادي » من موضعه بين الكتب ، ثم عاد إلى حيث كان ، وأخذ يلتمس في هذا المعجم بعض الألفاظ التي شقت عليه ، فلما رآني مقبلاً قال في شيء من الحياء والغيظ : هلا وضعت بين يدي شرحاً من شروح المعلقات لتغنيني عن البحث والتفتيش في هذا المعجم الضخم العسير ، قلت : فإنني يا سيدي لم أطلب إليك أن تفهم ، وإنما طلبت إليك أن تقرأ . فما حاجتك إلى المعجم ؟ وما حاجتك إلى الشرح ؟ قال مغضباً : فإذا كانت هذه القراءة التي طلبتها إليّ تثير حاجتي إلى الفهم ، وتدفعني إليه دفعاً ؟ قلت وقد أغرقت في الضحك ، وأغرق هو في الاستحياء : وإذن فما بال قراءتك الأولى لم تثر حاجتك إلى الفهم ؟ ولم تدفعك دفعاً إلى البحث والاستقراء ؟ لم تكدر ترى الناقة حتى أعرضت عن القصيدة كلها إعراضاً ، فما بال الناقة لا تخيفك اليوم ؟ قال : إنها ناقة بغیضة قد حجبت عني ، وما زالت تحجب عني ، صوراً

ومعاني أظن أنها من أروع الصور والمعاني ، ولو استطعت ، لعقرت هذه الناقة عقراً ، أو لنحرتها نحراً ، أو لمحوها محواً ، لأنفذ إلى هذه المعالي الرائعة . ولكني أخشى أن أهمل وصف الناقة هذا فأهمل شعراً كثيراً ؛ فقد كنت أكره وصف الناقة في قصيدة لييد ، فلما درسناه معاً ، تبينت أن فيه جمالا وفناً ما أزال أذكرهما . قلت : لا بأس عليك ! فليست ناقة طرفة كناية لييد ، وما أظن أن بعقرها أو نحرها عليك أو على طرفة بأساً ، وقد كان طرفة نفسه مسرفاً في إبله . وفي إبل أبيه عقراً ونحراً . فهو كان يهين الإبل لإكرام الضيف ، كما كان يهينها للهو ، وكما كان يهينها للميسر أيضاً ؛ فأهن ناقته هذه ولا تحفل بها ، ولا تطل الوقوف عندها ، فما أظن أن الوقوف عندها سينفعك أو يجدي عليك . قال وهو في شيء يشبه الحيرة : أو لست تزعم أن طرفة شاعر مجيد ؟ قلت : بلى . قال : فكيف يستقيم للشاعر المجيد أن يكون في قصيدته جزء من الأجزاء يمكن إهماله والإعراض عنه دون أن تفسد له القصيدة كلها ؟ قلت في شيء من الأسف ، بل من الحزن العميق : لسنا يا سيدي بإزاء قصيدة لطرفة ، وإنما نحن في أكبر الظن ، بإزاء بقايا قصيدة لطرفة ، وليست هذه الناقة التي تقوم بينك وبين المعاني الرائعة والصور الجميلة ناقة طرفة في أكبر الظن ، وإنما هي ناقة قد دُست عليه دساً ، وزُجّت في حظيرته زجاً . ليست منه وليس منها في شيء ؛ ألم تبلغ وسط القصيدة وآخرها ؟ قال : بلى . قلت : فكيف تستطيع أن تفهم هذا الاختلاف العظيم بين هذا الجزء الذي وصفت فيه الناقة وبين ما بعده وما قبله من الأجزاء ؟ ألسنت ترى في وصف الناقة إغراباً وتكلفاً للألفاظ التي يقل استعمالها ويندر أن تنطق الألسنة بها إلا عند الإحصائيين ؟ ثم ألسنت ترى أن هذه الألفاظ الغريبة النادرة تقل وتكاد ألا توجد في سائر القصيدة ؟ وأن لغة الشاعر تسهل وتلين دون أن تفقد جزالتها ومثانتها إذا تجاوزت الناقة إلى غيرها من المعاني والأشياء ؟ قال : بلى . قلت : ألا يظن أن هذا دليل واضح على أن وصف الناقة على هذا النحو قد أقحم في قصيدة الشاعر إقحاماً ؟ قال : لا أدري . قلت : فإن للشاعر قصيدة أخرى رائية طويلة ، رويت في ديوانه ، وقد عرض فيها للناقة فلم يكذب يطيل ، وإنما أوجز في وصفها كل الإيجاز ، وشغل عنها بما أهمه من الغزل والفخر . وأكبر ظني يا سيدي ، أنه

لم يخل بالناقة في داليتها هذه ، ولم يقل فيها إلا البيتين أو الأبيات القصار ، أو أنه حفل بهذه الناقة ، ولكن وصفه لها قد ضاع ، فطول الرواة حيث أوجز الشاعر ، أو عوّض الرواة ما ضاع من قصيدة الشاعر . وأى رواة ؟ الرواة المتأخرون ، الذين كانوا يتخلون العلم والتعليم صناعة ، ويحرصون على أن يعلموا الشباب أوصاف الإبل ، وأوصاف الخيل ، وأوصاف السحاب ، وأوصاف السلاح وما يشبه ذلك . فلم أقرأ هذه القصيدة يوماً من الأيام — وما أكثر ما قرأتها — إلا كان هذا الشعور في نفسي قوياً ، وازدادت ثقتي بأن هذا الجزء من أجزاء القصيدة مصنوع ، قد قصد به إلى تعليم الشباب طائفة من أوصاف الإبل أحصيت فيه إحصاء . ومن آية ذلك ، أنك تستطيع أن تنظر إلى وصف لبيد وغيره من الشعراء للنوق ، فسترى في هذا الوصف حركة واطراداً وحياة قوية ، وسترى أن الشعراء يتبعون الإبل أو يسايرونها ، أو يشبهونها بجيوان كالنعامة أو البقرة أو حمار الوحش ، ثم يتبعون هذا الحيوان في حركته واضطرابه ، وهم يتخلون هذا وسيلة إلى استحضار الصور الطبيعية المختلفة ، وعرضها عليك . فأما هذا الجزء من قصيدة طرفة ، فليس له حظ من حركة ولا حياة ، وإنما استحضر الشاعر أو الناظم ناقة من النوق ، فوقفها أمامه ، وأخذ يحدق فيها تحديقاً ، ثم يصورها تصويراً دقيقاً ، فهو معنى بالناقة من حيث هي ناقة ، يكاد ينسى أنها أداة للسفر ، وتجشم أهوال الصحراء ، فهو إلى أن يكون أستاذاً يسمى لك أجزاء الناقة ، ويعلمك ما يحمل على هذه الأجزاء من الصفات ، وما يستجد لها من الخصال ، أقرب منه إلى أن يكون شاعراً يستوحى حياة نفسه ، كما يفعل غيره من الشعراء .

قال صاحبي — ولم أستطع أن أطيل حوارهما فيما قال ، ومن يدري ! لعله موفق فيه إلى الصواب — : فإنني لا أرى رأيك في هذا ولا أفرك على أن إعراض الشاعر هنا عن الحركة القوية ، والحياة المضطربة ، ووقفه عند أجزاء الناقة بحققها ويصورها ويصفها ، دليل على أن هذا الشعر مصنوع ، فليس ضرورياً أن يكون الشاعر متحركاً دائماً ، وليس ضرورياً ألا يتعرض الشاعر إلا للحركة والحياة والنشاط . والشاعر يستطيع أن يصور ناقته قائمة مستقرة ، كما يستطيع أن يصورها متحركة نشيطة ، وهو في هذا كله قادر على أن يحسن التصوير

ويأتى بالشعر . ومع أنى لم أفهم بعدُ كلَّ ما قاله طرفه ، أو حمل عليه في وصف الناقة ، فقد ينجيل إلى أنه لم يقيد ناقته ، ولم يعقلها ، وإنما هو تركها حرة تذهب وتجيء وأخذ يصفها في أثناء ذلك ، ولعله امتطأها ومضى بها في الصحراء ، ثم أخذ يصفها خلال ذلك ، وأكبر الظن ، أنه شغل بها عن النعام والبقر وحمير الوحش . وأعود فأقول : إنى لم أفهم هذا الجزء من القصيدة بعدُ على وجهه ، فلا أستطيع أن أقطع فيه برأى . قلت : فن أيسر الأشياء أن تقف عند هذا الجزء ، وأن نتظر في آياته بيتاً بيتاً ، لتبين من أمره ما نستطيع أن نتبين . قال : كلا يا سيدى ! فإنى لست في حاجة إلى هذا العناء ، وقد زعمت أنك لا تريد أن تلقى على درساً في اللغة أو في غير اللغة ، وإنما تريد أن تصل بينك وبينى حواراً ، فأعفى من هذا الجزء ، وليكن مصنوعاً كما ترى ، أو صحيحاً كما أظن ، فإن وجه الأرض لن يتغير إن صح رأيك أو صدق ظنى ، وأسرع بنا إلى القسم المفهوم من هذه القصيدة ، فإنى أرى فيه جمالا قلَّ أن يشبهه جمال .

قلت : والغريب أننا نستطيع أن نأخذ في هذا القسم المفهوم من القصيدة ، كما تقول ، دون أن نشعر بأننا فقدنا شيئاً ، ودون أن نحس هذا النقص الذى نحسه كلما عرضنا لدرس البقايا المنقوصة ، والآثار التى ألحَّ عليها الزمن ، وحفظ منها ما حفظ ، وأضاع منها ما أضاع . ألا ترى أن أول ما يلقانا من هذا القسم إنما هو حديث الشاعر عن نفسه في إيجاز وإجمال ، وفي أبيات قليلة جامعة ، كأنه يريد أن يعرف نفسه لنا أو يقدمها إلينا ، كما يقول المحدثون ، فكاننا نلقاه لأول مرة ، وكأننا نحب أن نعرف من أمره ما نجهد ، وكأنه يصور لنا نفسه تصويراً سيراً ، قبل أن يأخذ معنا في الحديث المفصل الطويل . ألا ترى إلى هذه الأبيات القليلة ؟ كيف تقف الشاعر أمامك ، وتمثله تمثيلاً صادقاً ، فتحبيه إليك ، وتعطفك عليه ، وتدعوك إلى أن تطيل سؤاله ، وتستمتع بالاستماع له :

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى خِلْتُ أَنِّى
عَنِيتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَدَّلِ
وَلَسْتُ بِحَلَّالِ التَّلَاجِ مَخَافَةً
وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدِ
وَإِنْ تَبَغْنِي فِي حَلْفَةِ الْقَوْمِ تَلَقَّنِي
وَأِنْ تَلْتَمِسْنِي فِي الْحَوَانِيتِ تَضْطَلِدِ

مَتَى تَأْتِنِي أَصْبَحَكَ كَأَسَا رَوِيَّةٌ وَإِنْ كُنْتَ عَنْهَا ذَا غَنَى فَاغْنِ وَأَزِدْ
وَإِنْ يَلْتَقِ الْحَى الْجَمِيعُ تَلَاقِي إِلَى ذِرْوَةِ الْبَيْتِ الشَّرِيفِ الْمُصْمَدِ

فانظر إليه وهو يتقدم إليك ظريفاً ، لبقاً رقيقاً ، خفيف الروح ، حازماً مع ذلك كل الحزم ، واثقاً بنفسه أشد الثقة ، راضياً عنها كل الرضا ، شاعراً بواجبه الاجتماعي أوضح الشعور وأقواه ، يؤمن بأنه قد خلق لقومه قبل أن يخلق لنفسه ، فهو يجيبهم إذا دعوه ، بل هو يجيبهم إذا دعوا وإن لم يوجهوا الدعوة إليه ، كأنهم لا يستطيعون أو لا ينبغي لهم أن يدعوا غيره ، وبأنه هو الفتى كل الفتى . هو الفتى الذى يختصر شباب قومه اختصاراً ، ويمثلهم تمثيلاً ، ويحمل عنهم أفعال القبيلة كلها . وهو يستجيب لدعوة الداعى ، سواء أوجهت إليه أم إلى غيره ، مسرعاً لا كسلاً ولا متبلداً ، وكيف يكسل أو يتبلد وهو الفتى الذى ملأ نفسه إعجاباً بنفسه ، وملأ نفوس قومه إعجاباً به ، واعتماداً عليه ! فأول صفاته إذن هذا الشباب الذى يدفعه إلى أن يتمثل الواجب الوطنى أقوى التمثل ، ويسرع إلى الإجابة إليه . ثم هو بعد ذلك لا يكتفى بالمخاطرة والمغامرة فى سبيل هذا الواجب ، ولكنه كريم أيام السلم لا يستتر ولا يتوارى ولا يهرب بماله من الساتلين واللاجئين . ولا يهرب بقوته من المستغيثين والمستجبرين . هو لا يتزل الأماكن الخفية التى لا ترى فيها المنازل ، ولا يقصد إليها المحتاجون ، وإنما يتزل الأماكن الظاهرة ، فيعطى إذا سئل ، كما يجب إذا دعى . وإذا اطمان الرجل إلى أنه يشعر بواجبه أصدق الشعور ، ويؤديه أحسن الأداء ، ويعطى قومه وغير قومه من نفسه وماله فى غير تحفظ ولا بخل ولا إشفاق . فن حقه ألا يبخل على نفسه بالخير ، وألا يحول بينها وبين نعيم الحياة . وصاحبنا لا يحرم نفسه كما أنه لا يحرم الناس ، هو لا يستتر منك ، ولا من غيرك ، وهو يدلك على الأماكن التى تستطيع أن تجده فيها إن احتجت إليه ، فأما فى ساعة الجلد ، فتستطيع أن تلمسه فى حلقة قومه هناك حيث يجتمعون فى ناديبهم ، يتحدثون ويتشاورون إن عرض لهم من الأمر ما يدعو إلى التشاور ، فهو يشارك قومه فى جدهم كله ، وإن كان شاباً ، لأن له من الرشيد والحلم وحسن البلاء ما يمكنه من ذلك ، ويفرضه على قومه فرضاً . وأما فى غير ساعات

الجد ، فأنت تستطيع أن تلتمسه هناك ، حيث يلتمس أترابه من الشبان
الترفين الذين لا يرضون بأنفسهم ولا بأموالهم حين يحتاج إليها ، ولا يقعدون
عن اللذات حين تتاح لهم أوقات الفراغ . تستطيع أن تلتمسه في الحانات
عند هؤلاء الحمارين الذين يحملون خمرهم المعتقة من الحضرة ، فيمتعون بها
شباب البادية ويحببون بها إليهم هو الحياة . ولن يضيع سعيك إذا سميت
إليه تلتمسه في حانة من هذه الحانات ، فهو لن يلقاك بخيلاً ولا شحيحاً
ولا كزراً ، ولكنه سيشاركك في لوه ، وسيسقيك حتى تروى ، وهو لن يكرهك على
ذلك فأنت وما شئت ، إن كان بك ظمأً نعتت غلَّتكَ ، وإن كنت غنياً
فليزدك الله غنى ، ولا بأس عليك . فإذا أردت أن تسأل عنه دون أن تلقاه ،
فأنت تستطيع أن تسأل من شئت ، فستعلم أنه ليس من أساط قومه ولا من
أقلهم خطراً ، وإنما هو الشريف الكريم من أشرف البيوت وأكرمها ، وهو
منا في أرفع مكانة وأرقاها .

أعرفت الآن هذا الشاعر في نفسه ، وفي قومه ، وفي أسرته الأذنين ،
في جده ، وفي لوه ، في عمله وفي فراغه ، وإذن فلا بأس عليك من أن تمن
في معرفته إمعاناً ، ومن أن ترى مجالسه حين يلهو وينفق أوقات الفراغ . وهو
يحد شيئاً من اللذة في التحدث إليك بهذا ، لا يتكلف ولا يتحفظ ، ولكنه
لا يسف ولا يتبدل .

نَدَامَايَ بِيضٌ كَالنُّجُومِ وَقَيْنَةٌ	تَرُوحُ عَلَيْنَا بَيْنَ بُرْدٍ وَمُجَسِّدٍ -
رَجِيبٌ قَطَابُ الْجَيْبِ مِنْهَا رَفِيقَةٌ	بِجَسِّ النَّدَامَى بَضَّةُ الْمَتَجَرِّدِ
إِذَا نَحْنُ قُلْنَا أَسْمِعِينَا أَنْبَرْتَ لَنَا	عَلَى رِسْلِهَا مَطْرُوفَةٌ لَمْ تَشَدِّدِ
إِذَا رَجَعْتَ فِي صَوْتِهَا خِلْتَ صَوْتَهَا	تَجَاوَبَ أَظَارٌ عَلَى رُبْعٍ رَدَى

فأنت لا تجده في الحوانيت متبدلاً ، ينادم الصعاليك وأخلاط الناس ،
وإنما تجده فيها كريماً ممتازاً ، ينادم قوماً كراماً ممتازين أحراراً مثله ، بيضاً
كأنهم النجوم ، وهم لا يحبون هذا الشراب الجاف الحشن - إن صح هذا
التعبير - وإنما هم أصحاب لوه مترف له حظ من الفن ، فهم يشربون ويسمعون
ويستمعون أيضاً ، لهم قينة جميلة حسنة الصوت ، قد ملئ صوتها رقة وحناناً

وحنيناً أيضاً ، وهي بضعة رخصة ، وهي متبذلة لهم لا تحتجب عنهم ، ولا تبخل عليهم بما يحبون من دعاية وتجميش ، هي أشبه شيء بهذه الفتاة التي تصورها الأغنية الفرنسية ، التي كان يتغنى بها الجندي أيام الحرب والتي يسمونها « مدلون » وفي تصوير هذه القينة بهذه الحرية ، وهذه السداجة ، ومن غير تكلف ولا غلو في الاحتياط ، جمال بدوي رائع حقاً ، وإياك أن تظن أن صاحبنا على شبابه وفراغه يلهو عبثاً ، أو ينفق وقته في الشراب والاستمتاع بالنساء استجابة لحسه ، وطاعة لهذا الميل الفطري إلى اللذة ، فإنك إن ظننت به هذا أخطأت فهمه وأسأت إليه ، فهو ليس صاحب لذة غليظة تصدر عن الحس لترضى الحس ، وإنما هو صاحب لذة رقيقة تصدر عن تفكير ، وعن فلسفة وعن اختبار للحياة ، وعن حكم دقيق على حوادثها وخطوبها ونتائجها ، وقد ظن به قومه مثل هذا الظن ، فأذكروا عليه إسرافه في اللهو ، وإتلافه الطارف والتلبد ، فاجتنبوه وقاطعوه وتحاموه ، ولكنه لم يحفل بذلك ، لأن قومه لم يفهموه ، فاحذر أن تكون كقومه عاجزاً عن فهمه ، مقصراً في إدراك فلسفته ، فهي فلسفة يسيرة سهلة خليقة أن تفهم ، وهي فلسفة خالدة تجدها في كثير من البيئات البادية التي لم ينفذ إليها الدين ، أو الحاضرة التي لم يؤثر فيها الدين :

وما زالَ تَشْرَابِي الخُمورَ وَلَدَّتِي وَبَيْعِي وَإِنْفَاقِي طَرِيقِي وَمُتَلَدِي
إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي العَشِيرَةُ كُلُّهَا وَأفْرِدْتُ إِفْرَادَ البَعِيرِ المَعْبُدِ

على أن قومه إن عجزوا عن فهمه فأنكروه ، فهناك قوم آخرون لم يحاولوا فهمه . ولكنهم لم ينكروه على كل حال ، وهم الفقراء المحتاجون إلى عونه وإعانتة ، والأشراف المكبرون لسؤدده ومكانته ، أولئك يفزعون إليه ، وهؤلاء يعترون به ، وهو مع ذلك حريص على أن يعرض فلسفته ، ويمجادك فيها ، ويندود عنها ، ويقنعك بها إقناعاً . فاسمع له كيف يقول :

أَلَا أَيُّهَا الزَّاجِرِيُّ أَحْضَرَ الوَغَى وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّدَاتِ هَلْ أَنْتَ مَخْلِدِي
فَإِنْ كُنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ دَفْعَ مَنِيِّي فَدَعْنِي أَبَايْزَهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

فالذين يلومونه حين يخاطر ويقامر ، ويسرع إلى الحرب أداء للواجب

وذوداً عن قومه ، يخطئون لأنهم لا يستطيعون أن يضمّنوا الخلود إذا أعرض عن الحرب ، فالموت ساع إليه إذا هو لم يسع إلى الموت . والذين يلومونه على شهود اللذات ، والأخذ بمحظه من نعيم الدنيا وهو الحياة ، يخطئون لأنهم لا يستطيعون أن يضمّنوا له حياة خالدة إذا أعرض عن اللذات ، وماقيمة هذه الحياة الطويلة الخشنة الجافة التي لا لذة فيها ولا نعيم ؟ وهل يحرص الناس على الحياة إلا لما فيها من لذة .؟ وإذا لم يكن بد من الموت ، وإذا لم يكن وراء الموت شيء ، وإذا كان الموت ملمماً بالفقر والغنى ، بالجواد والبخيل ، وبالشجاع والحيان ، أفليس الخير أن يأخذ المرء في هذه الحياة بلذات النفس والجسم جميعاً ، فيرضى نفسه بأداء الواجب . والارتفاع عن الدنيا ، ويرضى جسمه بالأخذ بأعظم نصيب ممكن مما يتاح له من اللذة والمتاع ؟

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لِكَالطَّوْلِ الْمُرْحَى وَثِنْيَاهُ بِالْيَدِ
مَنْ مَا يَشَأُ يَوْمًا يَقْدَهُ لِحَتْفِهِ وَمَنْ يَكُ فِي حَبْلِ الْمَنِيَةِ يَنْقَدِ

قال صاحبي : أما أنا ففتون بهذين البيتين إلى غير حد ، هذا التشبيه البدوي الصادق الصارم الذي لا يدع سبيلا إلى الأمل ، ولا يشق عليك باليأس المظلم القاتم ، وإنما هو موثس في شيء من الدعة والحلاوة والإذعان المطمئن المحبب إلى النفوس . هذا التشبيه القريب الذي يفهمه كل إنسان دون أن يتكلف في فهمه جهداً ، أو يحتاج إلى التفكير شاق . هذا التشبيه الذي لا تكاد تسمعه وتفهمه ، حتى ترى نفسك في البادية مع الشاعر تسمع له . وتفهم عنه ، وتنظر إليه ، وتهم أن تسير سيرته ، لولا أن لك ديناً ينبئك بأن للحياة غاية أخرى غير اللذة ، وبأن الموت ليس هو الأمد الذي ينتهى إليه الأحياء . هذا التشبيه الرائع من جميع جهاته يفتنى ويخلبنى ، ويحبب إلى الشاعر ويحملنى على أن أطلب إليك أن نطيل عنه الحديث .
قلت : لا بأس ، ولكن ليكن هذا في الأسبوع المقبل .

ساعة أخرى مع طرفة^(١)

لم يكن صاحبي مبتهجاً ، ولا مبتسماً ، ولا ظاهر النشاط ، حين لقيته في الموعد الذي كان بيننا ، وإنما كان كئيباً محزوناً كاسف البال ظاهر الفتور فلما سألته عن أمره ، أعرض عني وأبى أن يجيب ، فلما ألححت عليه في السؤال ، قال : وماذا تريد أن أرد عليك ، وأنت قد أشمت بي العدو ، وأثرت إشفاق الصديق عليّ ، ورثاه لي ، وأطلقت فيّ ألسنة الناس بالفكاهة والسخرية وكدت تجعلني مثلاً في الأنديّة يضرب للجهل والغفلة ، وبلادة الذهن وقلة الاطلاع .

قلت : وما ذاك ؟ قال : إنك تذيع أحاديثنا في شيء من التبسط ، لا تحتفظ ولا تحتاط ، فتروى عني كثيراً مما أقوله لك . لا تصنّفه ولا تنقيه ، ولا تزيل منه الغناء ، ولا تنفي عنه كثيراً من هذا السخف الذي تجرى به الألسنة في المألوف من الحديث ، ولكن الأقلام تتجافاه ، وترتفع عنه حين تسجل هذه الأحاديث ، فأنت تظهرني دائماً على حظ لا بأس به من الغباء والقصور ، ومن الإهمال والتقصير ، حتى لقد ظن بعض الناس أنني لست شخصاً موجوداً بالفعل ، وإنما أنا شخص خيالي قد اخترعته اختراعاً ، وابتكرته ابتكاراً ، وصورته كما تحب أن يكون خصمك من الضعف والعجز ، لا كما هو في حقيقة الأمر . قلت مبتسماً : إن فيها تقول بعض الحق ، فقد رأيت قوماً يسخرون منك ، ويتندرون عليك . وقد زعم لي صديق من الأصدقاء أنني قد استضعفت رجلاً من الناس ، لا حول له ولا قوة ثم اتخذته خصماً في هذا الحوار . وما أرى إلا أن هذا الصديق الماكر قد أحصى واستقصى : وبحث حتى اهتدى إليك فوشى بي عندك ، وما زال بك يهيجك ويفريك ، حتى ملأك غيظاً وحنقاً . ولست أرى عليك مما يقول الناس بأساً ، ولست أحب لك أن تسمع لهذا الصديق الذي سيجد لذة في المكر ، ولا يتحرج من أن يعبث بأصدقائه . وإنما أحب

(١) نشرت بجريدة الجهاد في ٦ مارس سنة ١٩٣٥ .

لك أن ترتفع عن هذا كله ، وأى الناس أمن ألسنة الناس ! وأى الناس استوثق من أن الناس سيحسنون به الظن ، وسيقولون فيه الخير ، وسيكفون عنه ألسنتهم ، وأقلامهم ، وسيصدون عنه سعائهم وشايتهم ! وإنما تجرى أمور الحياة على الشر أكثر مما تجرى على الخير ، والناس إلى الإساءة أسرع منهم إلى الإحسان ، فاصبر لما يقال فيك ، وما يساق إليك ، ولا تظهر الضعف فتطمع فيك من لا ينبغي أن يرقى إليك .

قال صاحبي : هذا كلام يسير حين يقال ، سهل حين يكتب ، ولكنك لا تستطيع فيما أعتقد أن تلتق بعض ما ألتى ، وأن تصبر عليه كما تريد أن أصبر ، وتغضى عنه كما تريد أن أغضى ، وأنا رجل مثلك لا ينبغي أن تعرضنى لما لا تحب أن تعرض له . وما يعينى من أمر لبيد وطرفة ، وأمثال لبيد وطرفة ، إذا كان الحديث عنهما وعن أمثالهما سيعرضنى لمثل هذه السخرية ، ومثل هذا الازدراء . لقد أذعت في الأسبوع الماضى أنى لم أر ديوان طرفة ، ولم أنظر فيه ، فما أكثر ما سمعت من استهزاء المستهزئين وعيب العائين ! قلت : لا بأس عليك ، لقد تحدثت بهذا في صراحة صريحة ، ووضوح ليس بعده وضوح ؛ ومع ذلك فلم آمن أن تظن بي الظنون ، وأن يشفق على المشفقون ، وأن يتفضل كاتب أديب مقيم في الريف ، فيكتب إلى (الجهاد) أنه يظن أنى لم أر ديوان طرفة ولم أعرف أنه قد طبع ، وأنه مستعد لإرسال نسخة إلى إن احتجت إلى ذلك ، ثم ينبئني من أمر هذه النسخة بالمفصل الذى لا بأس به . ومع أنى أشكر للكاتب الأديب فضله أجمل الشكر ، فإنى قد رأيت هذا الديوان الذى تحدثت عنه ، ورأيت له طبعة أخرى نشرت في الخارج مع دواوين جماعة، من الجاهليين ، فإذا كان الناس يعيبونك بما أذعت من أنك لم تر ديوان طرفة فإن منهم من ظن أنى لم أره ، فلا يسوءك عيب الناس لك ، فإنى لا يسوءنى أن يظن الناس بي الظنون . قال يا سيدى أنت صاحب صراع وخصام ، وبينك وبين الناس شؤون لا تنقضى ، تثبت لهم ويشبتون لك ، وتصبر عليهم ويصبرون عليك ، ويقولون فيهم ويقولون فيك ، فأنت وما شئت من خصومتهم ، أما أنا فلست من هذه الخصومات فى شيء ، ولا أعيب أحداً فلا أحب أن يعينى أحد ، وإذا كانت أحاديثنا عن هؤلاء الشعراء ستجر على هذا الشر الذى

لا أريده ولا أقبله، فإنى زاهد فى هذه الأحاديث فلتقطعها منذ اليوم . وأعود فأقول لك : إنى رجل مثلك أكره ما تكره وأحب ما تحب ، فما ينبغى أن تعرضنى للوم والعيب ، ولا للسخرية والاستهزاء ، لا لشيء إلا لأنى أتحدث إليك . وأسمع منك ، فى صراحة وصدق ، وفى اجتناب للتكلف والتكبر ، وللتزويد والغرور .

قلت : وأى غرور أكثر مما أنت فيه ؟ ! ها أنت ذا تجادلنى وتحاورنى ، وتسرف فى الجدل والحوار ، وتظهر التمتع والإباء ، وكأنك تريد أن تأخذ على العهود ، وتعلى على الشروط ، وأنت تعلم حق العلم أنك مدين لهذه الأحاديث بالوجود ، وأنت ما كنت لتشهد الحياة ، أو لتشهدك الحياة ، لو لم أخترعك اختراعاً ، وأبتكرك ابتكاراً ، وأمنحك من الحياة والحركة ما يمكنك من أن تجادل وتحاور ، وتلقى السؤال وتنتظر الجواب . وإلا فحدثنى من أنت ؟ ومتى كنت ؟ وكيف تستطيع أن تكون إذا قطعنا هذه الأحاديث ؟ وهل تظن أن الناس يتحدثون عنك أو يلهجون بك أو يجادلون فيك ؟ ولقد كتب إلى من كتب يسألنى عن وجه الحق فى أمرك : أوجود أنت بالفعل ؟ أم أثر أنت من آثار الخيال ؟ وقد رفقت بك ، وأشفقت عليك ، فلم أجب من سأل ، وتركته يقدر أنك شخص موجود حقاً . ولعله ظن هذا ، ثم رجحه ، ثم صدقه ، واطمأن إليه . وأى غرابة فى هذا وقد انخدعت أنت عن نفسك ، وظننت أن لك وجوداً خاصاً مستقلاً ، وأخذت تناضل دونه وتذود عنه ، وتعلى الشروط وأى شروط ، فكيف بك لو أنك موجود فى حقيقة الأمر ؟ أفرأيت غروراً أكثر من هذا الغرور ؟

قال : غروركم أنتم يا سيدى ليس أقل من غرورى ، فأنتم ترون أنكم شيء ، وما أنتم فى حقيقة الأمر بشيء ، وأنتم ترضون وتسخطون ، وتعرفون وتنكرون ، وتحمدون وتلعنون ، وتقبلون من القضاء وترفضون ، ولولا القضاء ما كنتم ، ولو شاء القضاء لذهبتم من حيث أقبليتم . فما بالك تأبى على ما أنت غارق فيه إلى أذنيك ! وما بالك تنكر منى ما تعرفه من نفسك ! كلا يا سيدى ! لست أول من تجنى على منسثه ، وتمرد على موجدته . ولم يكن لى بدء من هذا التجنى والتمرد ، فقد تزعم أنك أوجدتنى ، فينبغى إذن أن أكون صورة صادقة

لك وأثراً دالاً عليك ، ومختصراً يتمثل فيه كل ما يظهر أو يخفى فيك من عيب ؛ وما زلت ألح الآن كما كنت ألح من قبل في أنى لا أحب أن نتحدث عنى بما تشاء دون أن تحاطب في حديثك ، فتحول بينى وبين سوء الظن بي ، وتعصمى من هذه الأحكام الخاطئة التى لا أحب أن أتعرض لها ، ومهما يكن فى هذا الكلام من شطط ، فإنه لن يخطئ لومك لأنك لم تحسن تصويرى حين صورتنى ، ولا ابتكارى حين ابتكرتنى . فقد كان ينبغى أن تنشئ لك خصماً خليقاً بهذا الاسم ، قادراً على أن يجاور فى غير ضعف ، ويجادل فى غير جهل ، ويتحدث عن طرفة بعد أن يكون قد قرأ ديوانه وفهم مطولته ، فأما أن تتخذ لك خصماً جاهلاً غافلاً ، ثم تقول وهو عاجز عن القول ، وثبت وهو عاجز عن النفي . فهذا شيء لا يدل على براعة . ولا على مهارة . ولا على خيال خصب قوى . ولا بأس عليك من أن أثور بك وأتذكر لك ، فما زلت جميعاً تثورون وتتكرون بمن لا ينبغى أن تثوروا به أو تتذكروا له .

والآن وقد جليت عن نفسى غمرتها ، وتحدثت إليك بما كنت أريد أن أتحدث به ، فلست أرى بأساً من أن نعود إلى الحديث فى طرفة ، ولك أن تذيب من هذا الحديث ما شئت ، على أن تحفظ وتحاطب . فإن أبيت إلا أن تصورنى كما تعودت أن تفعل ، فتق بأتى أنا المنتصر لأنى سأراجعك ، وأراجعك ، وألح عليك فى المراجعة حتى أضطرك إلى ما أحب ، أو أنقص عليك الحديث عن الشعراء القدماء . وما أظن أنك تجهل أن جماعة غير قليلة من أمثالك الكتاب يخلقون الأشخاص فى القصص والأحاديث خلقاً ، ثم يلقون منهم شططاً . والخطأ أن تظن أنى لا أوجد إلا بك ، وأنتك تستطيع أن تستغنى عنى متى شئت ، فما دمت قد أنشأتنى يا سيدى ، فلا بد من أن تحتلمنى كما أنا ، ولا بد أن تدعن لبعض ما أريد ، إن لم تدعن لكل ما أريد ، وثق بأن الأشخاص الخياليين قد يكونون أعظم أثراً وأشد سلطاناً على حياة الأحياء من الأشخاص الذين يستمتعون بالحياة الواقعة التى لا شك فيها ولا ريب . وأظننا كنا نتحدث فى الأسبوع الماضى عن هذه الفلسفة التى يعرضها طرفة فى قصيدته ، ويعتمد عليها فى تفسير تلك الحياة التى كان يجيهاها ، والتى لم تكن حياة جده مظلّم ، ولا حياة لهُو مفسد للنفس ، وإنما كانت مزاجاً معتدلاً من الجسد واللّهو ، ومن

العمل والفراغ ، كانت مقسومة قسمة عادلة بين ما ينبغي لقومه ، وما ينبغي لنفسه من الحق عليه ، وكانت مع هذا كله حياة واضحة كل الوضوح ، لا غموض فيها ولا إبهام ، واضحة لصاحبها على أقل تقدير ، وواضحة لكثير من الناس الذين لن تؤثر فيهم الحياة الدينية ، إما لأنهم لم يألّفوها ، وإما لأن نفوسهم لم تدعن لها . وما دام الشاعر لم يعرف أن بعد الموت شيئاً ، فهو مضطر إلى أن يرى الموت آخر الحياة وغايتها ، وهو مضطر إلى أن يلائم بين سيرته وبين هذه الحياة التي تنتهي إلى الموت . والشاعر قد وفق إلى هذه الملاءمة أحسن توفيق ، فأرضى قومه ، وأرضى نفسه ، وأخذ لا ينظر إلى عمله ، ولا إلى سيرته ولا إلى حياته كلها إلا اطمأن واستراح ، وأحس أنه يسلك الطريق التي لا ينبغي له أن يسلك غيرها . هو ميت من غير شك ، فليس ما يمنعه من أن يسعى إلى الموت ، كما يسعى الموت إليه ؛ وهو يسعى إلى الموت حين يغيث المستغيث ويستجيب للداعي ، كما أنه يسعى إلى الموت حين يأخذ بحظه من لذات الحياة ، فيشرب الخمر ، مصطبجاً حيناً ، ومغتبقاً حيناً آخر ، وهو يسعى إلى الموت حين ينفق من أيامه ما ينفق ، مستمتعاً بلذات الحب يسيرة ساذجة كما كان يستطيع أن يتصورها ، وأن يستمتع بها في غير تكلف ولا تصنع ولا اختراع لما لا حاجة إلى اختراعه من الخواطر والمعاني ، ومن الغايات والأغراض . وهو من أجل هذا قد جعل لحياته أغراضاً ثلاثة لولاها لما حفل بالحياة ، ولا اهتم لها ، وهي : شرب الخمر ؛ ونجدة المستغيث ، والاستمتاع بالحب . ولو أنه عاش في بيئة معقدة غير البيئة التي عاش فيها ، أو أدرك عصرًا معقدًا غير العصر الذي أدركه ، لتغير مثله الأعلى في الحياة ، ولا بتغي لنفسه لذات أخرى غير هذه اللذات اليسيرة الساذجة .

قلت مبتسماً : فقد أصبحت أنت المتحدث ، ولم يبق لي إلا أن أستمع ، وما أرى إلا أنك قد تهيأت لهذا الحديث قبل أن تجيء ، وما أشك في أنك لو فعلت هذا وتهيأت للأحاديث الماضية قبل أن تقبل عليها لما تورطت فيما تورطت فيه من قصور أو تقصير ، ولما لمتني بعد ذلك في تصوير ما صورته من هذا القصور أو التقصير . على أنني أستأذناك في أن ألاحظ أنك لا تقول شيئاً حين تزعم أن طرفة لو عاش في بيئة غير التي عاش فيها ، أو أدرك عصرًا

غير الذي أدركه . لكان مثله الأعلى في الحياة أرقى من هذه اللذات اليسيرة
التي صورها في أبياته الرائعة :

وَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَتَى وَجَدُّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عَوْدِي
فَمَنْهُنَّ سَبَقِي الْعَاذِلَاتِ بِشَرِّبَةٍ كَمِيتٌ مَتَى مَا تُعَلَّ بِالْمَاءِ تُزْبِدِ
وَكَرَّرِي إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُحَنَّبًا كَسِيدِ الْغَضَا نَبَهْتُهُ الْمَتُورِدِ
وَتَقْصِيرِ يَوْمِ اللَّجْنِ وَاللَّجْنِ مُعْجَبٌ بِيَهْكَتَةِ تَحْتَ الطَّرَافِ الْمُعْمَدِ
كَأَنَّ الْبُرَيْنَ وَالْدِمَالِيَجَ عَلَّقْتُ عَلَى عَشْرِ أَوْ خِرْوَعٍ لَمْ يُخْضِدِ
فواضح جداً أن المثل العليا تتغير بتغير البيئات والصور ، ولكن واضح
أيضاً أن الأشخاص كذلك يتغيرون بتغير البيئات والصور ، فلو عاش طرفة
في بيئة غير بيئته ، أو عصر غير عصره ، لما كان طرفة ، وكان تغير فلسفته
نتيجة لتغير شخصيته ، وكان من الجائز ألا تعجبنا فلسفته لو أنه صورها
في أبيات من الشعر كهذه الأبيات التي رويناها .

وما رأيك في شاعر أو كاتب أو متحدث يزعم لك الآن أنه إنما يجب
الحياة . ويكلف بها . ويحرص عليها . لأنه يستمتع فيها بالتدخين . وشرب
القهوة وقراءة الكتب . أو قراءة الصحف ، أو الاستماع للمحاضرين . أترى
أن فلسفته هذه تعجبك . أو ترضيك مهما يتكلف في تصويرها وتزيينها من
أسباب الفن ؟ إنما تعجبنا فلسفة طرفة هذه لأنها ساذجة تمثل حياة ساذجة ،
ولأن الشاعر قد صورها فأجاد تصويرها . فنحن لا نعجب بمعاني هذا الشعر
وحدها . وإنما نعجب أيضاً بلغظه الجزل ، وأسلوبه الرصين : وأسرته القوي .
وآية ذلك أننا نساير الشاعر مطمئنين إليه : راضين عنه ، معجبين به ، حتى
إذا بلغنا البيت الأخير من هذه الأبيات لم نستطع أن نمنع أنفسنا من ابتسامة
فيها شيء غير قليل من التسامح والتبسط : فإن مثله الأعلى في جمال المرأة
لا يخلو مما يثير الابتسام . وما رأيك في صاحبه هذه التي تطول وتعظم تحت الحباء ،
حتى كأنها شجرة علق عليها الحللى تعليقاً ؟

قال صاحبي : قل إن هذه الصورة لا تعجبك أنت ، ولكن ثق بأن

بين الناس من يعجبون بها أشد الإعجاب ، ولا يكرهون أن يكون مثلهم الأعلى في جمال المرأة ارتفاع القامة ، وضخامة الجسم . وهذا النحو الذي يثير مثل هذا التشبيه . قلت : فدعنا من لذات الشاعر . ومن مثله العليا في الحياة ، وقف بنا عند هذا البيت البديع الذي يصور حبه للحياة . وحرصه عليها . وكلفه بأن يأخذ من لذاته بأعظم حظ ممكن . ومن لذة الشراب خاصة قبل أن يدركه الموت . فيقضى عليه بالظماً الأبدى . وتقطع الأسباب بينه وبين الرى .

كريمٌ يروى نفسه في حياته ستعلم إن ميتنا غداً أينما الصلدى

فانظر إلى هذا التذير الموثس في الشطر الأخير . وانظر إلى مقدار ما يصور من هذه الحسرات التي لا آخر لها حين تنقطع الأسباب بين الحياة والأحياء . وبين اللذات والمستمتعين بها : وانظر إلى هذه الموازنة بين رجلين . أحدهما شرب في الحياة حتى ارتوى ، والآخر أخذ نفسه بالظماً واحتمال الصلدى : فأما أحدهما فسيحال بينه وبين الشرب إذا مات ، وقد حال بين نفسه وبين الشرب قبل أن يموت ، وأما الآخر فسيحال بينه وبين الشرب إذا مات . ولكنه قد ارتوى قبل أن يموت ، ومن يدري ! لهله يجد أثر هذا الرى . ولعل حظه من الصلدى أن يكون أقل من حظ صاحبه ذلك الذي حرم نفسه الرى أثناء الحياة !

ثم انظر إلى هذه الأبيات وإلى ما تصوره من اليأس وما تصوره من المساواة أيضاً بعد الموت :

أرى قبر نعامٍ بخيلٍ بماله	كقبر غوى في البطالة مفسد
ترى جثوتين من ترابٍ عليهما	صفائح صم من صفيح منضد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى	عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كئزاً ناقصاً كل ليلة	وما تنقص الأيام والدهر ينقد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى	لكالطول المرخى وثنياه باليد
متى ما يشأ يوماً يقده لحتفه	ومن يك في جبل النية ينقد

أترى إذ هذه الصورة التي تمثل لك ما بين قبر البخيل الحريص وقبر
الكريم الذي يفسد ماله ، ويستمتع بحياته ، من التشابه والمساواة ؟ كلاهما جثوة
تراب عليها حجارة منضدة ، لا يفرق بينهما أن أحدهما يضم رجلاً قد حرص
على ماله فأبقاه . وأن الآخر يضم رجلاً قد طابت نفسه عن ماله فأتلفه إتلافاً .
فالذين يرثون مال البخيل كالذين يرثون إعدام الكريم . لن يستطيعوا أن
يغيروا ما بين هذين القبرين من الشبه ، ولا أن يحسوا ما بينهما من المساواة .
وانظر إلى هذه الأبيات التي تبتدئ بفعل « أرى » ، والتي تصدر عن الشاعر
حِكْماً مرسله لاسبيل إلى إنكارها ولا إلى الجدل فيها ، وإنما هي مقنعة ملزمة ،
لا تحتمل مكابرة ولا مراء ، وهي مع ذلك لا تسقط عليك كما تسقط الصواعق
الموتسة ، وإنما تنزل على نفسك كما تنزل السكينة التي تمنحك الأمن والراحة
والهدوء .

وانظر إلى هذا البيت خاصة :

أرى العيشَ كنزاً ناقصاً كُلُّ لَيْلَةٍ وما تنقُصُ الأيامُ والدهرُ ينفدُ

وإلى هذا التشبيه القوي الصارم الذي لا سبيل إلى إنكاره ، ولا إلى عيبه ،
ولا إلى الشك في طرف من أطرافه ، وإلى هذا الجمال الذي يجعل الحياة كترأ ،
ويجعل الأيام والليالي كأنها رجال تنقص من هذا الكثر في غير انقطاع حتى
تأتي على آخره ، وهي واثقة بأنها ستستنفده لأنها واثقة بأنها أطول منه بقاء .
قال صاحبي : وما ينبغي أن تهمل هذا التشبيه الذي كنت وما زلت مفتوناً
به في قوله :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطولِ المرخى وثنياءُ باليدِ

قلت : نعم ، أنا أعرف أنك مفتون بهذا البيت ، ولكنك توافقني على
أن البيت الذي يليه ليس من شعر طرفه في أكبر الظن ، وإنما هو تفسير
لهذا البيت . قال : وما يعنيني ؛ إنه بيت جميل على كل حال . قلت :
وما دامت الحياة منتهية إلى هذا اليأس ، وما دامت الأعمال والآمال فرصاً تنتهز ،
وخلساً تختلس ، وأشياء إن لم تظفر بها حين تتاح لك فستفوتك أبداً ، فما ينبغي
أن يكبر الإنسان من أمرها ، ولا أن يعظم من خطرها ، ولا أن يتخذها وسيلة

إلى إفساد الصلوات بينه وبين أمثاله من الناس ، وما ينبغي للرجل الرشيد أن يعدل بالمودة الصادقة ، والإخاء الكريم ، والوفاء الذى لا غبار عليه ، شيئاً من الأشياء ؛ ولكن الناس يغرم الغرور ، وتفسدهم أعراض الدنيا . فيؤثرون بها أنفسهم ويضنون بها على غيرهم ، ويتكلفون فى سبيلها ما لا ينبغي أن يتكلفه الرجل الكريم من البخل والضيق ، ونقص المروءة وإيذاء الإخوان ، والتقصير فى ذاتهم ، والتقصير فى ذات أنفسهم أيضاً ، حين يكفون خيرهم عن الناس ، فيجعلون حياتهم وموتهم بالقياس إلى الناس سواء . وهذه السيرة التى يسيرها الناس المغرورون الذين تخلبهم الدنيا ، وتأسرهم أعراضها ، وتصرفهم عن الكرم والوفاء . هذه السيرة الخزية ، التى يتورط فيها أكبر الناس فى كل عصر ، وفى كل بيئة ، والتى تفرض عليهم النفاق فرضاً ، والتى تصغرهم فى نفوسهم وفى نفوس نظرائهم ، هذه السيرة هى التى ألهمت « طرفة » فيما يظهر . شعره هذا الجميل ، فليس من شك فى أنه قد أنشأ قصيدته وأنشدها عاتباً على ابن عمه الهنات بدت له منه ، ولتقصير أحسه فى بعض ما كان بينهما من الأمر ، والقدماء يفسرون هذه الهنات ، ويقولون فى هذا التقصير ما تخيلوا ، أو ما نقل إليهم من قصة طرفة مع ابن عمه ، أو مع أخيه ، أو معهما جميعاً ، فى شأن هذه الإبل التى أضلها . ولكن ما الذى يعيننا نحن من هذه القصة أن تصح على نحو ما يرويها الرواة ، إنما نحن أمام شاعر يؤذيه تقصير ابن عمه فى ذاته ، وإيذاء ابن عمه له ، وإسراف ابن عمه عليه ، والتواء ابن عمه بمحقوق المودة والقربى بخلا وشحاً وأثرة ، فهو يألم لذلك ، ويضيق به ، ويشكو منه ، ولا سيما وهو فى سيرته بعيد كل البعد عن هذه الخصال ، مرتفع كل الارتفاع عن هذه الهنات ، فمن حقه أن يلتقى من أكفائه ونظرائه مثل ما يلتقى منه الأكفاء والنظراء . والذى يحقر أعراض الحياة ويصغر المال ويزدرى به ، بل يصغر المنافع كلها ويزدرى بها ، ولا يسكب إلا الخلق الكبير ، ولا يقدر إلا السيرة التى هى خليقة أن تقدر . لأنها مملوءة بما ينفع الناس ويصلح أمورهم ؛ الرجل الذى لا يبخل بالمال حين يطلب إليه المال ، ولا يبخل بالحياة نفسها حين تطلب إليه الحياة . خليق أن يزدرى البخل والجبن ، وأن يزدرى معهما البخل والجبن ، وهو خليق أن يألم حين يرى من أكفائه ، أو ممن كان يعدهم أكفاءه ، جبناً وبخلاً .

وانظر إلى هذه الأبيات التي يشكو فيها طرفة سيرة ابن عمه معه . وإسراف
ابن عمه عليه . وتعلله ضمناً بالمعونة . وبخلا بالمال والجهد :

فمالي أراي وأبن عمي مالكا متى أذن منه ينأ عنى ويبعدي
يلوم وما أدرى علام يلومني كما لامني في الحي قُرطُ بن مَعْبِدِ
وأياسني من كل خير طلبته كأننا وضعناه إلى رمسٍ ملحدِ
على غير شيء قلته غير أني نشدت فلم أغفل حمولة مَعْبِدِ
وقربت بالقربى وجدك إنه متى يك أمر للنكيسة أشهدِ
وإن أذع للجلى أكن من حمايتها وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهدي

ثم يقول :

فدري وخلقي إنني لك شاكر ولو حل بيتي نائياً عند ضرغدي
قلو شاء ربّي كنت قيس بن خالد ولو شاء ربّي كنت عمرو بن مرثدي
فأصبحتُ ذا مالٍ كثيرٍ وزارني بنون كرام سادة لمسود

أفترى عبأ أرق من هذا العتب . وألماً أذع من هذا الألم ؟ أفترى شعراً
أرق من هذين البيتين الأخيرين خاصة ؟ وقد يقال إن القدماء أنفسهم رقوا
لهذين البيتين . وأن أحد هذين الرجلين اللذين سماهما رق له فحياه كثيراً من
المال ، وإن لم يستطع أن يحبوه من الأبناء كثيراً ولا قليلاً . على أن الشاعر يكره
أن يمضي في هذا العتب المؤلم دون أن يشوبه بشيء من الفخر يثبت ما ينبغي له
من الكرامة وعزة النفس والارتفاع عن الحاجة المذلة ، فانظر إليه كيف يقول :

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كراس الحية المتوقد
فأليت لا يتفك كسحى بطانة لعصب رقيق الشعرتين مهند

وانظر إلى قوله الذي تعرفونه ، فإني أرى فيه بجمالاً لا يعدله جمال . ثم
امض في قراءة هذه الأبيات التي يصف بها سيفه ، فهي من أروع الشعر العربي
في تصوير القوة والمنعة والاعتداد بالنفس . وإذا فرغ الشاعر بعد هذا العتب

وهذه الشكوى من تصوير قوته وعزته وامتناعه على الضم ، لم يكره أن يعود إلى كرمه وسخائه فيصورهما أجمل تصوير وأرقه وأظرفه وأذناه إلى السداجة واليسر في هذه الأبيات :

وَبِرْكَ هُجُودٍ قَدْ أَثَارَتْ مَخَافَتِي بَوَادِيهَا أَمْشِي بِعَضْبٍ مَجْرَدٍ
فَمَرَّتْ كِهَاءٌ ذَاتَ خَيْفٍ جُلَالَةٍ عَقِيلَةٌ شَيْخٍ كَالْوَبِيلِ يَلْنَدِدِ
يَقُولُ وَقَدْ تَرَّ الوَظِيفِ وَسَاقِهَا أَلَسْتَ تَرَى أَنْ قَدْ أَتَيْتَ بِمُؤِيدِ
وَقَالَ أَلَا مَاذَا تَرَوْنَ بِشَارِبٍ شَدِيدٍ عَلَيْنَا بِعِيهِ مُتَعَمِّدِ
وَقَالَ ذَرُّوه إِنَّمَا نَفَعُهَا لَهُ وَإِلَّا تَكْفُوا قَاصِيَ الْبِرْكِ يَزْدِدِ
فَقَالَ الْإِمَاءُ يَمْتَلِلْنَ حَوَارِهَا وَيُسْمِعُنِي عَلَيْنَا بِالسَّلِيفِ الْمُسْرَهَدِ

أتى إلى هذه الإبل وقد أخذت تطمئن لولا أنها رأت هذا الفتى ، وهي تعلم من إتلافه لها وعدوانه عليها ما تعلم . فلما رآته أشفقت منه . ومن هذا النصل المجرى في يده ، فندت متفرقة منتشرة في الأرض ، تلمس مهرباً من هذا الموت الذي يلمع في يد هذا الشاب ، ومرت منها ناقة ضخمة عظيمة أمام الفتى فيعقرها بهذا السيف فتسقط ، ويرأها أبوه وهو شيخ حريص عاقل في غير مجل ولا ضيق ؟! فانظر إليه كيف يلوم ابنه مداعباً له كأنما يشجعه على هذا الكرم . وانظر إليه كيف يتحدث إلى من حوله من مشيخة قومه مفاخرأ بابنه هذا السكران ، الذي إذا شرب بغي على مال أبيه فأسرف في البغي ، ثم انظر إليه وهو يمنع من حوله من لوم الفتى ، ولم يلومونه والمال صائر إليه غداً أو بعد غد ! فن حقه أن يتعجل إتلافه والانتفاع به . ثم انظر إلى الحى وقد أقبلوا على عيدهم يشترتون ويأكلون ، ويطوف الإماء بأطايب هذه الناقة على الفتى وندمائه الذين صورهم منذ حين . فقد عرفنا « طرفة » نفسه ، ثم صور لنا مذهبه في الحياة ، ثم عتب على ابن عمه وشكا ، ثم عاد إلى فخره فوصف قوته ومنعته ، ووصف كرمه وجوده . وانظر إليه كيف يتحدث إلى ابنة أخيه فيقول :

فَإِنْ مِتُّ فَانْعِنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشُقِّي عَلَى الْجَيْبِ يَا بِنْتَ مَعْبِدِ
وَلَا تَجْعَلِينِي كَأَمْرِي لَيْسَ هُمُّهُ كَهَمِّي وَلَا يُغْنِي غِنَائِي وَمَشْهَدِي

ثم انظر إليه كيف يعود في آخر القصيدة إلى فلسفته التي كان فيها ، مجدداً
تهوين الحياة ، وتحقير أمرها ، وتعظيم أمر الموت ، وما يصور من اليأس فيقول :

أَرَى الْمَوْتَ أَعْدَادَ النَّفُوسِ وَلَا أَرَى بعيداً غَدًا ما أقرب اليومَ من غَدِ
مَسْتَبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتُ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودِ

قال صاحبي : ألم أقل لك إن هذه القصيدة من أجود الشعر وأجمله وأروعه
وأرقاه ! قلت : وهل أريد منك يا سيدي ومن أمثالك الذين تصورهم إلا أن
تعرفوا بأن في الشعر القديم جمالا وروعة وغناء ومتاعاً ، لا للقلماء وحدهم بل
للمحدثين مهما يبعد بهم العهد !

ساعة مع زهير (١)

قال صاحبي : أما زهير فلإني أراه قريباً منا ، يسيراً علينا ، لا نجد في قراءته جهداً ، ولا نحتمل في فهمه مشقة ، ولا نحس بيننا وبينه هذه الفروق العظيمة التي نحسها بيننا وبين غيره من الشعراء ، ولهذا استثنيت من أصحابه القدماء منذ زمن بعيد ، وقرأت مطولته غير مرة ، وحفظت منها شيئاً كثيراً ، وأوشك أن أكون قد حفظتها كلها ، ثم قرأت له قصائد أخرى غير هذه المطولة ، وما أرى إلا أن المطولة ، ليست خير ما روى عن زهير من الشعر ، بل ما أشك في أن في ديوان زهير قصائد هي أروع وأجمل من هذه المطولة .

قلت : وما دمت تعرف زهيراً وتحبه : وتألف ديوانه ، وتعجب بشعره ، وتحفظ منه مقداراً ليس به بأس ، فما ينبغي أن نتحدث عنه ، أو أن نضيع الوقت فيه ، والخير أن نعدل عنه إلى شاعر آخر من هؤلاء القدماء الذين تظلمهم . وتتجنى عليهم ، لأنك لم تفهمهم ، أو لأنك لم تتكلف فهمهم . قال : إن فيك لخصلتين أمقتهما منك ، وأنكرهما عليك ، فأت لا تريد أن تتحدث إلى إلا في الأشياء التي لا أحسنها ولا أتقنها . والتي يظهر فيها فضلك على . وتقوم فيها منى مقام الأستاذ من التلميذ ، وما كنت أحسب أنك مشغوف بالتفوق والرغبة في الاستعلاء قبل أن تأخذ في هذه الأحاديث . وما يضرك أن نتحدث في شيء أستطيع أن أقول فيه ، وتستطيع أن تسمع ؟ وما بالك لا تريد أن تريح نفسك من الكلام ؟ فلإني أرى كلامك لا ينقطع ، وأحب لك أن يتصل استماعك ساعة من نهار . فهذه إحدى خصصتيك . وخصلة أخرى لا أحبها منك ، وأودّ لو تتخلص منها ولو قليلاً ، وهي تعملك للصعب . وقصدك إلى العسير ، وازدراؤك أو انصرافك عن السهل الميسور ، كأنك تؤمن لنفسك بقوة نادرة . لا ينبغي لها إلا أن تواجه المشكلات والمعضلات ، وتتجافى عن الأمور الهينة الممهدة . والناس يحمدون هنا أحياناً ، ويرون فيه

(١) نشرت بمجريدة الجهاد في ١٣ مارس سنة ١٩٣٥ .

شجاعة وجراً وإقداماً . ولكنى أخافه عليك ، وأشفق أن تصيبك بعض آثاره السيئة ، فهو قد يصدر عن شجاعة وإقدام ، ولكنه قد يصدر أيضاً عن غرور وإسراف في الاعتداد بالنفس ، ولو أنى ملكت من أمرك بعض الشيء ، لقمت منك مقام المعلم ، ولنفعتك بهذا التعليم ، فجنبتك بعض ما تتورط فيه من الشر ، وأتحت لك بعض ما تحتاج إليه من الراحة ، وعلمتك أن الحياة ليست كلها جهداً ومشقةً وعنفاً وعسراً ، وإنما فيها اللين والخفص ، وفيها النعيم واليسر ، وإلا فما تعمدك لشعر لبيد ، وأمثال لبيد من هؤلاء الشعراء الذين يُحزنون ولا يُسهلون ، والذين يضطرون قارئهم ودارسهم إلى أن يحزن كما حزنوا ، ويشق على نفسه كما شقوا على أنفسهم ؟ فإذا عرض لك شاعر سهل قريب المأخذ ، يسير اللفظ ، محبب المعاني ، زهدت فيه ، وزهدت فيه الناس ، وزعمت أنه معروف مألوف ، وأن الخير في أن تعدل إلى من هو أقل منه وضوحاً ، وأبعد منه مالا ، كأنك ترفع نفسك عن أن تقف عند هؤلاء الشعراء الذين مُهدّ شعركم تمهيداً ، وكشفت أغراضهم كشفاً ، وأتيحت لنا معانيهم من قريب .

قلت : ما أظن أنك مخطئ حين تستكشف لي هذه العيوب التي تحصيها من حين إلى حين ، وما أبرئ نفسي من العيب ، وما أظنك أنك تستكشف من عيوبى وسيئاتى إلا أقلها شأنًا ، وأيسرها خطراً ، ومن يدري ، لعلك لو عرفتنى حق المعرفة أن تظهر منى على سيئات ما كنت لتظنها أو تقدرها ، ولكنى مع هذا لا أعتقد أنك ناصح لى ، ولا مخلص فيما تحاول من إصلاحى ، وما أظن إلا أنك تشاركنى في بعض هذا الغرور الذى تأخذنى به وتنعاه على ، وما أحسب إلا أنك قد ضقت بالاستماع ، وكرهت هذا المقام الذى يشبه مقام التلميذ ، وسئمت ألا تظهر للناس فيما أذيع من أحاديثنا إلا هذا المظهر الذى أخذت تنكره منذ الأسبوع الماضى ، فأنت تريد أن تتحدث إلى كما تحدثت إليك ، وأن أسمع منك كما سمعت منى ، وأن يراك الناس مرشداً إلى جمال الشعر ، دالا عليه ، مبيناً لما فيه من المحاسن ، وليست أكره أن أتيح لك هذا الذى تريده ، وإنك لتخطئ إن ظننت أنى أحب الكلام ، وأكلف

به ، وأكره الاستماع . وأتجافى عنه ، فالله يعلم ما أضيعق بشيء كما أضيعق بالكلام . وما أهيّم بشيء كما أهيّم بالاستماع . وما ذنبي إذا كان الله قد امتحنني بالكلام ، وحرمني لذة الاستماع . وما ذنبي حين يسوقك الله إلى . فلا أكاد أسمع منك حتى أضطر للرد عليك ، وما أكاد آخذ في ذلك حتى يتصل الكلام بي على كره مني ! وما أنت ذا تنبئني بأنك تحب زهيراً ، وتكلف به ، وتراه قريباً منا ، فأنت إذن ترى في شعره نفعاً ، وفي قراءته وفهمه لذة . وليس بينك وبينى في ذلك خلاف . أو شيء يشبه الخلاف . والأصل في هذه الأحاديث ، أنها أحاديث حوار بين رجلين مختلفان في حب الشعر القديم وتقويمه ، فإذا اتفق هذان الرجلان . فقد يحسن أن يتقطع الحوار بينهما فيما اتفقا عليه .

قال : وخصلة ثالثة يتكشف عنها هذا الحديث ، وهي حبك للخصومة وإسرافك في حبا . فأنت لا تتصور الحوار أو لا تكاد تتصوره إلا أن يكون هذا الحوار خصومة بينك وبين من تحدته ، ولست أدري ، لم لا يحاور الناس بعضهم بعضاً ؟ أو لم لا يحدث الناس بعضهم بعضاً فيما يحبون ، وفيما يتفقون على إكباره ، والرضا عنه ، والإعجاب به ؟ ويحيل إلى أن هذا فن من الكلام لم تحسنه . لأنك نشأت مخاصماً ، فغلب عليك حب الخصام . والخير في أن تتعلم هذا النوع من الحوار المادئ الحلو الذى لا خصام فيه ، والذى لا ينتهى بالفوز والخزعة ، ولا بالانتصار والاندحار ، وأنا واثق بأنك ستجد في هذا الحوار الذى لم تألفه راحة ولذة لا عهد لك بهما ، فابتمس للأيام والناس ، فلعل الأيام أن تبتسم لك ، ولعل الناس أن يلقوك بغير الحذر والحوف ، وإيكن بعض حديثك إلى الناس صلحاً وأمناً وسلاماً .

قلت : إنك لخصب الذهن : منطلق اللسان منذ اليوم ، وما أرى إلا أنك قد تهبأت لهذا الحديث . قال : وما يعينك أن أكون قد تهبأت له ، أو لم آتياً ؟ وما يعينك أن أكون خصب الذهن أو جديبه ؟ منطلق اللسان أو معقوله ؟ ألسنت ترى أنك ما تفتأ مشغولاً بالخصومة ، متعلقاً بأسبابها ! تجد حيناً فتكون مرأً ، وتسخر حيناً فتكون لاذعاً ! ألسنت ترى أنك خليق أن تظهر لنا ناحية من نواحي نفسك لا مرارة فيها ولا لذع ! فإن اتصال هذه الخشونة منك قد يؤذى

الصديق . ويسم الخليط ، وقد ينتهي إلى عزلة تكرهها .

قلت : سمع الله لك ، وعفا الله عنك ! فما أعرف أني أحب شيئاً أو أتمناه كما أحب أن يتاح لي حظ من العزلة ، أرجع فيه إلى نفسي ، وأستريح فيه من هذه الحياة الاجتماعية التي سثمت تكاليفها ، وآدنتني أفعالها . قال : فإنك لم تعيش بعد ثمانين حولاً لتسام كما ستم زهر . قلت : وأين تقع تلك الثمانون التي عاشها زهر ، فلأت نفسي سأمًا وملاً وضيقاً ، من عشرين سنة أو عشر سنين أو خمس سنين نعيشها نحن في هذه الأيام ! إن الناس يزعمون أن أعمارهم تقصر بالقياس إلى أعمار القدماء ، وقد يصح هذا في الحساب وعدد الأيام والشهور والسنين ، ولكنه لن يصح في حقيقة الأمر ، وقد كانت أيام القدماء فارغة بالقياس إلى أيامنا ، وقد كانت أعوامهم لا تعد شيئاً بالقياس إلى أعوامنا . وأي شيء أسير من أن تقيس يوماً من أيامنا في القاهرة إلى يوم من أيام أهل المدن في الأقاليم ، ومن أن تقيس يوماً من أيام أهل المدن هؤلاء إلى يوم من أيام أهل القرى والريف ، وأن تقيس يوماً من أيام أهل القرى هؤلاء إلى يوم من أيام أهل البادية في نجد أو في الحجاز ، فترى أن ساعاتنا أيام ، وأن أيامنا شهور ، وأن أعوامنا عصور طوال بالقياس إلى أزمنة أهل البادية . فإذا ستم زهير لأنه عمر ثمانين عاماً ، وإذا ستم ليبيد لأنه تجاوز المئة . فنحن أن نسأم حين نعيش أعواماً قليلة تبلغ العشرة أو تزيد عليها شيئاً . قال : كلا يا سيدي ! فليس في حياتنا من الاطراد والتشابه مثل ما في حياة أهل البادية . وتشابه الأوقات والأحداث وطاوع الشمس عليك اليوم بمثل ما طلعت به عليك أمس ، وغروب الشمس عنك غداً بمثل ما تغرب به عنك اليوم ، هو الذي يغري بك السأم ويبسط عليك سلطانه ، فأما أن تستقبل اليوم بغير ما استقبلت به أمس ، وأن يلقاك الليل بغير ما لقيك به النهار ، وألا تقدم على ساعة من ساعات اليقظة إلا بغير ما أقدمت به على الساعة التي سبقتها ، وبما ستقدم به على الساعة التي تليها ، فهذا خليق أن يتعبك ويضنيك ، لا أن يثير في نفسك سأمًا ولا مللاً .

وقلت : فهبني أخطأت الصواب في التعبير ، ووضعت السأم مكان التعرب ، ولكن ألسنت ترى أن العدوى قد مستك ، وأنت أخذت تلتمس الحصومة ،

وتتعلق بأسبابها ، وتتكلف ما يتيح لك الفوز والاستعلاء ؟ قال :

عن المرء لا تسألَ وسَلْ عن قَرِينِهِ فكلُّ قَرِينٍ بالمقَارِنِ يَتَّقِدِي
قلت : ما أكثر هذه القافات ، كأنما نحن في صحن الأزهر الشريف !
أو عند القبلة القديمة . خذ بنا في الحديث عن زهير إن شئت ، فإنني أخشى إن
مضينا في هذا الحوار أن تأخذنا القافات من كل وجه . قال : فإذا لم تُبعد عن
زهير منذ بدأنا هذا الحديث ، فإنني أدعوك إلى إثارة السلم ، وتجنب الحرب
والخصومة ، وهل أنشأ زهير مطولته إلا في هذا ! وأى بأس عليك في أن
تخلق بيئة يملؤها السلم والأمن ، أو الرغبة في السلم والأمن . قبل أن نتحدث
في هذه القصيدة التي يدعو صاحبها إلى السلم والأمن ! وهذه خصلة أخرى
من خصالك التي أود لو تخلص منها ، فأنت لا تحب التبسط ، ولا الأناة ،
ولا التهور الهادئ المترف لما تأتي من الأمر ، أو تستأنف من الحديث ، وإنما
تدفع نفسك إلى ما تريد دفعا ، وتهجم بها على ما تبغى هجوماً ، لا تمهد
الطريق ، ولا توطئ المجلس ، ولا تحب خلق البيئة كما يقول الفرنسيون . أنت
عاجل مندفع ، وما ينبغي أن يدرس الشعر على عجل ، ولا أن يذاق الشعر
بالاندفاع ، إنما ينبغي أن يتبها دراس الشعر للشعر ، وأن يسعى إليه رقيقاً به
وبنفسه ، فقد تضر العجلة ، ويسوء الاندفاع ، وقد يراغ طائر الشعر فيرتفع ،
ثم يمضي في الجو حتى إذا بلغت موقعه لم تجد شيئاً .

قلت : ونستطيع أن نمضي في الحديث على هذا النحو ، لا أقول شيئاً
إلا كشفت من ورائه عن عيب . حتى إذا فرغنا منه ، كنت قد أحصيت على
طائفة من العيوب ، ولست أرى بذلك بأساً لولا أنني أظن أننا التقينا لتحدث
عن زهير لا عنى .

قال : فهل نتحدث إلا عن زهير ! ألسنت تلاحظ أني حين أذكرك بما
ينبغي من خلق البيئة وتهيئة الجو ، إنما أمعن معاك إمعاناً في درس زهير ؟ فقد
كان زهير من أقدر الشعراء القدماء على خلق البيئة هذه ، وتهيئة الجو الشعري ،
قبل أن يعن بالسامعين فيما يقصد إليه من الأغراض ، وأى خلق للبيئة وأى
تهيئة للجو ، وأى إعداد للسامعين والقارئ ، أبرع من هذا القسم الأول من
قصيدته المطولة ؟ إنه يعتمد على هذا في رقة وظرف ورفق ، وفي وداعة نفس

وحلاوة روح ، تثير في نفسك هذه الأشجان اخاذمة الرقيقة التي تخرجك عن طورك العادي : ولا تبلغ بك الحزن الممض . ولا اليأس المهلك ، ولا الأسى العميق . وإنما هي تحيي في قلبك طائفة من الذكرى البعيدة ، التي طال عليها العهد . فلم يلبها ولم يفتها ولم يحها ، وإنما خفف من حدتها . وجعلها خليقة أن تثير في النفس شوقاً حلواً . وحرناً هادئاً . لا لوعة محرقة . انظر إليه وهو يتخيل أنه مر بآثار لم يعرفها . فيلقاها بالحزن الصريح ، والبكاء الصريح ، لم يجهلها فيعر بها غير حافل ولا مكترث ، وإنما هو يشك فيها ، فيقف عندها : وينظر إليها ، ويسأل عنها . وما يزال ينظر ويستقصي ، وما يزال يفكر ويسأل . حتى يكبد نفسه ويجهدها . ولكنه ينتهي بعد الكد والجهد إلى معرفة الدار . وأى غرابة في ذلك ؟ لقد بعد العهد بها . فهو لم يرها منذ عشرين عاماً . وفي عشرين عاماً ما يغير المعالم ، ويحو الأثار . وفي عشرين عاماً ما ينسى المألوف ، ويصرف عما لم يتعود الناس أن ينصرفوا عنه . فحسب زهير أنه استطاع أن يلتفت إلى الدار حين مرّ بها ، وأنه استطاع أن يقف عندها ، ويسأل عنها ، ويطلب الوقوف . ويلح في السؤال حين التفت إليها ، وهو بعد ذلك ، يصور ما بقي من هذه الدار تصويراً هادئاً أيضاً . فزهير في هذه القصيدة كلها هادئ ، بل هو في شعره كله هادئ ، وليس من شك في أنه أطال الوقوف ، وألح في السؤال ، وأحسّ حرناً مهما يكن هادئاً ، فقد كان طويلاً ماحناً ، ولكنه على ذلك لا يريد أن يجهدك ، ولا أن يشق عليك ، فهو يجتزئ باليسير من هذا التصوير ، باليسير الذي ألفه الناس ، ويؤديه إليك في لفظ سهل ، ليقرب نفسك إلى نفسه ، ولهبثك تهيئة حسنة لتسمع له ، وتفهم عنه :

أَمِنْ أُمَّ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ	بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمُتَشَلِّمْ
دِيَارُ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا	مَرَّاجِعُ وَشَمِّمْ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ
بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً	وَأَطْلَاوْهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْتَمِ
وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً	فَلَأَيَّ عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمِ
أَثَافِي سَفْعًا فِي مَعْرَسِ مِرْجَلِ	وَنُوبًا كَجِدْمِ الحَوْضِ لَمْ يَتَشَلِّمْ

فلما عرفتُ الدَّارَ قلتُ لربيعها ألا انعم صباحاً أيها الرِّبْعُ واسلم .
فهذه المعاني كلها مألوفة شائعة بين الشعراء ، فتشبيه الرسوم الباقية في
الأطلال البالية بربيع الوشم على المعصم أو على ظاهر اليد كثير ، وتصوير
الدار أهلة بالوحش بعد أن كانت أهلة بالأحباء كثير أيضاً ، وتسمية هذه
الآثار القليلة التي بقيت ولم يححها قدم العهد ، كهذه الأثافي التي كان يقام
عليها الرجل ، وهذا النوى الذي كان يعصم الخباء من الماء ، كثيرة شائعة أيضاً .
ولكن ظرف زهير في أنه لم يطل في وصف هذا كله ، وإن أطال الوقوف عنده ،
والنظر فيه ، وإنما لمح هذا في شعر لمحا ، واختاس منه بعض الصور اختلاصاً ،
فكانت صوراً جميلة ، منها الرائع الذي يبعث في النفوس بهجة ، ومنها القاتم
الذي يبعث فيها حزناً وأسى ، فصورة هذه الوحش التي اتخذت الدار مرتعاً
ومقاماً . فهي تمشي فيها خلفه ، أي في جهات متضادة ، وأطلاؤها الصغار
ينفض من هنا ومن هناك ، جميلة تثير البهجة في النفوس لما فيها من تمثيل الحياة
الطبيعية ، وما يضطرب فيها من حركات هذه الوحش التي تقبل وتدبر ،
وتجثم وتنفض ، متأثرة بغرائزها ، وهذه البهجة نفسها لا تخلو من حزن ، فإن
هذه الوحش إنما تنعم بالحياة والحرية في ديار قد كان ينعم فيها بالحياة والحرية
قوم أحبهم الشاعر وأحبه ، ثم أزعجوا عنها وانقطع عهدهم بها . وصورة هذه
الآثار التي قاومت البلى ، وبقيت على بعد العهد ، وهي قليلة جداً ، هي هذه
الأثافي وهذا النوى ، هذه الصورة قائمة ، مثيرة للحزن المظلم حقاً . ثم انظر
إلى تحيته لهذه الدار بعد أن عرفها ، كيف يؤديها في ظرف ودعة ، وفي لفظ
جميل يسير ، لا جهد فيه ولا عناء :

* ألا انعم صباحاً أيها الرِّبْعُ واسلم . *

وقد زعمت لك أن زهيراً هادياً في قصيدته هذه كلها ، هو في أولها
محزون مدعن لصروف القضاء ، وهو في آخرها حكيم يفكر في الحياة والأحباء ،
ويستخرج من تفكيره هذا العبر والعظات ، وهو بين ذلك يمدح الأخيار ،
ويشجعهم على حب الخير ، ويدعو الناس إلى أن يتواصلوا بالبر والمعروف ،
ويتناهاوا عن الإثم والعدوان ، فنفسه حين كان ينشئ هذه القصيدة ، نفس

الحكيم المظلمين ، الذى لا يزدهيه فرح ولا حزن ، ولا تستخفه عاطفة مهما تكن . وانظر إليه كيف عرف الدار بعد جهد فحياها فى هدوء ، ثم لم يستخفه الشوق . ولم يخرج الطرب عن طوره ، وإنما وقف مفكراً متذكراً ، ثم أحيا ما كان فى نفسه من الذكرى ، وبعث فيه حركة ونشاطاً ، وخيل إلى نفسه أنه يعيش مع صاحبه فى تلك الأيام أو فى ذلك اليوم الذى ارتحل فيه أحباؤه عن هذه الديار . فهو يراهم ، وهو يتبعهم طرفه ، حتى إذا بعدوا عنه ، وفاتوا مرى الطرف ، أتبعهم نفسه ، ورافقهم فى سيرهم من قريب ، وهو بصور لنا هذا كله فى طائفة من الصور . قريبة يسيرة مألوفة ، ولكنها على هذا أو لهذا جميلة حقاً :

تَحْمَلْنَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْتَمِ-	تَبَصَّرْ خَلِيلِي هَل تَرَى مِنْ ظَلَعَائِنِ
وَ كَمْ بِالْقَنَانِ مِنْ مُجِلٍّ وَمُحْرِمِ-	جَعَلَنَ الْقَنَانَ عَنْ يَمِينِ وَحَزْنُهُ
وِرَادٍ حَوَاشِيهَا مَشَاكِهِةِ الدَّمِ-	عَلَوْنَ بِأَثْمَاطِ عِتَاقٍ وَكَلَّةِ
عَلَى كُلِّ قَيْئٍ قَشِيبٍ وَمَقَامِ-	ظَهْرُنْ مِنَ السُّوبَانِ ثُمَّ جَزَعْنَهُ
عَلَيْهِنَّ دَلُّ النَّاعِمِ الْمُتَنَعِمِ	وَوَرَكُنْ فِي السُّوبَانِ يَعْطُونَ مَتْنَهُ
فَهُنَّ لَوَادِي الرَّسِّ كَأَلْيَدِ اللَّفْمِ	بِكُرْنٍ بَكُوراً وَاسْتَحْرَنَ بِسُحْرَةِ
أَنِيقٍ لِعَيْنِ النَّاطِرِ الْمُتَوَسِّمِ	وَفِيهِنَّ مَلْهَى لِلصُّدَيْقِ وَمَنْظَرٌ
نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَاءِ لَمْ يُحْطَمِ	كَأَنَّ فِتَاتَ الْعَيْهِنِ فِي كُلِّ مَنْزِلِ
وَضَعْنَ عِصَى الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ-	فَلَمَا وَرَدْنَ الْمَاءَ زُرُقاً جِمَامُهُ

أرأيت كيف رسم لأحبائه الطريق التى ساكوها ؟ أو كيف رافق أحباؤه فى الطريق التى سلكوها ؟ يتبعهم بطرفه أولاً ، فيصف ركبهم وقد بعد عنهم ، ثم يسايرهم من قريب ، فيصفهم وصف المرافق لهم ، وأى وصف ، برى من كل تكلف ، حر من كل قيد ، يظهر عليه من السداجة ما ينجيل إليك أن صاحبه لم يتكلف فيه عناء ، ولم يحتمل فيه جهداً ، ولم ينفق فيه وقتاً ، ولكن احذر أن تتخذ ، فلم يكن زهير من هؤلاء الشعراء الذين يقولون فى غير تكلف ولا عناء ، إنما كان صاحب فن وتجويد ، وهو صاحب الحوليات

فيما يقول الرواة ، إنما آية البراعة الصحيحة في الفن ، أن تتكلف الجهد ، وتحتمل العناء ، ثم تتخذ الناس عن ذلك . فتخيل إليهم أنك قد أنشأت ما أنشأت كأنه جاء عفو الخاطر ، وأى سذاجة أحلى من هذا البيت :

كَانَ فَتَاتَ الْعَيْهِنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَّا لَمْ يُحَطِّمْ
أترى إليه كيف أثر هذه القطع من الصوف التي كانت تسقط من
أهداب ما كان ينشر على الهواج من الثياب والأنماط ؟ فوقف عندها ،
وشبهها هذا التشبيه الظريف بحب الفنا ، أو بعنب الثعلب ، إن كنت في حاجة
إلى التفسير ! ثم أى سذاجة أصدق في تمثيل الحب والشوق والرغبة معاً من
هذا البيت ؟

وَفِيهِنَّ مَلَهَى لِلصَّدِيقِ وَمَنْظَرٌ أَنْبَقَ لِعَيْنِ النَّاطِرِ الْمُتَوَسِّمِ
ثم انظر إلى هذا البيت الذي خم به قصته القصيرة الجميلة :

فَلَمَّا وَرَدَنَّ الْمَاءَ زُرْقاً جَمَامَهُ وَضَعْنَ عَصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ

ولماذا قصر هذه القصة ؟ وأوجز الوصف لهذه الرحلة ؟ وما باله نسي
ناقته ، أو أعرض عنها فلم يصفها ساكنة ولا متحركة ، ولم يمض في هذه
التشبيهات التي تعود الشعراء أن يمضوا فيها ؟ لأنه عن هذا كله مشغول ؛
مشغول ، لا أقول بمدح صاحبيه اللذين مدحهما ، بل بالدعوة إلى السلم التي
يجبها ، ويكلف بها ، ويريد أن يجلبها إلى الناس ، ويتخذ مدح صاحبيه هذين
وسيلة إلى ما يريد .

ولست أريد أن أتحدث إليك عن مدح زهير في هذه القصيدة ، فهو
مدح لا حظ له من هذه البراعة الشعرية التي نعرفها لزهير ، وإنما يلتبس
مدح زهير في قصائد أخرى ، لم تشغله فيها الحكمة عن الحياة الواقعة ، ولم
تشغله فيها الجماعة عن الفرد ، ولم تشغله فيها المنفعة العامة عن منفعته الخاصة .
أما في هذه القصيدة فزهير شاعر قومه وهو يتحدث عنهم ، ويتحدث إليهم ،
وهو يصرّفهم عما يكرهون ، وعما يكره لهم ، وعما يدفعون إليه بهذه الأحقاد التي
لا تريد أن تخمد ، وهذه الخزازات التي لا تريد أن تنقضي ، وهذه الدماء التي
لا تريد أن تجف ، وهو من أجل ذلك ، لا يفرغ لهم ، ولا للحارث ، إلا

من حيث إنهما قد نصرنا السلم : وعصبا قومهما من الفتنة والفساد .
ولست أحب أن أقف من كل هذا القسم الجميل من قصيدة زهير إلا
عند قطعتين اثنتين ، إحداهما هذه التي يصف فيها الحرب فيقول :

وَذُبِيانَ هَلْ أَقْسَمْتُمْ كُلُّ مُقَسِّمٍ -	أَلَا أُبْلِغِ الْأَخْلَافَ عَنِّي رِسَالَةً
لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْمِ اللهُ يَعْلَمُ -	فَلَا تَكْتُمُنَّ اللهُ مَا فِي نُفُوسِكُمْ
لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلَ فَيُنْقَمُ -	يُؤَخَّرُ فَيَوْضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُلْدَخَرُ
وَمَا هُوَ عَنَّا بِالْحَدِيثِ الْمُرْجَمِ -	وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ
وَتَضَرَّ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضُرُّمُ -	مَتَى تَبَعْتُمُوهَا تَبَعْتُمُوهَا ذَمِيمَةً
وَتَلْفَحُ كَشَافًا تَمُّ تَنْتَجُ فْتَنْتَمُ -	فَتَعْرُكُكُمْ عَرَكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَا
كَأَحْمَرِ عَادِيَتِمُ تُرْضِعُ فَتَنْفَطِمُ -	فَتَنْتَجُ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشَامَ كُلَّهُمْ
قُرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِيْزٍ وَدِرْهَمِ -	فَتَغْلِلُ لَكُمْ مَا لَا تُغْلِلُ لِأَهْلِهَا

زهير في هذه الأبيات شيخ مجرب ، طويل التجربة ، كثير الانتفاع
بها . وهو شيخ بدوي ، تجاربه طويلة نافعة ، ولكنها على ذلك قليلة في النوع ،
لم يجرب إلا أمور البادية . ثم هو بعد ذلك . وقبل ذلك كله ، شاعر يحس
الأشياء حساً قوياً ، ويشعر بها شعوراً عنيفاً ، ويصورها تصويراً رائعاً ؛
فانظر إلى هذه التشبيهات التي تزدهم ، حتى يكاد بعضها أن يركب بعضاً ،
كما تقول أنت في بعض ما كتبت عن زهير ، فالحرب مشبهة بالرحى ، وهي
مشبهة بالناقة ، وهي مشبهة بالنار . وهي مشبهة بالأرض الحصبة التي تغل لأهلها
الغلة الموفورة ، وكل هذا في لفظ جزل وسهل معاً .

وأما القطعة الثانية فهي قصة حصين بن ضمضم هذه التي صورها أجمل
تصوير وأروع وأصدق في تمثيل حياة أهل البادية ، فحصين بن ضمضم هذا
موتور ، قد قتل أخوه في بني عبس ، وقد تصالح القوم ، واستقرت بينهم
السلم ، ولكنه هو لم يرض عن الصلح ، ولن يرضى حتى يثار لأخيه ، فهو يكتم
أمره في نفسه ، وينتظر حتى تسنح له الفرصة ، وما أسرع ما تسنح له الفرصة !
وإذا هو يظفر برجل من عدوه فيقتله . لا خائفاً ولا متأنماً ، فهو يعلم حق

العلم أن قومه لن يخذلوه ، وكان يعلم حتى العلم أن قومه سيمنعونه من اقرار
الإثم إن علموا به قبل وقوعه . فليكنهم الأمر إذن . وليضعهم أمام الأمر
الواقع كما يقول المحدثون ؛ وها هو ذا قد فعل ، وهؤلاء عدوه قد ركبوا يطلبون
القصاص ، وهؤلاء قومه قد أزمعوا نصر صاحبهم ، ولكن هرباً والحارث يكرهان
الحرب ، ويريدان لقومهما السلم ، فهما ينهضان بجناية حصين حتى يرضيا عبساً .

فانظر كيف صور زهير هذه القصة :

لعمري لنعم الحي جرّ عليهم	بملا يواتيهم حصين بن ضمضم
وكان طوى كشحاً على مستكين	فلا هو أبداها ولم يتجمجم
وقال ساقضي حاجتي نم اتقي	عدوى بألف من ورائي ملجم
فشدّ ولكم يفزع بيوتنا كثيرة	لدى حيث ألفت رخلها أم قشعم
لدى أسد شاكي السلاح مقدف	لدى أظفاره لم يقلم
جرى متى يظلم يعاقب بظلمه	سريعاً وإلا يبد بالظلم يظلم

ألست ترى في هذه الأبيات أجمل صورة . وأكملها للرجل البدوي ،
الذي يجمع إلى الشجاعة والإقدام . مكرماً ودهاء وثقة بالنفس ، واعتماداً على
القبيلة وقدرة على الكتمان ؟ فهذا الأعرابي حصين بن ضمضم قد رأى الصاح
فلم ينكره جهرة ، ولم يعرفه فيما بينه وبين نفسه . وإنما طوى كشحه على
خطة دبرها وأحكم تديرها ، ثم أخفاها وأحكم إخفاءها ، لم يصرح بها ولم
يشر إليها ، وإنما أسرها بينه وبين ضميره . واستوثق من أنها ناجحة . ومن
أنه آمن بعد من إنفاذها ، أليس من ورائه قومه يحمونه راضين أو كارهين
بألف من الخيل ؟ فلما أتم خطته ، أقدم وهو قوي قادر على الإقدام ، هو أسد
مقدف . يقذف نفسه ويقذفه قومه كلما جد الجدد ، لم يقلم أظفاره خوف ،
ولم يقلم أظفاره أمن ، لا يهاب حرباً . ولا يذعن لسلم ، لا يرضى من ظالم
ظلماً ، ولا يطمئن إذا مسه الظلم ، حتى يعاقب الظالم ، فإن لم يظلمه أحد فهو
لا يتخرج من أن يظلم الناس . وفي هذه الأبيات جزالة لفظ تملأ الفم دون أن
تتعبه ، وتروع السمع دون أن تشق عليه .

ثم انظر إلى هذين البيتين اللذين أعجبت بهما إعجاباً قوياً في بعض كتبك ،
والذين أعجب بهما أنا إعجاباً لا حد له ، واللذين يصور الشاعر فيهما حياة
هؤلاء الناس الذين لا يكفون عن الحرب إلا ليستعدوا لها ، ولا يقدمون على الحرب
إلا ليتحملوا أثقالها وآلامها ، حتى إذا بلغوا من ذلك حظهم الذي لا زيادة فيه
لمستريد ، لجأوا إلى السلم يجدون فيها قوتهم ، ويستكملون فيها عدتهم ، ثم
استأنفوا نشاطهم للحرب من جديد :

رَعَوْا مَارِعُوا مِنْ ظِمْمِهِمْ ثُمَّ أَوْرَدُوا غِمَارًا تُسِيلُ بِالرَّمَاحِ وَيَالِدِمِ
فَقَضَوْا مَنَايَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ أَصْدَرُوا إِلَيَّ كَلَامًا مُسْتَوْبَلًا مَتَوَخَّعًا

ويعجبنى هذا التمثيل البديع الذى يشق اشتقاقاً من حياة البادية ، ويضرب
فيه المثل بأقطع الإبل إلى رعيها إياها ، ثم ورودها الماء ، ثم انصرافها إلى
الرعى ، لترد الماء إذا أدركها الظم . وهكذا ما تنفك مضطربة بين إيراد وإصدار ،
ولكنها لا ترد ماء صفواً ، وإنما ترد غماراً تسيل بالدم وبالرماح ، وهى لا ترعى
عشياً هنيئاً ، وإنما ترعى كلاً وبيلاً كله علل وأدواء .

قلت لصاحبي : ألا ترى أنك قد ألقيت محاضرة طويلة عن زهير ، أو عن
قصيدة زهير هذه ؟ أو لا ترى أنك قد بلغت من الحديث في غير مقاطعة
ولا محاورة ما يرضيك ؟ ولكن ألا تسمح بعد أن أصبح الأمر كله لك ،
أن أنبهك إلى أن في هذه الأبيات التى تروىها لزهير ، وتطيل فى تفسيرها
وتحليلها ، شيئاً كثيراً من الخلط والاضطراب ! فالألفاظ توضع مكان ألفاظ ،
وأبيات تقدم حيث يجب أن تتأخر ، وأخرى تؤخر حيث يجب أن تقدم .
ألا تظن أن من الخير أن تحاول إصلاح هذا الاضطراب أو تعليقه ، أو
التماس أثره فى صحة القصيدة أو نحلها ؟ قال مغضباً ، وقد ضرب يداً بيد :
كلا يا سيدى ! كل هذا لا يعننى ، وإنما يعنك أنت ، ويعنى أمثالك من
الذين يدعون الباب ويتعلقون بالقشور ، ويريدون أن يصححوا هذا النص ،
ويقدحوا فى ذلك ، وما يعننى من هذه الثثرة إذا كان النص فى نفسه جميلاً ،
يعجبنى ويبعث فى نفسى من الحياة والنشاط ، ومن اللذة والمتاع ، ما أنا فى
حاجة إليه ، ومن زعم لك أنى طالب من طلاب الجامعة أتعلم عليك وعلى

زملائك تحقيق النصوص ؟ قلت : فإنى أخشى أن تكون هذه القصيدة من شعر زهير قد فتنك وصرفتك عن غيرها من روائع هذا الشاعر القديم ، فلزهير ، مدح ، من الحق أن يستكشف عما فيه من الجمال ، ولزهير وصف ، ليس أقل دقة ولا قوة ولا حياة من وصف لبيد ، ولزهير غزل أيضاً ، لا يخلو من عاطفة رقيقة توبة . قال ، وهو ينهض وقد ملأ فاه بضحك فيه شيء غير قليل من الاعتداد بالنفس : فلست أكره أن نتحدث في ذلك ، ولست أكره أن أدع لك الحديث في ذلك إذا كان الأسبوع المقبل .

ثم انصرف عنى ، وهو راض عن نفسه كل الرضا ، فذكرت لقاؤه في الأسبوع الماضى ، حين أقبل علىّ وهو ساخط علىّ وعلى نفسه كل السخط ، وحملت لزهير ولشعر زهير أثرهما في هذا الكائن الغريب .

ساعة أخرى مع زهير^(١)

قلت لصاحبي : إن ما بقي لنا من شعر زهير هو الذى حفظه الديوان ، وقد ذهب أكثره فى المدح ، وقليل منه فى الهجاء ، وأقله فى الرثاء ، وبعضه فيما يعرض من هذه الأحداث التى كانت تدفع البدوى لقول الشاعر ، ولم يكد يعرض زهير فيما حفظ لنا عنه على الأقل بهذا الشعر الخالص الذى لا يريد الشاعر به إلا الغناء ، وتصوير ما يضطرب فى النفس من خواطر ، ويثور فيها من عواطف ، هذا الشعر الذى لا يتخذه الشاعر وسيلة إلى غرض من أغراض الحياة ، أو عرض من أعراضها المألوفة ، وإنما هو غاية فى نفسه ، لا يقصد الشاعر به إلى غيره ، هو يحس ويشعر ويفكر ، وهو يريد أن يصور ما يجد من حس وشعور وتفكير ، والمعروف من سيرة زهير ، إن صح أن نسمى ما حفظته كتب الأدب من أخباره سيرة ، أنه كان كثير المدح ، انقطع إلى جماعة من أشرف غطفان فاستنفذ فى مدحهم أكثر ما قال من الشعر ، وكان يتكسب بهذا الشعر ، وكان يفيد عنه مالا كثيراً ، والمعروف كذلك من أمر زهير ، فيما يروى الرواة ، أنه كان مجوداً ، شديد العناية بشعره ، يطيل التهيؤ له ، والعمل فى إنشائه ، ثم يطيل النظر فيه ، ثم يناله بالحذف والإصلاح حتى يستقيم له ، ثم ينشره بعد ذلك ويذيعه فى الناس ، وما بقي لنا من شعر زهير يصدق هذا المعروف من سيرته ، ويحقق ما تحدث به الرواة ، فديوان زهير مملوء بمدح الأشراف من غطفان ، ومدح هرم بن سنان وقومه خاصة ، ونحن حين نقرأ هذا الشعر نحس فيه العمل ، ونتبين فيه الصنعة ، ولا نشك فى أن صاحبه قد تكلف فى إنشائه وتجويده جهداً غير قابل .

ولكن زهيراً مع أنه لم يكد يقصد فى شعره إلا إلى المدح والهجاء والرثاء ، قد مس فنوناً أخرى من الشعر فى مقدمات قصائده ، فأحسن مسها ، بل

(١) نشرت مجريدة الجهاد فى ٢٠ مارس سنة ١٩٣٥ .

عاجلها فأحسن علاجها ، ووفق فيها لإجادة قلما أتاحت لغيره من الشعراء الذين عاصروه . لا ينبغي أن نستثني من ذلك إلا أفراداً من الفحول الذين حفظ لنا من شعرهم شيء غير قليل ، ولو قد حفظ لنا شعر زهير كله أو أكثره لكان من الجائز بل من الراجح ، أن نقدمه ، كما كان يقدمه أهل الحجاز على الفحول الذين عاصروه وناظروه .

ولك أن تختار المذهب الذى نتخذه فى الإمام بما نحب أن نلم به فى هذا الحديث من شعر زهير . فأمامك طريقان : إحداهما أن نعمل إلى قصيدة من شعر زهير فتتحدث عنها . ونلم بما طرق فيها من فنون الشعر فنناً فنناً . حتى إذا فرغنا منها ، عمدنا إلى قصيدة أخرى فذهبنا فى العناية بها هذا المذهب .

والأخرى أن نعى بفنون زهير دون تشدد فى الوقوف عند قصائده . لئرى كيف يعالج هذه الفنون فى قصائده المختلفة : وهذا المذهب الثانى أحب إلى ، فما أظن أنك فى حاجة إلى أن أثبت لك أن قصيدة زهير مستقيمة . مطردة الأجزاء . تتمحق فيها الوحدة الشعرية على أكمل وجه وأدق .

قال صاحبي : فأى المذهبين أحببت فإنى راض به ، مطمئن إليه ، فما يعينى أن تذهب هذا المذهب أو ذاك ، أو تسلك هذه الطريقة أو تلك ، ما دمتا نقرأ شعراً جميلاً . ونتحدث عما فيه من جمال ؛ وأنا أعرف أنك لا ترضى عن مثل هذا النحو من الإهمال والتهاون ، لأنه لا يلائم ما ينبغي للدرس العلمى من نظام ، ولكن قلت غير مرة ، وسأقول لك غير مرة ، فيما يظهر : إنى تركت الدرس العلمى للجامعة والجامعيين . وآثرت الحرية المطلقة فى الحديث ، هذه الحرية التى لا يقيدتها شيء من هذه الأوضاع التى تخلفونها لأنفسكم ، وتفرضونها عليها ، فتجعل علمكم جافياً خشناً وغليظاً فجاً ، لا أدرى كيف تسيغونه أو نجدون فيه لذة ومتاعاً .

قلت : فدع الاستطراد هذه المرة ، والوثوب من فكرة إلى فكرة . ومن موضوع إلى موضوع ، وقف بنا عند شعر زهير لا نعدوه ، وقد أكثرت الكلام فى الأسبوع الماضى ، وأصبح من حقلك أن تستريح ، قال : بل أصبح من حقلك أن تقول فى هذا الأسبوع ، فأنت لا تريد لى رحلة . وإنما تريد أن تفرض على الصمت لتستأثر من دونى بالكلام ، ولست أدرى ما حيك للكلام

ومها لكك عليه وأنت تتكلم في غير انقطاع ! فقلت : إني أردك إلى زهير مرة أخرى . ولست أكره أن تقول إذا وجدت ما يدعو إلى القول ، أو إذا وجدت ما تقول ، فلست مشغوقاً بالكلام ، ولا متهالكاً عليه ، وما كنت أظن أن ذاكرتك قصيرة إلى هذا الحد ، فأنت الذى دفعتنى إلى هذا الحديث دفعاً ، ولولا تحديك وتصديك لما خضنا في هذه الأحاديث . قال : ففى أى فنون الشعر التى طرقتها زهير تريد أن نتحدث ؟ قلت : إنك لذكى نادر الذكاء ، وإنك لتلقى من الأسئلة ما لا يحتاج إلى إلقائه رجل يحسن ما يأتى وما يدع وإنما ينبغي فيما أظن أن نبدأ بالفن الذى يبدأ زهير به حين يعمد إلى قول الشعر فزهير غزل كغيره من الشعراء إذا أخذ فى النظم . قال : إنك لسيئ الخلق منذ اليوم ، فما عرفت منك هذه الحدة منذ أخذنا فى هذه الأحاديث ، وما أظن أن مذاكرتنا لشعر القدماء تستقيم وتتصل إذا مضيت مع حديثك هذه ، فأنكرت على كل شيء ، ولتنى فى كل شيء ، وفى غير شيء ، ولست أدرى كيف يستقيم لصاحب الخلق السيئ ، والمزاج الحاد ، أن يفهم الغزل أو يذوقه أو يتحدث فيه ؟ فرفه على نفسك يا سيدى ، وانصرف عن هذا الحديث إلى التدخين ، أو إلى شرب القهوة ، أو إلى شيء من الرياضة ، حتى إذا اطمأنت نفسك ، واعتدل مزاجك ، أمكن أن نأخذ فيما نحن بسبيله من حديث الشعر ، فنقد الغزل محتاج إلى جو غير هذا الجو ، وإلى استعداد غير هذا الاستعداد . قلت : إنك لم تقرأ شعر زهير كله فيما يظهر ، ولم تر أنه قد يتغزل كارهاً للغزل ، ويشب زاهداً فى التشبيب ، ويتحدث عن صاحبته ضيقاً بها ، زاهداً بها ، معرضاً عنها ، متمنياً لو استطاع أن يرسلها إلى الشيطان كما يقول الفرنسيون ، وأين أنت من همزته المشهورة التى يهجو بها نبي علم والتى يقول فيها :

فَلَمَّا أَنْ تَحَمَلَ آلُ لَيْلَى جَرَّتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ظِلْمًا
جَرَّتْ سُنْحًا فَقَلْتُ لَهَا أَجِيزِي نَوَى مَشْمُولَةً فَمَتَى اللِقَاءُ
تَحَمَلَ أَهْلُهَا مِنْهَا فَبَانُوا عَلَى آثَارٍ مِنْ ذَهَبِ الْعَفَاءِ

لَقَدْ طَالَبْتَهَا وَلِكُلِّ شَيْءٍ وَإِنْ طَالَتْ لَجَاجَتُهُ انْتِهَاءُ
فَأَنْتِ تَرَى أَنْ زَهْرًا لَيْسَ أَقْلَ مِنْ حِظًّا مِنْ سَوْءِ الْخَلْقِ ، وَلَا ضَيْقًا بِالْغَزْلِ
وَيَمُنْ يُقَالُ فِيهِمُ الْغَزْلُ قَدْ سَافَرَتْ صَاحِبَتُهُ عَلَى غَيْرِ رِضَى مِنْهُ : أَوْ فِي غَيْرِ
ضُرُورَةٍ إِلَى السَّفَرِ ، وَقَدْ أَلَحَّتْ عَلَيْهِ بِالْهَجْرِ وَأَلَحَّ عَلَيْهَا فِي الْمَطَالِبَةِ ، وَأَكَلَ
شَيْءٌ أَجَلَ : مَهْمَا يَطْلُ أَمْرُهُ ، وَتَشْتَدُّ اللَّجَاجَةُ فِيهِ : حَتَّى حَسُنَ الْخَلْقُ ، وَحَسُنَ
الْخَلْقُ مَعَ الْأَحْبَاءِ . فَإِذَا أُبِيحَ لَزْهِيرٌ ، أَوْ إِذَا أَبَاحَ زَهِيرٌ أَنْ يَكُونَ سَيِّئُ الْخَلْقِ
مَعَ صَاحِبَتِهِ ، فَقَدْ أُبِيحَ لِنَفْسِي أَنْ أَكُونَ سَيِّئُ الْخَلْقِ مَعَكَ ، وَلَيْسَ لِإِظْهَارِ
الضَّجْرِ بِطُولِ الْهَجْرِ ، وَاتِّصَالِ الْبَعْدِ مَقْصُورًا عَلَى زَهِيرٍ . فَقَدْ قَالَ فِيهِ غَيْرُهُ
مِنَ الْقَدَمَاءِ الَّذِينَ عَاصَرُوهُ ، وَمَا أَظْنُكَ نَسِيتَ قَوْلَ لَبِيدٍ :

فَاقْطَعْ لُبَانَةً مَنْ تَعَرَّضَ وَصَلُهُ وَلِخَيْرٍ وَاصِلِ خَلَّةٍ صَرَامُهَا
وَأَظْنُكَ قَدْ قَرَأْتَ أَوْلَ قَصِيدَةِ دَرِيدِ بْنِ الصَّمَةِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

أَرِثْ جَدِيدُ الْحَبْلِ مِنْ أُمَّ مَعِيدٍ بِعَاقِبَةٍ وَأَخْلَفْتَ كُلَّ مَوْعِدٍ
وَبَانَتْ وَلَمْ أَحْمَدْ إِلَيْكَ لِقَاءَهَا وَكَمْ أَرَجُ مِنْهَا رَجْمَةَ الْيَوْمِ أَوْغِدِ
وضيق امرئ القيس بصاحبه حين امتنعت عليه ، وأسرفت في الامتناع ،
مشهور وأشهر من أن أذكر به :

أَفَاطِمُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَرَمْتِ صَرِيَّ فَاجْعَلِي
وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاعَتِكَ مِنْ خَلِيقَةٍ فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِ
أَغْرَكِ مِنْى أَنْ حُبِّكَ قَاتِلِي وَأَنَّكَ مَهْمَاتِ امْرِئِ الْقَلْبِ يَفْعَلِي

قال صاحبي : إنك لتذهب اليوم مذهب القلماء تردني عن الاستطراد
ولكنك تمنع فيه ، فتدع زهيراً إلى لبيد ، ثم إلى دريد ، ثم إلى امرئ القيس .
ومن يدري ! لعلك لو خلقت بينك وبين الاستطراد أن تمضي منتقلا بين شاعر
وشاعر من هؤلاء الذين ضاقوا بصاحباتهم حتى نسي زهيراً . قلت : ومع ذلك
فإن زهيراً لم يكده يظهر هذا الضيق حتى عاد إلى صاحبه ، وقد استحضرت
صورها ، فأنتى عليها في هذه الأبيات التي كان القدماء يعجبون بها إعجاباً

شكلياً - إن صح هذا التعبير - لأنه جمع فيها بين هذه التشبيهات الثلاثة ، وإن لم يصور فيها حباً ولا عاطفة ، وذلك حين يقول :

تَنَازَعَهَا الْمَهَا شَبْهًا وَدُرُّ الدُّ حَوْرٍ وَشَاكَهَتْ فِيهَا الظُّبَاءُ
فَأَمَّا مَا فُويِقُ الْعِقْدِ مِنْهَا فَمِنْ أَدْمَاءِ مَرْتَعِهَا الْخَلَاءُ
وَأَمَّا الْمُقْلَتَانِ فَمِنْ مَهَاةٍ وَلِلدَّرِّ الْمَلَاخَةِ وَالنَّقَاءِ

فهو كما ترى يشبهها بالدر والمها والظباء جملة ، ثم يعود إلى تفصيل هذه التشبيهات ، فيبين وجوه الشبه فيها تصريحاً لا تلميحاً ولا إشارة ، وأنا أكره هذا التكليف ، وإن أحبه القدماء وأعجبوا به ؛ على أن هذه الصورة التي استحضرها زهير لصاحبته ، والتي كانت خليفة أن تزيده لها حباً ، وبها كلفاً ، لم تمنعه من أن يقول :

فَصَرَّمْ حَبْلَهَا إِذْ صَرَّمْتُهُ وَعَادَكَ أَنْ تُلَاقِيَهَا الْعِدَاءُ

وليس ضيق زهير بالغزل والحبيبة المملحة في المهجر والبعاد وفقاً على هذه القصيدة ، بل نحن نراه في قصيدة أخرى مشهورة هي التي يقول فيها :

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلَمَى وَقَدْ كَانَ لَا يَسْلُو وَأَقْفَرَ مِنْ سَلَمَى التَّعَانِيقُ فَالْتَقَلُّ
وَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَلَمَى سِنِينَ ثَمَانِيًا عَلَى صَبِيرٍ أَمْرٍ مَا يَمُرُّ وَمَا يَحْلُو
وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ قَضَيْتُ وَأَجَمْتُ حَاجَةَ الْغَدِ مَا تَحْلُو
وَكُلُّ مُجِبٍّ أَحَدَثَ النَّأْيُ عِنْدَهُ سُلُوَ فُؤَادٍ غَيْرِ حُبِّكَ مَا يَسْلُو

فهو في هذه الأبيات محب يشكو الصدف والهجر ، ويزعم أن قلبه قد صفا ، وأنه قد أفاق من هذه اللوعة التي عذبتة أعواماً طوالاً . ولكن انظر إليه كيف عادته الذكرى فساء لها خلقه ، وضاق بها ذرعاً وفرّ منها فراراً :

تَأَوَّبَنِي ذِكْرُ الْأَحْبَةِ بَعْدَمَا هَجَعْتُ وَدَوْنِي قَلَّةُ الْحَزَنِ فَالرَّمْلُ
فَأَقْسَمْتُ جَهْدًا بِالْمَنَازِلِ مِنْ مَنِي وَمَا سُحِجَتْ فِيهَا الْمَقَادِمُ وَالْقَمْلُ
لَأَرْتَجِلَنَّ بِالْفَجْرِ ثُمَّ لَأَدَّابُنَّ إِلَى اللَّيْلِ إِلَّا أَنْ يُعْرَجَنِي طِفْلُ

ولا تغضب من ذكر القمل ، فإن زهيراً لم يقدر أنك ستقرؤه على ما فيك من ترف ورقة مزاج ، ولو قد فعل لآثر على هذه الكلمة البغيضة إليك كلمة أخرى لا تؤذيك ؛ ولكن انظر إليه ، كيف عادته ذكرى الحبيبة أثناء الليل بعد أن صحا عن حبا ، وبعدت عنه ، فضاق ذرعاً بهذه الذكرى ، ونهض من مضجعه مقسماً على أن يرتحل مع الصبح ، وعلى أن يدأب في السير لا يلوى على شيء ، إلا أن تضطره ناقتة إلى الوقوف ، فقد كانت وشك أن تلد . وضيق الخلق هذا بالحب والأحباء ، في شعر زهير ، يحتاج إلى شيء من التعليل . وأكبر الظن ، أن الرجل كان عاجلاً حين ينظم قصائد المدح أو قصائد الهجاء ، يريد أن ينتهي إلى الفن الذي ينظم فيه الشعر ، ويكره أن يطيل الوقوف عند الديار ، أو عند وصف الأحباء ، ولعل شيئاً آخر يعلل هذا الضيق ، وهو كذب الكاذبين على زهير ، فالرواة يتحدثون ، فيما ينقل عنهم أبو الفرج ، أنهم كانوا في دار أمير المؤمنين المهدي بعيساباذ ، وقد اجتمع فيها عدة من الرواة والعلماء ، بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها ، إذ خرج بعض أصحاب الحاجب ، فدعا بالفضل الضبي الراوية ، فدخل فمكث ملياً ، ثم خرج إلينا ومعه حماد والمفضل جميعاً ، وقد بان في وجه حماد الانكسار والغم ، وفي وجه المفضل السرور والنشاط ، ثم خرج حسين الخادم معهما فقال : يا معشر من حضر من أهل العلم ، إن أمير المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها ووصل المفضل بخمسين ألفاً لصدقه وصحة روايته ، فمن أراد أن يسمع شعراً جيداً محدثاً فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل . فسألنا عن السبب ، فأخبرنا أن المهدي قال للمفضل لما دعا به وحده : إني رأيت زهير بن أبي سلمى افتتح قصيدته بأن قال :

• دَعَ ذَا وَعَدَّ الْقَوْلَ فِي هَرَمٍ •

ولم يتقدم له قبل ذلك قول ، فما الذي أمر نفسه بتركه ؟ فقال له المفضل : ما سمعت يا أمير المؤمنين في هذا شيئاً ، إلا أني توهمته كان يفكر في قول يقوله ، أو يروى في أن يقول شعراً فعدل عنه إلى مدح هرم ، وقال : « دع ذا » ، أو كان مفكراً في شيء من شأنه فتركه وقال : دع ذا ، أي دع ما أنت فيه

من الفكر ، وعد القول في هرم ، فأمسك عنه . ثم دعا بحماد فسأله عن مثل ما سأل عنه المفضل ، فقال : ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين . قال : فكيف ؟ قال ؟ فأنشده :

لَمَنْ الدِّيارُ بَقْنَةَ الحِجرِ أَقْوِينَ مَذْ حِجَجٍ وَمَذْ دَهْرٍ
لِعِبِ الزَّمانُ بِها وَغَيرَها بَعْدِي سَوائِي المَورِ والقَطْرِ
قَفراً بِمُنَدَفَعِ النُّحائِثِ مِن صَفَوَى أُولاتِ الضالِّ والسُّنْدِ
دَعِ ذَا وَعَدَّ القَولَ في هَرِمِ خَيرِ البُداةِ وَسَيدِ الحَضِرِ

قال : فأطرق المهدي ساعة ، ثم أقبل على حماد فقال له : قد بلغ أمير المؤمنين عنك خبر لا بد من استحلافك عليه ، ثم استحلفه بأيمان البيعة ، وكل يمين محرجة ليصدقته عن كل ما يسأله عنه . فحلف له بما توثق منه . قال له : أصدقني عن حال هذه الآيات ومن أضافها إلى زهير ، فأقر له حيثئذ أنه قائلها ، فأمر فيه وفي المفضل بما أمر به من شهرة أمرها وكشفه . فهذه القصة الظريفة تنبئنا بأن القدماء كانوا ييدعون هذه القصيدة بهذا البيت :

• دَعِ ذَا وَعَدَّ القَولَ في هَرِمِ •

وكان المهدي لا يفهم هذا الابتداء ، وكان المفضل يتأوله كما رأيت مقدراً أن الشاعر إنما يريد أن يعدل عما كان يفكر فيه ، وجائز أن يكون تأويل المفضل صحيحاً ، وجائز أيضاً أن يكون في القصيدة حين أنشأها زهير شعر آخر أضاعه الرواة ، وإلى هذا المذهب الثاني ذهب حماد ، ولكنه عوض هذا الشعر الذي ضاع فيما ظن بشعر آخر صنعه من عند نفسه ، وذهب فيه مذهب زهير في ذكر الديار . فما الذي يمنع أن يكون هذا الغزل الذي يتعجل الشاعر فيه ، ويظهر فيه من الضيق ما يظهر مضافاً إليه ، مصنوعاً عليه ، قد دسه حماد أو أشباه حماد من الرواة ، ولا سيما ما جاء في هذه اللامية بعد قوله :

تَأوَّبني ذِكرُ الأَجِبةِ بَعَدَ ما هَجَّعتِ ودونِي قُلَّةُ الحَزَنِ فالرملُ

فإن هذين البيتين اللذين أضيفا بعد هذا البيت يظهر فيهما التكلف

والتصنع وحب التخلص ، والرغبة في وصل ما مضى من الغزل بما هو مقبل من المديح .

قال صاحبي : ما تنفك تلح في بحثك وتحقيقك ، وتثقل علينا بتقديك وتمحيصك ، فدع عنك هذا ، وعد بي إلى شيء من غزل زهير ، لا يظهر فيه فساد ولا اضطراب ، ولا يدعوك إلى هذا التحقيق والتمحيص .

قات : فانظر في لاميته الأخرى التي يمدح بها حصن بن حذيفة بن بدر والتي يقول فيها :

صحا القلبُ عن سَلَمَى وَأَقْصَرَ بِاطِلُهُ وَعُرَى أَفْرَاسُ الصَّبَا وَرَوَّاحِلُهُ

فأصحاب البيان مشغوفون كما تعلم بهذا البيت ، وبالشرط الثاني منه خاصة ، لأنه جعل فيه للصبا أفراساً وراوحتل كان يركبها حين كان الشباب يواتيه ، وحين كانت تتاح له اللذات ، ويدفعها إليه نشاطه ومرحه ، فلما أدركته الكبرة ، وتقدم به العمر ، أقصر عن هذا كله ، وعرى أفراس الصبا ، وعرى رواحله ، وتركها مهملة ، لاتعينه على رواح ، ولا على غدو .

ثم انظر إليه كيف يقول بعد ذلك :

وَأَقْصَرْتُ عَمَّا تَعْلَمِينَ وَسُدَدْتُ عَلَى سِيْوَى قَصْدِ السَّبِيلِ مَعَادِلُهُ
وَقَالَ الْعَدَارَى إِنَّمَا أَنْتَ عَمَّنَا وَكَانَ الشَّبَابُ كَالْخَلِيطِ نُرَابِلُهُ
فَأَصْبَحَنَ مَا يَعْرِفُنَ إِلَّا خَلِيقَتِي وَإِلَّا سَوَادَ الرَّأْسِ وَالشَّيْبَ شَامِلُهُ

فهو هنا يفسر إعراضه عن اللذة ، وإقصاره عن اللهو ، وإقباله على الجدد ، لا رغبة فيه ، ولا زهداً في متاع الحياة ، بل قصوراً وعجزاً ، فهو يذكر الكبر والشيب اللذين يصرقان عنه العذارى ، ويطلقان ألسنتهن بهذه الكلمة التي تؤذيه ، والتي آذت الأخطل من بعده : « إنما أنت عمنا » ، وأظنك تذكر قول الأخطل :

وَإِذَا دَعَوْنَاكَ عَمَّنْ فَإِنَّهُ نَسَبٌ يَزِيدُكَ عِنْدَهُنَّ حَبَالًا

ولعلك تذكر قوله أيضاً :

يا قاتلَ اللهِ وصلى الغانياتِ إذا أيقنُ أنكِ ممنَ قد زها الكبرُ
أعرضنَ لما حنَّ قومي مؤنَّرها وابيضُ بعد سوادِ اللِّمةِ الشعرُ
ما يرغوينَ إلى داعٍ لحاجتهِ وما هنَّ إلى ذى شيبَةٍ وطرُ

على أن زهيراً لم يكده يذكر تقدم سنه ، وما اضطر إليه من الجلد ، حتى
حن إلى عهوده الأولى ، فذكر الديار ، واستأنف قصيدته استئنافاً ، كأنه
يتدثها دون أن يقدم بين يديها شعراً . فقال :

لِمَنْ طَلَّ كَالوَحى عافٍ مَنازِلُهُ عفا الرِّسُّ مِنْهُ فَالرِّسِّيسُ فَعاقِلُهُ
على أنه لا يزيد بهذه الذكرى على أن ينظم أسماء الأماكن التي كان يلقى
فيها أحباءه ، ويستقبل فيها لهوه ومتاعه . ثم يسرع إلى فن آخر من فنون الشعر
هو وصف الصيد ، فهو كما ترى صاحب غزل ، ولكنه مقتصد فيه ، أو معجل
عنه ، لا يمنحه من وقته وجهده وتفكيره ما ينبغي .

وانظر إليه في قافيته التي يمدح بها هرمياً كيف يقول :

إِنَّ الخَلِيطَ أَجَدُّ البَيْنِ فَانفَرَقَا وَعَلَّقَ القَلْبَ مِنْ أَسْمَاءِ ما عَرِقا
وفارقتكِ برهنٍ لا فكالكِ لَهُ يومَ الوَداعِ فَأَمسى الرَّهْنُ قَدْ غَلِقَا
وأخلفتكِ ابنةَ البُكرى ما وَعَدتِ فَأَصْبَحَ الحَبْلُ مِنْها واهياً خَلِقَا
قامتِ ترعى بِلدى ضالٍ لِتَحزُننِي ولا محالةَ أَنْ يَشْتاقَ مِنْ عَشِقَا
بجيدٍ مغزلةٍ أدماءِ خاذِلَةٍ مِنْ الظُّباءِ تُراعى شادِناً خَرِقَا
كأنَّ ريقَتها بعدَ الكرى اغتَبَقَتْ مِنْ طيِّبِ الرِاحِ لَمَّا يَعدُ أَنْ عَتِقَا
شجُّ السُّقاةِ على ناجورِها شِيماً مِنْ ماءِ لِينَةٍ لا طَرِقاً ولا رَنَقَا

فهو في البيت الأول يعرض قصته ، وقصته يسيرة في أول الأمر ، ولكنها
عسيرة أشد العسر بعد ذلك ، فأول أمره أن الخليط قد جد البين فانفرك ،
وبعد الأمد بينه وبين من كان يألف ، ولكن قلبه قد علق من أسماء شيئاً
لا سبيل إلى وصفه ، ولا إلى تصويره ، وإنما هو شيء يعبر عنه هذا التعبير

العام المحيط الذى لا يحتمل تصويراً ولا تفصيلاً . لأنه فوق التصوير والتفصيل « وعلق القلب من أسماء ما علقا » . ثم انظر إليه فى البيت الثانى : كيف يصور ارتباطه بأسماء وحرصه عليها ، وعجزه عن أن يسلوها . أو يفيق من حبا ، انظر إليه كيف يعبر عن هذا كله بهذا النحو اليسير المألوف من الكلام الذى لا يجد أحد فيه مشقة ولا عسراً ، وإنما يفهمه الناس جميعاً . ويقدره الناس جميعاً ، ولا سيما أهل البادية ، فهى قد ارتهنت قلبه ومضت به ، وليس من سبيل إلى أن يفك هذا الرهن . ثم هى لم ترتحن قلبه فحسب ، ولكنها على ذلك بخيلة تعد ولا تنى ، وتغنى ولا تحقق الأمانى ، وترتجل مع ذلك فتقطع الأسباب بينه وبين الأمل فى الوفاء بالوعد ، أو الانتظار لتحقيق المنى :

وأخلفتك أبنة البكرى ما وعدت فأصبح الجبل منها واهناً خلقاً
وهذه الفتاة ماكرة حقاً ، لا رحمة عندها ولا حظ لها من رفق أو إشفاق .
إنما هى قاسية أشد القسوة ، ظالمة أشد الظلم . ألسنت ترى إليها مع هذا كله تعرض للشاعر فتترأى له لتشوقه إليها ولتحزنه لهذا الفراق الموثس الذى لا أمل معه فى اللقاء ؟ فن رأى مثل هذه الفتاة ! من رأى مثل أسماء ابنة البكرى هذه التى تملأ قلب الشاعر حباً ، وترتهن قلبه ارتهاناً لا فكاك له . وترتجل بهذا القلب موثسة من اللقاء ، ومن الأمل فى اللقاء ، ثم هى مع هذا كله ترسل صورتها إلى الشاعر لتعينه وتمنيه وتذيقه ألوان العذاب ! وانظر إلى قوله :

* ولا محالة أن يشتاق من عشقا *

على أن الذكرى التى تثيرها هذه الصورة حين ترأى لزهير فتعذبه وتشقيه ، ذكرى مادية خالصة — إن صح مثل هذا التعبير — فصاحبنا يرى أسماء فيعجب بشكلها ولونها وجيدها الذى يشبه جيد الظبية . ثم إذا أمعن فى الذكرى ، ذكر ريقها فشبهه بالحرر المعتقة التى مزجت بالماء النقى البارد العذب ، وفى هذه السذاجة البدوية صدق نُحبه من زهير ، فهو لا يتكلف ولا يغلو ، ولا يصف إلا ما يجد . ومن هذا الغزل اليسير الساذج الذى ذهب إليه زهير فى هذه القصيدة ، وفى غيرها من الشعر ، أخذ الشعراء الإسلاميون ، والأخطل خاصة ، كثيراً من معانيهم التى جودوها وأتقنوها ، لأنهم بسطوها بسطاً ، وفصلوها تفصيلاً ،

اتخذوها وسيلة إلى تصوير قلوبهم ونفوسهم ، وما يثور فيها من العواطف والأهواء . على حين لم يزد زهير على أن ألم بهذه المعاني إلاماً ، وأجملها إجمالاً ، كأنه يريد أن يرسم النهج ، ويبين الطريق ، ويقيم الأعلام للذين سيقفون أثره من الشعراء المتأخرين .

وانظر إليه وهو يصور بعد ذلك تتبعه لؤلؤ القوم المسافرين ، في لفظ بدوى
جزل عذب متين ، وفي معان بدوية ساذجة كل السذاجة ، يسيرة كل اليسر :

ما زلت أزمقهم حتى إذا هببت أيدى الركاب بهم من راكبين فلقا
دانية من شرورى أو قفا آدم يسعى الحداة على آثارهم جزفا
فهو يتبعهم طرفه في مسيرهم هذا ، وهم يمشون لوجههم ، والحداة
يتبعونهم ، ويدفعونهم جماعات ، حتى إذا دنوا من هذه الأماكن التى سماها ،
وشق عليه أن يتبعهم بطرفه ، لأنهم أبعد من أن يبلغهم الطرف ، ملكه اليأس ،
واستأثر به الجزع ، فأنهت دموعه مرسله في غير انقطاع . وهنا يوشك الشاعر
أن ينسى حبه وغزله ، وأن يشغل عنهما بالوصف والتشبيه ، فهو يشبه عينه
وهى تسكب الدمع سكبا بدلو تملأ ثم تصب في جدول ، وقد شغلته الدلو ،
وشغلته الأدوات التى تصحبها ، وشغلته الناقة التى تستق بها ، وشغله الجدول
الذى يصب فيه الماء ، وشغلته الضفادع التى تعيش على شاطئ هذا الجدول —
شغله هذا كله عن الخليط الذى أجد اليبين ، وعن ابنه البكرى التى ارتهنت
قلبه وأخلفت موعدها . فزهير محقق إذا وصف ، متمم للتشبيه إذا أخذ فيه ،
وما دام قد عرض له هذا التشبيه ، فلا بد من أن يتمه ويستكمله وقد فعل ،
ولكنه لم ينشئ القصيدة ليتغزل ، ولا ليصف ، وإنما هو ينشئ لمدح هرماً ،
فحسبه أن قال فى الغزل ما قال ، وأن وصف من نفسه ومن صاحبتة ومن حزنه
ما وصف ، ولخص لما أنشأ القصيدة من أجله ، فيأخذ فى الثناء على هرم بن
سنان ؛ وأنت تستطيع أن تقرأ رائية الأخطل أو غزل الأخطل فى رائيته :

* خف القطين فرأوا منك أو بكرؤا *

فسترى أن زهيراً قد كان من أشد الشعراء تأثيراً فى شعر هذا الشاعر
الإسلامى العظيم .

قال صاحبي : ولكنك استغرقت حديث اليوم كله فيما تسميه غزل زهير ، ولم تصل إلى وصفه ، ولا إلى مدحه ، ولا إلى ما طرق من الفنون غير الوصف والمدح .

قلت : وما يمنعنا أن نعود إلى زهير مرة أخرى ؟ فنتحدث عن وصفه ، وعن مدحه ؟ فلأني أرى أن زهيراً من أبرع الشعراء في الوصف ، وقد أجمع القدماء على أنه من أبرع الشعراء في المدح .

ساعة أخرى مع زهير (١)

قلت لصاحبي : أما اليوم فعندى لك معرض من معارض الصور ، لست أدري أيروعك أم لا يبلغ من نفسك شيئاً ؟ ولكنى أعلم أنه كان يروع القدماء ، ويملاً نفوسهم إعجاباً وإكباراً . ولعله هو الذى جعل زهيراً أستاذ جماعة من كبار الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، منهم ابنه كعب وحفيداه عقبة والعوام ، ومنهم الخطيئة وتلميذه جميل ، وكثير تلميذ جميل ، ومنهم الأخطل فيما أعتقد أنا ، ومنهم غير هؤلاء من الشعراء الذين عاصروا زهيراً وسمعوا منه أو نقل إليهم شعره . ومن الشعراء الآخرين الذين لم يعاصروه ، ولكن شعره انتهى إليهم من طريق الرواية والرواة .

ولست أريد أن أطيل عليك فى المقدمات ، ولا أن أشغلك بمحدثى عن حديث زهير ، وإنما أريد أن أهجم بك على ميدان من هذه الميادين التى كان زهير يحسن أن يذهب فيها ويحىء . وملى لا أبدأ بهذا الفضاء الجميل . الرائع العريض الذى لا حد له ، أو الذى لا تستطيع العين أن تتبين له حداً من أى نحو نظرت فيه . فاهبط مع زهير إلى هذا الفضاء العريض ذى الآماد البعيدة . فإن المهبوط إليه مستحب نافع . ألسنت تعلم أن السماء قد غمرت هذا الفضاء منذ حين بمائها الغزير الذى يملؤه الحصب والحياة ، فامتلاً هذا الفضاء خصباً وحياة ! ولو قد رأيت لرأيت بهجة وجمالاً ، هذا النبات الكثير المختلف الذى ملأ الفضاء . سواء منه هذه الربى المرتفعة ، وهذه الوهود المنخفضة ، وهذه السفوح بين هذه وتلك . انظر فإن لك فى هذا النظر متعة ولذة وروحاً ؛ هذا الفضاء لم يكذب يثور فيه ما ثار من النبات فيزينه ويجمله حتى عرف ذلك الإنسان ، وعرفه الحيوان أيضاً ، بل عرفه الحيوان قبل أن يعرفه الإنسان ، فأسرع إليه وعاش فيه ، واستمتع بهذه الرياض والجنات وقتاً من حياته التى يملؤها الجوع والضر ، إذا لم تعطف السماء على الأرض ولم ترسل إليها مع

(١) نشرت بمجريدة اجهاد فى ٢٧ مارس سنة ١٩٣٥ .

هذا الماء شيئاً من الخصب والحياة . كثر الحيوان في هذا الفضاء ، وأمن برهة . ولكن الإنسان لم يلبث أن عرف هذا الفضاء . ومكان هذا الخصب والنعم فيه وإسراع هذا الحيوان إليه . فأسرع هو إليه أيضاً ليستمتع بنعيمه . ويصيب من خيره ، ويصيد من حيوانه . وهذا زهير في نفر من قومه قد أقبلوا هم أيضاً يلتمسون الصيد . فانظر إليهم يهبطون ومعهم فرسهم هذا الضخم الذي أحكم خاقه إحكاماً . وارتفع في السماء ارتفاعاً . على قوائمه المفتولة أشد الفتل ، المرة أشد إمرار . وهو قوى صلب ، وهو عنيف شמוש ، ليس سهلاً ولا مذلاً . حتى إذا بلغوا من هذا الفضاء مكاناً يستقرون فيه ، أقبل إليهم غلامهم وكانوا قد أرسلوه يلتمس لهم أماكن الصيد ، فبحث ، ثم عاد إليهم محتاطاً محتالاً يمشى في خفة . ويضائل شخصه مضائلة حتى لا يرى ولا يحس ، حتى إذا انتهى إليهم ، أنبأهم في همس وصوت سريع بأنه قد رأى لهم صيداً فيه الخير كل الخير ، رأى لهم جماعة ضئيلة من حمر الوحش ترعى بعد أن عبث الصائدون بها ، فأخذوا معظمها ولم يبق منها إلا أنثى ثلاث ضامرات مقوسات لقلّة ما شربن من الماء ، وكثرة ما رعين من هذا التبت الرطب . يستغنين به عن الماء ، ومعهن فحلهن يراعيهن ويرعاهن . ولم يكد الغلام ينبئهم بمكان هذا الصيد ، حتى ائتمروا فيما بينهم أيخادعونه خداعاً ، ويأخذونه بالغدر والمكر أم يصابولونه جهرة في غير مكر ولا ختل ولا احتيال . ثم يستقر رأيهم على الحرب المعلنة ، والمصاولة التي لا مكر فيها . وما حاجتهم إلى الخداع ، ومعهم هذا الجواد الذي لا يفوته شيء ! نعم ! ولكن هذا الجواد صعب عسير ، مسرف في الشמוש والجموح ، كأنه لم يُرَضْ قبل اليوم . ألسنت ترى إليه رافعاً رأسه في السماء مستعصياً على من يريد إلجامه؟ ثم ألسنت ترى إلى هؤلاء الناس من حوله يضرّبونه ويعنفون عليه في الضرب حتى أعيامهم أو كاد ؟ ولكنهم على كل حال أشد منه بأساً ، وأعظم منه قوة ، فقد قهروه واضطروه إلى أن يخفض رأسه ويمكن من نفسه ، وهذا صاحب اللجام قد أقبل عليه ليلجمه ، ولكن انظر : إن هذا الجواد لمرتفع ، وإن صاحب اللجام ليجد في بلوغ رأسه مشقة وجهداً ، إنه ليقف على أصابع رجله مرتفعاً في الجو ليلبغه ، وهاهو ذا قد انتهى إلى إلجامه ، وهذا الغلام قد استطاع أن يثب إليه فيركبه ، وها هو ذا

يريد أن يدفعه في طلب الصيد ، واسمع لزهير يوصي الغلام بما ينبغي له ليدرك من الصيد ما يريد ، هو يوصيه بالحواد خيراً ، وهو يوصيه بأن يلتمس غرة الصيد ، ولكن الغلام مشغول بالحواد الشموس الصعب عن أن يسمع لزهير أو يعقل عنه ، وما هو ذا قد دفع الحواد إلى أمام ، وزهير ينظر إليه وقد بعد عنه ، فيرى أنه يكلف الغلام ألواناً من المشقة ، ويرى أنه مع ذلك ينصب بالغلام على الصيد كما يهوى الثؤيبوب من السماء . وهذا الغلام يعود بعد حين ، وقد أصاب حمار الوحش ، وعاد به دامياً جريحاً ، وعاد بفرسه دامياً لما تناثر عليه من دم هذا الصيد . وقرأ هذه الأبيات التي أفسدتها لإفساداً بهذا التخليص الذي لادقة فيه ، فإنك واجد فيها حين تقرأها صوراً جميلة رائعة ، وألفاظاً ممتنة جزلة ، وسداجة مع ذلك في التعبير والتفكير لا تكلفك جهداً ولا عناء :

وَعَيْثُ مِنَ الْوَسْمِيِّ حُوْ تِلَاعُهُ أَجَابَتْ رَوَائِبِهِ النَّجَا وَهَوَاطِلُهُ
هَبَطْتُ بِمَمْسُورِ النَّوَاشِرِ سَابِحٍ مُمِرٌّ أَسِيلِ الْخَدِّ نَهْدٍ مَرَاكِلُهُ
تَمِيمٌ فَلُونَاهُ فَأُكَيْلٌ صُنْعُهُ فَمٌ وَعَزَّتُهُ يَدَاهُ وَكَاهِلُهُ
أَمِينٌ شِظَاهُ لَمْ يُخَرِّقْ صِفَاقَهُ بِمَنْقَبَةٍ وَلَمْ تُقَطِّعْ أَبَا جِلَّةُ

فهو في هذه الأبيات قد عرض عليك صورتين لم يكن بد من عرضهما قبل أن يبدأ قصة الصيد . فأما أولاهما : فصورة هذا النبات الذي ملأ الفضاء العريض مرتفعه ومنخفضه . وأما الثانية : فصورة هذا الحواد الذي أقبل به في أصحابه يلتمسون الصيد وهذا الحواد ، كما قلت لك ، عظيم ، محكم الخلق ، شديد الأسر ، حديث عهد بالشباب ، قد فطموه منذ حين ، وتعهدوه بالعناية والرعاية ، فلم يحتاج إلى البيطار ، ولم يتعرض لعله ، ولم يشك ألماً ولا سقماً ، وإنما هو مرح أشد المرح ، نشيط أشد النشاط . ثم يقص عليك الشاعر قصة الصيد ؛ فاسمع له أو انظر إليه ، فهو يتحدث إلى أذنك باللفظ ، وهو يتحدث إلى عينيك بالصور :

إِذَا مَا غَدَوْنَا نَبْتِنِي الصَّيْدَ مَرَّةً مَتَى نَرَهُ فَإِنَّا لَا نُخَاتِلُهُ
فَبَيْنَا نُبْنِي الصَّيْدَ جَاءَ غُلَامُنَا يَدِيبٌ وَيُخْفِي شَخْصَهُ وَيُضَاثِلُهُ

انظر إلى هذا البيت الأخير ، أو إلى هذا الشطر الأخير ، وإلى صورة هذا الغلام الذي جاء يبتهم بمكان الصيد وهو حذر محتاط . يذب ويخفي شخصه ويضائله ، فأنت توافقني على أنها صورة قوية صادقة معجبة حقاً :

فَقَالَ شَيْهًا رَاتِعَاتُ بِقِفْرَةٍ بِمَسْتَأْسِدِ الْقُرْيَانِ حُوَّ مَسَائِلُهُ
ثَلَاثُ كَأَقْوَاسِ السَّرَاءِ وَمِسْحَلُ قَدِ اخْضَرَّ مِنْ لَسِّ النَّجِيرِ جِحَافِلُهُ
وَقَدْ خَرَّمَ الطَّرَادَ عَنْهُ جِحَاشُهُ فَلَمْ يَبْتَقِ إِلَّا نَفْسَهُ وَحَلَالِلُهُ

وانظر إلى البيت الثاني من هذه الأبيات الأخيرة ، فسترى فيه دقة الشاعر في التصوير ، وإحاطته بما يريد أن يصوره ، فهذه الحمر أربع ، فأما ثلاث منها فإنهن ضامرات ، تمتاز بهذا الضمور ، وأما الرابع فهو الفحل . وانظر إلى الشطر الثاني من هذا البيت ، فهو أبلغ في الدقة ، لأنه يصور لك هذا الحمار وقد أكثر من رعى النبات المخضر ، حتى ظهرت خضرة هذا النبات في فيه ، ثم اسمع للأبيات الثلاثة كلها وحدثنى . أليس هكذا يكون حديث هذا الغلام الذي ذهب يبتغي الصيد لقومه ثم عاد إليهم يبتهم بما رأى حذراً هامساً محتاطاً مرغباً في وقت واحد :

فَبِتْنَا عُرَاءَ عِنْدَ رَأْسِ جَوَادِنَا يُزَاوِلُنَا عَنْ نَفْسِهِ وَنَزَاوِلُهُ
فَنَضْرِبُهُ حَتَّى اطْمَأَنَّ قَدَالُهُ وَكَمْ يَطْمَنَّ قَلْبُهُ وَخَصَائِلُهُ
وَمُلْجِمُنَا مَا إِنْ يَنَالُ قَدَالُهُ وَلَا قَدَمَاهُ الْأَرْضَ إِلَّا أَنَامِلُهُ
فَلَأَيًّا بِلَأْيٍ مَا حَمَلْنَا وَلِيدَنَا عَلَى ظَهْرٍ مَحْبُوكٍ ظَمَاءٍ مَفَاصِلُهُ

في البيتين الأولين من هذه الأبيات تصوير للجهد العنيف بينهم وبين الفرس ، وقد انتهى هذا الجهد إلى أن خفض الجواد رأسه ، فاطمأن قذاله ، ولكن قلبه لم يطمئن ، فهو مضطرب شديد النشاط . وفي البيت الثالث صور الملجم وهو يحاول إلجام هذا الجواد في جهد ومشقة ، وفي البيت الأخير صورة الغلام وقد استطاع بعد العناء الطويل الثقيل أن يركب هذا الجواد . واسمع لزهير وهو يوصي الغلام :

فَقَلْتُ لَهُ سَدِّدْ وَأَبْصِرْ طَرِيقَهُ وَمَا هُوَ فِيهِ عَنْ وَصَاتِي شَاغِلُهُ

وَقَلْتُ : تَعَلَّمْ أَنْ لِلصَّيْدِ غِرَّةً وَإِلَّا تُضَيِّعُهَا فَيُنْكَرُ قَاتِلُهُ
فَتَبِعَ آثَارَ الشَّيْءِ وَلَيْدُنَا كَشُوبُوبٍ غَيْثٍ يَخْفِضُ الْأَكْمَ وَأَبْلُهُ
نَظَرْتُ إِلَيْهِ نَظْرَةً فَرَأَيْتُهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مَرَّةً هُوَ حَامِلُهُ
يُثْرِنُ الْحَصَى فِي وَجْهِهِ وَهُوَ لَاحِقٌ سِرَاعُ تَوَالِيهِ صِيَابٌ أَوَائِلُهُ
وانظر إلى هذا البيت الأخير الذى يصور الطرد أجمل تصوير وأبدعه ،
فهذه الحمر تثير الحصى فى وجه الجواد ، ولكنه مع ذلك ماض فى أثرهن ،
غير وان فى الطلب ، وقد اشتد نشاطه حتى كأن أجزاءه تعدو يتبع بعضها
بعضاً ، فقدمه نشيط مسرع ، ومؤخره يتبعه فى الإسراع والنشاط ، ولم يكن
بد لهذا الإلحاح فى الطلب من أن ينتهى إلى الظفر ، وقد ظفر الغلام وجواده :
فَرَدُّ عَلَيْنَا الْعَيْرَ مِنْ دُونِ إِلْفِهِ عَلَى رَعْمِهِ يَدْمَى نَسَاءَهُ وَفَائِلُهُ

فهو قد ظفر بالفحل ، ولكنه لم يظفر بملائله ، وإنما فاتته هذه الأذن
الضامرة ، وهو على كل حال قد عاد بهذا العير دامياً جريماً محزوناً أشد الحزن
لفقد إلفه . أما الجواد فهو بعد هذا العدو المتصل ، والطلب الملح ، والجهد
العنيف : قد عاد موفوراً شديد النشاط لا ضعيفاً ولا مهالكاً .

وَرُخْنَا بِهِ يَنْضُو الْجِيَادَ عَشِيَّةً مُخَضَّبَةً أَرْسَاغُهُ وَعَوَامِلُهُ

فانظر إليه كيف يرجع متقدماً غيره من الجياد ، لم يفتر عزمه ، ولم تنكسر
حدته ، وإنما يمشى مرحاً ، قد لونت دماء الصيد قوائمه وأرساغه .

ألسنت ترى فى كل هذه القصة وما اشتملت عليه من الصور المختلفة
جمالاً وروعة وسداجة وقدرة على استغلال الحس . واستحضار الأشياء لا حد
لها ؟ قال صاحبي : أما هذا فليس إلى الشاك فيه من سبيل ، والذى يعجبني فى
هذه القصة أنها على ما فيها من الحركة وكثرة الاضطراب لا تتعب ولا تجهد ،
وإنما تعجب وتروع فى يسر ومهل ، كأننا ننظر إليها ونحن مطمئنون ، كما
يشهد النظارة هذه الصور المتحركة فى دار من دور السينما .

قلت : فلانى أريد أن أعرض عليك الآن صورة أخرى هادئة كل الهدوء ،
مريحة كل الراحة ، فيها حركة واضطراب ، ولكنها حركة يسيرة مطردة مطمئنة ،

تثير في النفس حزناً خفيفاً، وحناناً هادئاً مطمئناً ، ولا غرابة في ذلك ، فالشاعر قد أقبل على رسم هذه الصورة وهو محزون ، قد امتلأ قلبه حناناً وشوقاً . فهو قد كان يتبع أحباءه الظاعنين بطرفه ، حتى إذا بعدوا عنه وغابوا عن عينه بكى ، فانهمرت دموعه انهماراً ، كما ينهمر الماء من الدلو ، وهذا التشبيه دعا الشاعر إلى أن يحققه ويستوفيه ، كأنه وجد في تحقيقه واستيفائه تسلية لنفسه عن هذا الحزن ، فاستطرد وأمعن في الاستطرد ، وذكر لنا أن هذه الدلو التي ينهمر منها الماء كما ينهمر اللعاب من عينيه لا تمتلئ مرة ولا مرتين ، وإنما تمتلئ ثم تفرغ ، ثم تمتلئ ثم تفرغ ، وهكذا ما تزال تهبط فارغة ، وتصعد ممتلئة ، ثم تهبط فارغة وتصعد ممتلئة ، ثم لم ير الشاعر بأساً من أن يصور لنا الناقه التي تستقي بهذه الدلو ، ومن أن يصور لنا السائق الذي يجرد من ورائها ، وينذرنا بالسوط إن أبطأت ، ومن أن يصور لنا هذا الرجل القائم أمامها الذي يتناول الدلو فيفرغها إذا امتلأت ، ثم لم ير بأساً من أن يصور لنا الجدول الذي يجري فيه هذا الماء الذي تصبه فيه الدلو ، ثم لم ير بأساً من أن يصور هذه الضفادع التي تعيش على شواطئ هذا الجدول ، وفي هذه الحفرة التي تحيط بالنخيل ، ولم ير بأساً من أن يصور لنا فرع هذه الضفادع حين ينصب الماء فيجري في الجدول ويصب في الحفر ، فهي تخرج مشفقة تخاف الغرق . والغريب أن القدماء من أصحاب اللغة والنقد عابوا هذه الصورة الجميلة الأخيرة على زهير ، وأنكروها أشد الإنكار ، وغلطوا شاعرنا العظيم ، وزعموا أن الضفادع لا تخرج من الماء مخافة الغرق وإنما تخرج لأنها تبيض على الشاطئ ، كأن شاعرنا إنما ذهب مذهب التحقيق العلمي في خصال الحيوان ، مع أنه لم يرد إلا أن هذا الماء الذي يصب في الجدول وينصب في الحفر متوالياً متدافعاً بين حين وحين ، يخيف هذه الضفادع فيدفعها إلى الشاطئ ، ويخرجها من الماء . وقرأت معي هذه الأبيات وأعجب معي بلفظها الرصين ، وأسلوبها الحلو ، وقافتها المتينة .

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرْبِي مَقْتَلَةٌ مِنْ النَّوَاضِحِ تَسْقِي جِنَّةَ سُحْمَا
تَمَطُّوا الرِّشَاءَ وَتُجْرِي فِي ثِنَائِيهَا مِنْ الْمَحَالَةِ ثَقْبًا رَائِدًا قَلِقَا
لَهَا مَتَاعٌ وَأَعْوَانٌ غَدَوْنَ بِهِ قَتْبٌ وَغَرْبٌ إِذَا مَا أُفْرَغَ أَنْسَحَمَا

وَخَلْفَهَا سَاتِقٌ يَخْدُو إِذَا خَشِيَتْ مِنْهُ اللَّحَاقَ تَمُدُّ الصُّلْبَ وَالْعُنُقَا
 وَقَابِلٌ يَتَغَنَّى كُلَّمَا قَدَرَتْ عَلَى الْعِرَاقِي يَدَاهُ قَائِمًا دَقَقَا
 يُحِيلُ فِي جَدْوَلٍ تَحْبُو ضَفَادِعُهُ حَبْوَ الْجَوَارِي تَرَى فِي مَائِهِ نُطْقَا
 يَخْرِجُنْ مِنْ شَرِبَاتِ مَاوُهَا طَحِيلٌ عَلَى الْجَذْوَعِ يَخْفَنَ الْغَمُّ وَالْعِرَاقَا

قال صاحبي : نعم ! إن هذه الصور جميلة ، ولكن ألفاظ الشاعر عسيرة بعض الشيء ، تحتاج إلى التفسير . وما أظن أن قراءك إن نشرت لهم مثل هذا الشعر يرضون عنه إلا أن تفسر لهم غامضه . قلت : فإلى أين تريد أن نمضي إذا فسرنا كل غامض ، ويسرنا كل عسير ؟ أليس يحسن أن يكون الجهد قسمة بين القراء وبيننا ، عليهم بعضه ، وعلينا بعضه الآخر ؛ وأى شيء أيسر من أن يشتري القارئ طبعة من هذه الطبعات اليسيرة التي نشر فيها شعر زهير مفسراً مشروحاً ؛ بل أنا لا أذيع هذه الأحاديث إلا لأغرى القراء بشراء هذه الندواوين ، وإطالة النظر فيها من حين إلى حين . قال صاحبي : فإن في هذين البيتين الأخيرين تشبهاً جميلاً يعجبني حقاً ، وهو تشبيه هذه الضفادع التي تحبوني بالجداول والحفر بالصبيان اللاعبين ، حتى إذا أدر كها الماء أشفقت منه فارتفعت إلى جذوع النخل تريد أن تتقيه اتقاء . قلت : نعم ، ولكن الذي يعجبني أنا من هذه القطعة كلها هو بنوع خاص هذه الحركة المهادئة المطمئنة التي تلامم حزن الشاعر وحنانه ، والتي يلوذ بها الشاعر ليتعزى بها عن هذا الحزن ويستبقي بها بعض هذا الحنان .

على أي أريد أن أعرض عليك الآن صوراً أخرى رسمها زهير في شعره فأبداع وأجاد ، ومن هذه الصور ما هو مألوف عند شعراء آخرين غير زهير ، فهو في بعض قصائده يريد أن يرسم ناقته فيذهب مذهب لبيد ، فيشبهها بالنعامة ، حتى إذا أتم هذا التشبيه وحققه ، عدل عنه إلى تشبيه آخر كما فعل لبيد فشبه ناقته بحمار الوحش الذي يدفع حليلته أمامه بيتني الماء ويفر بها من الفحول ، وهو يذهب في هذا التشبيه وفي قصته مذهب لبيد كأنه يحاكيه ، أو كأن لبيداً هو الذي حاكي زهيراً .

وفي قصيدة أخرى يريد أن يصور ناقته فيذهب مذهب طرفه ، أو مذهب

الذين حملوا وصف الناقة على طرفة . فيصف أجزاء الناقة ، وربما استعمل في بعض وصفه ألفاظ طرفة نفسها . وانظر إلى هذه الأبيات .

قال صاحبي : حسبك رواية من هذا الشعر : فلست أشك في جماله ولا في روعته ، ولكني أعلم أنك لن تعرض له حتى تدخل في الموازنة بين زهير ولييد ، وبين زهير وطرفة ، وحتى تبحث عن سبق ، ومن سرق ، وحتى تنهى آخر الأمر إلى مذهبك الذي فتننت به فتوناً ، وهو أن بعض هذا الشعر منحول ، قد حمل على زهير أو على لييد أو على طرفة ، فأرخني من هذا البحث ، ومن هذا العناء الذي لا أحبه ، ولا أجد فيه خيراً .

قلت : لك ذلك ، فما زلت فيما أرى ضعيف الجهد . قصير الباع ، عن مثل هذا البحث العنيف الحصب ، ولكنك ستسمع هذه الأبيات على كل حال ، لأنها سهلة حلوة ، لا مشقة فيها ولا جهد ، وهي لهذا كله تريحك من هذا الشعر العسير الذي جشمتك عسره ومشقته . وزهير في هذه الأبيات يصور لهوه وهو أصحابه في لفظ جميل يسير . وفي معان مقتصدة لا غلو فيها ولا إسراف :

وَقَدْ أَغْدُوا عَلَى ثُبَّةٍ كِرَامٍ نَشَاوَى وَاجِدِينَ لِمَا نَشَاءُ
لَهُمْ رَاحٌ وَرَاوُوقٌ وَمَسْكٌ تَعَلُّ بِوِ جُلُودِهِمْ وَمَاءُ
يَجْرُونَ الْبُرُودَ وَقَدْ تَمَشَّتْ حُمَيَّا الْكَاسِرِ فِيهِمْ وَالْغِنَاءُ
تَمَشَّى بَيْنَ قَتْلَى قَدْ أُصِيبَتْ نَفُوسُهُمْ وَكَمْ تُهْرَقُ دِمَاءُ

قال صاحبي : ما أيسر : هذين البيتين الأخيرين ! وما أجمل يسرهما ! إنهما ليصوران البهجة والمرح أيسر تصوير وأصدق . وإن في البيت الأخير خاصة بحمالة لا يخلو من غرابة . قلت : إن صحت هذه الأبيات لزهير فعنه إذن قد أخذ الغزلون الإسلاميون ، حين زعموا أن عيون الحسان سهام يصبين العاشقين فيقتلنهم دون أن يرقن دماء ترى . قال : فإنك تشير إلى قول الشاعر الإسلامي :

إِذَا هُنَّ سَاقَطْنَ الْحَدِيثَ لِذِي الْهُوَى سِقَاطَ حَصَى الْمَرْجَانِ مِنْ سِلْكِ نَاطِمٍ
رَمَيْنَ فَأَقْصَدْنَ الْقُلُوبَ فَلَمْ نَجِدْ دَمًا مَائِرًا إِلَّا جَوَى فِي الْحَيَازِمِ
قلت : نعم ! وإلى غير هذا الشعر مما نجده كثيراً شائعاً عند أصحاب الغزل .

قال : وأنت تشك في صحة هذه الأبيات لزهير ؟ قلت : بل أنا أشك في صحة الكثرة من أبيات هذه القصيدة ، وأى شيء أيسر من أن تتبين النحل ؟ قال : حسبك ! فلإني أكره حديث النحل ، وأتوسل إليك ألا تشركني فيه . أو تثقل به عليّ ، ولكننا مع ذلك لم نصل إلى الفن الذي تفوق فيه زهير على غيره من الشعراء الذين عاصروه ، وهو فن المديح . قلت : فإن أمر المدح عند زهير يسير ، أيسر جداً مما تظن ، وقد فهمه القدماء على وجهه أحسن فهم وأصدق . ولعلك تذكر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يحب مدح زهير لأنه كان مدحاً صادقاً لا يضيف إلى الرجل غير ما فيه ، ولأنه كان مدحاً خليقاً أن يبتى ، وأن يحفظه الناس لصدقه ، وارتفاعه عن السخف ، وبعده عن الإحالة . وتوخيه هذه الخصال التي يحبها الناس ، ويحبها العرب خاصة . فالذين يمدحهم زهير قوم كرام أجواد ، لا يخلون بالمال ، ولا يؤثرون به أنفسهم ، وإنما هم يهينونه ، ويؤثرون به عشائهم ، يشترون به سلم العشيرة ، ويشترون به راحة الضمير ، ويشترون به الحمد والثناء ، وهم شجعان لا يؤثرون أنفسهم بالعافية ، ولا يخلون بحياتهم عند مواطن البأس ، لا يتفرون مهما تكن الملمات ، ولا يجمعون مهما يقدموا على الهول ، وهم على ذلك كله ناس لا يخرجون عن طور الناس ، حتى حين يريد زهير أن يغلو ويلح في المدح ، فهو مهما يغلُ يكره الإحالة ، وينفر من أن يقول غير الحق ، وانظر إلى هذا البيت ، فإنه يلخص مذهب زهير في المدح أحسن تلخيص ، ويصدق فيه رأى عمر رحمه الله :

وَلَوْ أَنَّ حَمْدًا يُخْلِدُ النَّاسَ لَمْ تَمُتْ وَلَكِنَّ حَمْدَ النَّاسِ لَيْسَ بِمُخْلِدٍ
وإذا لم يكن بدّ من أن تستعرض بعض هذا المدح ، فاقرا معي هذه الأبيات التي يمدح بها زهير حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري :

وَأَبْيَضَ فَيَاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ	عَلَى مُعْتَفِيهِ مَا تَغِبُ فَوَاضِلُهُ
بَكَرَتْ عَلَيَّ غُدْوَةٌ فَرَأَيْتُهُ	قَعُودًا لَدَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَازِلُهُ
يُقَدِّينُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلْمَنَهُ	وَأَعْيَا فَمَا يَدْرِينِ أَيْنَ مَخَازِنُهُ
فَأَقْصَرَنَ مِنْهُ عَن كَرِيمٍ مُرْزَلٍ	عَزُومٍ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ فَاعِلُهُ

أَخِي نِقَةَ لَا تُتْلِفُ الْخَمْرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمَالَ نَائِلُهُ
تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تَعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

أجمل شيء في هذا الشعر أنه واضح سهل ، لا يجهد سمعك إن سمعته . ولا يجهد عقلك إن وعيته ، وإنما هو نقي ناصع كصفحة الشمس ، وخصال المدوح فيه ، هي هذه الخصال التي يحبها الناس ، ويألفها العرب ، والظريف أنه قد اصطنع القصص اليسير وسيلة إلى إظهار هذه الخصال ، فهو قد غدا على صاحبه حصن ، فألفاه وقد أحاط به عواذله يلمنه ، ويلحجن عليه في اللوم . لكثرة ما ينتق من المال ، وهنّ مع ذلك يحببته ، ويؤثرنه ، ويرققن به . ويفدنه بأنفسهن ، يأخذنه بالعنف حيناً ، ويأخذنه بالرفق حيناً آخر . ولكنه يعيين ويعجزهن ، فلا يبلغن منه شيئاً . ولا يعرفن كيف ينتهين إلى نفسه . ليصرفنه عن هذا الإسراف ، فإذا بلغ منهن العجز أقصرن عنه ، وتركنه وما هو فيه من إهلاك للمال ، لا في لهو ولا في عبث ، ولكن في إغاثة الملهوف . وإعانة المحروب . ثم يمضي الشاعر في مدحه ، فيصل إلى هذا البيت البديع الذي لا أعرف أبداع منه في سداجته ويسره ، وارتفاعة عن التكلف ، وتصويره لطبيعة الإنسان السهلة السمحة التي لم تعقدها الفلسفة ، ولم يلح عليها الترف ، ولم تخرجها الحضارة عن طورها :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تَعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

وصاحبه لسينّ قفصيح . قوى الحجة ، بالغ البرهان . حلیم مع ذلك شديد الصفح ، معرض عن اللغو ، متفضل على الضعيف المغلوب :

وَذِي خَطَلٍ فِي الْقَوْلِ يَحْسَبُ أَنَّهُ مُصِيبٌ فَمَا يُلِمُّ بِهِ فَهُوَ قَائِلُهُ

عَبَاتُ لَهُ جِلْمًا وَأَكْرَمْتُ غَيْرَهُ وَأَعْرَضْتُ عَنْهُ وَهُوَ بَادٍ مُقَاتِلُهُ

وأظن أن من الإطالة ، بل من الإسراف في الإطالة ، أن نصل الحديث في مدح زهير ، فقد قال فيه القدماء ما كان يمكن أن يقال ، وأى القدماء ؟ عمر بن الخطاب وجماعة من خيرة العلماء ، وأنبه النقاد . لا يحتاج مدح زهير إلى النقد ولا إلى التقريظ ، وإنما يحتاج إلى أن يقرأ ويقرأ . وأن يجد القارئ فيه

هذه اللذة التي لا تفتى . والتي توجد في الشعر الصادق الذي لا إسراف فيه ولا إحالة ولا تكلف . ولزهير هجاء لاذع عنيف غفيف ، وأظنك قد رأيت في ديوانه قصته مع ذلك الأسدى الذي أغار على إبله فاستاقها ، وأخذ معها عبداً له يسمى يساراً ، فأنشأ زهير كافيته المشهورة التي أولها :

بَانَ الْخَلِيْطُ . وَلَمْ يَأُووَا لِمَنْ تَرَكَوْا وَزَوَّدُوْكَ أَشْتِيَاقاً أَيْةً سَلَكَوْا

والتي يقول فيها :

يَا حَارِ لَا أُرْمِيَنَّ مِنْكُمْ بِدَاهِيَةٍ لَمْ يَلْقَهَا سُوقَةً قَبْلِيْ وَلَا مَلِكُ
فَارْدَدَ يَسَاراً وَلَا تَعْنَفَ عَلَيْهِ وَلَا تَمَعَكَ بَعْرِضِكَ إِنَّ الْغَادِرَ الْمَعَكُ

فلم يلتفت الأسدى إلى هذه القصيدة . ولم يحفل بما فيها من نذير . بل أمسك يساراً . فقال زهير أبياتاً أخرى فيها هجاء مقذع ، لا سبيل إلى روايته ، ولكنه على كل حال يدل على أن زهيراً لم يكن يتجنب الإقذاع حين تدعو إليه ضرورة الحياة . وحسبك أنه اتهم الأسديين بحب هذا العبد ، وأن الأسديين إنما يمسكونه عندهم لإرضاء لنسأهم . فالما انتهت هذه الأبيات إلى الأسديين طلبوا إلى صاحبهم أن يقتل هذا الغلام ، ولكن صاحبهم كان عاقلاً رشيداً كريماً ، فكسا الغلام وردة إلى مولاه . وانطلق لسان زهير بمدح هذا الأسدى والثناء عليه ، وهجاء قومه والإسراف في هجأهم .

فزهير كما رأيت ، وكما ترى ، قد فتح للشعراء أبواباً في الغزل والحنين ، وفتح لهم أبواباً في الوصف والتصوير ، وسنّ لهم سنناً في المدح والهجاء ، فأى غرابة في أن يكون إماماً من أئمة الشعر العربي النابيين ! وأى غرابة في أن يتخرج عليه هؤلاء الشعراء الذين أشرت إليهم آنفاً ! وكم يكون طريفاً وقيماً أن ندرس شعر هؤلاء التلاميذ الذين تعلموا على زهير لتبين أثره فيهم ، وانتفاعهم بتأثره واتباعه ! . قال صاحبي : وما يمنعنا أن نمضى بالحديث نحو كعب بن زهير والحطيئة ؟ فهما أظهر تلاميذه ، وأشدهم به اتصالاً ، وأى بأس في أن ندع أصحاب المعلقات حيناً لنعود إليهم بعد أسبوع ، أو بعد أسبوعين ؟ قلت : لا أرى بذلك بأساً ، ولا أكره أن يكون موضوع حديثنا في الأسبوع المقبل

قصيدة كعب المشهورة : بانث سعاد . قال : ومن يدري لعل الاستطراد
أن يغلب علينا فنتخذ هذه القصيدة الرائعة طريقاً إلى شيء من العناية بشعر
المحدثين ، وهل ترى بأساً في أن ننتقل من « بانث سعاد » إلى « البردة » ، ومن
البردة إلى نهجها الذي أنشأه شوقي ، أو إلى ميمية البارودي ؟ قلت : ياسيدي ،
لا تسرف في التقدير ، ولا تبعد في الحساب ، فإني لا أحب ذلك ولا أميل إليه ،
وحسبنا أن نتحدث في الأسبوع المقبل عن « بانث سعاد » . قال : فإني أريد
أن أريحك وأريح نفسي بعض الشيء من هذا الشعر القديم ، ولكنني فيما يظهر
لم أحسن الاحتياال عليك .

ساعة مع كعب بن زهير^(١)

قلت لصاحبي : إن لزهير عند القدماء صورتين مختلفتين . إحداهما ألمنا بها إلاماً في الحديثين الماضيين ، والأخرى يجب أن نلمّ بها اليوم ، لنبلغ بها إلى ابنه كعب .

فأما الصورة الأولى ، فهي التي كان يألّفها الأدباء والنقاد وأصحاب اللغة ، وهي صورة الشاعر الجاهلي البارع المحيد ، الذي كان يزاحم فحول الشعراء ، ويستأثر من دونهم بالسبق عند أهل الحجاز عامة ، وعند عمر بن الخطاب خاصة ، وعند جرير وغير جرير من بعد عمر ، والذي كان ينفق شعره في المدح كما كان يقول القدماء ، ويتوسل إلى هذا المدح بفتون أخرى من الشعر أجادها وبرع فيها كالغزل والوصف ، والذي كان يعنى بشعره عناية ، ويجوّده تجويداً ، ولا يظهره إلا إذا أتقنه وأطال النظر فيه ، والذي كان يعلم الشعر جماعة من الشبان ، منهم ابنه كعب ، وراويته الحطيئة . وسرى أننا سنحتاج إلى هذه الصورة ، وسنستعين بها على فهم كعب ، أو على فهم هذه القصة الوحيدة التي بقيت لنا من شعره كاملة أو تشبه الكاملة^(٢) .

وأما الصورة الأخرى ، فهي هذه التي كان يألّفها القصاص وأصحاب السير ، والتي تتخذ سبباً إلى هذه القصيدة الرائعة التي بقيت لنا من شعر ابنه كعب ، والتي تستخلص استخلاصاً من بعض الشعر الذي صح لزهير ، أو الذي حمل عليه ، فزهير في بعض شعره يلمّ بأمر تتصل بالدين ، فهو يذكر البعث في مطوّته المشهورة فيقول :

فلا تَكْتُمُنَّ اللهُ ما في نُفُوسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمُ اللهُ يَعْلَمُ
يُوَخِّرُ فَيُوضَعُ في كِتَابٍ فَيُدْخَرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعْجَلُ فَيُنْقَمُ
وقد تنبه لذلك القدماء أنفسهم فذكروه ، كما أن شعراً قد حمل على زهير

(١) نشرت بجريدة الجهاد في ٣ أبريل سنة ١٩٣٥ .

(٢) لقد عثر على ديوان كعب ، وطبعته دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠ .

وتنبه القدماء إلى أنه حمل عليه ، وفيه ذكر مفصل لأمر الدين . وقرأ هذه الأبيات الياثية التي أنكر الأصمعي أن تكون لزهير ، والتي أولها :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَرَى النَّاسُ مَا أَرَى مِنْ الْأَمْرِ أَوْ يَبْئُتُو لَهُمْ مَا بَدَأَ لِيَا
 بِدَائِي أَنْ النَّاسَ تَفْنَى نَفْسُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَلَا أَرَى الدَّهْرَ فَانِيَا
 وَإِنِّي مَتَى أَهْبِطُ مِنَ الْأَرْضِ تَلَعَةً أَجِدُ أَثْرًا قَبْلِي جَدِيدًا وَعَافِيَا
 أَرَانِي إِذَا مَا بَيْتٌ بَيْتٌ عَلَى هَوَى وَأَنْتِي إِذَا أَصْبَحْتَ أَصْبَحْتَ غَادِيَا
 إِلَى حُفْرَةٍ أَهْدَى إِلَيْهَا مَقِيمَةً يَحُثُّ إِلَيْهَا سَائِقٌ مِنْ وَرَائِيَا

ثم يمضى الشاعر في هذه الحكمة الطبيعية اليسيرة على نحو ما رأيت في عينية ليبد التي مطلعها :

بليينا وما تبلى النجوم الطوالح وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

ولكنه يعدل بعد ذلك إلى نوع آخر من الفلسفة الدينية فيقول :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَهْلَكَ تَبَعًا وَأَهْلَكَ لِقَمَانِ بْنِ عَادٍ وَعَادِيَا
 وَأَهْلَكَ ذَا الْقُرْنَيْنِ مِنْ قَبْلِ مَا تَرَى وَفِرْعَوْنَ جَبَّارًا طَفَى وَالنَّجَاشِيَا

فأنت ترى أن للشاعر في هذه الأبيات التي سمعتها طريقتين مختلفتين في الفلسفة ، إحداهما طبيعية يسيرة ، تلامم تفكير أصحاب السداجة من حكماء البادية ، والأخرى دينية كأنها أخذت من القرآن أخذاً . ومن الواضح أن هاتين الفلسفتين لم تجتمعا في هذا الشعر ، إلا لأنهما خلطتا فيه خلطاً ، ولكن الواضح على كل حال هو أن شعراً دينياً قد نسب إلى زهير ، وإنما نسب إليه لأنه عرف بالحكمة وضرب المثل من جهة ، ولأنه أبو كعب وبجير من جهة أخرى ، وما دام إسلام بجير ، ثم إسلام كعب ، قد تمّا على النحو الذي سطرته السيرة والذي ستحدث عنه ، فلا بدّ من تفسيره . ومن تنظيم القصة التي تبينه وتوضحه وتجلوه ، وقد رتب هذه القصة ترتيباً ظريفاً ، قد لا يستقيم للعقل الحديث ، ولعله لم يستقيم للعقل القديم أيضاً . ولكنه على ذلك حلوا ساذج ، محبب إلى

النفس ، مثير لهذه العواطف الجميلة الحلوة الهادئة ، التي تثيرها أحاديث الأولين ، وهو إنما يثير هذه العواطف لأن فيه شعراً جميلاً حقاً لو نظم لكان من أروع الشعر وأبقاه .

فقد تحدثوا أن زهيراً كان كثيراً ما يلتق أهل الكتاب ، ويسمع منهم ، ويتحدث إليهم ، ويفكر فيما وعى عنهم ، ويظهر أن حديثه وتفكيره قد أثر في نفسه ، وكادا يغيران من سيرته ، فرأى ذات ليلة فيما يرى النائم كأنه قد رفع إلى السماء ، فما زال يصعد حتى كاد يبلغها ، فلما أحس ذلك أراد أن يتناول السماء بيده ، فردّ عنها وهوى إلى الأرض ، فلما استيقظ لم يشك في أن هذه الرؤية تصور شيئاً ! وتدل على شيء ، وأن الحوادث ستعبرها ، وما أكثر ما يتاح للحوادث أن تعبر الأحلام ، ويقال إنه رأى ذات ليلة فيما يرى النائم أن أسباباً من السماء قد مدت إليه ، فلما همّ أن يناها نأت عنه ، ثم أفاق من نومه ، فلم يشك في أن لهذه الرؤية دلالتها وتأويلها ، وقال لابنيه : إنه كائن بعدى للسماء خبر . ثم أوصاهما أن يستقصيا هذا الخبر ، وأن يتفعا به ، وأن يتبعا صاحبه إن أدركاه .

وكانت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت الحصومة بينه وبين قومه من قريش ، ثم كانت الهجرة ، ثم كانت الحصومة بينه وبين قريش وغيرهم من العرب ، ثم أذن الله بالفتح ودخل النبي وأصحابه مكة ظافرين ، ثم كان يوم حنين ، وأتم الله نصره للمسلمين على من اجتمع لحربهم من العرب . وقد تسامع الناس منذ عهد غير قصير بهذا النبي العربي ، وبما يحدث به من أخبار السماء ، وبما صدق الله به حديثه من الآيات البيّنات ، وكان يجيراً وأخاه كعباً قد سمعا هذا كله ، فلم يحفلا به ، ثم سمعا فأعرضا عنه ، ثم سمعا ورأيا من آياته ما رأيا ، فذكرا حديث أبيهما زهير ، وذكرا وصيته ، وحرصا على أن يتبيننا خبر السماء لعله قد كان . وأن يعلمنا علم هذا الرجل الذي يتحدث بنجر السماء . فانطلقا حتى إذا بلغا الأبرق ، قال يجير لأخيه كعب : أقم هنا حتى آتى هذا الرجل فأسمع منه ، وأعلم علمه ، ثم أعود إليك ، أو قال كعب لأخيه يجير : اذهب إلى هذا الرجل فاسمع منه ، وأعلم علمه ، ثم عد إلىّ ، فلعل خبر السماء قد كان ، ولعله صاحب هذا الخبر ؛ فإن

كان إياه ذهبنا إليه واتبعناه . وأقام كعب ، وذهب بجير ، ولكن كعباً أقام
وأقام ، وانتظر أخاه وأطال الانتظار ، وأخوه لا يعود إليه ، ذلك أن بجيراً
قد أتى هذا الرجل فسمع منه ، وعلم علمه ، واستيقن أنه صاحب خبر السماء ،
وأن خبر السماء هذا قد كان ، فأقام مع صاحبه ، وآمن به ، وانصرف إليه
وإلى دينه عن أخيه هذا الذى قدمه بين يديه مستطعاً ورسولاً ، واستيأس
كعب من مقدم أخيه ، واستيقن كعب أن أخاه قد صبأ ، كما كان العرب
يقولون لمن تبع النبي في ذلك الوقت ، فغاضه ذلك وساءه ، فقال هذه الأبيات
التي يختلف الرواة في نصها وترتيبها اختلافاً غير قليل :

أَلَا أْبْلِغَا عَنِي بُجَيْرًا رِسَالَةَ فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتِ وَنَحَكَ هَلْ لَكَ
سِقَاكَ أَبُو بَكْرٍ بِكَأْسِ رَوِيَّةٍ فَأَنَّهُ لَكَ الْمَأْمُورُ مِنْهَا وَعَلَيْكَ
فَفَارَقْتَ أَسْبَابَ الْهُدَى وَاتَّبَعْتَهُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ وَيَبِّغِيكَ ذَلِكَ
عَلَى مَذْهَبٍ لَمْ تُلْفِ أَمَا وَلَا أَبَا عَلَيْهِ وَلَمْ تَعْرِفِ عَلَيْهِ أَخَا لَكَ
فَإِنَّ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلِ فَلَسْتَ بِأَسْفِ وَلَا قَائِلٍ إِمَّا عَشْرَتَ لَعْمًا لَكَ

وانتهت هذه الأبيات إلى المدينة فيما كان ينتهي إليها من الشعر الذى كان
يقال في هجاء النبي صلى الله عليه وسلم والتحريض عليه ، وسمع النبي هذه
من بجير نفسه فيما يقول الرواة ، أو من غير بجير ، فتوعد كعباً وأباح دمه لمن لقيه .
والقصة في أكبر الظن على هذا النحو قد رتب ترتيباً ، وإذا كان لنا أن
نفقه هذه الأحاديث التي تروها السير ، ونستخرج منها المعقول ، فإنى أرجح
أن بجيراً وأخاه كانا قد ائتمرا بالنبي ، وأن بجيراً كان قد سبق إلى محضر النبي ،
ليؤذيه ويسومه ، فلما انتهى إليه آمن واهتدى كغيره من الذين سعوا إلى النبي
يريدون به السوء ، فلم يملوا عنده إلا هدى ورحمة ونوراً ، واستبطأ كعب أخاه ،
وعرف من أمره ما عرف ، أو شك من أمره فيما شك فيه ، فقال هذا الشعر ،
وأنت تذكر أن البيت الأول يروى على نحو يؤيد هذا المذهب الذى أذهب
إليه ، فهو يروى :

* فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتِ بِالْخَيْفِ هَلْ لَكَ *

فهو إذن كان قد قال شيئاً بالخيف وكعب يذكره به ، ويحرضه عليه ،
ويستبطنه في إنفاذ ما قال ، والبيت الأخير صريح في هذا :

فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَلَسْتَ بِأَسْفٍ وَلَا قَائِلٍ إِمَّا عَثَرْتَ لَعًا لَكَ

وعلى هذا النحو يفهم إبعاد النبي لكعب وإهدار دمه ، فقد كان كعب يلهج بالنبي ويحرض عليه ، ويدس إلى محضره من يناله بالمكروه ، ثم يقول الشعر كما كان يقوله غيره من شعراء قريش ومن شعراء العرب الذين كانت تأجرهم قريش لدم النبي والإغراء به .

وأكبر الظن أن انتصار النبي في مكة وحنين ، وإذعان العرب كلهم لسلطانة الحديد ، وقتل من قتل بعد الفتح من خصوم الإسلام وأعداء النبي ، وقرار من فر ، كل ذلك قد ملأ كعباً فزعاً وربعاً . وأكبر الظن أن كعباً حاول الفرار والاستخفاء فيمن حاول الفرار والاستخفاء ، ولكن الأرض ضاقت به ، والناس تخاذلوا عنه ، ونظر فإذا هو مأخوذ فهالك إذا لم يحتط لنفسه ، وجاءته في أثناء هذا كله رسالة أخيه يجير بأن النبي رءوف رحيم يأخذ العفو ، ويأمر بالعرف ، ويعرض عن الجاهلين ، ولا يعاقب تائباً بما قدم قبل أن يتوب ، فاستقرت عزيمة كعب على أن يستجير بعفو النبي من غضب النبي ، وانطلق حتى بلغ المدينة ، فأوى إلى رجل من جهينة ، فيما يقول بعض الرواة ، وأوى إلى أبي بكر رضى الله عنه ، فيما يقول بعضهم الآخر . فلما صليت الصبح ، أقبل أبو بكر معه كعب وقد تلثم حتى استخفى وجهه ، فلما انتهى إلى النبي ، قال له أبو بكر : هذا رجل يريد أن يبايعك على الإسلام ، فبسط النبي يده فبايعه كعب وأسلم ، ثم حسر عن وجهه ، وقال : هذا مكان العائذ بك يا رسول الله ، أنا كعب بن زهير . وهم الأنصار به لما قدم من الإساءة إلى النبي ، ولكنه صلى الله عليه وسلم ردهم عنه ، وماذا كانوا يستطيعون أن يصنعوا به ، وهو قد دخل في الإسلام ، وباع النبي ، واتخذ له جاراً ؟ ويقال إن النبي استنشد أبا بكر هذه الأبيات التي رويتها أنفاً ، فأنشده إياها ، فلما بلغ قوله :

* فَانْهَلِكِ الْمَأْمُورُ مِنْهَا وَعَلَّكَ *

قال كعب : لم أقل المأمور يا رسول الله ، وإنما قلت المأمون . فقال النبي
مأمون والله ، ورضى عن كعب ، وقام كعب فأنشده قصيدته هذه الرائعة :

بَانَتْ سَعَادُ فِقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبُولُ مُتِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يَفْدَ مَكْبُولُ

ويقال إنه ظل ينشد حتى إذا انتهى إلى مدح قريش ، أو ما النبي إلى
الناس أن اسمعوا ، فلما بلغ من هذا المدح أروع وأجمله ، أو ما النبي إلى المهاجرين
أن اسمعوا ، ولكن كعباً عرض بالأنصار فيما يقول الرواة ، فغضب المهاجرون ،
أو غضب النبي نفسه ، واضطر كعب إلى أن يثني على الأنصار في هذه الأبيات
الجميلة المشهورة :

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الْحَيَاةِ فَلَا يَزَلْ فِي مِقْنَبٍ مِنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ
الْمُكْرِهِينَ السَّمْهَرِيَّ بِأَذْرَعِ كَسَوَاقِلِ الْهِنْدِيِّ غَيْرِ قِصَارِ
وَالْبَاذِلِينَ نَفْسَهُمْ لِنَبِيِّهِمْ لِلْمَوْتِ يَوْمَ تَعَانَنِي وَكَرَارِ
يَتَطَهَّرُونَ يَرُونَهُ نُسْكَاً لَهُمْ بِدِمَاءِ مَنْ عَلِقُوا مِنَ الْكُفَّارِ

قال صاحبي : ما أجمل هذا البيت الأخير ! وما أروع هذا التطهير بدماء
من علقوا من الكفار ! وما أظن إلا أن هذا البيت قد أَرْضَى الأنصار ، وبلغ
من نفوسهم أقصى الرضا . قلت : نعم وأَرْضَى المهاجرين أيضاً . وأكبر الظن
أن الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام من قريش قد غاظهم هذا البيت ،
ولكن ألا يعجبك الشطر الأول من هذا البيت ؟ فإن فيه ضميراً يعجب النحويين
كل الإعجاب ، وهو هذا الضمير في قوله « يرونه نسكاً لهم » .

ففي رد الضمير على ما يفهم من الفعل جمال رائع حقاً . وينبئنا الرواة بأن
قصيدة كعب قد أعجبت النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يكنف بالفضو عن
كعب والاستماع له ، والإقبال عليه ، بل أراد أن يميزه ويصله فكساه بردة
كانت له . . . وقد زعموا أن معاوية أراد أن يشتري هذه البردة من كعب بعد ذلك
فأغلى له الثمن ، ولكن كعباً أبى ، فلما مات راجع معاوية أهله فاشتراها منهم
بثمان ضخم ، وهي التي توارثها الخلفاء فيما يقول الرواة . وكانوا يخرجون بها
الناس في العيدين .

فأنت ترى أن هذه القصة من أولها جميلة رائعة حلوة محببة إلى النفوس حقاً . وسواء أجمعت كلها أم لم تصحح إلا في جملتها ، فإنها تهيئ لقصيدة كعب جواً شعرياً ملائماً كل الملاءمة بلحانها وروعها ، وملائماً بنوع خاص كل الملاءمة لمكان الممدوح صلى الله عليه وسلم من البأس أول الأمر ، ثم من العفو والحلم بعد ذلك ، ثم من الكرم والجود آخر الأمر ، فهذا الرجل كان يلهج بالنبي ويحرض عليه ويأتمر به ليسوءه ، وقد أهدر النبي دمه حين آثم الله له النصر ، وحين دانت له العرب ، فلما بلغه الوعيد استطير ، ولفظته الأرض - كما يقول ابن سلام - ونماه الناس ، ونبا عنه الأصدقاء ، وخذله النصير ، فلجأ من النبي إلى النبي ، فوجد عنده حليماً واسعاً وعفوياً كريماً ، ثم مدحه فوجد منه إقبالا عليه واسماعاً له ، ثم وجد منه بعد هذا كله كريماً وبذلاً وجوداً .

ونحن نقرأ هذه الأنباء . ونرى هذه المرأة الصافية التي تجلو لنا طرفاً من أخلاق النبي ، فلا نجد في ذلك غرابة ولا طرافة ، وإنما نجد ذلك ونستعيد به ونعجب به ، لأننا نشأنا ، ونشأت الأجيال من قبلنا . على إكبار النبي ، والإيمان له بمكارم الأخلاق ومحاسن الشرائع والحاصل ، ولكننا خليقون أن نخرج من أنفسنا وننسى ما تعودنا ، وما ورثنا عن الأجيال من قبلنا ، ونعيش لحظة في ذلك العصر الذي عاش فيه النبي ، وفي تلك البيئة التي امتحن فيها كعب ، وتمثل الصورة الصادقة لهؤلاء العرب الذين كانوا قد أخذوا يدينون لهذا السلطان الجديد ، يحبه أقلهم وهم المهاجرون والأنصار ، ويرغب فيه أو يرهبه أكثرهم ، وهم هؤلاء المغلوبون من قريش وغير قريش ، والمتقدمون بالطاعة عن رضا قبل أن يتقدموا بها عن كره . يجب أن نعيش في ذلك العصر ، وفي تلك البيئة ، وأن نمثل هذه الصورة الصادقة لتقدّر ما تجلوه هذه القصة من أخلاق النبي ، ولتبين موقع هذه الأخلاق من نفوس هؤلاء العرب الذين كانوا يزدحمون في المدينة ، أو يستبقون في الطريق إلى المدينة ، أو ينتظرون في مواطنهم النائية والدانية ليعلموا من أمر هذا الرجل العظيم أكثر مما علموا ، وليتبينوه من خلاله أكثر مما تبينوا .

ولكننا قد بعدنا عن زهير ، وبعدها عن كعب ، وآن لنا أن نعود إليهما .

قال صاحبي : إنك لعجل إلى كعب وإلى أبيه ، وإني لأؤثر أن نمضي في الحديث عن ممدوح كعب ، فحديثه أثر عندي وأحب إلى ألف مرة ومرة من شعر الشعراء . قلت : وهو كذلك أثر عندي وأحب إلى . ولكن ممدوح كعب قد سمع هذا الشعر ورضى عنه ، وأقبل عليه وأجازه . فالحديث عن هذا الشعر حديث عن هذا الممدوح ، وأنت تعلم من غير شك ، أننا لم نستأنف هذه الأحاديث في السيرة وإنما استأنفناها في الشعر والشعراء . وأنا حين أقرأ قصيدة كعب أراها تأتلف من ثلاثة أجزاء متباينة في ظاهر الأمر . ولكنها مؤتلفة أحسن الائتلاف في حقيقة الأمر ، لولا أني أكاد أرجح أن جزءاً منها قد كثر فيه عبث الرواة .

قال صاحبي : فإنني أعزم عليك أن تعينني من التحقيق والتحخيص ، ومن الإبانة عن الكذب والانتحال ، وعن العبث واللعب ، وعن التقديم والتأخير . قلت : ما من بعض ذلك بدّ يا سيدي ، فأجزاء هذه القصيدة ثلاثة كما قلت . فأما أولها : فهو هذا الغزل الذي قصد إليه كعب في أول القصيدة كما تعود الشعراء أن يفعلوا . وأما الثاني ، فهو هذا الوصف الذي انتقل إليه كعب بعد الغزل كما تعود الشعراء أن يفعلوا أيضاً . وأما الثالث : فهو المدح الذي أنشئت القصيدة من أجله ، وانتهت القصيدة إليه ، وأنت تستطيع أن تسمع هذا الغزل ، فستحبه وتطمئن إليه ، وستعجب به إعجاباً شديداً ، وسترى فيه أثر زهير نفسه واضحاً جلياً ، وسمع هذه الأبيات الحسان :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

وأظنك توافقني على أن هذا البيت الظريف إنما يصور في إيجاز جميل

ما صوره زهير في بيتين حين قال :

إن الخليط أجد البين فانفرقا وعلق القلب من أسماء ما علقا

وفارقتك برهن لا فكاك له يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقا

فأنت ترى أن المعنى الذي قصد إليه كعب هو نفس المعنى الذي سبق

إليه زهير ، فقد ذهبت سعاد بقلب كعب وارتبته ، فهو عندها مكبول

لايفك ، كما ذهبت أسماء بقلب زهير وارتبته ، فليس له عندها فكاك ، ولكن

كعباً قد أوجز حيث أطنب أبوه ، وآثر قافية أيسر وأحلى موقعاً من قافية أبيه .
ثم يقول كعب :

وَمَا سَعَادُ غَدَاةِ الْبَيْنِ إِذْ بَرَزَتْ إِلَّا أَعْنُ غَضِيضِ الطَّرْفِ مَكْحُولُ
تَجَلُّوا عَوَارِضِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمْتَ كَأَنَّهُ مَنَهْلُ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ
شَجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءِ مَخْنِيَةٍ صَافٍ يَابِطِحُ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولُ
تَنْفِي الرِّيحِ الْقَدَى عَنْهُ وَأَفْرَطَهُ مِنْ صَوْبِ غَادِيَةٍ بِيضُ بَعَالِيلُ

وهذا المعنى أيضاً عليه طابع زهير ، وهو من معاني المدرسة ، إن صح هذا التعبير الحديث . فكعب يشبه سعاد بالظبي ، ثم يفصل بعض صفات الظبي ، ثم يلج في وصف ثغر سعاد الجميل ، وفي تشبيه ريقها بالحر التي مزجت بالماء الصافي العذب البارد . وقد قال زهير في نفس هذا المعنى ، وفي القصيدة التي تحدثت عنها آنفاً :

قَامَتْ تَرَاعَى بِذِي ضَالٍ لِتَحْزُنِي وَلَا مَحَالَةَ أَنْ يَشْتَاقَ مَنْ عَشِقَا
بِجِيدٍ مَغْزَلَةٍ أَدْمَاءَ خَاذِلَةٍ مِنَ الطُّبَاءِ تُرَاعِي شَادِنَا خَرَقَا
كَأَنَّ رِبْقَتَهَا بَعْدَ الْكَرَى اغْتَبَقَتْ مِنْ طَيِّبِ الرَّاحِ لَمَّا يَعْدُنَا عَتَقَا
شَجَّ السَّقَاةُ عَلَيَّ نَاجُودِهَا شَبِيماً مِنْ مَاءِ لَيْنَةٍ لَا طَرْقَا وَلَا رَنِقَا

فسعاد كعب كأسماء زهير ، تشبه الظبي ، وريق سعاد كريق أسماء يشبه الحر المزوجة بالماء البارد العذب .
ويقول كعب :

وَبَلُّ أَمَّهَا خُلَّةٌ لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ بِوَعْدِهَا أَوْ لَوْ أَنَّ النَّضْحَ مَقْبُولُ
لَكِنَّهَا خُلَّةٌ قَدْ سَيْطَ مِنْ دَمِيهَا فَجَعَّ وَوَلَعَّ وَإِخْلَافُ وَتَبْدِيلُ
فَمَا تَلُومُ عَلَى حَالِ تَكُونُ بِهَا كَمَا تَلُونُ فِي أَثْوَابِهَا الْغُولُ
وَلَا تَمْسِكُ بِالْعَهْدِ الَّذِي زَعَمْتَ إِلَّا كَمَا يُمْسِكُ الْمَاءُ الْغَرَابِيلُ
كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرُقُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ
أَرْجُو وَأُمَلُّ أَنْ تَذُنُو مَوَدَّتَهَا وَمَا إِخَالُ لَدَيْنَا مِنْكَ تَنْوِيلُ

فَلَا يُغْرِنُكَ مَا مَنَّتْ وَمَا وَعَدَتْ إِنَّ الْأَمَانِيَّ وَالْأَحْلَامَ تَضْلِيلُ
وهذا المعنى أيضاً قد سبق إليه زهير ، وطبعه بطابعه ، فهو من معاني
المدرسة . ولكنّ كعباً قد أطنب حيث أوجز أبوه ، وكان في إطناب كعب
جمال وروعة ، لأنه فصل من أخلاق سعاد ما لم يفصله أبوه من أخلاق أسماء ،
فزهير لم يزد على أن وصف أسماء بأنها أخلفت الوعد فرئت حبالها ، وذلك حيث
يقول :

وَأَخْلَفْتِكَ ابْنَةُ الْبَكْرِيِّ مَا وَعَدَتْ فَأَصْبَحَ الْحَبْلُ مِنْهَا وَهِنًا خَلَقًا
أما كعب فإنه يفصل هذا تفصيلاً ، فيذكر تلون سعاد وتغيرها ، كما
تتلون الغول ، ويذكر أنها لا تمسك العهد الذي تقطعه إلا كما تمسك الماء
الغرايبيل . وأظنك توافقني على ما في هذين التشبيهين من سذاجة رائعة ، ثم
يخلص كعب إلى ناقته ، فيقول :

أَمَسْتُ سَعَادُ بِأَرْضِي لَا يُبَلِّغُهَا إِلَّا الْعِتَاقُ النَّجِيبَاتُ الْمَرَّاسِيلُ
وأنا أريد أن أعفيك ، وأن أعفي نفسي من حديث الناقة ، فإن لي فيه آراء
لعلك لا تطيقها . ولكني أحب أن ألفتك إلى أن هذا النوع من شعر كعب
وزهير قد أثر في الشعراء المعاصرين . ولست أصدق أن المصادفة وحدها هي
التي أنظفت شاعراً معاصراً لكعب بهذه الأبيات الحلوة التي تشبه غزل كعب ، لا
في المعاني والألفاظ وحدها ، بل في الوزن والقافية أيضاً ، وهذا الشاعر هو عبدة
ابن الطيب ، وقد قال قصيدته التي أشير إليها بعد كعب من غير شك ، لأنه
قالها في أثناء الفتح أيام عمر . وأنت تستطيع أن تقرأ هذه القصيدة في المفضليات ،
فسرى فيها كثيراً جداً من معاني كعب وزهير ، ومن ألفاظ كعب وزهير
أيضاً . وأولها :

هَلْ حَبْلٌ خَوْلَةٌ بَعْدَ الْهَجْرِ مَوْصُولُ أَمْ أَنْتَ عَنْهَا بَعِيدُ الدَّارِ مَشْغُولُ
وقد قال كعب في ناقته ما قال ، وما أراد الرواة المتكلفون له أن يقول
عما تستطيع أن تقرأه وتدرسه إذا شئت ، وما لا أكره أن أدرسه معك إذا أحبيت .
ولكن على مذهبي الذي تعرفه .

قال صاحبي : وقاني الله شر هذا المذهب ، فإني لا أحبه ولا أرتاح إليه .
قلت : فانظر إلى انتقال كعب من وصف ناقته وتخلصه إلى تصوير
خوفه وفزع ، وضيق الأرض به ، وتنكر الناس له في هذا الشعر الجميل :

تَسْعَى الْوُشَاةُ جَنَابِيهَا وَقَوْلُهُمْ إِنَّكَ يَا بَنَ أَبِي سُلْمَى لَمَقْتُولُ
وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ آمَلُهُ لَا أَلْهَيْتُكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ
فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمْ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ
كُلُّ ابْنِ أُنثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ
أفترى إليه وقد كثر من حوله الخائفون عليه ، والخوفون له ، والمرجعون
به ، والنايون عنه ، وهو متأثر بما يرى وما يسمع ، خائف مما يرى وما يسمع ،
حتى انتهى به الخوف إلى اليأس ، وحتى ضاقت به الأرض وحتى لم يجد
من الهول ملجأ إلا إلى الهول :

كُلُّ ابْنِ أُنثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ
على أنه لم يكذب يذكر أن الذي يوعده هو رسول الله حتى انجلى عنه اليأس
وثاب إليه الأمل :

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
فوازن بين هذا البيت وبين بيت آخر ، تذكره من غير شك إذا أنشدت
هذا البيت ، وهو قول النابغة للنعمان :

أُنْبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي وَلَا مُقَامَ عَلَى زَأْرِ وَنِ الْأَسَدِ
فسرى هذا الفرق العظيم بين هذين اللذين يوعدان فيخاف وعيدهما ،
فأما أحدهما ، وهو النعمان . فوعيده مخيف موثس ، وأما الآخر فوعيده مخيف ،
ولكن الأمل من ورائه ؛ لأن صاحبه هو النبي الذي عرف بالعمو والحلم والرحمة
وسعة الخلق ، والذي أنزل الله عليه السكينة حين أنزل عليه القرآن :

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة آل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم
قرآن فيه مواعظ وتفصيل
أذنب وإن كثرت في الأقاويل

وما يزال كعب يستعطف ، ويصور خوفه وفزعه . ثم يصور بأس النبي وقوته وحزمه ، ويذهب في ذلك مذهب زهير يشبه النبي بالليث . كما شبه زهير « هرا » بالليث ، ولكنه يفصل من صفات الليث وبأسه ما لم يفصل زهير ، حتى إذا فرغ من ذلك وصوره في أجمل لفظ وأروع ، انتهى إلى هذا المدح الخالص الرائع الذي يحسن أن نختم به الحديث ، فقال :

إِنَّ الرُّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ	مُهَنْدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوكٌ
فِي فِتْيَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ	بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشْفٌ	عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٌ مَعَاذِلُ
شَمُّ الْعِرَانِينَ أَبْطَالٍ لَبُوسُهُمْ	مَنْ نَسَجَ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَائِيلُ
بِيضٌ سُورَابِغٌ قَدْ شَكَّتْ لَهَا حَلَقٌ	كَأَنَّهَا حَلَقَ الْقَفَعَاءِ مَجْدُولُ
لَا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمْ	قَوْمًا وَكَيْسُوا مَجَازِعًا إِذَا نَبَاؤُا
يَمْشُونَ مَشَى الْجَمَالِ الزُّهْرِيَّ عَصِمُهُمْ	ضَرْبٌ إِذَا عَرَدَ السُّودُ التَّنَائِيلُ
لَا يَقَعُ الطَّنُّ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ	وَمَا لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ

قال صاحبي : إن مما يحزن حقاً أن يذهب شعر كعب ، فما أشك في أنه لو بقي لنا لبق لنا شعر رائع حقيق بالإعجاب . قلت : حسبه هذه ! فما أرى إلا أن مدحه فيها يعدل مدح زهير كله .

ساعة مع الحطيفة^(١)

أقبل على صاحبي جدلان فرحاً شديد النشاط وهو يقول : أما أنا فلست أعدل بالحطيفة أحداً ، ولا بشعره شعراً ، ولا بحديثه حديثاً ، فأنا مفتون بهذا الرجل ، وبما يروى له من الشعر ، وبما يتصل حوله من الحديث . قلت : لست أحسدك على هذه الفتنة ، فما أراك قد فتنت بخير . لئن كان شعر الحطيفة جيداً رائعاً ، من أجود ما قال العرب وأروع ، فما كان الحطيفة ولا حديثه خليقين أن يفتنا أحداً من أصحاب الجدل . قال وهو يضحك : فمن زعم لك أني من أصحاب الجدل ؟ أو لست أنت وأمثالك من الذين يتجهمون للحياة والأحياء خليقين أن تملثوا الأرض جدلاً بعد أن ملثت دعاية وهزلاً ؟ أو ليس لي ولأمثالي من الذين يحبون الابتسام ، ولا يقطبون جباههم لما تقبل به الأيام من الأمر ، أن نرضى إذا سخطتم ، ونيسم إذا عبستم ، ونستقبل الحياة مبتهجين إذا استقبلتموها أنتم مكشيين ؟ ومن زعم لك أن حب الحطيفة والافتتان به مظهر من مظاهر الهزل ، أو دليل على الانصراف عن الجدل ! قلت : فإني لم أزعم ذلك ، وإنما زعمت أن الحطيفة لم يكن صاحب خير وبر ووفاء ، فالكلف به والانصراف إليه كلف بالشر وانصراف إلى من لا يستحق أن يعنى به إلا العلماء الذين يدرسون ويكشفون . وقد عرفتك تكره الدرس والكشف ، ولا تحب أن تلم إلا بما يلهيك ويسليك . قال : فإن الحطيفة يلهيني ويسليني ، ويجب لي القراءة في كتب القدماء ، والتفكير فيما تركوا من الآثار ، وأنا أزعم أن حديث الحطيفة لا يثير ضحكاً ولا ابتساماً ، وإنما يثير في النفس رثاء وإشفاقاً ، فقد كان الحطيفة في رأيي بائساً كأشد ما يكون البؤس ، محزوناً كألذع ما يكون الحزن ، مكتئباً كأقوى ما يكون الاكتئاب . ولو قد استقامت الأمور للحطيفة ، كما كانت تحب طبيعته أن تستقيم ، لكان خليقاً أن يكون له شأن آخر . قلت ضاحكاً : وكيف كان ذلك ؟ قال مبالغاً في الضحك : زعموا أن ما

(١) نشرت بمجريدة الجهاد في ١٠ أبريل سنة ١٩٣٥

أدركه الحطيطه من تطوّر الحياة العربية قد أفسد عليه أمره الخاص ، وإن كان قد أصلح للعرب أمرهم العام ، فإنى أرى الحطيطه شاباً ذكياً قوى العقل . حاد اللسان ، قد اتصل بزهير ، وأخذ يختلف إليه مع ابنه كعب فيسمع منه . ويحفظ عنه ، ويروى شعره فى الأندية والمجالس ، ويحاول تقليده فيبلغ من ذلك ما يريد ، ويظفر منه بما كان يظفر به كعب ، ويرضى الأستاذ عن تلميذه أو عن تلاميذه ، ويجهد فى تأديبهم ، وأخذهم بما كان يأخذ به نفسه من إتمام الشعر ، وتجويده والعناية به جملة وتفصيلاً . قلت : وكيف تكون العناية به جملة وتفصيلاً ؟ قال : لا تقطع على حديتى ، فإن العناية به جملة هى العناية بالقصيدة من حيث هى قصيدة ، والعناية به تفصيلاً هى العناية بالبيت ، بل بالشرط ، بل بالكلمة فى البيت أو فى الشرط ، والعناية بالمعنى من المعانى يطرقه الشاعر ، فلا يدعه حتى يحققه ويستوفيه ، ولكنك قد أهينى ، أو كدت تلهينى بهذه المقاطعة عما كنت آخذاً فيه ، فإنى أرى الحطيطه كما قلت متصلاً بزهير ، يتعلم عليه الشعر ، رواية وإنشاء ، ويرى أن يكون مثله الأعلى فى حياته كمثل أستاذه الذى كان الناس يعظمونه ، ويكبرونه من شأنه ، قصاراه أن يتصل بجماعة من الأشراف يختصم بالمدح والثناء ، ويختصونه بالمنح والعطاء ، وقد نعم زهير حين اتصل بهرم بن سنان والحارث بن عوف المرين ، وحصن بن حذيفة بن بدر وأمثالهم من سراة غطفان ، فما يمنعه هو أن يتصل بجيلى ناشئ من الأشراف ، كما اتصل أستاذه بهذا الجيلى الفانى . وأكبر الظن أن كعباً كان كرميله الحطيطه . قد اتخذ أباه زهيراً مثلاً أعلى له فى الشعر ، وفى الحياة اليومية أيضاً ، ونجى نقراً فى أخبار الحطيطه أنه كان يصاحب كعباً فى الاختلاف إلى زهير ، وكان يصاحبه فى الصيد واللهو ، وكان يتعاون معه على قول الشعر ، والإشادة بهذه المدرسة الشعرية التى أسسها أوس ، ورفع أمرها زهير ، وكان يريد أن يفرض هذه المدرسة على البيئته التى كان يعيش فيها فرضاً ، فهو يستعين بكعب على ذلك ، ويحمله على أن يقول الشعر يفضل فيه نفسه ، ويفضل فيه الحطيطه ، ويزعم لنفسه وللحطيطه التفوق فى الإجابة والانتقاد بالانتقاد ، ويضطر أخا الشماخ إلى أن يردّ عليه فيقدح فى الرد ، وقد أخذت أمور الحطيطه ، فيما يظهر من الأخبار القليلة المفرقة التى

بقيت لنا ، تجرى على ما كان يجب ، فهو قد اتصل بعلقة ابن علقمة الكلابي ، وكان رجلاً من أشرف العرب وعظماهم ، وكانت مضاربه نحو الشام ، وهم الحطيئة أن ينقطع له ، وأن يظفر منه بمثل ما ظفر به زهير من أصحابه ، فهو قد دافع عنه ، وأحسن الإشادة به ، حين كانت الحصومة بينه وبين عامر بن الطفيل ، ولكن أمور العرب تتغير فجاءة ، فإذا سلطان قريش يندك ، وإذا التوازن بين القبائل العربية في نجد والحجاز يختل ، وإذا وقعة حين تحطم آخر مقاومة للعرب الجاهليين ، وإذا كلمة الإسلام هي العليا . وإذا أشرف العرب وصعاليكهم وأوساطهم مصروفون عن هذه الحياة الجاهلية التي كانوا فيها ، إلى هذه الحياة الجديدة التي كان الإسلام يدعوهم إليها دعاء ، فأصبح يدفعهم إليها دفعاً ، وإذا أنظار هؤلاء العرب على اختلافهم لا تتجه نحو العراق ، حين كان ذلك السلطان العربي يضطرب في ظل الفرس ، ولا تتجه نحو الشام حين كان ذلك السلطان العربي يضطرم في ظل الروم ، ولا تتجه إلى مكة حين كانت قوة قريش وثروتها وقيامها دون البيت ، وإنما تتجه نحو المدينة حين كان هذا السلطان الجديد ينهض في قوة وأيد ، وفي بأس وسباحة أيضاً ، وحين كانت المثل العليا الجديدة قد استقرت ، وأخذت تبسط سلطانها على النفوس والقلوب ، كما أخذت تبسط سلطانها على الأجسام أيضاً . فأما كثرة الناس ، فقد دخلوا في هذا الأمر أفواجاً ، وأقبلوا على النبي صلى الله عليه وسلم يسلمون أو يؤمنون . وأما أقل الناس فقد أبوا وامتنعوا ، ومنهم من أقام حيث هو ، ومنهم من تفرق في الأرض ، يهرب بحياته الجاهلية الغليظة التي كان يؤثرها من هذه الحياة الجديدة اللينة السمحة التي كان ينفر منها أشد النفور ! وما أرى إلا أن كعباً قد كان كالحطيئة ، نافرأ من الحياة الجديدة ، منصرفاً عنها ، متأذياً بها ، حريصاً على حياته الأولى تلك وعلى ما كان فيها من لهو ومتاع وحرية لا تحدد ، وما أظن إلا أنه كان خليقاً أن تصيبه مثل ما أصاب الحطيئة ، لولا أنه كان أرفع من الحطيئة شأنًا ، وأنبه منه ذكراً ، وأظهر منه مكاناً ، وأعجز منه عن الهرب والاستخفاء فاضطر إلى أن يذهب إلى المدينة ، ويلجأ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويعتذر مما قدم ؛ ومن الله عليه بالهدى ، فتاب إليه ولزمه ، ولم ينحرف عنه . فأما الحطيئة ، فقد

كان خامل الذكر ، لم يكن ابن زهير ، بل لم يكن معروف النسب ، وإنما كان يضطرب بنفسه ونسبه بين القبائل ، فهو مضربى حيناً ، وربعى حيناً آخر ، فكان هربه يسيراً ، وكان استخفاؤه هيناً . وأكبر الظن أنه لم يخرج إلى الحرب ، وإلى استخفاء ، وإنما ظل كما كان لم يحفل به أحد . والرواية كما نعلم مختلفون : فمنهم من يزعم أنه أسلم أيام النبي ووفد عليه ، ثم ارتد مع المرتدين أيام أبي بكر ، ثم تاب مع التائبين بعد ذلك ، ومنهم من يزعم أنه لم يسلم أيام النبي ، وإنما ظل على شركه وجاهليته ، حتى كانت الردة ، فاشترك في مقاومة المرتدين للإسلام ، اشترك بلسانه حين قال هذا الشعر الذي حفظ منه الرواة هذين البيتين :

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ كَانَ بَيْنَنَا فَيَا لَهْفَتَى مَا بَالُ دِينِ أَبِي بَكْرٍ
أَبْرَرْتُهَا بَكْرًا إِذَا مَاتَ بَعْدَهُ فَتِلْكَ وَبَيَّتِ اللَّهُ قَاصِمَةَ الظَّهْرِ

ومهما يكن من شيء ، فقد كان الحطيئة أخل ذكراً ، وأهون شأنًا ، من أن يظهر له خطر في الإسلام أيام النبي ، ولكنه اضطر حين انهزم المرتدون إلى أن يدعن لما أذعنت له العرب ، ويدخل فيما دخل فيه الناس ، فاتخذ لنفسه من الإسلام رداء ، لم يشك الرواة في أنه كان رقيقاً جداً يشف عما تحته من حب الجاهلية وإيثارها والحزن الشديد عليها ، رداء لم يحمد الله عليه كما حمد لبيد حيث يقول :

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِنْ لَمْ يَأْتِنِي أَجْلِي حَتَّى اكْتَسَبْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سُرْبَالًا
وأكاد أعتقد أن الحطيئة لم يكذب يظهر الإذعان والطاعة والدخول في دين الله حتى حدثته نفسه أن ينفض هذا كله ، وأن يهرب إلى حيث يستطيع أن يعيش عيشته تلك التي كان يحبها ويهاها ، فالرواة يتحدثوننا بأنه قصد إلى علقمة بن علاثة ، ذلك الذي اتصل به في الجاهلية ، ولم يكن ولاء علقمة للإسلام ظاهراً ولا صادقاً ولا مقطوعاً به ، ومن الرواة من يزعم أنه لم يسلم ، أو أنه أعان الروم على المسلمين . على أن الحطيئة لم يكن موفقاً ، فقد اصطاحت الظروف كلها على أن تمكر به وتنا له بما لا تحب . فلم يكذب

علقمة حتى بلغه أنه قد مات ، فعادمحزوناً أسفاً ، وقال قصيدته المشهورة التي يقول فيها :

وما كانَ بِيَتْنِي لَوْلَقَيْتُكَ سَالِمًا وَبَيْنَ الْغِنَى لِأَلْيَالٍ قَلِيلُ
ونظر الحطيئة بعد موت علقمة فإذا هو وحيد أو كالوحيد في هذه البيئة العربية التي كان يحبها ويهاها ، ويتخذ لنفسه فيها آمالا عراضاً من الثراء ، وارتفاع الشأن ، وبعد الصوت ، ونفض العيش ، ولين الحياة ، يرى الناس من حوله قد تركوا كل ما كانوا عليه أو أكثر ما كانوا عليه ، فأما شبابهم ، فقد تحولوا إلى المدينة ، أو أقاموا حيث كانوا ، ولكن قلوبهم تحولت إلى المدينة حيث الدين ، وحيث السلطان والقوة .

نظر الحطيئة فرأى كل شيء من حوله قد تغير إلا نفسه ، فإنها ظلت كما كانت شديدة الحنين إلى العهد القديم ، شديدة الامتناع على العهد الجديد ، محتاجة مع هذا إلى أن تعيش ، وإلى أن تعيش عيشة خمول وخمود ، فالناس منصرفون عن الشعر ، وأشرف العرب منصرفون عما كانوا فيه أيام زهير من هذه الحروب والحصومات التي كانت تطلق لسان زهير بما كان ينفعه من الملح والهجاء . نعم ، نظر الحطيئة ، فإذا هو غريب في وطنه ، خليع أو كالخليع في داره ، مضطر إلى أن يلتمس الحياة والسؤال ، يحملها من مكان إلى مكان ، ومن حى إلى حى ، ومن رجل شريف إلى رجل شريف . وإني لأراه ، وقد وفد على المدينة يلتمس الرزق ، وجمعت له قریش من العطاء ، فإذا هو يقوم في المسجد ويدعو ؛ من يحملني على بغلين ؟ وإني لأراه كذلك ، وقد خرج مع امرأته أمامة وابنته مليكة ، ومعه أجمال له ، فلما أدركته القائلة نزل بمسراح وسرح أجماله ، ثم يقوم للرواح ، فإذا هو يفتقد جملاً من أجماله فيأخذ منه الحزن كل مأخذ ، ويقول هذين البيتين :

أَذْتَبُ الْقَفْزِ أَمْ ذَنْبُ أَنْيْسٍ أَصَابَ الْبَكْرَ أَمْ حَدَثُ اللَّيَالِ
وَنَحْنُ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُ ذَوْدٍ لَقَدْ جَارَ الزَّمَانُ عَلَى عِيَالِ
فأين حياته هذه التي يملؤها البؤس واليأس ، من حياته تلك التي كان يملؤها الأمل والرجاء حين كان يختلف إلى زهير ، ويشارك كعباً في اللهو

والصيد ، ويحاول أن يتصل بلقمة بن علانة ، أو بعينه بن حصن ، أو بزبد الخيل ، وقد أسره ومنّ عليه ؛ أين حياته هذه البائسة اليائسة ، من حياته تلك التي لم تكن تخلو من نعيم ومرح ، والتي كان يملؤها الانتظار لما ستشرق عنه شمس الغد من ارتفاع الشأن وحسن الثراء .

على أن بأس الحطيئة وحزنه لم يكونا فيما أرى مقصورين على حياته المادية ، بل كانا يأتيانه من ناحيتين أخريين : كانا يأتيانه من دخيلة نفسه التي لم تطمئن إلى الدين الجديد ، ولم تؤمن به فيما يظهر إلا تكلفاً ورياء ، واتقاء لل سيف الذي لم يكن للعربي إلا أن يختار بينه وبين الإسلام ، فنفس الحطيئة لم تكن ساخطة على حياته المادية وحدها ، بل كانت ساخطة على حياته المعنوية أيضاً ، كانت ساخطة على هذه الحياة التي حالت بين عواطفه الجاهلية ، وبين أن تظهر وتنمو وتؤتي ثمرها كما كان يجب أن تؤتيه ، وتلوق لذات الحياة وآلامها كما كان يجب أن يدوقها . والناحية الأخرى هي ناحية جسمه ، فقد كان الحطيئة قصيراً جداً ، قريباً من الأرض ، ولهذا سمي الحطيئة كما يقول الرواة ، وكان دميماً قبيح المنظر مشوه الخلق ، لا تأخذه العين ، ولا تطمئن إليه ، فكان منظره بشعاً ، وكان من غير شك يحس اقتحام الأعين له ، ونبوها عنه ، فيسوه ذلك ويؤذيه ، أضف إلى هذا كله أنه لم يكن مستقر النسب ، وإنما كان مدخولاً مضطرباً ، يتسب هنا ويتسب هناك ، وكان العرب يعرفون منه ذلك ويذكرونه به ، ويزدرونه من أجله ، فكان الحطيئة مهاجماً من جميع نواحيه ، مضطرباً إلى أن يدافع عن نفسه من جميع نواحيه أيضاً ، كان سيئ الدين ، فكان محتاجاً إلى أن يتقى عواقب سوء الدين . كان سيئ الحال ، فكان محتاجاً إلى أن يرد عن نفسه عوادي الفقر والبؤس والإعدام . كان مشوه الخلق ، فكان مضطرباً إلى أن يحمي نفسه من السخرية والاستهزاء ، وكان كل شيء يقوى في نفسه سوء الظن بالناس ، وقبح الرأي فيهم ، وكان ابتلاؤه للناس يزيده إسراعاً إلى ذلك وإمعاناً فيه ، فأصبح الحطيئة شيئاً مخوفاً مهيباً يكره منظره ، ويتقى لسانه ، ويشترى الأعراض منه بالأموال . ولأمر ما تحدث الرواة بأن عمر بن الخطاب اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم . وقصة الحطيئة مع عمر رائحة حقاً ، تملأ النفس حزناً

وأسى ، وتملؤها إعجاباً بهذا الخليفة القوى الرحيم معاً ، وتملؤها إعجاباً بالحطيئة أيضاً . فأما عمر فقد ارتفع إليه هجاء الحطيئة للزبرقان بن بدر بالقصيدة المشهورة التي يقول فيها :

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبُغْيَتِهَا وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

فأظهر أنه لا يرى في هذا البيت شيئاً ، وليس من شك في أنه كان يرى في البيت شيئاً ، ومن ذا الذي يرتاب في فهم عمر للشعر وعلمه بأسراره ودخائله ؟ وهو أذكى قريش قلباً ، وأنفذهم بصيرة ، وأشدهم دقة حسّ ، ورقة شعور ، وهو الذي كان يجب زهراً ويقدمه على الشعراء لأسباب فنية خالصة ، ولكن عمر كان يريد أن يلدأ العقوبة بالشبهة ، وأن يتجاوز للشاعر عن هذه الهفوة التي لا يتحرج منها الشعراء ، وألا يعاقب على هذه القصيدة التي يقول فيها الحطيئة أصدق بيت قالته العرب في رأى عمرو بن العلاء .

مَنْ يَفْعَلُ الْخَيْرَ لَا يَبْعُدُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

وكان الزبرقان شاعراً ، ولم يكن حسان بعيداً عن عمر ، فلما سأله لم ينكر أن في البيت هجاء ، وهجاء قبيحاً ، فاضطر عمر إلى أن يعاقب الحطيئة ، ومن الرواة من زعم أنه همّ بقطع لسانه . ولكن هذا كذب من غير شك ، فليس قطع اللسان من العقوبات التي أذن الله بها للخلفاء ، وعمر أتى الله ، وأحرص على دينه من أن يتجاوز الحلود ، إنما اكتفى عمر بحبس الحطيئة ، ولو وسعه ألا يفعل لما فعل ، ولكن العدل كان يقتضيه لإرضاء الزبرقان ، وقد استعطف الحطيئة عمر من سجنه بهذه الأبيات المشهورة ، فعطف عليه ، ورق له ، ويقال إنه بكى لما سمعها ، ثم أطلق الشاعر ، وأعطاه ما يمنعه من الهجاء .

ولست أدري أكان الحطيئة صادق اللهجة والعاطفة في هذه الأبيات التي وجهها إلى قلب عمر ! ولكن الشيء الذي لا شك فيه ، أنه عرف كيف يبلغ قلب هذا الرجل العظيم ، ويترك فيه أعظم الأثر وأبقاه ، فاسمع هذه الأبيات فسرى أنها لم تفقد جمالها ، ولن تفقده مهما تغير الظروف وتتعاقب الأيام .

ماذا تقول لأفراخِ بِنِي مَرَّخٍ زُغِبِ الْحَوَاصِلِ لَامَاءَ وَلَا شَجَرٍ
 أَلْقَيْتَ كَاسِبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلَمَةٍ فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ
 أَنْتَ الْإِمَامُ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ أَلْقَى إِلَيْهِ مَقَالِيدَ النَّهْيِ الْبَشَرِ
 مَا آثَرُوكَ بِهَا إِذْ قَدَّمُوكَ لَهَا لَكِنَّ لَأَنْفُسِهِمْ كَانَتْ بِكَ الْإِثْرُ

وأما الحطيئة نفسه فهو خليق بالإعجاب حقاً إذا تبينا موقفه مع الزبرقان بشيء من الإنصاف ، فهو قد اطمأن إلى الزبرقان حين عرض عليه جواره ، وما فيه من أمن ولين وتمر ، وهو قد سبقه إلى أرضه ونزل ضيفاً على امرأته ، وأقام وقتاً غير قصير ينتظر عودته ، ويلقى من امرأة الزبرقان جوداً مدخولاً إلى حد ما ، لأنها كانت تجهل مكانه ، أو لأنها كانت تغار من ابنته مليكة ، أو لشيء آخر . وكان خصوم الزبرقان من أبناء عمه يغرون الحطيئة ويرغبونه ، ويلحون عليه بالإغراء والترغيب ، والحطيئة يأبى عليهم ، ولا يريد أن يأخذ الزبرقان بتقصير امرأته وجهلها ، حتى إذا طال إهمال امرأة الزبرقان له ، وإعراضها عنه ، تحول إلى هؤلاء الذين كانوا يغرونه ، فتلقوه أحسن لقاء ، ومنحوه فوق ما كان ينتظر ، وانتظروا منه هجاء الزبرقان فلم يفعل ، ودعوه إلى ذلك فلم يفعل ، وألحوا عليه ، وزادوا في إكرامه فلم يفعل ، ولكن الزبرقان جرّ على نفسه الشر ، فأغرى بأبناء عمه من هجاءهم ، واضطر الحطيئة إلى أن يدافع عن هؤلاء الذين أكرموه وأغنوه ، فكان في دفاعه ما أغضب الزبرقان ، وانتهى بالحطيئة إلى سجن عمر . أترى إلى هذا الرجل كيف وفي لصاحبه ، واحتمل إعراض امرأته ! وكيف وفي لصاحبه بعد أن تحول عنه ، ولم يهجه إلا كارهاً ! على أنه لم يسرف في هجائه ، وإنما غاظه وأحفظه حين أغرق في مدح خصومه وتفضيلهم عليه .

لا غرابة إذن في أن يكون الحطيئة شيئاً مخوفاً مرهوباً ، ما دامت ظروف الحياة قد اضطرتّه إلى ما رأينا من سوء الحال . ولا غرابة في أن تشيع عنه الشائعات ، وتكثر من حوله الأساطير ، ويصوره الرواة في هذه الصورة البشعة التي نجدتها في الأغاني وفي طبقات الشعراء لابن قتيبة وفي طبقات الشعراء لابن سلام . ولست أستبعد أن تكون ظروف الحياة هذه قد غيرت نفس

الخطيئة تغييراً ، فجعلته كما يقول الرواة جشعاً سئولاً ملحقاً في السؤال ، طويل اللسان ، مسرفاً في الاعتدال على الناس ، ولكن لا إلى الحد الذي صورته الرواة ، فهم يزعمون أنه هجا أمه وأخاه وأباه ، وانتهى به الأمر إلى هجاء نفسه ، وهم يروون له في ذلك كله شعراً ، وليس من شك عندي ، في أن المبالغة قد أثرت في هذه الأحاديث آثارها ، ولكنها على كل حال تعطي من الخطيئة صورة كان القدماء ينتفرون منها أشد انتفور ، ولكنني أعطف عليها أشد العطف ، فهي لا تدل إلا على أن الخطيئة كان بائساً شقيماً ، غريباً في هذا الطور الجليد من أطوار الحياة العربية ، كأنما ارتحل العصر الجاهلي ونسيه وحيداً في العصر الإسلامي ، فهو ضائع الرشد ، ضائع الصواب ، قد فقد محوره ، إن صح هذا التعبير . ولي على هذا دليلان . أحدهما : أن أكثر ما يروى عن الخطيئة من النوادر وغريب الأحاديث إنما يروى عنه في الإسلام لا في العصر الجاهلي ، فما بقي لنا من أخباره في العصر الجاهلي لا يصوره شاذاً ولا غريباً ولا مضطرب النفس ، إنما اضطربت نفسه في الإسلام ، لأن سماحة هذا الدين لم تمس قلبه الجاهلي العريق في جاهليته . والآخر أن أكثر ما يروى من النوادر عن الخطيئة ، لو حاولنا تأريخه ، يكاد يرجع إلى أيام عمر وأوائل أيام عثمان ، أي إلى هذا العصر الإسلامي الخالص ، الذي سيطر النظام الإسلامي الدقيق فيه على حياة العرب من جميع وجوهها . فلما تقدمت أيام عثمان ، وأقبلت أيام معاوية ، وظهر من سادة قريش وشبابها من عادوا إلى شيء من حياة فيها غير قليل من بقايا الحياة الجاهلية ، اطمأنت نفس الخطيئة بعض الشيء ، ولعلها ابتسمت للحياة قليلا ، فقد اتصلت الخطيئة بالوليد بن عقبة بن أبي معيط ، عامل عثمان على الكوفة ، وكان الوليد سيداً من سادات قريش ، لم تكد الفرصة تمكنه حتى استأنف حياة أقل ما توصف به أنها لم ترض المسلمين ، وأنها حملت عثمان على عزله عن الكوفة ، بل على أن يقيم عليه حد الشراب ، فيما تحدث الرواة . اتصلت الخطيئة بالوليد فدحه ، وما زلت أذكر حديث الوليد هذا مع لبيد ، فلما عزل الوليد ، كان الخطيئة أسرع الناس إلى مدحه ومواساته والثناء عليه ، في هذه الأبيات التي عيشت بها الشيعة فيما بعد ، فبدلتها تبديلا ، وصرفتها عن موضعها . وسمع هذه الأبيات ، فسترى فيها وفاء الخطيئة للوليد ، وسترى فيها أيضاً صورة للمثل الأعلى عند الخطيئة للرجل الكريم :

شَهْدَ الحُطَيْثَةِ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ أَنْ الوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْعُنْدِ
 خَلَعُوا عِنَانَكَ إِذْ جَرَيْتَ وَلَوْ تَرَ كُوا عِنَانَكَ لَمْ تَزَلْ تَحْجِرِي
 وَرَأَوْا شَمَائِلَ ماجِدٍ مَتَبَّرِعٍ يُعْطِي عَلَى المَيْسُورِ وَالْعُسْرِ
 فَزُرِعَتْ مَكْذُوباً عَلَيْكَ وَلَمْ تُرَدِّدْ إِلَى عَوَازٍ وَلَا فَقْرٍ

ويقول المفضل الضبي ، فيما يروى ابن السجري ، إن من الرواة من يروى هذه الأبيات على نحو آخر ، وهو عندي وعندك ، فيما أذكر ، من تجنى الشيعة على الحطيثة والوليد أيضاً ، وهذه هي الرواية الأخرى :

شَهْدَ الحُطَيْثَةِ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ أَنْ الوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْعُنْدِ
 نَادَى وَقَدْ كَمَلْتَ صَلَاتَهُمْ أَزِيدُكُمْ ثَمَلاً وَمَا يَدْرِي
 لِيَزِيدَهُمْ خَيْراً وَلَوْ فَعَلُوا لَقَرَنْتَ بَيْنَ الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ
 فَأَبَوْا أَبَا وَهْبٍ وَلَوْ فَعَلُوا زَادَتْ صَلَاتُهُمْ عَلَى العَشْرِ
 كَفَوْا عِنَانَكَ إِذْ جَرَيْتَ وَلَوْ خَلَوْا عِنَانَكَ لَمْ تَزَلْ تَحْجِرِي

فليس من شك عندك ولا عندي في أن الرواية الأولى هي الصادقة ، وفي أنها تمثل حزن الحطيثة لما أصاب الوليد . على أنا نرى الحطيثة راضياً بعض الرضا أو كله ، حين تقدمت به السن ، ودنت به الأيام إلى القبر ، نراه عند سعيد بن العاص والى معاوية على المدينة ، وهو كالوليد بن عقبة سيد من سادات قریش ، قد اتخذ لنفسه ولن يلوذ به من الناس حياة فيها كثير من المحافظة التي تذكر بعادات الجاهليين ، ومن التجديد الذي كانت تقتضيه سنن الإسلام ، فهو كريم يطعم الناس ، ويشهد عشاءهم بنفسه ، ونحن نرى الحطيثة عنده في ليلة من هذه الليالي التي كان يعيش فيها الناس ، وهو يتحدث بأيام العرب وأخبارها وأشعارها ، يسمر بذلك ويمجد في السمر به لذة ، إليه يلجأ الفرزدق حين يريد زياد أن يعاقبه لاحتفاظه بعادات الجاهلية وإسرافه في الهجاء ، وإليه يقصد الحطيثة نفسه ويمدحه بهذه الأبيات التي تصور شاعراً جاهلياً حقاً ، يمدح شريفاً من أشراف الجاهلية ، لاعظيماً من عطاء الإسلام . وعند سعيد بن العاص يلقى الحطيثة شاعراً شاباً هو الفرزدق ، ويسمع منه

مدح سعيد فيعجب به ويثنى عليه ، ويراه صاحب لواء الشعر الجليد ، وكأنه
يطمئن إلى ما سيلقاه من الموت قريباً حين يعلم أن الشعر لا بأس عليه . أليس
قد زعم الرواة أن الحطيثة حين حضره الموت وسأله من حوله أن يوصي ، أوصاهم
بالشعر خيراً ! واسمع هذه الأبيات التي يقولها في مدح سعيد :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَمْسَى عَلَى الْأَمْرِ سَائِسٌ	بَصِيرٌ بِمَا ضَرَّ الْعَدُوَّ أَرِيبٌ
جَرِيءٌ عَلَى مَا يُكْرَهُ الْمَرْءُ صَدْرَهُ	وَلِلْفَاحِشَاتِ الْمُنْدِيَّاتِ هُبُوبٌ
سَعِيدٌ وَمَا يَفْعَلُ سَعِيدٌ فَإِنَّهُ	نَجِيبٌ فَلَاهُ فِي الرِّبَاطِ نَجِيبٌ
سَعِيدٌ فَلَا تَغْرُرْكَ خِيفَةُ لَحْمِهِ	تَخَدَّدَ عَنْهُ اللَّحْمُ وَهُوَ صَلِيبٌ
إِذَا حَافَ إِضْعَاباً مِنَ الْأَمْرِ صَدْرُهُ	عَلَاهُ قَبَاتَ الْأَمْرِ وَهُوَ رَكُوبٌ
إِذَا غَابَ عَنَّا غَابَ عَنَّا رَبِيعُنَا	وَنُسْقَى الْغَمَامَ الْغَرَّ حِينَ يَثُوبُ
فَنِعْمَ الْفَتَى تَعَشُّوْا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ	إِذَا الرِّيحُ هُبَّتْ وَالْمَكَانُ جَدِيبٌ

ولم يكذ يفرغ صاحبي من إنشاد هذه الأبيات ، فقد كان شديد الإعجاب
بها ، لا يلقى البيت حتى يعيده ، ويطيل في تحليله والثناء عليه ، فلما فرغ بعد
لأى من هذا الشعر وهم أن يمضى في حديثه ، قلت له : حسبك ! فما رأيت
كالיום محامياً عن شاعر قديم . قال : إنك لتريد أن تقفني عن الحديث
ولا أبداً ، فإني أتحدث عن شعر الحطيثة . قلت : فتحدث عنه إن شئت
في الأسبوع المقبل .

ساعة مع الحطيئة^(١)

وما كاد يستقر بصاحبي مجلسه عندي حتى ابتدرني بالسؤال ، وهو يتسم ابتسامة فيها شيء من سخرية . فقال : أتعلم لماذا أحب الحطيئة ؟ قلت : ومن أعلمني ذلك ؟ إنما أعلم أنك تحبه وتغلو في حبه ، فأما تعليل هذا الحب فأمره عندك ، وقد أنبأتني بأنك ستبين لي عنه إذ التقينا اليوم ، فقل ما عندك ، فأني مستمع لك . قال : إنما أحب الحطيئة يا سيدي لأنه عبد من عبيد الشعر ، لا سيد من سادته ، فليس أبغض إليّ ولا أثقل عليّ من هؤلاء الذين يؤثرون أنفسهم ، ويزعمون لها القوة والتفوق ، ويتحكمون في الفن كأنهم قد ملكوا أعبته ، وهم لا يتحرجون من أن يقولوا ذلك ويجهروا به ، أليس من القول المستفيض في أحاديث الناس حين يتكلمون ، وفي رسائلهم حين يكتبون ، وفي تقديم وتقريرهم حين ينقدون ويقرظون : إن فلاناً قد ملك أعبته البيان ؟ فأني أبغض هذا الذي يملك أعبته البيان ، وأزعم أنه إن كان صادقاً فيبانه أكذب البيان ، وأدبه أسخف الأدب ، وإنتاجه أسمح الإنتاج ، وهو لا يعدو أن يكون مشعوذاً متكثراً ، يقول عن غير علم ، ويصدر عن هذه الطبيعة السهلة التي لا تكلف صاحبها جهداً ولا عناء ، ولا تحمله مشقة ولا نصباً ، وإنما تستجيب له كلما دعاها ، وتدفعه إلى الإنتاج دون أن يسألها الإنتاج ، فهي خليقة أن تغريه وتغويه ، وأن تتخذه عن نفسه وتتخذع الناس عنه ، وأن تخيل إليه أن سهولة إنتاجه آية من آيات الحصب ، ومظهر من مظاهر الثروة والغنى ، على حين أنها ليست في أكبر الظن إلا آية من آيات الثرثرة ، ومظهراً من مظاهر التفتيق الذي لا خير فيه . إنما الأديب عندي هو الذي يصنع أدبه ، ويعمله عملاً ، ويتبهاً له ، فيطيل التهيؤ ، ويفكر فيه فيمعن في التفكير ، ويتكلف لذلك من الجهد والمشقة ما يضمنه ويعنيه ، فيوفق حيناً ، ويخطئه أحياناً التوفيق ، ويشقى بما يلقي من الجهد والكد ، وينعم بما يتاح له من الإصابة والتوفيق .

(١) نشرت بمجريدة الجهاد في ١٧ أبريل سنة ١٩٣٥ .

هذا الشاعر الذى يغترف من بحر لا يعجبنى ، لأنه قد يغترف فيصيب الجيد ويصيب الردىء ، ولأنه حين يغترف من بحر لا يعلم أن يكون أداة يعبث بها شيطان الشعر ، فينطقها بما يشاء كما يشاء ، لا متخيراً ولا مجوداً ، أما الشاعر الذى ينحت من صخر ، فهو الذى يعجبنى ويرضىنى ، لأنه لا يقول الشعر وإنما يعمل ، كما تحدث شاعرنا الفرنسى الذى فتنك فتناً ، ولأن الشعر لا يصلر عن طبعه وحده ، وإنما يصلر عن طبعه وعقله وإرادته ، وأنا يا سيدى إنسان أكره أن أكون أداة ، وأحب أن أشعر بأنى أريد ، وبأنى لا أقول ولا أعمل إلا حين أريد ، وهذا الخطيئة الذى يتحدث عن نفسه لأنه كان يعوى فى أثر القوافى كما يعوى الفصيل ، والذى يقول الأصمعى عنه : « إنه كان من عبيد الشعر » . أحب إلى ألف مرة ومرة من هؤلاء الشعراء الذين تنال عليهم القوافى انهيالا ، ويتثال عليهم الكلام انثيالا ، وتواتهم المعانى والألفاظ دون أن يطلبوها أو يلحوا عليها فى الطلب ، وهو أحب إلى ألف مرة ومرة من هؤلاء الشعراء الأحرار الذين يتصرفون فى القول ، كما يتصرف المالك فى ملكه ، دون أن يتصرف القول فيهم قليلا أو كثيراً . نعم يا سيدى ! إنى لا أخاف أحداً على الأدب كما أخاف هؤلاء الأدباء المطبوعين ، وهؤلاء الشعراء الموهوبين ، الذين يرسلون أنفسهم على سجيئتها ، ثم يفرضون علينا ما تجرى به ألسنتهم ، وتجيئهم به نفوسهم من الجيد والرديء على أنه عفو الخاطر ، ونتاج البلدية ، قد برئ من التكلف ، وسلم من التصنع ، وارتفع عن العمل والاحتيال ، وليس معنى هذا أن الشاعر المتكلف المتصنع المحتال كما أفهمه أنا ، وكما فهمه الخطيئة وأمثاله ، ليس مطبوعاً ولا مرسلًا نفسه على سجيئتها ، كلا ! إنما هو مطبوع ، ولكن لأنه يريد أن يكون مطبوعاً ، وهو مرسل نفسه على سجيئتها ، لأنه يريد أن يرسلها على سجيئتها ، وهو ينتهى إلى الإجابة بعد البحث والدرس ، وبعد التحقيق والتمحيص ، وبعد الاجتهاد الطويل فى اختيار الجيد ، وإسقاط الرديء ثم الاجتهاد الطويل بعد ذلك فى اختيار أجود الجيد وإسقاط ما عده ، هو رقيب نفسه قبل أن يراقبه غيره ، وهو ناقد فنه قبل أن ينقده غيره ، وهو متته إلى حيث انتهى الخطيئة ، وهو ملزم للأصمعى وأشباه الأصمعى أن يرثوا شعره من العيب ، ويرفعوه عن كل ابتذال ؛ لهذا كله يا سيدى أحب الخطيئة

وأكبره ، وأتخذته لى أستاذاً وإماماً لو أنى موكل بقول الشعر ، ولكنى أتخذته لى أستاذاً وإماماً فيما أحاول من كتابة النثر أحياناً ، فقانون التجويد الأدبى ليس مقصوراً على الشعر وحده ، بل هو يتناول الشعر والنثر جميعاً ، بل قانون التجويد والحدّ فيه والحرص عليه لا يتناول الأدب وحده ، وإنما يتناول الفن كله . وما أشدّ إعجابى بهذه الأبيات التى يضيفها القدماء إلى الخطيئة ، سواء أرضيت أنت نسبتها إلى الخطيئة أم أنكرتها عليه ، فهى تمثل مذهبه ، ومذهب أستاذه وأصحابه ، أصدق تمثيل وأنفعه :

الشُّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سُلْمَةٌ إِذَا ارْتَقَى فِيهِ اللَّيْ لَإِتَعَلَّمَهُ
زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهُ وَالشُّعْرُ لَا يَسْطِيعُهُ مَنْ يَظْلِمُهُ
يُرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهُ مَنْ يِيمُ الْأَعْدَاءَ يَبْقَى مَيْسَمُهُ

وإذا لم تعجبك هذه الأبيات التى تعجبنى ، فما أشك فى أن أبيات كعب تعجبك وترضيك ، وهى أصدق تمثيلاً للمذهب المدرسة فى الشعر وطريقتها فى قوله أو فى عمله إن أردت التدقيق . وقرأ هذه الأبيات ، فهى إلى أن تكون تصويراً للمذهب من المذاهب ، أدنى منها إلى أن تكون مفاخرة ودفاعاً عن شاعر من الشعراء :

فَمَنْ لِلْقَوَايِ شَانَهَا مِنْ يَحْوِكُهَا إِذَا مَا نَوَى كَعْبٌ وَفَوَزَ جَرَوَلٌ
كَفَيْتِكَ لَا تَلْقَى مِنَ النَّاسِ وَاحِداً تَنْخَلُ مِنْهَا مِثْلَ مَا نَتَنَخَلُ
نُثَقِّفُهَا حَتَّى تَلِينَ مُتَوْنُهَا فَيَقْصُرَ عَنْهَا كُلُّ مَنْ يَتَمَثَّلُ

فهم يتنخلون الشعر ويصفرونه ، ولا يرسلونه إرسالا ، ولا يهملونه إهمالا ، وهم يقومون الشعر تقويماً ، ويشققونه تثقيفاً ، يحاولونه ويزاولونه ، ويدبرونه فى عقولهم ، ثم يدبرونه فيما بينهم ، ثم لا يذيعونه فى الناس حتى يرضوا عنه ويطمشوا إليه ، ومن هنا تستطيع أن تقرأ ما أحببت من شعر الخطيئة فى المدح والهجاء ، وفى الوصف والرثاء ، وفيما يعرض له من الغزل القليل ، فلن تنكر منه شيئاً ، قد اختار لك شعره قبل أن تحتاج أنت إلى الاختيار . وقرأ معى هذه الأبيات التى كانت مصدر امتحان عمر بن الخطاب له بالسجن ، ثم حدثنى أين ترى

فيها العيب ، أو تحس فيها النقص ؟ وأي بيت منها تحتاج إلى أن تسقطه أو تلغيه :

والله ما معشرٌ لاموا امرأً جنباً في آلِ لأيِ بنِ شَاسِ بِأَكْيَاسِ
لَقَدْ مَرَيْتُكُمْ لَوْ أَنَّ دِرَّتَكُمْ يَوْمًا يَجِيءُ بِهَا مَسْحِي وَإِسَاسِي
وَقَدْ مَدَحْتُمْ عَمْدًا لِأَرْشَدِكُمْ كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ مَسْحِي وَإِمْرَاسِي
وَقَدْ نَظَرْتُمْ أَبْنَاءَ صَادِرَةِ لِلْخَمْسِ طَالِ بِهَا حَوْذِي وَتَنَسَاسِي

فانظر إليه كيف بدأ هذه الأبيات بلوم آل الزبرقان لأنهم أنكروا عليه تحوله إلى آل شماس ومدحه لإياهم ، ثم أراد أن يبين عذره فيما صنع من ذلك ، فأبان عن غرضه في أجمل صورة وأروعها وأدناها إلى أفهام هؤلاء الناس من أهل البادية ، حين مثل حاله معهم بحاله من الناقة ذات اللبن القليل ، أو غير ذات اللبن ، يريد أن يحلبها فلا تدر له شيئاً . فما يزال يمرى ضرعها ويمسه ويمسحها ، يتكلف من ذلك ما يريد وما لا يريد ، لعله يظفر بشيء ، ولكنه لا يصيب شيئاً ، ثم هو ينتظر ويتنظر فلا يفيد الانتظار شيئاً . وانظر إلى كل ما قصد إليه من التشبيه والتمثيل ، فلن ترى شيئاً غريباً ، وإنها هي كلها معان قريية مألوقة يراها الأعراب ويعيشون عليها ، كلها معان لا تعدو حياة الأعرابي حين يتغى اللبن عند ناقته ، أو حين يتغى الماء مستقيماً من البئر ، أو حين ينتظر ، فإذا هو يوقت انتظاره بما تعودت العرب أن يوقتوا به في حياتهم اليومية ، من إيراد الإبل وإصدارها حين يوردون ويصدرون ، وهو في هذا كله يتبع زهيراً ويسير على نهجه ؛ فإني لم أنس بعد ذلك التمثيل البديع الذي ذهب إليه زهير حين أراد أن يصور اضطراب عبس وذبيان بين الحرب المهلكة والسلم المدخولة ، فشبّه هذا كله بما يكون من رعى الإبل ، ثم ورودها إلى الماء ، ثم انصرافها إلى المرعى ، كذلك فعل الحطيئة فأحسن الإحسان كله ، لأنه إنما يقول شعره ، أو يصنعه للأعراب ، فلا بدّ من أن يفهم عنه الأعراب قبل أن يفهم عنه غيرهم من الناس ؛ والظريف الجميل الرائع أننا نحن نفهم عنه كما فهم عنه الأعراب ، ونعجب به كما أعجب به الأعراب ، وأيّ الناس

يستطيع أن يحدد جمال هذه التشبيهات الرائعة الساذجة ، التي تكسب روعتها من هذه السذاجة نفسها ! ثم اقرأ معي هذين البيتين :

لَمَّا بَدَأَ لِي مِنْكُمْ غَيْبٌ أَنْفُسِكُمْ ولم يكن لجراحي منكم آسى
جَمَعْتُ يَأْساً مُرِيحاً مِنْ نَوَالِكُمْ ولن ترى طارداً للحر كالياس

أتري إلى البيت الأول ، وإلى الشطر الثاني من هذا البيت خاصة ، وإلى تشبيه الفقر والبؤس والحاجة بالجرح ، وإلى تشبيه العطاء الذى يذود الفقر ويدفع البؤس ويرضى الحاجة بطب الطيب الذى يأسو هذه الجراح ، أتري أيسر من هذا التعبير ، وأدنى إلى الفهم ، وأحسن وقماً فى النفس . وأبلغ تأثيراً فى القلب ! ثم انظر إلى هذا اليأس المريح الذى انتهى إليه فى البيت الثانى . ثم انظر إلى قوله « ولن ترى طارداً للحر كالياس » . كيف أرسله مثلاً صادقاً خالداً على اختلاف الأزمنة وتباين الظروف ، وكيف جعله مصدر ثروة للشعراء الذين افتنوا بعده فى اليأس وإراحته لليائسين ! ثم اقرأ معي :

مَا كَانَ ذَنْبٌ بَغِيضٍ أَنْ رَأَى رَجُلًا ذَا فَاقَةَ حَلٍّ فِي مُسْتَوْعِرٍ شَاسٍ
جَارًا لِقَوْمٍ أَطَالُوا هُونَ مَنْزِلِهِ وَغَادَرُوهُ مُقِيمًا بَيْنَ أَرْمَاسٍ
مَلَّوْا قِرَاءَهُ وَهَرَّتْهُ كَلَابُهُمْ وَجَرَّحُوهُ بِأَنْيَابٍ وَأَضْرَاسٍ

أتري إليه كيف يدفع عن بغيض لوم اللائمين ، وإنكار المنكرين ! فبغيض لم يزد على أن رأى رجلاً بائساً قد أقبل مستجيراً فلم ير من جاره براً ولا عطفاً ولا كرمًا ، وإنما نزل عندهم منزلاً وعراً ، وأحس منهم ملاً وسأماً ، ثم صدوداً وإعراضاً ، ثم جاءته منهم الملامة ، وانتهى إليه التقرير والتعنيف ، فعطف عليه بغيض فواساه وآسى جراحه ، وأرغى نفسه وحفظ كرامته ، وأحسن منزله ، أفيلام صاحب البرّ لأن غيره أبى أن يكون براً ؟ أفيلام المعترف بالحميل لأنه أبى أن يكون جاحداً كنوداً ؟ ثم اقرأ معي :

لَا ذَنْبَ لِي الْيَوْمَ إِنْ كَانَتْ نَفْسُكُمْ كَفَارِكِ كَرِهْتِ تَوْبِي وَإِلْبَاسِي
مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْلَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبُغْيَتِهَا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي
 وتستطيع أن تمضي في القصيدة كلها فلن تجد فيها بيتاً واحداً ينبو كله ،
 أو ينبو جزء من أجزائه ، أو يستحق إسقاطاً أو إلغاء ، وليس من شك في أن
 الحطيئة نفسه قد أسقط من هذه الأبيات ما أسقط ، وألغى منها ما ألغى ،
 ولم يدع إلا ما رجح أنه خليق بالبقاء .

ولو أنك تركت هذه القصيدة إلى داليتة المشهورة ، ولم تقرأ منها إلا هذا
 المدح الخالد الذي يبق على الدهر ، لما كان تأثرك بجمال هذا الشعر وروعته ،
 وصدقه ودقته ، وصفاء لفظه ، وارتفاع معناه ، بأقل من تأثرك بما رأيت في
 هذه القصيدة التي ننصرف عنها الآن . وقرأ هذه الأبيات :

وَإِنَّ الَّتِي نَكَّبْتَهَا عَنْ مَعَاثِرٍ غَضَابٍ عَلَيَّ أَنْ صَدَدْتُ كَمَا صَدُّوا
 أَنْتَ آلَ شِمَاسِ بْنِ لَأْيٍ وَإِنَّمَا أَنَا هُمْ بِهَا الْأَخْلَامُ وَالْحَسَبُ الْعِدُّ
 فَإِنَّ الشَّقَّ مِنْ تَعَادِي صُدُورِهِمْ وَذُو الْجَدِّ مِنْ لَأْتُوا إِلَيْهِ وَمَنْ وَدُّوا
 يَسُوسُونَ أَحْلَاماً بَعِيداً أَنَانِهَا وَإِنْ غَضِبُوا جَاءَ الْحَفِيظَةُ وَالْجَدُّ

أليس من هذا البيت الأخير قد أخذ الأخطل ؟ أو أليس بهذا البيت
 الأخير قد تأثر الأخطل حين قال بيته المشهور :

شُمْسُ الْعِدَاةِ حَتَّى يُسْتَقَا دَلْهِمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَاماً إِذَا قَدَّرُوا
 ثم اقرأ :

أَقْلُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَبِيكُمْ مِنْ اللُّومِ أَوْسُدُوا الْمَكَانَ الَّذِي سَلُّوا
 أَوْلَيْتُكُمْ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا إِلَيْنَا وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْقَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا
 وَإِنْ كَانَتْ النُّعْمَى عَلَيْهِمْ جَزَّوْا بِهَا وَإِنْ أَنْعَمُوا لَا كَدَّرُوهَا وَلَا كَدُّوا
 وَإِنْ قَالَ مَوْلَاهُمْ عَلَى جُلٍّ حَادِثٍ مِنَ الدَّهْرِ رَدُّوا بَعْضَ أَحْلَامِكُمْ رَدُّوا
 وَتَعَذَّلْنِي أَفْنَاءَ سَعِيدٍ عَلَيْهِمْ وَمَا قَلْتُ إِلَّا بِالَّذِي عَلِمْتُ سَعْدُ

لا تخدع نفسك ، ولا يخدعك غيرك عن الحق ، فقد كان الحطيئة بهذه القصيدة - ما روينا منها وما لم نرو - أستاذ الأخطل وإمامه حين مدح بني أمية بشعره الخالد في رائيته المشهورة .

وللحطيئة في هؤلاء الناس شعر كثير . له دالية أخرى مطلعها :

آثَرْتُ إِذْ لَجِي عَلَى لَيْلِ حُرَّةٍ	هَضِيمَ الْحَشَا حُسَانَةَ الْمُتَجَرِّدِ
إِذَا النَّوْمُ أَلْهَاهَا عَنِ الزَّادِ خِلْتَهَا	بُعَيْدَ الْكَرَى بَاتَتْ عَلَى طِي مُجَسِّدِ
إِذَا ارْتَفَقَتْ غَرَّقَ الْفِرَاشِ تَخَالَهَا	تَخَافُ أَنْبِتَاتِ الْخَصْرِ مَا لَمْ تَشُدِّ
عَمِيقَةً مَا تَحْتَ النَّطَاقِ وَفَوْقَهُ	عَسِيبٌ نَمَا فِي نَاصِرٍ لَمْ يُخْضِدِ
تَرَاهَا تَغْضُ الطَّرْفَ دُونِي كَأَنَّمَا	تَضْمَنَ عَيْنَاهَا قَدَى غَيْرِ مُفْسِدِ
وَتُغْرِقُ بِالْمِدْرَى أَثِيثًا نَبَاتُهُ	عَلَى وَاضِحِ الدَّقْرِى أَسِيلِ الْمَقْلَدِ
تَضْوَعُ رِيَاهَا إِذَا جِثَّتْ طَارِقًا	كَرِيحِ الْخُرَامِي فِي نَبَاتِ الْخَلَا نَدِي
لَهَا طِيبٌ رِيًّا إِنْ نَأْتَنِي وَإِنْ دَنَّتْ	دَنَّتْ وَعَثَّةٌ فَوْقَ الْفِرَاشِ الْمُهْدِ

ولنما أقرأ هذه الأبيات عليك لتجد نفحة يسيرة من غزل الحطيئة الذى يقدمه بين يدي ما يقصد إليه من المدح والهجاء ، وإنك لتوافقنى ، من غير شك ، على أن الحطيئة ليس ضعيفاً ولا فاتراً ولا رخواً حين يقصد إلى الغزل ، كما أنه ليس ضعيفاً ولا فاتراً ولا رخواً حين يقصد إلى غيره من الفنون .

وهل تذكر همزيته التى أولها :

أَلَا قَالَتْ أُمَامَةٌ هَلْ تَعَزَى فَقُلْتُ أُمَامٌ قَدْ غَلِبَ الْعَرَاءُ

فا أشك في أن هذه القصيدة الرائعة قد تأثرت بقصيدة زهير التى مطلعها :

* عَفَا مِنْ آلِ فَاطِمَةَ الْجِرَاءِ *

والتي كثر فيها كما تقول خلط الرواة ، ولكن قصيدة الحطيئة هذه لم يفسدها الخلط ، ولشد ما أحب أن أقرأها عليك ، وأن أقف معك عند بعض أبياتها . قلت مبتسماً : وهل تظن أنى لم أقرأ هذه القصيدة ، ولم أقف عند

أبياتها جميعاً ؟ قال : هذا صحيح ، لقد فتنني الحطيثة ، وأنساني أني أتحدث إليك ، ونخيل إليّ أني أكتب فصلاً لصحيفة من الصحف ، أو ألتى محاضرة على جماعة من الطلاب ، ومع ذلك فلإني أحب أن تسمع مني هذه الأبيات التي قالها الحطيثة يفضل فيها صاحبه علقمة بن علاثة على عامر بن الطفيل ، فلإني أرى في هذه الأبيات جدالة وصلابة ومتانة وارتفاعاً ، وأجد فيها جمالا لا أعرف كيف أصوره ولكنه يملك علىّ أمري ، ولو أني أطعت نفسي لقلت : إني أجد في هذه الأبيات رجولة الشعر . ثم اندفع ينشد :

يَا عَامٍ قَدْ كُنْتُ ذَا بَاعٍ وَمَكْرُمَةٍ	لَوْ أَنَّ مَسْعَاةَ مِنْ جَارِيَتِهِ أُمَّمُ
جَارِيَتٍ قَرَمًا أَجَادَ الْأَخْوَصَانَ بِهِ	طَلَّقَ الْيَلْبِينَ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ
لَا يَصْعَبُ الْأَمْرُ لِأَرِيثَ بِرَكْبُهُ	وَلَا يَبِيْتُ عَلَى مَالٍ لَهُ قَسَمُ
وَمِثْلِهِ مِنْ كِلَابٍ فِي أُرُومَتِهَا	يُعْطَى الْمَقَالِيدَ أَوْ يُرْمَى لَهُ السَّلْمُ
هَابَتِ بَنُو مَالِكٍ مَجْدًا وَمَكْرُمَةً	وَعَابَةٌ كَانَ فِيهَا الْمَوْتُ لَوْ قَدَّمُوا
وَمَا أَسَامُوا فِرَارًا عَنْ مُجَلْبِيَةٍ	لَا كَاهِنٌ يَمْتَرِي فِيهَا وَلَا حَكَمُ

وله قصيدة أخرى يمدح بها علقمة وأهلها

قلت : حسبك ! فلإني أفهم أن ألح عليك أنا في رواية هذا الشعر لأحملك على حب الشعراء القدماء ، فأما أن تستحيل داعية ، وقد كنت مدعواً . فهذا غريب .

ساعة مع عنبرة^(١)

قلت لصاحبي : تحدث أنت عن عنبرة إن شئت ، فإنني لا أعرف من أمره شيئاً ، أولاً أكاد أعرف من أمره إلا أن الناس كانوا يذكرونه ويتحدثون بحسن بلائه في الحرب ، وقل أنت في عنبرة ما أحببت ، فإنني حسن الاستعداد للاستماع لك ، والرضا عما تقول ، والتصديق لما تقص من الأحداث والأنباء ، ولقد كثرت الحديث عن هذا البطل الجاهل القديم ، كما لم يكثر عن أحد من الأبطال الذين عاصروه ، وقلّ مع ذلك ما يمكن الاطمئنان إليه من هذه الأحاديث التي ملئت بها الأسفار الضخام ، والتي أعانت الناس قروناً ، وما تزال تعينهم ، على أن يتخففوا من أثقال الحياة ، ويلقوا عن أنفسهم أعباءها إذا أقبل الليل وفرغوا لأسمارهم فلا بأس بأن تقبل باسمين ما يروى عنه من الأخبار والأساطير ، ومن يدري ! لعل ما يرفضه العقل من أحاديث الأجيال الماضية ، أجدر أن يقبل ، وأحرى أن يصدق ، من هذه الأشياء التي يراها العقل حقائق ثابتة ، وأموراً لا يستطيع الشك أن يعرض لها ، فهذه الحقائق الثابتة التي تحمل اليقين ، أو ما يشبه اليقين ، إلى الناس ، كثيراً ما تحمل إليهم الحزن اللاذع واليأس المفض ، وكثيراً ما تصرفهم عن الخير صرفاً ، وتدفعهم إلى الشر دفعاً ، وتفسد في نفوسهم صور ما كانوا يحبون من الآمال العراض والمثل العليا ، وتمحو من قلوبهم أثر ما كانوا يحرسون عليه من الثقة بالنفس ، والاطمئنان إلى الناس . قال صاحبي وهو باسم كالعابس : إن شكك المظلم هذا ليغيظني ويحفظني ، وإن إغراقك في طلب الحق ، والتحفظ حين تروى لك أنباء القدماء وأحاديثهم ، تخليق أن يردّ قلبك إلى شيء من القسوة الساخرة ، أو من السخرية القاسية لا أحبه لك ، ثم انجلى العبوس عن وجهه وأشرق الابتسام في ثغره ، وقال : ولست أدري ماذا تنكر من أمر عنبرة ! وما الذي تشك فيه من أنبائه وأخباره ! لقد كان شجاعاً مقداماً ، وأى غرابة في أن يكون رجل من الناس شجاعاً مقداماً

(١) نشرت بمجريدة الجهاد في ٨ مايو سنة ١٩٣٥ .

لقد كان يفعل الأفاعيل ، ويملاً قلوب خصومه فرعاً وربعاً ، ويغير من حوله كل شيء . وأى غرابة في هذا كله أو بعضه ! صدقتى إن العقل الإنسانى يغر نفسه فتغتر ، ويخدع نفسه فتخدع ، وهو مغرور حين يصدق ، وهو مغرور حين يكذب ، وهو مغرور في حالى الشك واليقين جميعاً . وإن بين المعاصرين الذين نلقاهم فنسمع منهم ، ونتحدث إليهم ، ونقص علينا أنباؤهم وآثارهم ، فيما يحيط بهم من الأشياء ، ومن يحيط بهم من الناس ، لقومًا ستنكر الأجيال المقبلة من أمرهم ما تنكره أنت من أمر عنزة ، ولو أنهم عاشوا منذ قرنين أو قرون لأنكرتهم ولشككت فيهم ، كما تنكر عنزة وتشك فيه ، وهل تظن أن الأجيال المقبلة ستصدق ما سيؤثر لها عن عنزة هذا العصر الحديث ! أأنت ترى أنهم سيلقونه بمثل ما تلقى أنت به عنزة العرب الجاهليين من الشك والإنكار ، ومن السخرية والدعابة ، ومن الاستماع لأحاديثه مبتسماً ، وإظهار التصديق لهذه الأحاديث في كثير من الرفق والإشفاق ، وأنت تضمير التكذيب العنيف البغيض ! قلت : ومن عسى أن يكون عنزة هذا العصر الحديث ؟ قال : فأبحث إن كنت لا تعرفه عن أعظم الناس المعاصرين حظاً من البطولة وأحسنهم بلاء ، كلما ألمت ملامة أو ادلمم خطب ، وأشدهم صرماً للناس إلى نفسه وحديثه عن كل شيء ، وعن كل إنسان ، وعن كل حديث ، وأحقهم أن يستقبل بحديثه الليل إذا آن أوان السمر وأراد الناس أن يتخففوا كما تقول من أثقال الحياة ، ويلقوا عن أنفسهم أعباءها ويتسلوا عن آلامها ، باللذيد الطريف من لهُو الحديث . قلت : ما أرى إلا أن يكون وزير التقاليد ، قال : هو هذا ، أفنتظن أن الأجيال المقبلة ستصدق من أخباره ما يذاع ويشاع ، وما تصدقه أنت الآن كل التصديق ؟ أأنت ترى أن وزير التقاليد إذا بعد به العهد ، وطال عليه الزمان فتصيح أسطورة من الأساطير ، وقصة من القصص ، وسينكر الناس من أمره وأحاديثه مثل ما تنكر أنت من أمر عنزة وأحاديثه ! فقد كان القدماء يرون عنرتهم معجبين به مصدقين لأخباره ، كما تعجب أنت بوزير التقاليد وتصدق أخباره ، وتتخذة مثلاً أعلى في كل ما يمكن أن تتخذ فيه المثل العليا ! ثم بعد العهد وطال الزمن ، فذهب القدماء ، وذهب معهم بطلهم العظيم ، وأخذت أنت وأمثالك تشكون فيهم وفيه ، وسيبعد العهد ، وسيطول

الزمن ، وسيخلف خلف من الناس لا ينظرون إلى وزير التقاليد ، إلا كما تنظر أنت إلى عنتره ، ولا يعجبون بوزير التقاليد ، إلا كما تعجب أنت بعنتره ، ولا يصدقون ما يروى لهم عن وزير التقاليد ، إلا كما تصدق أنت ما روى لك عن عنتره ، ومع ذلك فهل تستطيع أن تشك في هذا البلاء الحسن الخالد العظيم الذى أبلاه وزير التقاليد فى الجامعة ، وفى وزارة المعارف ، وفى فروع التعليم ، وفى مدارس الصناعة والزراعة ، وفى معاهد التمثيل ؟ كلا ليس إلى الشك فى هذا البلاء من سبيل الآن ، ولكن سيكون إلى الشك فيه بعد حين ألف سبيل وسبيل .

وأنت تشك فيما يضاف إلى عنتره القديم من الشعر ، وتزعم أن الرواة قد صنعوه صنعا ، وحملوه عليه حملا ، فسيخاف من الناس خلف يشكون فيما يضاف إلى وزير التقاليد من الخطب والمقالات والأحاديث ، ومن يدرى ! لعلمهم يزعمون أن قد كان فى عصر وزير التقاليد من الموظفين الموصولين به والمنقطعين إليه ، من كانوا يصنعون الخطب والمقالات والأحاديث ، ينفقون فيها بياض النهار وسواد الليل ، حتى إذا استقامت له أذاعوها فى الناس ، وحملوها على الرجل حملا ، وهو منها برىء كل البراءة ! ومن يدرى لعلمهم يمارون فيما قد يروى لهم من الشعر الرائع الذى يوصف فيه اللجاج ، وتصور فيه الأرانب ، ويزعمون أن وزير التقاليد لم يعرف أرانب ولا دجاجاً ، ولم يقل فيها شعراً ولا نثراً ، وإنما هو كلام حمل عليه حملا ، وأضيف إليه إضافة ، وذهب به أصحابه مذهب الدعابة والمزاح ؟

لا تسرف فى الشك إذن ، ولا تغل فى المراء ، ولا تستقبل أحاديث عنتره وشعره بهذا الاستخفاف ، فإن لكل عصر عنترته ، والرجل العاقل هو الذى يجتنب الغرور ما استطاع اجتنابه ، ويطرح الشك ما استطاع اطراحه ، ويصدق ما يقوله الناس دون إغراق فى البحث والاستقصاء ، وفى التحقيق والتحصيص ، ومع ذلك فما الذى يعينك من أحاديث عنتره إن صحت أو لم تصح ! وما الذى يعينك من شعر عنتره إن ثبت أو لم يثبت ! ألم تنفق منذ أخذنا فى هذه الأحاديث على أننا لا نلتمس فيها تحقيقاً ولا تمحيصاً ؟ وإنما ندع التحقيق والتحصيص للجامعيين فى جامعتهم ، وملتمس هذا الجمال الفنى الذى يعجب

القلوب ، ويلذ العقول ، ويرد إلى النفوس أملاً بعد بأس ، وابتهاجاً بعد اكتئاب ، ونشاطاً بعد فتور ! فهل تستطيع أن تنكر أن أحاديث عنتره وما يضاف إليه من الشعر مملوءة كلها بهذا الجمال الفنى الذى أرضى الناس وأمتعهم قرونًا طويلاً ، وسيرضيهم ويمتعهم قرونًا طويلاً أخرى ؟ وهؤلاء اليونان الذين فتنت بهم فتوناً ، وجنت بهم جنوناً ، كانوا يعجبون بهوميروس وأبطاله وأحاديثه ، وكانوا يؤمنون بوجود هذا الشاعر ووجود أبطاله ، وصدور أحاديثهم عنهم ، كما صورها في شعره الخالد ، ثم جاء العقل الحديث ، فغير هذا تغييراً ، ورفضه رفضاً ، فهل قلّ من أجل ذلك إعجاب الناس بهوميروس وشعره ، وبأبطال هوميروس وأساطيرهم !

قلت : فلانى لا أفهم فيم كل هذا الحديث الطويل ، ولم أنكر شيئاً ، ولم أمار في شيء ، وإنما دعوتك إلى ما تحب من الحديث ، وأعلنت إليك استعدادى لما ترغب فيه من الاستماع . قال : فلانى لا أحب هذه السخرية ، ولا أرضى منك هذا الترفع الذى يملك على إظهار ما تظهر من عطف وإشفاق على القدماء وأحاديث القدماء ، وعلى المحدثين الذين يصدقون هذه الأحاديث ويطمثنون إليها . قلت : فلانى لا أترفع ولا أظهر عطفًا ولا إشفاقاً ، وإنما أنا مخلص كل الإخلاص فيما أعلن إليك من حبي لعنتره وأحاديثه ، وحرصى على أن أسمع لما ستقص علىّ من هذه الأحاديث ، ولما ستظهر لى من جمال ذلك الشعر الجميل . قال : ومن زعم لك أنى قد استحلقت قصاصاً يتحدث بأحاديث عنتره ، كما يفعل المتحدثون في هذه القهوات الوطنية ! هذه أشياء أحبها وأكلف بها ، ولو استطعت لأنفقت وقى كله في الاستماع لها ، والاختلاف إلى مجالسها ، ولو استطعت لانصرفت عن أكثر هذا الجلد الذى أنفق فيه وقى ، إلى قراءة هذه الكتب التى تقص أنباء عنتره وسيف وأبى زيد ومن يشبههم من الأبطال ، نعم ! هذه أشياء أحبها وأكلف بها ، وأرى فيها المتاع كل المتاع ، ولكن لا أحسنها ، ولا أجيد التحدث بها ، كما يجيده أصحابها ، إنما أحب أن أتحدث ، أو نتحدث إن شئت ، عن هذه القصيدة المطوّلة التى تضاف إلى عنتره وتعدّ بين السبع أو بين العشر المطوّلات ، والتى مهما تنكرها وتشك فيها ، فلن تستطيع أن تنكر أنها قصيدة قديمة ، كان القدماء ينشدونها ، ويتغنون بكثير من

آياتها في القرن الأول للهجرة ، وكان علماءهم يرضون عنها ويعجبون بها .
ويسجلونها بين روائع الشعر العربي القديم في القرن الثاني والثالث للهجرة .
قد لا يكفيك هذا ، ولكنه يكفي ، ويجب أن تكتفى به أنت حين تخرج
من طور المحقق المخصص ، إلى طور الفنان الذي يلتمس المتعة والحمال ،
وأنا أعرف أنك لا تطمئن إلى ما في هذه القصيدة من سهولة ولين ، قلما يوجدان
في الشعر النجدي القديم ، ولكنك تطمئن إلى شعر الحطية وهو من نجد ،
وفي شعره مثل ما في هذه القصيدة من هذه السهولة التي لا تخلو من فخامة ،
ومن هذا اللين الذي لا يبرأ من جزالة ، ولست أدري ما بالك قد وكلت بإنكار
الشعر القديم كلما ظهرت فيه سهولة . أو بدا فيه لين ، مع أنك تريد أن تحجب
إلينا الشعر القديم ، وهل تظن أن شيئاً يستطيع أن يجيب إلينا هذا الشعر ويزينه
في قلوبنا ، ويحملنا على أن نسمعه ونتبعه ونحفظه ونشده ونتغناه ، كما يستطيع
ذلك ما قد يظهر فيه من سهولة ويبدو فيه من لين ؟ إنك تحب قصيدة لبيد ،
وأنا أيضاً أحبها ، ولكنك تستطيع أن تكتب في نقد هذه القصيدة وإطرائها
فصولاً طويلاً دون أن تظفر بتحيبها إلى نفوس الشباب ، لأنها أضخم وأفخم
من هذه النفوس الرقيقة المترفة ، إنما يجب الشباب قصيدة لبيد حين ترجم لهم
ترجمة ، وتفسر لهم تفسيراً ، وتعرض عليهم صورها الشعرية الرائعة في لغتهم
السهلة المألوفة ، فأما قصيدة عنتره هذه فاقراها على الشباب ، فسيفهمون منك
أكثرها ، لا يحتاجون إلى تفسير ، ولا إلى ترجمة ، لأنها واضحة جلية ،
ولأنها سهلة اللفظ ، قريبة المعنى ، ليس بينها وبين نفوسهم حجاب من هذه
الجزالة التي تكاد تبلغ الغرابة ، ومع ذلك فقد ذهب صاحب هذه القصيدة
مذهب غيره من الشعراء القدماء فسار سيرتهم ، واتبع سنتهم ، وذكر الديار
كما ذكروها ، ووصف الناقة كما وصفوها ، وافتخر بالكرم والجود والنجدة ،
كما افتخروا بكل هذه الخلال ، ولكنه أسهل وأيسر ، ولم يعسر ،
وارتفع عن الإسفاف والابتذال ، دون أن يتورط في الغلظة والإغراب ، وانتهى
إلى معان قلما انتهى إلى مثلها غيره من الشعراء ، وما أرى أن ابن سلام قد
أخطأ حين قال : إن هذه القصيدة نادرة فهي نادرة حقاً ، ولست أدري أنتحس
حين تقرأ هذه القصيدة مثل ما أحس ، وتجد مثل ما أجد ! فإني أحس

كأن القصيدة طائفة من الأنغام الموسيقية الكثيرة المختلفة فيما بينها أشد الاختلاف، ولكن فيها نعمة واحدة متصلة منذ تبدأ القصيدة إلى أن تنتهى ، تظهر واضحة حيناً وتحسبها النفس ، وإن لم تسمعها الأذن حيناً آخر . وهذه النعمة التى تكون وحدة هذه القصيدة كما كوّنت الوحدة فى قصيدة لبيد ، هى حديث الشاعر إلى صاحبه ، واستحضار صورتها فى نفسه منذ ابتداء إلى أن انتهى ، ولكن بين هذه النعمة فى قصيدة عنتره وقصيدة لبيد فرقاً واضحاً جداً ، فهى فى قصيدة عنتره حلوة رقيقة ، تمازج النفس فتمترج بها ، لأن عنتره فيما يظهر قد كان حلو النفس ، رقيق القلب ، قوى العاطفة ، جاءه ذلك من أنه عز بعد ذلة ، وتحرّر بعد رق ، فهو قد تألم فى طفولته وصباه ، واحتمل الأذى فى شبابه وأى أذى ! هذا الذل يداخل النفس ، ويختلط بها اختلاطاً ، فيصنئ عواطفها تصفية ، ويلطف مزاجها تلطيفاً ، على حين تجد هذه النعمة من لبيد غليظة بعض الشيء ، لا تخلو من خشونة وجفاء بدوى ، فليبد يتحدث عن صاحبه فى أول القصيدة ، ويذكرها فى أثناء القصيدة ولا ينساها ، ولكنه ليس متهاكاً عليها ، ولا فانياً فيها ، ولا متحرجاً من الإعراض عنها ، وجزاها بمثل ما تجزيه به من المجران والصدء ، فهو يلتقى قطيعة بقطيعة ، ونأياً بنأى ، أما عنتره فيقول لصاحبه :

وَلَقَدْ نَزَلْتُ فَلَا تَظُنِّي غَيْرُهُ
مَنِ بِمَنْزِلَةِ الْمُحَبِّ الْمَكْرَمِ

وفى عنتره تحجب إلى صاحبه ، وتهالك عليها ، وحين متصل إليها ، فهو إذا فخر لا يفخر على صاحبه ، وإنما يفخر لها ، يريد أن يقنعها بأنه خليق أن تحبه وتميل إليه ، وليست رقة عنتره مقصورة على صاحبه ، بل هو رقيق بالقياس إلى عدوه الذى يقتله ويمثل به ، أليس يقول :

فَشَكَّكَ بِالرَّمْحِ الطَّوِيلِ ثِيَابَهُ
لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحْرَمِ

بل هو رقيق على فرسه ، يألم لألمه ، ويشقى لشقائه ، ويرى بكاءه ، ويسمع توجعه حين تعبت به رماح الأعداء ، ويجعل نفسه ترجماناً له ، فيقول :

فَازُورٌ مِنْ وَقَعِ الْقَنَا بِلِبَانِهِ وَشَكَا إِلَى بَعْبِرَةَ وَتَحَمَّحُمُ
لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمَحَاوِرَةُ اشْتَكَى وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ مَكْلَمِي
وفي عنزة معنى الرجولة العربية الكاملة ، فهو رقيق دون أن تنتهي الرقة
به إلى الضعف ، وهو شديد دون أن تنتهي الشدة به إلى العنف ، وهو صاحب
شراب ، دون أن ينتهي به السكر إلى ما يفسد الخلق والاروة ، وهو صاحب
صحو ، دون أن ينتهي به الصحو إلى التقصير عما ينبغي للرجل الكريم من العطاء
والندى ، وهو مقدم إذا كانت الحرب ، وهو عفيف إذا قسمت الغنائم ، وهو
يحاول أن يصف من أخلاقه ما يشرف به الرجل العربي الكريم ، فيذكر هذه
الخصال التي أشرت إليها ، ثم يحس كأنه لم يحظ بخلاله كلها ، وأخلاقه كلها ،
فيقول هذا الشطر الرائع :

• وَكَمَا عَلِمْتَ شَائِلِي وَتَكَرَّمِي •

وكثير جداً من أبيات هذه القصيدة قد ظفر بحظ عظيم من الإيجاز
والامتلاء ، والبراءة من اللغو والفضول ، حتى جرى مجرى الأمثال فأى الناس
لا يتمثل قوله :

وَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعَرِضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ
وَإِذَا صَحَوْتُ قَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدْيِي وَكَمَا عَلِمْتَ شَائِلِي وَتَكَرَّمِي
وَأَيُّ النَّاسِ لَا يَتَمَثَّلُ قَوْلُهُ ؟ :

يُنْبِئُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنَّنِي أَغْشَى الْوَعْيَ وَأَعِيفٌ عِنْدَ الْمُغْنَمِ
وَأَيُّ النَّاسِ لَا يَتَمَثَّلُ قَوْلُهُ :

وَلَقَدْ خَشِيتُ بَأْنَ أَمُوتَ وَلَمْ تَلُرْ لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَيَّ أَبْنَى ضَمَّعٌ
وَأَيُّ النَّاسِ لَا يَتَمَثَّلُ قَوْلُهُ :

الشَّائِمَى عَرِضِي وَلَمْ أَشْتُمَهُمَا وَالنَّاذِرِينَ إِذَا لَمْ الْقَهْمَا دِي
أليس من هذا الشطر الأخير أخذ جميل بيته المشهور :

فَلَيْتَ رَجَالًا فِيكَ قَدْ نَذَرُوا دِي وَهَمُّوا بِقَتْلِي يَا بُثَيْنَ لَقُونِي

وأى الناس لا يتمثل قوله :

إن يفعلاً فلقد تركتُ أباهما جَزَرَ السَّبَاعِ وكلَّ نَسْرِ قَشَعِمٍ
كل هذه القصيدة ، أو أكثر هذه القصيدة ، يجرى مجرى المثل ،
وينشد على اختلاف العصور والبيئات والظروف ، فلا يملّ إنشاده ، ولا
تحسنّ النفس نبواً عنه أو نفوراً منه ، وإنما تحس كأنها تجرى فيه ، وكأن
هذا الشعر مرآة صافية صادقة لكل نفس كريمة ، ولكل قلب ذكى ، ولكل
خلاق نقي . تستطيع أن تقرأ القصيدة من أولها إلى آخرها ، فستجد فيها هذا
المعنى الذى أشرت إليه ، لا فرق في ذلك بين غزل ووصف ، وفخر ووعيد .
ولا أكاد أستثنى إلا هذه الأبيات القليلة التى ذكر الشاعر فيها ناقته ، ومع
ذلك ، فإن هذه الأبيات إن لم تجر مجرى الأمثال ، وإذا كانت كغيرها
كما قال الشعراء فى وصف الإبل ، فإنها لا تخلو من شيء طريف . انظر إلى
هذا البيت الذى يشبه فيه الظلم وقد تبعته النعام بالعبد الأسود وقد ثابت إليه
الإبل ، وانظر إلى هذا التعبير الطريف عن العبد الأسود الذى لا يحسن الإعراب
عما يريد :

تأروى له قُلُوصُ النعامِ كما أوتَ حَزَقُ يَمَانِيَةٍ لِأَعْجَمٍ طِمْطِمٍ

وهل يمكن أن أهمل هذه الأبيات التى كان القدماء يحبونها ويعجبون بها
أشد الإعجاب ، وهى هذه التى يصف فيها ثغر صاحبه بالجمال وطيب النثر ،
فيذكر فأرة المسك ، ويذكر الروضة الأنف التى ألحّ عليها الغيث حتى زكا نبتها ،
وحتى كثر فيها الذباب مبهجاً نشوان ، متغنياً بما يجنى من طيباتها :

وَكأن فَاؤُهُ تاجِرٍ بِقَسِيمَةٍ سَبَقَتْ عَوَارِضُهَا إِلَيْكَ مِنَ الْقَمَرِ
أَوْ رَوْضَةٍ أَنْفًا تَضْمَنَ نَبْتَهَا غَيْثٌ قَلِيلُ الدَّمَنِ لَيْسَ بِمُعْلَمٍ
جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ بِكْرٍ حُرَّةٍ فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدَّرْهِمِ
سَحًا وَتَسْكَابًا فَكُلَّ عَشِيَّةٍ يَجْرِي عَلَيْهَا الْمَاءُ لَمْ تَنْصَرِّمْ
وَخَلَا الذَّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ غَرْدًا كَفِعْلِ الشَّارِبِ الْمُتَرْنَمِ
هَزِجًا يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بِلِرَاعِهِ قَدَحَ الْمُكَبِّ عَلَى الزِنَادِ الْأَجْدَمِ

وانظر معى إلى هذه الأبيات الأربعة ، فليست أعرف أبلغ منها فى تصوير الحنين والحب واليأس معاً :

حَيْبَتَ مَنْ طَلَّلِ تَقَادِمَ عَهْدِهِ أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ
 حَلَّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فَأَصْبَحَتْ عَسِيراً عَلَى طِلَابِكِ ابْنَةَ مَخْرَمِ-
 عَلِقَتْهَا عَرَضاً وَأَقْتُلُ قَوْمَهَا زَعَمًا لَعَمْرُؤُا بَيْتِكَ لَيْسَ بِمَزْعَمِ
 وَلَقَدْ نَزَلَتْ فَلَا تَنْظُنِّي غَيْرَهُ مِنَى بِمَنْزِلَةِ الْمُحَبِّ الْمَكْرَمِ-

كل القصيدة جيدة ، وكل أبياتها خليق أن نطيل الوقوف عنده ، والتفكير فيه ، والإعجاب به . قلت : فىنى لا أنكر عليك من هذا شيئاً ، ولكنى لم أفهم لإحمامك لوزير التقاليد فى هذا الحديث . قال : فىنى يا سيدى رأيتك فاتراً عن حديث عنرة القديم ، فأردت أن أثير فىك النشاط بذكر عنرة الحديث .

ساعة مع سويد بن أبي كاهل^(١)

قلت لصاحبي وهو يتبأ لقراءة إحدى المطولات المعروفة : أرح نفسك وأرخني اليوم من هذه المطولات ، فقد أكثرنا القول فيها ، وتعال نقرأ مطولة أخرى ، ليست شائعة ولا ذائعة في هذه الأيام ، وإن أذاعتها المطبعة في غير كتاب ، وإن كانت في العصر القديم شائعة ذائعة يجربها العرب ، ويكلفون بها ، ويتمثل الخطباء المحيرون بأبياتها ، ويحرص الرواة على روايتها ، ويؤثرونها على كثير من الشعر ، ويزعمون أن العرب كانت تسميها اليتيمة . قال صاحبي : وما عسى أن تكون هذه القصيدة ؟ قلت : هي عينية سويد بن أبي كاهل ، وهو كما تعلم شاعر جاهلي أدرك الإسلام وعمّر فيه غير قليل ، وجهل الرواة أكثر أمره ، ولم يعرفوا عنه إلا أنه كان مختلط النسب ، ينتسب في ربيعة حيناً ، وفي مضر حيناً آخر . وقد اجتهد الرواة في تعليل هذا الاختلاط ، فزعموا أنه ولد في قيس من مضر ، ثم تزوجت أمه أثناء طفولته رجلاً من ربيعة فانتسب إليه وإلى قبيلته .

والشاعر على كل حال يمدح الربيعين في قصيدته هذه التي سنقرؤها ، ويهجوهم ويمدح المضربين في قصيدة أخرى ، أو في قصائد أخرى .

ويحدثنا الرواة أن هذا الشاعر كان هجاءً فاحش اللسان ، وأن أميراً من أمراء الكوفة حبسه في الهجاء فأطال حبسه ، ولم يخرج من السجن إلا جماعة من عبس ، وهي قبيلة قيسية مصرية كما تعلم ، وإنما أعانته هذه القبيلة لما أهدى إليها من المدح والثناء ، فهي قد عرفت له يده عندها . ولا يكاد الرواة يعرفون بعد هذا من أمر الشاعر شيئاً إلا أن شعره كان يجري مجرى المثل على السنة الخطباء والأمراء والشعراء ، فقد تمثل به عبد الله بن الزبير ، وتمثل به الحجاج ، وتمثل به الفرزدق أيضاً ، وتمثل به غير هؤلاء من أعلام الناس . وكان الأصمعي - فيما روى أبو الفرج - يعجب بعينته هذه إعجاباً شديداً ؛

(١) نشرت بجريدة الجهاد في ١٥ مايو سنة ١٩٣٥ .

وكان ابن سلام يزعم أن له شعراً كثيراً ، ولكن هذه العينية امتازت منه وبرزت عليه ، ثم حاول ابن سلام أن يروى له شيئاً من هذا الشعر الكثير فلم يزد على بيت واحد . وروى أبو الفرج له أبياتاً متفرقة من قصائد مختلفة ؛ ولم يرو له ابن قتيبة حين أراد أن يترجم له إلا أبياتاً من هذه العينية الرائعة .

وأظننى قد ألمت بأكثر ما عرفه القدماء من أمر هذا الرجل ، فهم كما ترى لم يعرفوا منه إلا هذه القصيدة ، وهى خليفة أن تعرف وتحفظ حقاً ، ولست أدرى كيف لم ترو بين هذه المطولات التى كثر فيها الكلام وانتشرت حولها الأساطير ، ولكن فى الشعر القديم قصائد أخرى جيداً ليست أقل جودة ولا روعة من هذه المطولات السبع أو العشر ، وهى مع ذلك لم تظفر بمثل ما ظفرت به المطولات من العناية وكثرة الذكر والرواية ، وليس عبث الحظ مقصوراً على الناس ، فهو ينال الأشياء أيضاً ، وهو ينال الشعر والنثر فيما ينال .

وأظنك ستوافقنى على أن هذه المطولة البديعة من أروع الشعر العربى وأرقاه ، ومن أعذبه وأحسنه موقعاً فى السمع ومسلكاً إلى النفس ، وإذا كان شعر صاحبها قد ضاع ، فإنها تكاد تغنى عما ضاع من شعره ، لأنها تصور مذهبه فى الشعر ، وحظه من إجادته تصويراً قوياً واضحاً . ذلك لأنها جمعت ألواناً من فنون الشعر التى كان يطرقها القدماء ، وأكبر الظن أنها جمعت فنون الشعر التى كان يطرقها سويد نفسه ، وفى القصيدة غزل طويل مكرر ، وفى القصيدة وصف ، وفيها فخر بقومه ، وفيها فخر بنفسه ، وفيها بعد ذلك هجاء لخصومه و منافسيه ، وما أظنه طرق فناً آخر غير هذه الفنون ، إلا أن يكون المدح الذى يقنى عنه الفخر أحسن الغناء .

وشاعرنا كما سترى قوى الحسّ جداً ، دقيق الشعور جداً ، وهو كذلك مالك لأمر الشعر ، يصرّفه كما يجب ، لا ييحد فى تصريفه مشقة ولا جهداً .

وإذا جاز أن نتخذ قصيدته هذه نموذجاً لشعره الذى ذهب عنا ، فقد كان الشاعر مطيلاً ، لأن قصيدته هذه قد نيفت على المائة ، وقد كان الشاعر سهل اللفظ فى غير إسفاف ولا ابتدال ، وقد كان الشاعر لا يتحرج من اصطناع الكلمات التى تغرب بعض الشيء ، إذا أطال القصيدة ، أو دفعته القافية إلى

شيء من البحث والتفتيش عن الألفاظ .

وسترى حين تقرأ القصيدة أن الشاعر كان يحسن بناء قصيدته ، فلا يضطرب فيها ، ولا يختلط عليه الأمر ، وإنما يتصور الأغراض التي يريد أن يقول فيها الشعر ، ثم يلائم بينها ملاءمة حسنة ، ثم يتمثل قصيدته كما يتمثل المهندس صور البناء الذي يريد أن يقيمه ، ثم يندفع في إنشاد القصيدة فلا يكف حتى يتم ما كان يريد أن يقول :

وهو في هذه القصيدة يقصد إلى غرضين واضحين ، فأما أولهما فهو الفخر بقومه من بني بكر بن وائل ، وأما الآخر فهو الفخر بنفسه خاصة ، ومهاجمة الذين كانوا يعيبونه ويريدونه بالسوء ، ولكنه لا يسرع إلى هذين الغرضين لإسراعاً ، وإنما يسعى إليهما متمهلاً ، كأنه مالك لوقته كله لا يدفعه دافع ، ولا يعجله معجل ، إنما هو يسعى متروّضاً متمزهاً في جنات الشعر ، يتغنى بما يثور في نفسه من العواطف والأهواء والخواطر . والغزل أول شيء يثور في نفسه ، فهو يتغزل ويظيل في غزله ، حتى إذا شفى نفسه من ذكر صاحبتة ، شخصها أولاً ، وخيالها بعد ذلك ، انتقل من الغزل إلى الوصف ، فوصف البيداء ، ووصف السراب ، ووصف الخيل التي يقطع بها البيداء ، ثم انتهى إلى قومه فوصفهم وفخر بهم ، مستأنياً مجوداً ، حتى إذا بلغ حاجته من الفخر بقومه ، لم يثب إلى الفخر بنفسه وثوباً ، ولم يندفع إليه اندفاعاً ، وإنما تمهل واستأنى ، واستأنف الشعر من جديد ، كأنه يريد أن يقول قصيدة أخرى غير قصيدته الأولى ؛ فهو يصرّح كما تعود الشعراء التصريح في المطالع ، وهو يستأنف الغزل بصاحبتة مرة أخرى ، فإذا آتم حظه من الغزل ، استأنف الوصف ، فوصف ناقته ، واتخذ وصفها سبيلاً إلى وصف الصيد وكلابه ، وسهام الرماة ، وما يكون بين الثور الذي يشبهه به ناقته وبين الكلاب من طراد ، فيه فزع ومكر ، وفيه كيد وإقدام ، وفيه ثقة بالنفس وإشفاق من الخصم . ثم يفرغ من هذا كله لما أراد إليه من الفخر بنفسه ، وإحصاء ما يستطيع إحصاءه من مفاخره ومآثره ، ثم ينحى على عدوه ومنافسيه فيهاجمهم أشد مهاجمة ، ويأخذهم أخذاً عنيفاً ، ثم يختم قصيدته بهذا البيت ، الذي يملؤه بما شاء من التحدى والتصدى ، والمخاصمة والمقاومة ، وانتظار من يجرؤ على لقائه ومناهضته بقول أو عمل :

هَلْ سُوَيْدٌ غَيْرُ لَيْثٍ خَادِرٍ تَعَدَّتْ أَرْضٌ عَلَيْهِ فَاثْتَجَعَ

قال صاحبي : ما رأيت كالليوم ناقداً يأخذ الشعر من آخره ، ويبدأ القصيدة من حيث انتهت . قلت : لا تعجل وإنما أردت أن أقيم بين يديك هذه الصورة التي أقامها الشاعر لنفسه ، وجعلها آخر قصيدته ، كأنما أراد أن تبقى في نفس الذين يسمعونهم ويقرعونهم ، فلا يقع في نفوسهم منه إلا هذا التأثير القوي ، تأثير الليث العزيز الأبى ، الذي يستقر إلا أن يببجه هائج ، والذي يطمئن في الأرض ما اطمأنت به الأرض ، فإذا ضاقت به ، أو فسدت عليه ، أو سيم فيها ما لا يجب ، تحول عنها إلى أرض أخرى ملائمة له لا يلقى فيها شراً ، ولا يسام فيها ضيماً . وإذا كنت متعجلاً إلى قراءة القصيدة من أولها ، فانظر معي إلى هذا الغزل ، واقراً معي هذه الأبيات ، واعجب معي بما ستجد فيها من سداجة حلوة ، قد اتخذها الشاعر وسيلة إلى وصف أشياء قد أكثر الشعراء من وصفها ، فحببها إليك ، ونفى عن نفسك ما قد يعترها من الملل ، إذ نظرت في أشياء طالما عرضت عليها :

بَسَطْتُ رَابِعَةَ الْحَبْلِ لَنَا فَوَصَلْنَا الْحَبْلَ مِنْهَا مَا اتَّسَعَ

فهو لا يشكو من صاحبه شيئاً ، لا يضييق بها لأنها لم تضيق به ، ولا يتزور عنها لأنها لم تزور عنه ، وإنما وصلته فوصلها ، وآثرته فأثرها ، وصفا لهما العيش ما استقامت لهما الحياة . فإذا كان هناك فراق آذاه ، ونأى أضناه ، فصاحبه لم ترغب في فراق ، ولم تعتمد إلى النأى ، وإنما هي خطوط الأيام ، وصروف الأحداث . ولكن انظر إلى هذا المطلع كيف ذهب فيه مذهب المثل ، ومذهب المثل البلوى الساذج القريب ؟ فشبّه ما يكون بين الحبيبين المتواصلين في مودة وإسماح ، بالحبل قد أخذ بطرفيه شخصان لا خصومة بينهما ولا مقاومة ولا مشادة ، وإنما هي السباحة واللين ، ثم انظر إليه كيف يصف صاحبه فيقول :

حُرَّةٌ تَجَلُّوْ شَيْتِيئاً وَاضِحاً كَشُعَاعِ الشَّمْسِ فِي الْغَيْمِ سَطَعَ

ويعجبنى من هذا البلوى تشبيه ما يكون من صفاء الثغر النقي الواضح الناصع بين الشفتين بشعاع الشمس حين يظهر أثناء الغيم . وليس أدل على بدادة هذا الشاعر وبعده عن تكلف المترفين ، من هذا البيت الذي يأتي بعد

ذلك ، والذي يصور صاحبه معنية بأسنانها ، تصقلها وتجلوها بالسواك الناعم
الناضر حتى يظهر ناصعاً تقيماً :

صَقَلْتُهُ بِقَضِيبٍ نَاضِرٍ مِنْ أَرَائِكِ طَيِّبٍ حَتَّى نَصَعُ
أَبْيَضَ اللَّوْنِ لَدِيداً طَعْمُهُ طَيِّبَ الرِّيقِ إِذَا الرِّيقُ خَدَعُ

وانظر إلى قوله : « إذا الريق خدع » فهو أيضاً يصور سداجة الشاعر
ويداوته ، وبعده عن تكلف المترفين ، فصاحبه معنية بالنظافة لا تهمل ثغرها ،
فهى لا ينسد فيها إذا فسدت الأفواه ، ولا يتغير ريقها إذا تغير الريق . وواضح
أن هذا كلام لا يقوله المترفون ، وإنما يهملونه ويتجافون عنه ، ولكن صاحبنا
بلوى يصور بيئة بلوية ، ثم انظر إليه كيف أراد أن يصف صورتها ؛ فلم يصفها
مباشرة ، وإنما عكسها في المرأة ، وزعم أن صاحبه تمنحها للمرأة منحاً ، فقال :

تَمَنَحُ الْمِرْأَةَ وَجْهًا وَاصِحًا مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي الصَّخْوِ أَرْتَفَعُ
صَافِيَ اللَّوْنِ ، وَطَرَفًا سَاجِيًا أَحْمَلَ الْعَيْنَيْنِ مَا فِيهِ قَمَعُ
وَقَرُونًا سَابِغًا أَطْرَافَهَا غَلَّتْهَا رِيحٌ مِسْكٍ ذِي فَنَعُ

وهذا كله شعر جميل ، ولكنه مألوف تحبه النفس ، وتستطرفه لسداجته
وجمال لفظه لا لشيء آخر . فانظر بعد ذلك إلى هذه الأبيات التي يتحدث
فيها عن الخيال :

هَيَّجَ الشُّوقُ خِيَالَ زَائِرٍ مِنْ حَبِيبٍ خَفِيرٍ فِيهِ قَدَعُ
ولا تخفك كلمة « القدع » هذه فعناها الحياء ، وأحسب القافية هي التي
دعها فجاءت غير مستكرهة ، ولا نائية بالبيت :

شَاحِطٌ . حَازَ إِلَى أَرْحَلِنَا عُصَبُ الْغَابِ طَرُوقًا لَمْ يُرَعُ

فهذا الخيال الذى فيه خفر وحياء ، لم يمنعه خفره وحياؤه أن يجتاز الآماد
البعيدة ، وأن يقتحم عصب الغاب فى غير خوف ولا روع ليزور الشاعر ؛
وإذن فكلمة « القدع » هنا لها معناها وقيمتها .

أَنَسُ كَانَ إِذَا مَا أَعْتَادَنِي حَالَ دُونَ النَّوْمِ مِنِّي فَاَمْتَنَعُ

وفي الشطر الثاني لهذا البيت أصل المعنى الذى جود فيه بشار في بيته المشهور :

لَمْ يَطُلْ لَيْلِي وَلَكِنْ لَمْ أَنْمَ وَنَفَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفُ أَلَمٍ
وظاهر جداً أن بشاراً قد زاد في هذا المعنى ، ولكن زيادته ليست مبتكرة ابتكاراً ، وإنما هي موجودة بالقوة - كما يقول الفلاسفة - في الأبيات التي ستقرؤها ، والتي يصف فيها الشاعر طول الليل ، وتناقله وإبطاءه في الحركة ، ورجوعه كلما ظن الشاعر أنه قد انقضى ! ذلك أن شاعرنا إنما يصف طول الليل ويلج فيه ، بعد أن ذكر الأرق الذى دفعه إليه إلام الخيال به دفعاً ، فالطول إذن ليس محققاً في نفسه ، وإنما هو يأتي من أرق الشاعر ، وعجزه عن النوم ، وضيقه بالليل ! فالليل في حقيقة الأمر لم يطل ، وإنما أرق الشاعر فاستطاله واستقله ، وهو المعنى الذى قصد إليه بشار ، بعقله الفلسفى المتحضر ، وبصيرته النافذة ، وبراعته في الإيجاز . ولكن انظر معى إلى هذا البيت ، فستعجب بصدوره عن هذا البدوى :

وَكَذَلِكَ الْحُبُّ مَا أَشْجَعَهُ يَرْكَبُ الْهُولَ وَيَعْصِي مَنْ وَزَعُ

ألست ترى في إضافة الشجاعة إلى الحب ، وفي وصف الحب بركوب الهول ، وعصيان الوازع ، تعليلاً رائعاً جميلاً ، لإقدام الخيال على هذه الزيارة البعيدة المخوفة ، مع ما فيه من الخفر والحياء ! وكان الحق أن يتقدم هذا البيت فيأتى قبل البيت الذى سبقه ، وأكبر الظن أن الشاعر قد وضعه هذا الموضع ولم يتأخر إلا في أفواه الرواة .

وانظر بعد ذلك وصفه لطول الليل :

فَأَبَيْتُ اللَّيْلَ مَا أَرْقَدُهُ وَبِعَيْنِي إِذَا النَّجْمُ طَلَعُ
وَإِذَا مَا قَلْتُ لَيْلٍ قَدْ مَضَى عَطَفَ الْأَوَّلُ مِنْهُ فَرَجَعُ
يَسْحَبُ اللَّيْلُ نُجُومًا ظُلْمًا فَتَوَالِيهَا بَطِيئَاتُ التَّبَعِ
وَيُزْجِيهَا عَلَى إِبْطَائِهَا مَغْرَبُ اللَّوْنِ إِذَا اللَّوْنُ أَنْقَشَعُ

وأنا معجب جداً بقول الشاعر « وبعيني إذا النجم طلع » وإن كان بعض

الرواة يغير هذه الرواية فيفسد البيت فيما أظن حين ينشد « ويعنيني إذا النجم طلع » .

ولكن ما ترى في هذه الصورة التي يعرضها الشاعر عليك ، فيزعم لك أن الليل قد طال وطال ، حتى كأن كل قطعة منه إذا مضت في طريقها أمداً ، عادت إلى حيث كانت ، واستأنفت طريقها مرة أخرى ؟ وما ترى في هذه الصورة الثانية التي يعرضها عليك ، فيزعم لك أن الليل يقود النجوم ، وأن هذه النجوم تمشي متناقلة مبطنة ، كأنما أدركها الظلغ الذي يدرك الإبل فيعوقها عن المشي السريع ، المستقيم وهي مبطنة ، وتواليها مبطنة أيضاً ، ومن ورائها الصبح يحدها ، دون أن يستطيع أن يدفعها أمامه دفعاً سريعاً ، كما أن الليل يقودها دون أن يستطيع أن يحملها على أن تسرع من ورائه . فهي بليدة على قائدها ، وهي بليدة على سائقها ! أما أنا فأرى في هذا شعراً جميلاً رائعاً ، وأنا أعلم أن الشعراء قد أكثروا في هذا المعنى ، ولكني أحب سداجة الشاعر في تصويره وهدهوته ، وبعده عن التكلف في عرضه ، وأحب هذه الحياة التي يبعثها الشاعر في الليل والصبح ، والنجوم بين الليل والصبح ، بل أحب هذا التشخيص الذي يحمل الشاعر على أن يجعل الليل قائداً ، والصبح سائقاً ، والنجوم إبلا تقاد وتساق .

ويعضى الشاعر في تصوير حبه لصاحبه ، وفي تصوير ما لحديثها من جمال ، وفي تصوير هذا السحر الذي اختبله وملك عليه أمره ، حتى ينتهي إلى وصف الطريق والخيل فيقول :

وَفَلَاةٌ وَاضِحٌ أَقْرَابُهَا بَالِيَاتٌ مِثْلُ مُرْفَتِ الْقَرْعِ

ولا ترعك هذه الألفاظ التي تظهر غريبة ، فالمعنى الذي قصد إليه الشاعر واضح جميل ، فهو يريد أن هذه الفلاة على بعدها واضحة النواحي ، بالية قد تفرقت أعلامها ، كما يتفرق الشعر في الرأس الأصلع ، أو كما يتفرق الغيم الضئيل في السماء :

يَسْبَحُ الْآلُ عَلَى أَعْلَامِهَا وَعَلَى الْبَيْدِ إِذَا الْيَوْمُ مَنَعٌ

فَرَكِينَانَا عَلَى مَجْهُولِهَا بِصِلَابِ الْأَرْضِ فِيهِنَّ شَجَعٌ

ثم بمضى في وصف الخيل ، حتى ينتهي إلى هذا التشبيه الجميل ، الذي

يصور فيه الخيل وهي مسرعة كأنها القطا تنصب من الجو إلى الماء لتحسوه :
 يدرعن الليل يهوين بنا كهوى الكندر صبخن الشرع
 ثم ينتهي بعد ذلك إلى قومه بنى بكر ، فانظر إليه كيف يصفهم فيجيد :
 لبني بكرٍ بها مملكة منظرٍ فيهم وفيهم مستمع
 بسط الأيدي إذا ما شئلوا نفع النائل إن شيء نفع
 من أناس ليس من أخلاقهم عاجل الفحش ولا شؤم الجزع
 وهو يمضي في هذا الفخر بقومه ، كأحسن ما تعود الشعراء أن يمضوا ،
 فيصفهم بالشجاعة والإباء ، وبالكرم والجد ، في أحسن لفظ وأمتة ، وفي
 أجمل أسلوب وأرصنه ، حتى إذا شئ نفسه من ذلك ، استأنف شعره وابتدأ
 الغزل من جديد فقال :

أرق العين خيال لم يدع من سلمي ففؤدي منتزع
 حل أهلي حيث لا أطلبها جانب الحضر وحلت بالفرع
 لا ألقبها وقلبي عندها غير إمام إذا الطرف هجع
 ثم يمضي في هذا الغزل الجميل الهادي ، الذي يصور شوقاً حزيناً هادئاً ،
 حتى ينتهي إلى الوصف ، فيشبه ناقته بشور يسبح في الآل ، وقد أوجس خيفة
 لأنه أحس نبأه من صائد ، وأحس كلاب الصيد ، فهو يعدو غير جاد
 في العدو لأنه واثق بنفسه ، مقلد أنه سيسبق الكلاب وإن لم يسرف في العدو .
 والكلاب على جشعها تعلق في أثره ، متناقلة بعض الشيء لأنها تخاف أن
 يكر عليها فيصيبها بقرنيه ، ويسفك من دماها غير قليل ، فهي تسعى غير
 متبالكة ، وهو يعدو غير مسرف ، حتى إذا أحس قربها منه جد في العدو ،
 ثم ينتهي من هذا الوصف إلى استئناف الفخر بقومه وبنفسه ، وانظر إلى هذه
 الأبيات الحسان :

كَبَّ الرَّحْمَنُ وَالْحَمْدُ لَهُ سَعَةَ الْأَخْلَاقِ فِينَا وَالضَّلَعُ
 وَإِبَاءٌ لِلدَّنِيَّاتِ إِذَا أُعْطِيَ الْمَكْتُورُ ضَيْمًا فَكَنَعُ
 وَبِنَاءٌ لِلْمَعَالِي إِنَّمَا يَرْفَعُ اللَّهُ وَمِنْ شَاءَ وَضَعُ .

لا يُرِيدُ الدَّهْرَ عَنْهَا حَوْلًا جُرْعَ المَوْتِ وَلِلمَوْتِ جُرْعٌ
نِعْمُ اللهُ فِينَا رَبُّهَا وَصَنِيْعُ اللهِ وَاللهُ صَنَعٌ
كَيْفَ بِاسْتِقْرَارِ حُرِّ شَاحِطِ بِيْلَادٍ لَيْسَ فِيهَا مُتَسَمِعٌ

نعم كيف باستقرار حرّ شاحط ببلاد ليس فيها متسمع ، ولا سبياً حين يكثر
من حولك الأعداء ، وتنتشر الحصومات ، ويسعى بك الساعون ، ويكيد لك
الكائدون ! وما أعرف شعراً أجمل ولا أروع ، ولا أبلغ في تصوير الرجل الشجاع
ذى القلب الذكي ، والنفس الأبية ، يصبر للعدو ، ويتحداه غير حافل به ،
ولا آبه له ، من هذه الأبيات التي تمثل بها الحجاج ذات يوم :

رَبٌّ مَنْ أَنْصَجَتْ غَيْظًا قَلْبُهُ قَدْ تَمَنَّى لِي مَوْتًا لَمْ يُطْعَمْ
وَيَرَانِي كَالشَّجَا فِي حَلْقِهِ عَسِرًا مَخْرَجُهُ مَا يُنْتَزَعُ
مُزِيدٌ يَخْطِرُ مَا لَمْ يَرِنِّي فَإِذَا أَسْمَعْتُهُ صَوْتِي أَنْقَمَ
بِشْمَا يَجْمَعُ أَنْ يَغْتَابِنِي مَطْعَمٌ وَخَمٌّ وَدَاءٌ يُدْرَعُ
وَيُحْيِينِي إِذَا لَاقَيْتُهُ وَإِذَا يَخْلُوا لَهُ لَحْمِي رَتَعُ

ثم يمضي في هذا الفخر الجميل بنفسه ، وفي هذا الوصف الرائع لعدوه ،
حتى ينتهي إلى هذه الأبيات ، التي يصور فيها انهزام خصمه له ، وقد أعيته
الحجة ، وعجز عن الحصام فيقول :

فَرَّ مِنِّي حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ مَوْقَرُ الظَّهْرِ ذَلِيلُ الْمُتَضَعِ
وَرَأَى مِنِّي مَقَامًا صَادِقًا ثَابِتَ المَوْطِنِ كَتَامِ الوجعِ
وَلِسَانًا صَيْرَفِيَا صَارِمًا كَحُسَامِ السَّيْفِ مَا مَسَّ قَطْعَ

وعلى هذا النحو الجزل السهل الرصين الرائع يمضي الشاعر ، حتى يتم قصيدته
بذلك البيت الذي تملؤه الهيبة والروعة ، والذي ابتدأت به هذا التحليل .

وأحسب أن هذه القصيدة ليست قصيدة واحدة ، وإنما هي تأتلف من
قصيدتين ، قيلت أولاهما في الجاهلية ، وقيلت أخراهما في الإسلام ، أو هي
قصيدة واحدة بدئت في الجاهلية ، ثم أضاف إليها الشاعر في الإسلام هذه

الآيات التي يكثر فيها ذكر الله والتحدث بنعمته ، وتصور فيها الغيبة على نحو ما صورت في القرآن الكريم .

قال صاحبي : مهلا ، لا تدفع نفسك إلى هذا النحو من التحقيق ، فليس يعنى منه شيء . ولكن ألت ترى أن هذه القصيدة خليقة أن يرويها الشبان ، ويؤدبون بها تأديباً ؟ ففيها يجدون الرجولة الكاملة ، والمروءة التي تعلمهم كيف يثبتون للأيام ، ويحتملون المكروه ، ويلقون عدااء العدو ، وكيد الكائدين .

قلت : وما يمنع أن يرويها الشبان ، وأن تفسر لهم ، وأن يؤخذوا بحفظها وفهمها ! فهي أيسر عليهم ، وأدنى إليهم ، من كثير مما يحفظون ويدرسون .

ساعة مع المثقب العبدى^(١)

قال صاحبي: وهو يضحك حين ذكرت له هذا الشاعر : ومن يكون هذا المثقب العبدى ؟ إنك لتبحث لى عن النكرات ، وتقف بى عند شعراء لم أسمع بهم ، أو لا أكاد أعرف من أمرهم شيئاً . قلت متضحكاً : لا تقل هذا ، فإن المثقب شاعر معروف ، كان القدماء يذكرونه ويروون شعره ، ويعجبون به أشد الإعجاب ، روى له المفضل الضبي ثلاث قصائد ، وحفظ الرواة له ديواناً كاملاً ، ولكنهم مع ذلك كانوا مثلك ومثلى ، لا يعرفون من أمره شيئاً ، أستغفر الله ! بل كانوا يعرفون لقبه هذا ويفسرونه بيت من الشعر ، كما فسروا لقب النابغة ، وكانوا يختلفون فى اسمه ، فيسميه بعضهم محصن ، ويسميه بعضهم عائذ بن محصن ، ويسميه بعضهم عائذ الله بن محصن ، وكانوا يحفظون له نسباً فى عبد القيس من قبائل ربيعة التى كانت تسكن البحرين ، وكانوا يتحدثون أنه اتصل بعمر بن هند ومدحه ، وأنه مدح النعمان بن المنذر ، وأظن أنهم لم يكونوا يعرفون من أمره أكثر من هذا ، وهو كما ترى قليل ، أو هو كما ترى ليس شيئاً : وكانوا يقولون إنه مات فى الجاهلية ، ولم يدرك الإسلام ، والمشغوفون بالتوقيت والتحديد يزعمون أنه مات سنة سبع وثمانين وخمسمائة للمسيح . ولعلك توافقنى على أن التحديد لا يخلو من إسراف سخيف .

ومع هذا كله فلست أكره أن تقضى ساعة مع هذا الشاعر الذى نجهله أو نكاد نجهله ، أو قل لا أكره أن تقضى ساعة مع هذا الصدى الضئيل المتصل الذى يتردد فى أثناء الزمن لشاعر قد نسيه الزمن ، أو كاد ينساه ، فى التحدث إلى الصدى ، وفى إطالة الوقوف عنده ، والاستماع له ، شعر لا أدرى أتلقوه أم لا أتلقوه ، ولكنى أراه جميلاً ، شديد التأثير فى النفوس ، يثير كثيراً من الخواطر الشاحبة الحزينة ، التى لا تخلو من أن تثير للذات شاحبة حزينة مثلها ، وما رأيتك فى صوت تحمله القرون الطوال حتى تنتهى به إليك ، وحتى

(١) نشرت بجمريدة الجهاد فى ٢٢ مايو سنة ١٩٢٥ .

تنتهى به إلى مَنْ بعديك من الأجيال ؟ وأنت تسمع الصوت وتبين جرسه ونغمه ،
وتتبعه مترجماً مع هذه القرون ، حتى إذا انتهيت إلى آخرها أو إلى أولها ،
لا تجد شخصاً بيناً ، وإنما وجدت شخصاً شائعاً ، أو لم تجد إلا هذا الصوت
نفسه ، يتردد في الصحراء ، أو يتردد على ساحل الخليج الفارسي ، فقد كانت
قبيلة هذا الرجل تضطرب في هذه الناحية من بلاد العرب .

ويعجبني الشعر الذي لا تستطيع أن تنتهي به إلى شاعر معروف واضح
الحصا ل بين الشخصية ، يعجبني لأن فيه عظمة تأتيه من هذا القدم الذي يمتد
علينا مصدره إخفاء ، ويخيل إلينا أنه صوت الصحراء ، أو صوت الساحل ،
أو صوت جيل بأسره من أجيال الناس ، كان قوياً ملحاً ، فطبع نفسه على
الزمن ، وفرض نفسه على ذاكرة الأجيال فرضاً .

يعجبني أن أقف عند هذا الشعر الذي بقي وثبت ، وأكره الرواة على روايته ،
والشراح على شرحه وتفسيره ، وأتاح للغويين وأصحاب النحو أن يستنبطوا منه
كلمات كانوا يجهلون ، ومذاهب في النحو لعلمهم لم يكونوا ليهتدوا إليها ، لو لم
ينقل لهم الزمن هذا الصدى الضئيل النحيل المتصل الملح . ويعجبني أن يذهب
الخيال مذاهب مختلفة في تصوير هذا الشاعر ، وما كان يحيط به من الظروف ،
وما كان يعرض له من الأحداث ، وما كان يدفعه إلى قول هذه القصيدة أو تلك
دون أن يستطيع الخيال أن يقف عند مذهب من المذاهب ، أو ينتهي عند
غاية من الغايات . وأمثال المثقب بين قدماء الشعراء من العرب كثيرون ، لم يكن
القدماء يخلون بشخصياتهم الضائعة ، وإنما كانوا يرضون كل الرضا إذا ظفروا
من آثارهم بشيء قليل أو كثير ، ولم يكن القدماء يشكون في وجودهم ، أو ينكرون
شخصياتهم ، كما يفعل العلماء المحدثون في هذه الأيام بالقياس إلى كثير من
الشعراء القدماء عند العرب أو غير العرب من الشعوب ، وإنما كانوا يطمثنون
إلى ما يروى لهم وينقل إليهم ، فكانوا يريجون ويستريجون . وسرى حين تقرأ
شيئاً من شعر هذا المثقب العبدى ، أن صوته ليس ثقيلًا ولا بغيضاً ، وأنه مهما
يكن شخصه ، سواء أكان شاعراً جاهلياً من عبد القيس أو من غير عبد القيس ،
أم كان راوية إسلامياً ، من أهل الكوفة أو من أهل البصرة ، فقد كان خفيف
الروح ، عذب الحديث ، قوى النفس شديد الحزم ، يكاد ينتهي إلى شيء من

الغلظة ، رقيق القلب مع ذلك ، يكاد يذوب رقة وليناً .
وهذه القصيدة التي سنبدأ بقراءتها كانت فيما يقول الرواة محببة إلى القدماء
جداً ، حتى لقد كان أبو عمرو بن العلاء يقول : لو كان الشعر كله كهذه
القصيدة لوجب على الناس أن يتعلموه . والحق إنك تقرأ هذه القصيدة فتروعك
معانيها ، وتروقك ألفاظها في كثير من المواضع ، وتعجبك ألفاظها لمئاتها
وجزالتها ، في غير غرابة ولا عنف ، حين يصف ناقته . فشاعرنا — كغيره من
الشعراء القدماء — محافظ على المذهب المعروف ، يبدأ قصيدته بالغزل والحنين ،
ثم يتخلص إلى وصف الناقة والبيداء ، ثم ينتهي إلى ما أراد من العتاب في هذه
القصيدة . وأكبر الظن أن القصيدة قد اقتضبت اقتضاباً ، وضاع منها جزء
غير قليل ، لم يصل إلى الرواة ، أو لم يصل إلى المفضل الضبي على أقل تقدير .
فشاعرنا يطيل شيئاً في غزله وعتاب صاحبه ووصف الطعائن ، وهو يطيل كذلك
في وصف الناقة والفلاة ، فإذا انتهى إلى صاحبه الذي يريد أن يعاتبه لم يطل في
العتاب ، وإنما انقطع حديثه فجأة ، وحسب الزمان أنه روى لنا من هذه القصيدة
ما روى ، ونقل إلينا من هذا الصوت الحلو الحازم ما نقل .
واقراً معي أول هذه القصيدة فسرى أن صاحبنا قد كان رقيق النفس ،
ولكنه مع ذلك حازم حتى مع صاحبه التي لا يحسن معها الخزم ، إلا أن يكون
الشاعر صاحب طبع لا يخلو من غلظة وجفاء . هو في ذلك مثل لييد ، ومثل
غير لييد من شعراء البادية ، الذين رأيناهم غير مرة يتقاضون خيلياتهم الودّ
والوصل ، دون أن يلحوا عليهن فيما يطلبون إليهن من الودّ والوصل ، بل دون أن
يظهروا لمن تهالكاً على ما يبتغون عندهن من اللذة والمتاع :

أَفَاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكَ مَتَّعِينِي وَمَنْعُكَ مَا سُسِّلتِ كَأَنَّ تَبَّيْنِي
فَلَا تَعْلِي مَوَاعِدَ كَاذِبَاتٍ تَمُرُّ بِهَا رِيَّاحُ الصَّيْفِ دُونِي
فَإِنِّي لَوْ تُخَالَفُنِي شِمَالِي خِلَافِكَ مَا وَصَلْتُ بِهَا يَمِينِي
إِذَا لَقَطَعْتَهَا وَلَقَلْتُ بَيْنِي كَذَلِكَ أَجْتَوِي مَنْ يَجْتَوِينِي
فهو منذ البيت الأول قليل الرفق بصاحبه ، هو حريص على أن تمتعه
قبل رحيلها بالنظر والحدِيث والتحية ، ولكنه لا يطلب إليها ذلك فيما ينبغي

أن يكون عليه العاشق من الرفق ، وهذا الإلحاح الذي لا غلظة فيه ولا عنف إنما هو يطلب إليها ذلك في شيء من الحدال المنطقي العنيف . ألتست تراه يزعم لها أنها إن منعت ما سألتها ، فكأنها قد ارتحلت عنه ، وكأنما انقطعت بينها وبينه الأسباب ! فقربها منه وجوارها له لا يغنيان عنها شيئاً إذا لم يصحبهما الوصل ، وصاحبنا متعجل ملح مشفق من خيبة الأمل ، لا يطمئن إلى الوعد ، ولا يستريح إلى الأمل :

فَلَا تَعِدِي مَوَاعِدَ كَاذِبَاتٍ تَمُرُّ بِهَا رِيَّاحُ الصَّيْفِ دُونِي

ثم هو ينتقل من الطلب الملح ، والتشدد المشفق ، إلى الوعيد والنذير ، فهو لا يرضى من صاحبه هذا المطل ، ولا يحب منها هذا الخلاف ، وهو قد صبر وصابر ، على قلة حبه لهذا النحو من الصبر والمصابرة ، فلو أن إحدى يديه خالفته كما تخالفته فاطمة هذه ، لما وصل بها يده الأخرى ، بل لقطعها قطعاً ، ولقال لها : اذهبي إلى غير رجعة ، فإنني أكره من يكرهني ، وأتحوّل عن يتحوّل عنى . ولا بد من أن نصف الشاعر ، فهو ينشئ قصيدته في العتاب ، وهو يفكر من غير شك في صاحبه الذي سيعاتبه حين ينتهي إليه أكثر مما يفكر في صاحبه التي يطلب إليها المتاع ، فإذا تحدث إلى حبيبته بهذه اللهجة الغليظة القاسية ، وجه إليها هذا النذير الحشن الغليظ ، فهو خليق إذا تحدث إلى صاحبه أن يكون حازماً صارماً ومتشدداً قاطعاً ، لا يحب الهوادة ولا اللين . على أنه قد رقّ بعض الشيء بعد هذه المقدمة العنيفة ، حين نظر إلى هذه الإبل وهي ترتحل ، وقد حملت من كان يجب . فانظر إليه كيف كان يقول :

لِمَنْ ظُنُّنْ تَطَالُعٌ مِنْ ضُبَيْبٍ فَمَا خَرَجَتْ مِنَ الْوَادِي لِجِينِ
مَرْرَنَ عَلَى شَرَافٍ فَذَاتِ رَجُلٍ وَنَكْبِنَ الذَّرَانِحَ بِالْيَمِينِ
وَهُنْ كَذَاكَ جِينَ قَطْعَنَ فَلَجَا كَانَ حُمُولَهُنَّ عَلَى سَفِينِ

أترى إليه وقد نظر إلى الإبل مرتحلة بمن كانت تحمل ! فهو متفجع متوله ، يسأل عن تحمل الإبل ، كأنه لا يصدق أنها ترتحل عنه بمن يجب . ثم لا ترعك هذه الأسماء التي يذكرها الشاعر ، والتي لا تدل في نفسك على شيء ، فقد كانت تدل في نفس الشاعر وسامعيه على شيء كثير ، كأن ذكر هذه الأماكن خير ما يستطيع الشعراء أن يعمدوا إليه ، ليصوروا ما يملأ

فوسمهم من اللفظة واللوعة والحنين لفراق المسافرين ، وفي تسمية هذه الأماكن تصوير لما يجده من اتباع نفسه للمسافرين في رحلتهم الطويلة بعد أن عجز طرفه عن أن يتبعهم ، فهم الآن في هذا المكان ، وهم بعد ساعات في ذلك المكان ، وهم الآن ينحرفون إلى شمال ، وهم بعد حين ينحرفون إلى يمين ، وسل نفسك حين تودع من تحب ، وحين يمضي به القطار ، وتستقر بك الدار ، أليست تصوره لك خواطرك ، وقد انتهى به القطار إلى هذه المدينة أو تلك ؟ أليست تحب أن تتبعه أو أن تسايره ؟ أليست تقول : إنه الآن هنا ، وإنه الآن هناك ؟ أليست سعيداً ما استطعت اتباعه ومسايرته على علم ، فإذا انتهى إلى غايته ، ولم تستطع أن تتبعه فيها يأتي من حركات ، وفيها يضطرب فيه من مكان ، فأنت محزون ملتاغ ؟ فكذلك كان الشعراء الأولون ، يتبعون أحياءهم ما استطاعوا ، ملحين في هذا الاتباع ، مصورين ما يسلكون من طريق .

على أن شاعرنا قد رأى الإبل أو تخيلها من بعيد ، وهي تحمل الهوادج وتمضي في الصحراء كأنها السفين ، فلما انتهى إلى هذا التشبيه الشائع المؤلف لم يرد أن يذهب فيه مذهب الشعراء بل أنكره إنكاراً ، ونفاه نفياً ، وآثر أن يحتفظ بالإبل على أنها إبل ، فقال :

يُشْبِهُنَ السَّفِينَ وَهُنَّ بُوخْتٌ عُرَاضَاتُ الْأَبَاهِرِ وَالشُّوُونِ

ليس فيهن شيء من السفن ، وإنما هي إبل ضخام جسام . ثم يدع الإبل إلى من تحمل الإبل ، فانظر إليه كيف يصفهن في هذا الشعر الجميل :

وَهُنَّ عَلَى الرَّجَائِزِ وَكِنَاتٌ قَوَاتِلُ كُلِّ أَشْجَعِ مُسْتَكِينِ
كَغَزْلَانٍ خَذَلْنَ بِذَاتِ ضَالٍ تَدُوُّشَ الدَّانِيَاتِ مِنَ الْفُضُونِ
ظَهَرْنَ بِكِلَّةٍ وَسَدَلْنَ أُخْرَى وَثَقِبْنَ الْوَصَاوِصَ لِلْعِيُونِ
وَهُنَّ عَلَى الظَّلَامِ مُطَلَّبَاتٌ طَوِيلَاتُ الدَّوَائِبِ وَالْقُرُونِ
وَمَنْ ذَهَبَ يَلُوحُ عَلَى تَرِيْبٍ كَلَوْنَ الْعَاجِ لَيْسَ بِذِي غُضُونِ

فانظر إلى البيت الأول من هذه الأبيات ، وقد شبه فيه الطعائن بالطير المستقرة في أعشاشها ، وذكر مع ذلك-اجتلابهن للناس بما يروين من لحظ ،

ثم انظر إلى البيت الثاني ، وقد عرض لمن فيه هذه الصورة الحلوة ، صورة الغزلان الفاترات وقد تخلفن عن القطيع وأقمن في الكنس حانيات على أطفالهن ، يرفعن رعوسهن من حين إلى حين ، ويمددن أعناقهن ليجتنبن ما يتلى عليهن من أثمار هذه الأغصان الدانية . ثم انظر إلى هاتين الصورتين الجميلتين يعرضهما في البيت الثالث ، فأما الصورة الأولى ، فصورة الموادج وقد أقيت عليها كلة لتسترها ورفعت عنها كلة أخرى ليظهرن من ورائها لمن يجيبن أن يرينه وأن يراهن . وأما الصورة الثانية ، فصورة هذه الوصاص ، ولا تسؤك هذه الكلمة ، فقد كان الشاعر يتكلم بلغته ، والوصاص هنا البراقع ، فانظر إلى هذه البراقع المحكمة المتقنة الضيقة وقد ثقت لتستطيع العيون أن ترى من ورائها . وبهذا البيت سمى صاحبنا المثقب فيما يقول الرواة ، وأى غرابة في هذا ! فمن ثقت البراقع خليف أن يعرف بهذا التثقيب .

ثم يمضى الشاعر في غزله على هذا النحو حتى يستئس من يحب ، ويؤمع كما يؤمع غيره من الشعراء أن يتسلى عن هذا الحب العقيم بالأسفار ، فيصف ناقته وصفاً رائعاً من أدق ما عرف الناس من وصف الإبل . ولكنى لا أشق عليك برواية هذا الوصف وتفسيره ، فهذا شرح المفضليات بين يديك تستطيع أن تنظر فيه ، إنما أقف بك عند هذه الأبيات لأنها خليقة بأعظم الإعجاب وأقواه حقاً :

إِذَا مَا قُمْتُ أَرْحَلَهَا بِلَيْلٍ تَأْوَهُ آهَةَ الرَّجُلِ الْحَزِينِ
تَقُولُ إِذَا دَرَأْتُ لَهَا وَضِيئِي أَهَذَا دِينُهُ أَبَدًا وَدِينِي
أَكُلُ الدَّهْرَ حَلًّا وَارْتِحَالًا أَمَا يُبْقِي عَلَيَّ وَمَا يُقِينِي

أترى إليه وقد نهض آخر الليل ليرحل ناقته وبهيتها للسفر ، فلما رآته عرفت ما يريد فضاقت به ، وشكت منه ، وتأوهت آهة الرجل الحزين المذعن الذى لا يجد مرداً للقضاء النازل ، ولا منصرفاً عن المكروه الملم ! ثم أترى إليه وقد دنا من ناقته يمد لها الحزام ، وهى تتمثل ما ينتظرها من جهد ، لأنها ملت أمثال هذا الجهد ، وهى تصور فى حركاتها ولحظاتها وزفراتها حزنها وشكاتها ! والشاعر يعرب لنا عن هذا الحزن أحسن الإعراب . أليست الناقة تشكو وكأنها

تقول : أهذا دأبه أبداً ودأبي ! أما ينقضي يوم إلا ونحن في حلّ ورحيل ! أما في نفس هذا الرجل شيء من إشفاق يعطفه علىّ ، ويحمله على أن يرحمني ، ويجنّبني بعض ما أجد من هذا العناء ! ما تقول في رفق هذا الشاعر بناقته ، وجه لها ، وفهمه إياها ، وإعرايه عما يضطرب في نفسها المحزونة ؟ أما أنا فأرى أنه من أروع ما قال الناس ، لا في اللغة العربية وحدها ، بل في غيرها من اللغات أيضاً . ويفرغ الشاعر من وصف ناقته الطويل الجميل لصاحبه عمرو الذي يريد أن يعاتبه ، فيقول هذه الأبيات المشهورة التي لم يحفظها الناس إلا لأنها راعتهم . وأعجبهم حقاً :

إلى عمرو ومن عمرو أتتني أخى النجداتِ والحلمِ الرّصينِ
فإمّا أن تكونَ أخى بحقٍّ فأعرفَ منك غشى من سميني
ولإ فاطرِ حنّى واتخذني عدواً أتقيك وتتقيني

ثم انظر إلى هذين البيتين اللذين تنهى عندهما القصيدة في المفضليات فسترى فيهما صورة من أجمل الصور وأروعها لجهل الناس بما تضمر لهم الأقدار :

وما أدرى إذا يمتتُ أمراً أريدُ الخيرَ أيهما يليني
أأخيراً الذي أنا أتبعه أم الشرُّ الذي هو يبتغيني

وانظر إلى هذا البيت الأخير خاصة كيف صور الشاعر فيه أجمل تصوير مكر الأقدار بالناس ، فهم يبتغون الخير حين يقصلون إلى أمر من الأمور ، ولكن الشر كما من لهم ، يرصدهم حيناً ، ويسعى إليهم حيناً آخر ، وهم لا يدرون أينتهون إلى ما يريدون من خير أم يقعون فيما يريدون من شر .

قال صاحبي : صدق أبو عمرو بن العلاء : لو كان الشعر كله كهذه القصيدة لوجب على الناس جميعاً أن يتعلموه ، ولو كان شعر القدماء كله كهذه القصيدة لما عدلت به شيئاً آخر .

قلت لصاحبي : ولشاعرنا في رواية المفضل غير هذه القصيدة قصبتان أخريان ، فأما أولاهما : فيمدح بها النعمان بن المنذر ، وهي متينة رصينة ، وقد تفيد المؤرخين ، فهي تصور خصومة كانت بين قبيلة الشاعر وبين الملك ،

فأدبها الملك تأديباً عنيفاً ، وأسر جمهرتها ، والشاعر يستعطفه ويطلب إليه المنّ على هؤلاء الأسرى .

وانظر من هذه القصيدة إلى هذه الأبيات :

فإنَّ أبا قابوسٍ عِنْدِي بِبَلَاؤِهِ	جَزَاءً بِنُعْمَى لَا يَجِلُّ كُنُودُهَا
رَأَيْتَ زِنَادَ الصَّالِحِينَ يَمِينُهُ	قَدِيمًا كَمَا بَدَّ النُّجُومَ سُعُودُهَا
وَلَوْ عَلِمَ اللهُ الْجِبَالَ عَصِيئَهُ	لَجَاءَ بِأَمْرَاسِ الْجِبَالِ يَقُودُهَا
فإنَّ تَكُ مَنَّا فِي عَمَانَ قَبِيلَةٌ	تَوَاصَتْ بِإِجْتَابٍ وَطَالَ عُنُودُهَا
فَقَدْ أَذْرَسَ كَمَا الْمُدْرِكَاتُ فَأَصْبَحَتْ	إِلَى خَيْرٍ مَن تَحْتَ السَّمَاءِ وَفُودُهَا .
إِلَى مَلِكٍ بَدَّ الْمُلُوكَ فَلَمْ يَسْغَ	أَفَاعِيلُهُ حَزْمُ الْمُلُوكِ وَفُودُهَا
وَأَيُّ أَنَاسٍ لَا أَبَاحَ بِغَارَةٍ	يُوَازِي كَبِيدَاتِ السَّمَاءِ عَمُودُهَا

وانظر إلى هذا البيت خاصة :

وَلَوْ عَلِمَ اللهُ الْجِبَالَ عَصِيئَهُ لَجَاءَ بِأَمْرَاسِ الْجِبَالِ يَقُودُهَا

فسترى فيه أصلا من أصول المبالغة التي يألفها الشعراء ، ويكرهها بعض النقاد ، ويجها أرسطاطاليس :

وأما القصيدة الأخرى : فيمينة مشهورة ، يكثر الناس روايتها أو رواية طائفة من أبياتها ، وأوطأ في رواية المفضل :

لَا تَقُولَنَّ إِذَا مَا لَمْ تُرِدْ	أَنَّ تُتِمَّ الْوَعْدُ فِي شَيْءٍ نَعَمَ
حَسَنُ قَوْلٍ نَعَمَ مِنْ بَعْدِ لَا	وَقَبِيحُ قَوْلٍ لَا بَعْدَ نَعَمَ
إِنْ لَا بَعْدَ نَعَمَ فَاحِشَةٌ	فِيَلَا فَابِدًا إِذَا خِضَّتِ النَّدَمَ
فَإِذَا قَلْتَ نَعَمَ فَاصْبِرْ لَهَا	بِنَجَاحِ الْقَوْلِ إِنَّ الْخَلْفَ ذَمٌّ

قال صاحبي : لست هذه الأبيات تروى للوزراء والكبراء وأصحاب الجاه كلما أصبحوا وكلما أمسوا ، لعلهم أن يجتنبوا التخلص بالوعد من إلحاح الملحين ،

وهم يابون الوفاء ، أو يعجزون عنه . قلت : وليتك أنت تم القصيدة فما بقي
منها أجمل وأجدي من هذه الأبيات التي تميل كل الميل إلى اعتقاد أنها مولدة
مصنوعة لم تصدر عن شاعر قديم . قال صاحبي : سأتم القصيدة ، ولكن على
أن تقرأ في الأسبوع المقبل لشاعر مجهول كهذا الشاعر الحميد .

الغزلون^(١)

قيس بن الملوّح ، أو مجنون بنى عامر ، أو مجنون ليل

أعلم أنى مدين لك بطائفة من أحاديث الأربعاء شغلتنى عنها هذه الرحلة التى انصرفت إليها عن القراءة والكتابة ، بل عن التفكير حيناً طويلاً ، ولكنى أعلم أنك تبيع لمن تكلف عناء القراءة والكتابة والتفكير سنة وبعض سنة فى غير راحة ولا ترفيه على النفس ، أن يستريح شهراً وبعض شهر ، وأنا مع ذلك مجتهد فى أن أعوّض عليك ما فقدت من هذه الأحاديث ، وأرجو أن أبلغ من ذلك ما تريد وما أريد . وأعلم أنى أغضبت طائفة من أدبائنا الذين أجلّهم وأكبرهم وأقدر رأيهم فى الأدب العربى حين كتبت عن بشار فلم أحبه ولم أمل إليه ، ووصفته بشيء من ثقل الروح ، ولؤم الطبع ، وشدة الغرور والافتتان بالنفس . أعلم ذلك ، وأرأى مع الأسف الشديد مضطراً إلى أن أغضب هؤلاء الأدباء مرة أخرى ، وأؤكد لهم أنى لا أتعمد ذلك ، ولا أرغب فيه ، وإنما يضطرنى إليه البحث اضطراراً ، وتكرهنى عليه مناهج النقد إكراهاً ، وما زلت منذ بدأت أحاديث الأربعاء أغضب طبقات من الناس حتى أصبحت لا أدرى أى الطبقات يرضى عما أكتب ويطمئن إليه ، أولئك يغضبون لأنى أصف العصر العباسى بالمجون والشدة ، وهؤلاء يغضبون لأنى أقدم أبا نواس والحسين بن الضحاح على بشار ، وسيغضب قوم آخرون لأنى سأنكر وجود طائفة من الشعراء ، أو سأجحد شخصيتهم ، وسأزعم أن هؤلاء الشعراء بين اثنتين : إما أن يكونوا أثراً من آثار الخيال قد اخترعهم اختراعاً ، وإما ألا تكون لهم شخصية بارزة ولا خطر عظيم ، وإنما عظّم الخيال أمرهم وأضاف إليهم ما لم يقولوا وما لم يعملوا ، واخترع حولهم من القصص ألواناً وأشكالا جعلت لهم فى الأدب العربى هذا الشأن العظيم الذى لا يكاد يقوم على شيء .

(١) نشرت بجمريدة « السياسة » فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٤ .

نعم . سأنكر طائفة من الشعراء ، أو سأنكر شخصيتهم ، وأنا أعلم أن فريقاً غير قليل من الذين يعنون بالأدب لا يحبون هذا النحو من البحث الذى ينتهى إلى الإنكار أو إلى الشك ، وإنما يريدون أن يكون البحث كله إثباتاً و يقيناً ، وأن ينتهى البحث كله إلى إثبات و يقين . وليس الباحث الماهر عند هؤلاء أن ينتهى البحث به إلى إنكار المجنون أو الشك فيه ، فهذا البحث هادم للمجد العربى ، معتد على الأدب العربى ، وإنما الباحث الماهر حقاً عند هؤلاء هو الذى يسلك كل سبيل ، وينتهج كل طريق ، ويتكلف كل حيلة ، ليثبت وجود المجنون ، ويزيل أسباب الشك فيه ، ليضيف إلى المجد العربى مجداً ، وليثبت أن الأدب العربى يمتاز بالألوان الفنية التى لا تحصى .

إن أردت أن ترضى هؤلاء الناس فتملق حبيهم للعرب وإسرافهم فى هذا الحب ، وأضف إلى العرب ما قالوا وما لم يقولوا ، وما عملوا وما لم يعملوا ، واجعل أمتهم أشرف الأمم ، ولغتهم أشرف اللغات ، وأدبهم أرقى الآداب ، لا تحسب فى ذلك حساباً ، ولا تنهى فيه إلى مقدار ، ولا تعترف للأمة الحديثة بشيء إلا أن تكون قد ورثته عن العرب ونقلته عنها نقلاً . اسلك فى الأدب لترضى هؤلاء الناس مسلك قوم فى السياسة ، واتخذ الحقائق الأدبية موضوعاً للتضليل كما يتخذون المنافع السياسية ، تفز بما شئت من تصفيق وإعجاب ، وبما أحببت من حمد وثناء ، ولكنك تسيء إلى العلم وتعتدى عايه ، فاحتر بين رضا العلم ورضا الجماهير .

أما أنا فأعترف - لسوء الحظ أو لحسنه - أنى أؤثر رضا العلم والضمير على رضا الناس وإعجابهم وتصفيقهم ، ولهذا أتقدم بهذه النظرية فى غير تلطف ولا احتيال ، فأزعم أن هذه الطائفة من الشعراء الذين أسميهم « الغزلين » لم يكن لهم فى تاريخ الأدب العربى من الشأن ما يظنه الناس إلى الآن ، وإنما هم فى حقيقة الأمر ينقسمون إلى قسمين متمايزين ، لى فى كل منهما رأى : الأول الشعراء « العذريون » لا لأنهم يتنسبون إلى « عذرة » بل لأنهم يتخذون هذا الغزل العذرى مذهباً فى الشعر ، ومنهم المجنون ، وقيس بن ذريح ، وعروة بن حزام ، وجميل بن معمر . والثانى « المحققون » وأريد بهم هؤلاء الشعراء الذين انقطعوا للغزل ، أو كادوا ينقطعون له ، ولكنهم لم يلتمسوا الحب فى السحاب ، ولم

يتخذوا العفة المطلقة مثلهم الأعلى . وإنما عبثوا ولها واستمتعوا بالحياة . وتغنوا هذا العبث واللهو وقصروا شعرهم عليهما ، أو جاوزوهما إلى فنون أخرى من الشعر ، ولكنهم لم يبلغوا منها ما بلغوا من الغزل ، وزعيم هؤلاء الشعراء عمر بن أبي ربيعة ، ومعه نفر آخرون قد أحدثك عنهم بعد أن أفرغ من العنبرين .

لست أشك في أن عمر بن أبي ربيعة شخص تاريخي ، وفي أن أكثر الشعر المنسوب إليه صحيح صدر عنه حقاً ، وفي أن شخصيته كانت في عصره كما تمثلها نحن الآن ، أو على نحو ما تمثلها الآن ، وكذلك قل في « كُشَيْر » وكذلك قل في « عبيد الله بن قيس الرقيات » ، ولكني أشك الشك كله في أن يكون قيس بن الملوّح شخصاً تاريخياً وجد وعرفه الناس واستمعوا إليه . وفي أن يكون هذا الشعر المنسوب إليه صحيحاً قد صدر عنه حقاً ، وأزعم أن قيس ابن الملوّح خاصة إنما هو شخص من هؤلاء الأشخاص الخياليين الذين تخترعهم الشعوب لتمثيل فكرة خاصة ، أو نحو خاص من أنحاء الحياة ، بل ربما لم يكن قيس بن الملوّح شخصاً شعبياً « كجحا » وإنما كان شخصاً اخترعه نفر من الرواة ، وأصحاب القصص ليلهو به الناس أو ليرضوا به حاجة أدبية أو خلقية سنعرض لها بعد قليل .

وهنا أعتذر إلى الكاتب الأديب الذي خصص في الشهر الماضي صحيفة من صحف « السياسة » لدرس المجنون وتحايل شعره والبحث عن عواطفه ، فأحسن البحث وأجاد التحليل ، أعتذر إليه — بعد الثناء عليه — من أن أقول إنه أجهد نفسه في غير طائل ، ولو أنه سلك مسلكاً آخر في البحث لأفاد وانتفع ، ولاستطاع أن يكتب صحيفة من صحف « السياسة » يقصرها على المجنون ويثبت فيها لا أن المجنون كان أرق الناس شعراً ، وأصدقهم حباً ، وأرقاهم عاطفة . بل إنه كان رمزاً لطائفة من الآراء ، وألوان من العواطف ، وفن من فنون الشعر والنثر ظهر في العصر الأموي ، وكاد ينتهي إلى غايته لولا أن العصر العباسي أقبل بلهوه وشكّه ومجونه فأفسد على الناس كل شيء .

وقبل أن نتعمق في بسط هذا الرأي ، وإثباته نريد أن نريح الكاتب الأديب وأصحابه الذين يؤمنون بالمجنون من هذه الخرافة ، ونبين لهم أن النقد الصحيح لا يستطيع أن يؤمن بوجود هذا الشاعر . وماذا تقول في رجل لا يتفق الناس

على اسمه ، ولا على نسبه ، ولا على الخطوب التي امتلأت بها حياته ؟ وإنما يختلفون في ذلك الاختلاف كله ! بل ماذا تقول في رجل لا يتفق الرواة على أنه وجد ولا يروون ما يضاف إليه من الأخبار إلا متحفظين ؟ بل ماذا تقول في رجل يريد أبو الفرج الأصهباني أن يروي أخباره لأن شروط كتابه تضطره إلى ذلك ، فيعلن ويبالغ في الإعلان أنه يخرج من عهدة هذه الأخبار ويتبرأ منها ، ويضيف هذه العهدة إلى الرواة الذين ينقل عنهم . وأنت تعلم أن رواة العرب — لا نتحدث الآن عن رواة السنة ، وإنما نذكر رواة القصص والسير — لم يكونوا يتشدّدون في الاحتياط ولا يبالغون في الحذر ، وكثيراً ما كانوا يروون غير الصحيح ويثبتون غير الحق ، فإذا كانوا على هذا الإهمال والضعف ينكرون وجود قيس بن الملوّح ، أو يشكون فيه ، أو لا يتفقون على اسمه وصفته وصروف حياته ، أفلا يكون من الحق علينا أن نتحفظ كما تحفظوا ، ونشك على نحو ما شكوا ؟ إذا لم يكن من الحق علينا أن نتخذ تحفظهم وشكهم دليلاً على أن أخبار قيس بن الملوّح إنما هي نوع من الأساطير .

الرواة يختلفون في وجود قيس ، فأما الثقات منهم فقد أنكروا وجوده ، أو تحفظوا فيه ، ولست أريد أن أطيل عليك في هذا ، وإنما أحيلك إلى كتاب الأغاني في جزئيه الأوّل والثاني لترى من ذلك ما يغنيك . ولقد بالغ بعض الرواة في إنكار وجود قيس حتى زعموا أن بني عامر أغلظ أكباداً من أن يعث بهم الحب إلى هذا الحد ، وإنما ذلك شأن الإمانية الضعيفة قلوبهم ، السخيفة عقولهم ، أما التزارية فلا . وتحدّث راوية آخر أنه مرّ ببني عامر بطناً بطناً وسألهم عن المجنون ، فأنكروه ولم يعرفوه ، وتحدّث راوية آخر أنه سأل أعرابياً من بني عامر عن المجنون فذكر طائفة كثيرة من المجانين ، وروى لكل واحد منهم شعراً ، إلا قيس بن الملوّح فإنه أنكروه ولم يعرفه .

ثم اختلف الرواة الذين آمنوا بوجود المجنون في تسميته . فهو قيس عند بعضهم ، ومهدى عند بعضهم الآخر ، وهو الأقرع عند فريق ، والبحتري عند فريق آخر ، ثم اختلفوا في نسبه واسم أبيه ، ثم اختلفوا في أنه كان مجنوناً حقاً ، فزعم ذلك منهم فريق ، وأنكره فريق آخر ، وقال الأصمعي لم يكن مجنوناً ، وإنما كانت به لؤثة كلؤثة أبي حبيّة الثميري ، ثم اختلفوا في السبب

الذى من أجله دعى المجنون ، فزعم بعضهم أنه كان مجنوناً حقاً ، وزعم بعضهم الآخر أنه دعى المجنون لشعر قاله ، وفيه لفظ المجنون ، كما دعى التابعة بهذا الاسم لشعر قاله ، وكما دعى فريق من الشعراء بأسماء وردت في أشعارهم ، ولم تكن أسماءهم ، ثم اختلفوا في سبب جنونه : فزعم بعضهم أنه الحب ، وزعم بعضهم الآخر أن الله انتقم منه لأنه اعترض على قضائه في قوله :

قَضَاهَا لِغَيْرِي وَابْتَلَانِي بِحُبِّهَا فُهَلَا بِشَيْءٍ غَيْرِ لَيْلَى ابْتِلَانِيَا

وزعم قوم أن هذا البيت لم يجرّ عليه الجنون وإنما جرّ عليه البرص .

ثم أخذ الرواة يجهلون في تحليل هذه الأخبار التي تنسب إلى المجنون ، فرووا ذلك أحاديث مختلفة ، منها — وهو أهمها — ما ذكره ابن الكلابي من أن قتي من فتيان بني أمية أحب فتاة من بنات أعمامه ، وقال فيها شعراً وكره أن يشهر ذلك ، فاخترع شخص المجنون وصنع أخباره وأضاف إليه ما كان يقول من شعر . وهناك قوم من الرواة لم تكن لهم صناعة إلا تلهية الناس والتسلية لهم . فكانوا يصنعون لذلك الأخبار والأشعار ويذيعونها في البصرة والكوفة وبغداد من أمصار المسلمين ، وكانوا يفيدون بذلك مالا كثيراً ، بل هناك طائفة من ثقات الرواة ، أو من الذين نعدّهم ثقات ، كانوا قد برعوا براعة لاحد لها في انتحال الأشعار والأخبار ، وكان الناس قد آمنوا لهم ووثقوا بهم ، فكانوا يأخذون عنهم ما يروون على أنه حق لا شك فيه ، ولم يكن يشك في روايتهم إلا نفر قليلون قد علموا علمهم وشاركوهم فيما كانوا فيه من عبث ووهو . ولست أذكر من هؤلاء الرواة إلا اثنين : أحدهما حماد الراوية ، والآخر خاف الأحمر . كلا هذين الرجلين أنحل العرب أخباراً وأشعاراً لا تحصى ، وكلاهما كان يتكلم العربية ويجيدها خيراً مما يتكلمها ويجيدها الأعراب ، وكلاهما كان متهماً في دينه محبباً للهو عاكفاً على العبث ، وكان من الشعراء المعاصرين لهما من يشاركهما في اللهو والعبث والمجون ، فيضطلع بأسرارهما ويشك في صدقهما ، ومن هنا كان كثير من الشعراء يلجّ على هذين الراويين وأمثالهما في أن يشهدوا بشعرهم كما يستشهدون بشعر القدماء ، وكانوا يعلمون أن شعر القدماء هذا لم يكن من القدماء في شيء ، وإنما كان يصنعه الرواة صنعة ويتحلونه انتحالاً . وقل مثل ذلك في الأنساب ، وقل مثل ذلك في السير

وأخبار الفتوح والغزوات . وانظر إلى سيرة ابن هشام وإلى هذا الشعر الكثير الذى يروى فيها وصفاً للغزوات ، والذى يرويه ابن هشام حتى إذا فرغ منه أضاف إليه هذه الجملة « قال ابن هشام : وأكثر أهل العلم بالشعر يتكرونها هذه القصيدة » .

وجملة القول إن بين العرب والرومان من جهة ، وبين الفرس واليونان من جهة أخرى ، تشابهاً شديداً : انتصر العرب على الفرس انتصاراً عسكرياً ، وانتصر الفرس على العرب انتصاراً أدبياً ، وكذلك انتصر الرومان على اليونان انتصاراً حربيّاً ، وانتصر اليونان على الرومان انتصاراً أدبياً . وكان مظهر هذا الانتصار الأدبى فى روما وفى بغداد واحداً ، وهو أن اليونان والفرس أخذوا الرومان والعرب بأدابهم وحضاراتهم ، ولم يكتفوا بذلك بل عبثوا بالآداب اللاتينية والعربية فأدخلوا فيها وأضافوا إليها ما لم يكن لها به عهد . وكذلك صنعوا بالأنساب ، وكذلك صنعوا بالتاريخ والسير . إذن فمن الحق علينا أن نشك فى أخبار هؤلاء الرواة حين يروونها واقعين ، وأن نبالغ فى الشك حين يروونها متحفظين ، وأن نشدد فى المبالغة حين نراهم يختلفون فيما بينهم اختلافهم فى أمر المجنون .

وطريقة أخرى نثبت بها هذا الرأى ؛ ولكنها طريقة فنية ليست من التاريخ فى شىء ، وهى طريقة أدبية خالصة نرجو أن يلتفت إليها القارىء وأن يجد فيها مقنعاً . نعلم فى هذه الطريقة على شعر المجنون ، أو على الشعر الذى ينسب إلى المجنون ، فيثبت لنا الشعر نفسه لإحدى اثنتين : إما أنه مصنوع متكلف قد اخترع اختراعاً ، فهو لا يعبر عن عاطفة صادقة ، ولا عن حب صحيح ، وإما أنه قد صدر عن أشخاص مختلفين ، ثم خلطه الرواة عمداً أو سهواً وأضافوه إلى شاعر واحد هو المجنون . ولعل الجاحظ لم يخطئ حين قال : ما ترك الناس شعراً فيه ليلى إلا نسبوه إلى قيس بن الملوّح ، ولا شعراً فيه لبنى إلا نسبوه إلى قيس بن ذريح . وفى الحق أن شعراً كثيراً ينسب إلى المجنون وليس من المجنون فى شىء ، وإنما قاله شعراء آخرون لم يكونوا مجانين ولم يعبث بهم الحب عبثه بهذا المجنون .

وإذا أردت أن تدرس شاعراً من الشعراء فعلى أى قاعدة تعتمد فى هذا الدرس ؟ على شخصية الشاعر قبل كل شىء . ذلك أن هذا الشاعر يجب أن

يتمثل في شعره إلى حد ما . فإذا كان شاعراً مجيداً حقاً فشعره مرآة نفسه وعواطفه ومظهر شخصيته كلها ، بحيث تستطيع أن تقرأ قصائده المختلفة فتشعر فيها بروح واحد ونفس واحد وقوة واحدة . وقد يختلف هذا الشعر شدة وليناً وتباين عنفاً ولطفاً ، ولكن شخصية الشاعر ظاهرة فيه محققة للوحدة الشعرية التي تمكنت من أن تقول : هذا الشعر لفلان ، أو هو مصنوع على طريقة فلان . نظن أن هذه القاعدة لا تقبل الشك في فنّ من فنون الأدب ، ولا سيما الشعر الغنائي الذي هو مرآة النفس ومظهر العاطفة . فهل نستطيع أن نجد للمجنون شخصية ظاهرة بيّنة في هذه الأشعار الكثيرة المختلفة التي يرويها له أبو الفرج وغيره من الرواة ؟ أما أنا فأزعم أن ليس إلى ذلك من سبيل . ولا أطيل في إثبات هذا الرأي ، وإنما ألخص لك خلاصة ما انتهيت إليه بعد البحث :

كل هذا الشعر الذي يضاف إلى المجنون لا يخلو من أن يكون شعراً قد قاله شاعر معروف وأخطأ الرواة فأضافوه إلى المجنون ، أو قاله شاعر مجهول ووجد الرواة فيه ليلياً فأضافوه إلى المجنون ، أو انتحله الرواة أنفسهم ، أو انتحله المغنون وأصحاب الموسيقى وأضافوه إلى المجنون ، ولقد أجهدت نفسي في البحث عن شخصية ظاهرة مشتركة تظهر في هذا الشعر كله أو بعضه فلم أوفق من ذلك إلى شيء .

وطريقة أخرى ثبت بها رأينا في وجود المجنون ، وهي اختلاف الرواة اختلافاً شديداً في هذه الصلة التي وجدت بين قيس بن الملوّح وبين ليلي ، فنشأ عنها هذا الحب الذي ذهب بعقل قيس . يزعم قوم أنهما تعارفا طفلين وكانا برعيان البهم فنشأت بينهما مودة استحالت مع السن حباً ، ثم شبت الفتاة فحببت عن الفتى ، فأصابه ما أصابه . ويزعم قوم آخرون أنهما لم يتعارفا طفلين ، وإنما مرّ قيس ذات يوم بفتيات ، فسلم فرددن السلام ودعونه إلى الحديث . فتزل وتحدث وصنع صنيع امرئ القيس فعقر ناقته وأطعمهن ، ولكن فتى آخر أقبل مع المساء فتلاهين به عن قيس ؛ فانصرف قيس مغضباً وقال في ذلك شعراً ، ثم أصبح فتعرّض لمن قام يمدهن ، وإنما وجد ليلي ، فدعته إلى الحديث فتزل وتحدث وصنع كما صنع بالأمس ؛ وأظهرت ليلي إعراضها عنه فاغتم لذلك ، ورأت ليلي هذا منه فرفقت به ، وأعلنت إليه حبا في شعر لم يسمعه حتى خرّ مغشياً عليه . وزعم آخرون أن قيساً كان زير نساء ، وأن ليلي كانت

ألمح النساء قديماً ، وأجملهن منظراً ، وأحسنهن حديثاً ، وأن فتيات الحى كن يختلفن إليها ويجاذبنها أطراف الحديث ، فسمع بها قيس فاختلف إلى مجلسها فكان الحب . ورووا غير ذلك من الروايات . ولكنى أكتفى بهذه الروايات الثلاث لأرى منها أن شخصية ليلى ليست أقل اختلافاً وتفاوتاً من شخصية قيس ، فهى فى إحدى الروايات راعية ، وهى فى رواية أخرى بدوية تتعرض للشبان وتميل إلى حديثهم ، وهى فى الرواية الثالثة أدبية ذات مكانة وصوت يختلف إليها الفتيان كما كانوا يختلفون إلى مجالس النساء الأدبيات فى الحواضر العربية . ألا ترى أن هذا الاختلاف وحده يكفى لحملك على الشك فى شخصية ليلى ، كما أن الاختلافات الأخرى تكفى لحملك على الشك فى شخصية قيس ! ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد ، وإنما هناك ألوان من السخف والتكلف تنهى إلى هذا الرأى الذى أحاول إثباته . منها هذه الرواية التى تزعم لنا أن أبا ليلى كره تزويج ابنته من عاشقها لا لشيء إلا لأنه أحبها وذكر ذلك فى شعره ، فكره الرجل أن يفضح وأن يفضح ابنته . ونلاحظ أننا نجد هذا المذهب فى أخبار طائفة من هؤلاء العشاق تختلف قبائلهم وأخبارهم وأوطانهم ، ويقول الرواة لنا إن هذه كانت خصلة من خصال العرب . ولست أدرى : أحق هذا ! ولكنى أرجح أن هذا مذهب اخترعه الرواة ليخلقوا منه أشخاص القصص الغرامية التى كانوا يضعونها لتلهية الجمهور وتسليته ، على نحو هذه المذاهب التى نجدها أحاديث العامة وأقاصيصهم . فقلما تقرأ أحداثاً من هذه الأحاديث أو طائفة من هذه الأحاديث إلا رأيت فيها مذهباً معيناً منه اخترعت القصة . ولأضرب لك مثلاً أمر الغول فى أحاديث هؤلاء الشبان الذين يرتحلون الرحلات الطويلة يسعون إلى أمر عظيم فلا يكادون يجاوزون أوطان الناس حتى تعترضهم غول ، أو وحش يشبه الغول ، وهلم جراً . . .

ومن ذلك ما يتحدث به الرواة من أن السلطان أهدر دم قيس إذا تعرض لليل بعد أن حجبت عنه ، وهذا مذهب نجده أيضاً فى أخبار قيس بن ذريح وغيره من هؤلاء العشاق . ويحق لنا أن نتساءل : أكان الخلفاء قد فرغوا من أعمالهم العامة المختلفة لهؤلاء العشاق يهدرون دمهم حيناً ، ثم يعصمونه حيناً آخر ؟ وعلى أى نحو من أنحاء الشرع كانوا يعتمدون فى إهدار هذه الدماء

لا لشيء إلا لأن رجلاً أحب في عفة ، وتغنى حبه في عفة ؟ إنما هو مذهب في القصص الغرامية كهذا المذهب الذي تقدم ، ومن ذلك ما يذكر من توحش قيس ، وإمعانه في التوحش ، حتى ألف الأطباء وألفته الأطباء فعايشهن وعاشته ، واضطر مخترع هذه الأحدث إلى أن يمتثل حتى يبلغ أراكة كان قيس قد أنس فيها إلى سرب من الأطباء ؛ فلما بلغ هذه الأراكة على غير حس من قيس ، ولا من سربه ، احتال حتى ارتقى واختفى بين أغصانها ، ثم أخذ يحدث قيساً فنفرت الأطباء ، وكاد ينفر قيس لولا أن محدته ذكر اسم ليلى ، فأنس له قيس ومضى في حديثه حتى سنحت له ظبية فتبعها . كل هذا من سخف الرواة ، ما نحسب أن له ظلاً من الحق وإنما هو ضرب من المبالغة في تأثير الحب ، كان الرواة يحتاجون إليه حين تفرغ أحاديثهم المعقولة ، وهو آية على أن المخترع ضعيف الحظ من القصص الغرامية يعييه المعقول فيلجأ إلى المحال .

وعلى هذا النحو من النقد استطاع مؤرخو الآداب اليونانية أن يفرقوا بين فصول « الإلياذة » وأناشيدها المختلفة ، فما كان منها محالاً مفجعاً بالمبالغات أضافوه إلى شاعر ضعيف قليل الحيلة ، وما كان منها معقولاً ، أو كالمعقول لا يلتمس اللذة الفنية في الإحالة والإغراق ، أضافوه إلى شاعر بارع واسع الحيلة .

أظن أن هذا كله يكفي للشك في شخصية المجنون ، إن لم يكف لإنكار هذه الشخصية ، ولكن الشك والإنكار عقبان بطبعهما ، وليس من الخير أن ينتهي عندهما الباحث إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطراراً ، وبين أيدينا أخبار وأحاديث تصف عاشقاً آلمه العشق ، وأودى بعقله وحياته ، بل تصف عشاقاً مختلفين عبت بهم الحب هذا العبت ، وهذه الأخبار والأحاديث تشترك في أشياء ، وتختلف في أشياء ، تشترك مثلاً في أن الأشخاص جميعاً من أهل البادية ، وفي أن حبيهم كان عفيفاً بريئاً ، وفي أنهم قد لقوا في هذا الحب جهداً عظيماً ، وفي أنهم قد تغنوه في الشعر الجيد ، وتنفق في وصف هذا الحب وأساليبه ، والمصاعب التي قامت دونه ، وتدخل الخلفاء أو الولاة فيه إلى حد ما ، وتختلف في أشخاص العشاق والعشيقات وقبائلهم وأساليبهم في الحب والشعر وألوان الغناء الذي تكلفوه ، كما تختلف في انتهائها ، فمنها ما ينتهي إلى شر ومنها ما ينتهي إلى خير . فلا بد من أن يكون هناك مصدر

لهذا الاتفاق ، ومصدر لهذا الاختلاف ، ولا بدّ للباحث المحقق الذى ينتهى به البحث إلى إنكار قيس بن الملوّح والغض من شخصية قيس بن ذريح من أن يقيم مكان هؤلاء الأشخاص أشخاصاً آخرين أو أشياء أخرى . ولا كان بحثه عميقاً وكانت نتائجه أثراً من آثار التحكم الذى لا خير فيه ، وأنا أريد ان أقيم مكان قيس بن الملوّح ، وقيس بن ذريح ، وجميل بن معمر ، وعروة بن حزام : أشياء لا أشخاصاً ، أو بعبارة أدق ، أريد أن أقيم مكانهم شيئاً واحداً هو فن القصص الغرامى الذى أعتقد أنه ظهر ، أو على أقل تقدير - قوى وعظم أمره أيام بنى أمية ، وأخذ ينظّم شيئاً فشيئاً حتى كاد يكون فناً مستقلاً على نحو ما نرى من فنون القصص الغرامى فى الأدب الحديث . فليس يعينى أن يكون شخص قيس بن الملوّح تاريخياً ، أو غير تاريخياً ، وإنما الذى يعينى أن هناك قصة غرامية هى قصة قيس بن الملوّح ، وقصة غرامية أخرى هى قصة قيس بن ذريح ، وقصة غرامية ثالثة هى قصة جميل ابن معمر وهلم جراً . . .

أنا إذن بإزاء قصص غرامية اخترعها الخيال ، لا بإزاء عشاق . فإذا أردت أن أبحث ، فليست أبحث عن هؤلاء العشاق فهم لا يعنونى ، وإنما أبحث عن واضح هذه القصة ، وقيمتها ومقدرته فى الشعر والنثر ، أبحث عن هذا الفن الأدبى الذى لم يكن للعرب به عهد قبل الإسلام والحضارة الإسلامية ، والذى ظهر بعد الإسلام وحين أخذت الحضارة الإسلامية تزهر وتبسط سلطانها على العقول . نعم ! أنا أعلم حق العلم أن هناك صعوبات كثيرة تجول بينى وبين إتقان هذا البحث . أول هذه الصعوبات أن هذه القصص الغرامية لا تنسب إلى كاتب بعينه ، ولا إلى كتاب معروفين ، فلنا ندرى من واضح قصة المجنون ، أو قصة قيس بن ذريح ، وإذن ، فقد نتكلف كثيراً من العناء فى البحث عن شخصية هؤلاء القصاص دون أن ننهى إلى نتيجة ، وقد يكون كل ما ننهى إليه أننا أنكرنا أشخاصاً معروفين دون أن نصل إلى أشخاص آخرين ، أنكرنا أشخاص الشعراء ، دون أن نصل إلى أشخاص القصاص . ومع ذلك فلم نتكلف البحث عن أشخاص القصاص إذا لم يكن إليهم سبيل ! أليس يكفيننا أن ثبت ما بين هذه القصص من التفاوت والاختلاف ، وما يمتاز به بعضها من

بعض من الجودة والإتقان والمهارة القصصية والبراعة الشعرية ! أليس يكفيناه
أن نصل بوجه ما إلى تحديد هذا الفن الأدبي وتبيين صفاته الخاصة التي تميزه
من غيره من الفنون ! ثم أليس يكفيناه ما قد نوفق إليه من إظهار الأسباب
الأدبية والحلقية والسياسية التي دعت إلى ظهور هذا الفن أيام بني أمية ؛
ومن إظهار الأسباب الأخرى التي دعت إلى ذبوله . ثم إلى فنائه أيام بني
العباس ! ألسنا إن وفقنا إلى هذا كله أو بعضه ، نكون قد استكشفتنا في الأدب
العربي فنّاً كان الناس يجهلون ويفعلون عنه ؟ ثم ألسنا بالكشف عن هذا الفن
ووصفه وإظهار خصاله ، أنفع للأدب العربي ومجد الأمة العربية من هؤلاء الذين
يقصرون بحمهم على الأشخاص . ولا يتخلون لبحثهم غاية إلا تماق أنفسهم
وتملق الجمهور ! نعتقد أن في هذا النحو من البحث نفعاً عظيماً ، ولهذا نريد
أن نمضي فيه حتى نتمه في الفصول الأخرى .

البوليجين ، في ٢٠ أغسطس سنة ١٩٢٤



الغزل والغزلون^(١)

نشأته وأسبابها - فن القصص الغرامى

لذيذة جداً قراءة الأغاني في أرض ما أحسب أنه قرئ فيها قبل اليوم ، في أقصى الغرب الفرنسى . نعم ! فقد اصطحبت معى هذا الكتاب ، وما قرأت فيه يوماً إلا ذكرت قصة ذلك الرجل القديم الذى كان كلما ارتحل اصطحبت أجمالاً تحمل له ما يحتاج إليه من الكتب في رحلته ، فلما ظهر كتاب الأغاني استغنى عن تلك الأجمال وما كانت تحمل من أسفار ، واكتفى باصطحاب هذا الكتاب . أذكر هذه القصة كلما قرأت في كتاب الأغاني ، وليس يعينى أن تكون القصة صحيحة أو غير صحيحة ، ولكنى أؤكد أن في هذا الكتاب ما يبنى عن الأجمال وعمما يمكن أن تحمل من أسفار ، وإن من اليسير جداً أن يستغنى به الباحث عن كثير من كتب الأدب والتاريخ . ولكن شأن الأغاني في هذه الأيام كشأن غيره من كتب الأدب والتاريخ التى تركها لنا القدماء ، فهو - كهذه الكتب - في حاجة شديدة جداً إلى أن يقرأ ، وإلى أن يفهم ، وإلى أن يستخلص منه العلم على النحو الذى يلائم العقول في هذا العصر الذى نعيش فيه . ولقد يكون من الحق أن كثيراً من الشبان والشيوخ في مصر وفي غيرها من البلاد الشرقية يستطيعون أن يقرءوا هذا الكتاب وغيره من كتب الأدب والتاريخ دون أن يستفيدوا منها فائدة قيمة ، بل ربما كانت قراءة هذه الكتب بعيدة كل البعد عن أن تنفعهم أو تجدى عايمهم . ذلك أن اختلاف العصور شديد الأثر في العقول وفي حاجاتها وفي استعدادها للفهم والدرس ، فقد كان القدماء يجلبون في أخبار أبى الفرج وفي أخبار الطبرى ما يكتفيهم ويسد حاجتهم إلى الحفظ والرواية ، وكان ما كتب أبو الفرج والطبرى وغيرهما من الأدباء والمؤرخين ملاءماً كل الملاءمة لعقول هؤلاء الناس الذين كانوا لا يبتغون من

(١) نشرت بمجريدة السياسة في ١٠ سبتمبر سنة ١٢٤ م .

الأدب مثلما نبتغى نحن الآن ، والذين كانوا يستطيعون أن يتركوا عقولهم ومنطقهم إذا عرضوا لقراءة مثل هذه الكتب ، وألا يعتمدوا على هذه العقول ولا على هذا المنطق إلا إذا عرضوا للفلسفة أو الكلام أو الفقه أو نحو ذلك من العلوم التي تحتاج إلى النظر وتدعو إلى الجدل . كانوا يعتمدون في قراءة الأدب والتاريخ على الرواية من جهة ، وعلى الذوق من جهة أخرى ، وكانوا يرضون الرضا كله إذا رويت لهم الأخبار عن هؤلاء الثقات الذين اعتمد عليهم القدماء في نقل السير والأخبار ، كما كانوا يرضون الرضا كله إذا وقعت إليهم القصيدة الجيدة أو المقطوعة المختارة فلامت أذواقهم ومثلهم الأعلى في الفن .

أما نحن فأشد من هؤلاء القدماء طمعا وأكثر منهم تحفظاً ، لا تكفيننا أسماء الثقات من الرواة ، ولا يكفيننا جمال القصيدة وجودة المقطوعة ، وإنما نريد أن نتخذ كل شيء موضوعاً للبحث والنقد والتحقيق والتحليل ، ولا نكاد نفرق في ذلك بين الأدب والعلم . ونحن محقون ، لأننا لا نبتغى من الأدب والتاريخ رواية الأعاجيب والعظات ، ولا إرضاء الذوق والميل الفني ، وإنما نتخذ الأدب والتاريخ مرآة للأمم ، وسبيلاً إلى فهم حياتها العقلية والشعرية ، وإلى فهم ما خضعت له من ألوان النظم المختلفة . وإذن فنحن أشد طمعا من القدماء ، وأكثر منهم حرصاً على التحقيق وميلاً إلى التحليل ، وإذن فليس يكفيننا أن نقرأ الأغاني ، وتاريخ الطبرى ، وإنما نريد أن نفهم هذين الكتابين وأمثالهما على الوجه الذى يلائم طريقتنا في الفهم ، ومنهجنا في الدرس والتحليل ، ومن هنا لا يجد القراء جميعاً لذة ولا مقنناً في قراءة كتب القدماء ، لأنهم جميعاً لا يملكون مناهج البحث القيم عن آثار القدماء ، ومن هنا كان من الحق أن نقول : إن كتاب الأغاني وتاريخ الطبرى ، وأمثالهما ليست كتب أدب وتاريخ ، وإنما هي مصادر للأدب والتاريخ . ومن هنا نستطيع أن نقول : إن اللغة العربية تخلو إلى اليوم ، وستخلو ، من كتب الأدب والتاريخ إلى أن يتيح لها الله كتباً في هذين الفنين تلائم عقولنا الحديثة ، وتحقق أطماعنا الحديثة ، وترضى حاجاتنا العلمية والفنية .

ولكن مالى ولهذا النحو من الكلام ، وأنا إنما ابتدأت هذا الفصل لأتحدث إليك عن الغزلين وأخبارهم ، أو لأتحدث إليك عن القصص الغراى أيام نبى

أمية ! وكيف استبحت لنفسى أن أجاوز هذا الموضوع المحدد إلى هذا النحو من نقد كتب القدماء والحكم عليها أو لها ! ذلك أتى أريد أن أنتقل من هذا النقد إلى تفسير هذه المواقف المختلفة التي أقفها من كتب القدماء ، وآداب القدماء ، وأحكام القدماء ، والتي يدهش لها كثير من المعاصرين ، ويسخط عليها كثير من المتعصبين ، فأنا لا أفهم الأدب العربي كما كان يفهمه القدماء وكما لا يزال يفهمه أنصار القديم من أدباء اليوم ، وأنا لا أحكم على الظواهر الأدبية كما كان يحكم عليها القدماء ، وكما لا يزال يحكم عليها شيوخ الأدب في أيامنا ، وإنما أفهم الأدب العربي وأحكم على ظواهره كما ينبغي أن يفهمه ويحكم على ظواهره رجل يعيش في القرن العشرين ، ويفهم كما يفهم أهل هذا القرن ، ويطمع في مثل ما يطمع فيه أهل هذا القرن ، ويرى كيف يفهم الأوروبيون أدب اليونان والرومان وغيرهم من الأمم القديمة ، وهو لا يقلدهم تقليداً ، ولا يتكلف محاكاةهم ، وإنما كذلك فطر ، وعلى هذا النحو وحده يستطيع أن يفهم ، فليس عليه لوم ولا جناح ، إذا لم يستطع أن يأخذ روايات القدماء كلها على أنها نقد رائج كما يقول الفرنسيون ، ولا أن يصدق هذه الروايات ، لا لشيء إلا لأن الثقات قد رووها ، فهو يعتقد أن هؤلاء الثقات قد يخطئون في الرواية ، وقد يخطئون في الفهم ، وقد يكون من الحق أنهم عاشوا في عصرهم دون أن يفهموه ، كما يعيش كثير منا في عصرنا دون أن يفهموه . وإذن فنحن حتى عليك ألا تسرف في لومى إذا رأيتنى أنكروا ما يروى من أخبار المجنون ، وقيس بن ذريح وجميل وغيرهم من الغزلين ، بل الحق عليك أن تمضى معى في هذا السبيل التي أنتهجها ، والتي ينبغي أن تكون سبيلك إذا أردت أن تعيش في عصرك حتى تنتهى معاً إلى أقصاها ، فلما أن تنفق ، وإذن فهو الخير ، ولما أن نفرق وإذن فلا بأس عليك ولا على .

- :رأنا إذن أرى في العصر الأموى رأياً يخالف آراء الناس ، كما رأيت في العصر العباسى رأياً يخالف آراء الناس ، أرى أن الرواة والأدباء لم يفهموا عصر بنى أمية على وجهه ، وإنما تورطوا بالقياس إليه في ألوان من الخطأ مصدرها في أكثر الأحيان أنهم لم يحكموا العقل والنقد ، وإنما اكتفوا بالذوق وعدالة الرواة ، ولست أريد أن أجاوز موضوع البحث إلى أكثر من هذا الحد . فلنعد إذن

إلى حيث ابتدأنا من أمر الغزلين .

أذكر أنى عرضت فى السنة الماضية للغزل أيام بنى أمية فقسمته ثلاثة أقسام مختلفة : الأول غزل العذريين الذين كانوا يتغنون فى شعرهم هذا الحب الأفلاطونى العنيف ، كجميل وعروة وقيس بن ذريح والمجنون . والثانى غزل الإباحيين الذين أسميهم « المحققين » وهم الذين كانوا يتغنون الحب ولذاته العملية كما يفهمها الناس جميعاً ، وزعيم هؤلاء عمر بن أبى ربيعة . والثالث الغزل العادى الذى ليس هو فى حقيقة الأمر إلا استمراراً للغزل القديم المألوف أيام الجاهليين ، أريد به الغزل الذى لا يقصد لذاته كما يقول أصحاب المنطق ، وإنما يتخذ وسيلة إلى غيره من فنون الشعر ؛ إلى المدح والهجاء والوصف ونحوها ، أريد به هذا الغزل الذى كان الجاهليون يتدثرون به قصائدهم والذى ظل الإسلاميون يتدثرون به . قصائدهم إلى اليوم ، وهو الغزل الذى تجده فى شعر جرير والفرزدق والراعى وغيلان وغيرهم من شعراء هذا العصر : وما أزال أحفظ بهذا التقسيم دون أن أغير منه شيئاً ، ولكنى لست فى حاجة اليوم لأعرض لهذا الغزل العادى الموروث ، فقد يكون خضع للتطور فى العصر الإسلامى كما خضع للتطور غيره من فنون الشعر ، وقد نعرض لهذا فى يوم من الأيام . وإنما أعنى عناية خاصة بالقسمين الأولين : غزل « العذريين » من جهة ، وغزل « المحققين » من جهة أخرى ، وأحاول أن أتمس الأسباب المختلفة التى أنشأت هذين الفنين فى أيام بنى أمية ، فألاحظ شيئاً أحب أن يلتفت إليه القراء ، وهو أنا لا نجد هذين النوعين من الغزل فى الشام ، ولا فى العراق ، ولا فى مصر ، وإنما نجدهما فى الحجاز ، وما يليه من البلاد العربية الخالصة . أما الشام والعراق ، وهما الإقليمان اللذان كانا مجتمع الحياة السياسية الأموية ، إذ كانت الشام مستقر الخلافة ، وكان العراق مستقر المعارضة . أقول : أما الشام والعراق فلا نجد فيهما إلا نوعين من الشعر : أحدهما الشعر العادى من مدح وهجاء ووصف . والثانى الشعر السياسى الذى كانت تتناضل فيه الأحزاب . وإذن فما تفسير هذه الظاهرة ؟ وما بالناس لا نجد الغزل بقسميه إلا فى الحجاز ، وما يليه من البادية ؟

ثم هناك ملاحظة أخرى أحب أن يلتفت إليها القراء أيضاً . وهى أن

هذين القسمين من الغزل كانا متقاربين لا متجاورين ، أريد أن العنريين والإباحيين كانوا جميعاً في الحجاز وما يليه ، ولكنهم لم يكونوا يعيشون في بيثة واحدة ، وإنما كان فريق منهم يتحضر ، وفريق منهم يبلو . فأما المحققون أو الإباحيون ، فكانوا يتحضررون ، يعيشون في مكة والمدينة ، وأما العنريون فكانوا يبدون في بادية الحجاز أو نجد . وفي الحق أن عمر بن أبي ربيعة كان مكياً قضى حياته كلها في مكة ، وأن الأحوص بن محمد كان مديناً قضى حياته في المدينة ، وفي الحق أيضاً أن جميلاً كان بدوياً في وادي القرى ، وأن قيس ابن خريج كان بدوياً يعيش في بادية المدينة ، وأن الهجنون — إن صحت أخباره — كان نجدياً يعيش في بادية نجد ، وإذن فالغزل بقسميه عربي خالص ، ولست أريد بهذا اللفظ معناه العام ، وإنما أريد معناه الجغرافي ، أى أن هذا الغزل بقسميه قد نشأ في جزيرة العرب خاصة . فأما عفيفه فكان في البادية ، وأما القسم الآخر ، فكان في الحاضرة .

وملاحظة أخرى أحب أن يلتفت إليها القراء أيضاً ، وهى أنا إذا درسنا أخبار الغزلين المحققين أو الإباحيين ، رأيناهم كلهم أو أكثرهم من أبناء المهاجرين والأنصار ، أو من المتصلين اتصالاً قوياً بأبناء المهاجرين والأنصار ، وإذا درسنا أخبار العنريين رأيناهم من قبائل أعرابية ليس لها شأن عظيم في الإسلام ، وإنما هى محفظة احتفاظاً شديداً ببدوايتها القديمة ، وعاداتها الجاهلية الموروثة . أفلا نستطيع أن نستخلص من هذه الملاحظات كلها شيئاً ؟ بلى . ولكنى أريد أن أضيف إليها قبل الاستنتاج ملاحظة أخرى ، وهى أنا نجد في الحجاز ، وفي مكة والمدينة خاصة فنناً آخر نشأ مع هذا الغزل الإباحي ، وهو فن الغناء . ولست فى حاجة إلى أن أثبت لك أن الغناء نشأ فى الحجاز ، وأنه أزهر فى مكة والمدينة ، وأنه لم يكن فى دمشق إلا غريباً ، كان يرتحل إليها من الحجاز حين كان يطلبه الخلفاء . فإذا نستطيع أن نستنتج من هذا كله ؟ نستطيع أن نستنتج أن بلاد العرب — بعد أن تم الفتح للمسلمين ، وبعد أن جاهدت فى الاحتفاظ بالسلطان السيامى ، وأخفقت فى الجهاد إخفاقاً شنيعاً ، وانتقل مركز الحكم منها إلى الشام ، كما انتقل مركز المعارضة منها إلى العراق — انصرفت أو كادت تنصرف عن الاشتراك فى الحياة العامة ، وفرغت للحياة

الخاصة ، فانكبت على نفسها وأحست شيئاً من اليأس والحزن غير قليل ، فهي كانت مهد الإسلام ومصدر قوته ، ومنها انبعثت الجيوش الفاتحة التي أخضعت الأرض ، وأزالت الدول ، وفيها نشأت الخلافة ، ومنها امتد سلطان الخلافة على الأرض ، ثم هي ترى نفسها جردت من كل شيء ، فانتقلت عاصمة الخلافة إلى الشام ، وانتقل جهاد الأحزاب السياسية إلى العراق ، وأساء خلفاء الشام ظنهم ببلاد العرب ، فعاملوها معاملة شديدة قاسية ، وأخذوها بألوان من الحكم لا تخلو من العنف .

ثم لم تكن هذه البلاد العربية خاضعة لليأس وحده ، وإنما كانت خاضعة أيضاً لشيء آخر يناقض اليأس أشد المناقضة ، أو قل يلائم اليأس أشد الملاءمة ، أريد به الثراء ووفرة المال ؛ فقد كان أبناء المهاجرين والأنصار في مكة والمدينة مثرين ، وكانت أيديهم ممتلئة بما ورثوا من هذا النوى الذي أفاءه الله على آبائهم أيام الفتح ، ثم كانوا يحتفظون بمكائنتهم ، ويمثلون الأرسقراطية العربية ، ثم كان الخلفاء يصانعونهم وإن كانوا يعاملونهم معاملة قاسية ، كانوا يكرمونهم إكراماً مادياً : كانوا يدرون عليهم الأموال ، ويوسعون عليهم في العطاء مراعاة لمكائنتهم واصطناعاً لهم ، وكانوا في الوقت نفسه يمسكونهم بمعزل عن الحياة السياسية العملية . وإذا اجتمع اليأس من الحياة العملية إلى الثروة والغنى ، فماذا عسى أن ينتج ؟ اللهو والإسراف فيه والعكوف عليه ، وكذلك أنتج اليأس والثروة في مكة والمدينة ؛ فلها هؤلاء الشبان الأشراف الأغنياء اليائسون ، وأسرفوا في اللهو ، وتعزوا به عن هذه الخيبة التي أصابتهم في الحياة العامة . ومن هنا نشأ عمر ابن أبي ربيعة وأمثلة في مكة ، ونشأ الأحوص بن محمد وأمثلة في المدينة ، ونشأت حولهم هذه الطوائف من المغنين وأهل المزاح .

ولم يكن جانب اليأس والثروة وآثارهما في مكة والمدينة ، نستطيع أن نصيف مؤثراً آخر عمل في بادية الحجاز وما يليها من البلاد العربية . ونحن قبل أن نذكر هذا المؤثر نعلن أنه في حاجة شديدة إلى الدرس ، وأنه قد أظهر آثاره في مظاهر مختلفة ، وأنه قد يجد صعوبة شديدة من شيوخ الأدب في هذه الأيام . وما نحسب أنهم يقرون رأينا فيه ؛ ولكنه مع ذلك حق لا سبيل إلى الشك فيه ، وهو نتيجة اليأس مع الفقر ، نريد به الزهد وشيئاً يشبه التصوف .

كان أهل مكة والمدينة يائسين ، ولكنهم كانوا أغنياء فلهمو كما يلهو كل يائس . وكان أهل البادية الحجازية يائسين ، ولكنهم كانوا فقراء فلم يتح لهم اللهو ، وقد حيل بينهم وبين حياتهم الجاهلية ، وقد تأثروا بالإسلام ، وبالقرآن خاصة ، فنشأ في نفوسهم شيء من التقوى ليس بالخصر الخالص ، وليس بالبدوي الخالص ، ولكن فيه سداجة بدوية ، وفيه رقة إسلامية ، وانصرف هؤلاء الناس عن حروبهم وأسباب لهمم الجاهلي ، كما انصرفوا عن الحياة العملية في الإسلام إلى أنفسهم ، فانكبوا عليها واستخلصوا منها نعمة لا تخلو من حزن ولكنها نعمة زهد وتصوّف . وأنا أعلم أن لفظ التصوّف هنا لا يؤدي معناه الذي أريده ، فقل إنهم انصرفوا إلى شيء من المثل الأعلى في الحياة الخلقية . وظهر هذا الزهد أو هذا الميل إلى المثل الأعلى في مظهرين مختلفين اختلافاً شديداً : أحدهما الزهد الديني الخالص الذي قد تجد له صدى في أشعار هؤلاء الخوارج الذين كانوا يتركون هذه البوادي لينضموا إلى جيوش الخوارج في بلاد الفرس ، والذين يظهر في شعرهم شيء من الزهد والتقوى وشدّة الإيمان وسداجته لا نجده في شعر غيرهم من الشعراء . والآخر هذا الغزل العفيف الذي هو في حقيقة الأمر مرآة صادقة لطموح هذه البادية إلى المثل الأعلى في الحب من جهة ، ولبراءتها من ألوان الفساد التي كانت تغمر أهل مكة والمدينة من جهة أخرى . وإذن فهذان القسمان من الغزل أثر من آثار الحياة السياسية في أيام بني أمية . اضطرت هذه الحياة السياسية أهل الحجاز إلى الابتعاد عن العمل وأوقعت في قلوبهم اليأس ، ولكنها أغنت قوماً فلهمو وفسقوا ، وأفقرت قوماً آخرين فزهّدوا وعصفوا وطمحوا إلى المثل الأعلى . كذلك أفسر ظهور هذين الفنين من الغزل .

ثم لا ينبغي أن أنسى مؤثراً آخر أثر في هذين الفنين تأثيراً عظيماً ، وهو الغناء . فليس من شك في أن المغنين كانوا يتخلون أشعار الإباحيين من أهل مكة والمدينة ، والعنريين من أهل البادية ، موضوعاً للحن والغناء . ولكن هذه الأشعار التي كانت تصدر صلوراً طبيعياً عن الفريقين كانت بطبيعتها أقلّ من أن تكني حاجة المغنين وهذه الألوان المختلفة التي كانوا يتخذونها من اللحن والغناء . وإذن فقد كان هؤلاء المغنون أنفسهم يصطنعون ضرباً من الشعر الإباحي والعنري يغنون فيها . وربما كان هناك شعراء يصنعون لهم هذه الضروب من الشعر ويضيفونها

إلى أهل البادية حيناً وإلى أهل الحاضرة حيناً آخر . ومن هنا تجد في هذه الأشعار التي تضاف إلى الفريقيين من الغزلين ألواناً مختلفة من الشعر ، منها ما لا تشك في أنه فطري قد صدر عن الطبيعة دون تكلف ولا تصنع ؛ لأنه يصف عاطفة قوية أو يمثل شعوراً حاداً أو يحتفظ بيدواة لا تحتمل الشك . ومنها ما يظهر فيه الصنعة ويلمس فيه التكلف لمساً ، وتشعر حين تقرأه أو تسمعه أنه قد عمل ليغنى فيه لا ليصف عاطفة ولا ليمثل شعوراً .

نحسب أننا قد وصفنا مع ما تحتمله صحيفة سياراة من الوضوح نشأة النسيب أيام بني أمية والأسباب التي دعت إليها . وقد أطلنا في هذا وتعمدنا الإطالة ؛ لأنه سيعيننا على فهم الموضوع الذي ندرسه ، وهو القصص الغرامي أيام بني أمية .

كـنعتقد — ونرجو ألا يغضب المحافظون من الأدباء — أن القصص الغرامي أثر من آثار الغزل بقسميه ، لا أن الغزل أثر من آثار هذا القصص . نعتقد أن الشعراء من أهل البادية والحاضرة في البلاد العربية تأثروا بكل هذه المؤثرات التي ذكرناها ، فقالوا ما قالوا من الشعر العفيف وغير العفيف وغنى فيه المغنون ، ثم كثر هذا الشعر واحتاج الناس إلى تفسيره ووصل بعضه ببعض ؛ فنشأت لإرضاء هذه الحاجة هذه الأفاصيص الغرامية التي يمتلئ بها كتاب الأغاني وغيره من كتب الأدب . وقد يميل الباحث إلى أن يفترض عكس ما قدمنا فيقدر أن هذه الأفاصيص أنشئت بادئ بدء لتلهية الناس وتسليتهم ، وأن القصص نحلوا هذا الشعر الغرامي على اختلاف ألوانه تحلية لقصصهم ومبالغة في تعظيم شأنها . ولكن هذا الافتراض بعيد عن أن يلائم الحق ؛ فهو يستلزم أن يكون كل شيء في هذه القصص وفي هذا الشعر متكلفاً مصنوعاً . وقد قدمنا أن هذا الشعر ظاهرة طبيعية في البلاد العربية . والأشبه هو ما ذهبنا إليه من نشأة الغزل بقسميه أولاً ، ثم نشأة القصص حول هذا الغزل ثانياً .

على أننا لا ننكر أن كثيراً من هذا الشعر قد نحله القصاص وتكلفوه تحلية لقصصهم وتزييناً لها ، وتعليلاً لما ورد فيها من الأخبار . ويمكن أن تقرأ أخبار هؤلاء الشعراء في الأغاني وغيره لتبين من هذا الشعر شيئاً كثيراً .

وخلاصة القول في هذا الموضوع أننا لا نشك في أن شعراء من أهل البادية والحاضرة في الحجاز قد انقطعوا لهذين النوعين من الغزل فأجادوهما وأكثروا

منهما ، ثم نشأت حول أشعارهم قصص ليس لها غرض إلا تفسير هذه الأشعار
 ووصلها واتخاذها وسيلة إلى تسلية الناس . وإذن فلسنا ننكر وجود جميل ، بل
 لسنا ننكر أنه أحب بثينة . ولسنا ننكر وجود قيس بن ذريح ، بل لسنا ننكر
 أنه تغزل في لبنى . ولكننا نزعّم أن هذه الأخبار التي تروى عن حب جميل
 وقيس لبثينة ولبنى مصنوعة متكلفة في أكثر الأحيان ، وأن تكلفها أحدث
 إلى جانب هذين الفنين الشعريين اللذين ذكرناهما فنناً نثرياً جديداً هو فن
 القصص الغرامى .

والآن يحسن أن نتخذ هذه القصص أنفسها موضوعاً للبحث في فصل
 نقارن فيه بينها ، ونبين ما لها من مزايا ، وما لها من عيوب ؛ حتى إذا فرغنا من
 ذلك عمدنا إلى الشعر الغزلى نفسه فاتخذناه موضوعاً للبحث . وسيكون هذا كله
 موضوع الأحاديث المقبلة .

البوليجين ، في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٤

الغزلون وأخبارهم (١)

تحدث الأصمعي قال : « سألت أعرابياً من بني عامر بن صعصعة عن
المجنون العامري فقال : عن أيهم تسألني ؟ فقد كان فينا جماعة رموا بالمجنون .
فعن أيهم تسأل ؟ فقلت : عن الذي يشب بليلى ؛ فقال : كلهم كان يشب
بليلى . قلت : فأنشدني بعضهم ؛ فأنشدني لزاحم بن الحارث المجنون :

ألا أيها القلبُ الذي لَجَّ هائِماً وليبدأ بليلى لَمْ تُقَطِّعْ تَمائمَه
أفنى قَدْ أَفاقَ العاشِقُونَ وَقَدْ أَنى لَكَ اليَوْمَ أَنْ تَلْقَى طَبِيباً تَلاحمَه
أجدك لا تنسيك لَيْلى مُلِمَّةٌ نلِمْ ولا عهدٌ يَطولُ تَقادِمَه

قلت : فأنشدني لغيره منهم ؛ فأنشدني لمعاذ بن كليب المجنون :

ألا طالما لَاعَبْتَ لَيْلى وَقادِنى إلى اللّهُو قَلْبٌ لِلحِسانِ تَبِوعُ
وطالَ أَمْتِراءِ الشُّوقِ عَنى كُلمًا نَزَفْتُ دَموعاً تَسْتَجِدُّ دُموعُ
فَقَدَّ طالَ لِإمساكِ عَلى الكَبِيدِ الِتى بِها مِنْ هوى لَيْلى الغَداءَ صُليوعُ

قلت : فأنشدني لغير هذين ممن ذكرت ؛ فأنشدني لمهدى بن الملوح :

لوَ أَنْ لَكَ الدُّنياَ وما عُدِلتْ بِه سواها وَلَيْلى حائِلٌ عَنكَ بَيْنُها
لَكنتَ إلى لَيْلى فَقِيراً وإِنا يَقُودُ إليها وَدُ نَفْسِكَ حَينُها

قلت له : فأنشدني لمن بى من هؤلاء . فقال ؛ حسبك ! فوالله إن فى

واحد من هؤلاء لمن يوزن بعقلائكم اليوم .

ولو سأل الأصمعي أعرابياً آخر غير هذا الأعرابي من قبيلة أخرى غير
قبيلة بنى عامر عن شاعر من شعراء قومه نسب بليلى أو بثينة أو بليلى أو بعزة

(١) نشرت مجريدة « السياسة » فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

أو برياً ، لأجابه الأعرابيّ هذا الجواب أو شيئاً يشبهه ، ولأنشده شعراً كثيراً لشعراء كثيرين . كلهم ينسب بفتاة من فتيات قومه وجدت حقاً أو اخترعها خياله اختراعاً .

على ذلك أن الأمر كما قلت لك في الفصاين الماضيين ، من أن عصرًا قد مرّ على الحجازية : بدوهم وحضرم ، تأثروا فيه بتلك المؤثرات التي فصلتها ، فظهر فيهم الغزل بقسميه : العفيف وغير العفيف . ومهما يقل القائلون فلن يستطيعوا أن يغيروا رأيي في هذا الأمر ، وهو أن الكثرة من هؤلاء الشعراء ، ومن الفتيات اللاتي كانوا يتغزلون بهنّ ، إنما هم جميعاً رموز لا حقائق ، فقيس بن الملوّح أو المحنون مثل من أمثلة هؤلاء الشعراء الذين كانوا يتغزلون : لأن المؤثرات مختلفة عبت بنفوسهم وعواطفهم فأحدثت فيها شيئاً من الرقة واللين لم يكن مألوفاً ، وأحست هذه النفوس حاجتها إلى الحب ، وإلى تغني الحب فنطقت بهذا الشعر العذب الذي نسميه النسيب .

ولست أدري أو وجدت ليلي العامرية حقاً أم لم توجد ؟ ولكني أعلم أن ليلي عند العرب في ذلك العصر كانت شيئاً يشبه « هيلانة » عند اليونان في عصر الأبطال ، وكذلك قل في لبني وبثينة وعزة ورياً وغيرهنّ من النساء اللاتي ألهمن هؤلاء الشعراء المحبّولين غزلهم ونسيبهم ، على أني مضطر أن ألاحظ حقيقتين متناقضتين ولكن فهمهما يسير :

(الأولى) أن هذا الشعر العذري الذي وصفت لك أسباب ظهوره في العصر الأمويّ جيد في جملة حقاً يمتاز بخصلتين : إحداهما البداوة التي تكسب لفظه رصانة في غير عنف ولا جفوة ، وتكسب معناه سداجة في غير سخف ولا إسفاف . والثانية الصدق في وصف العاطفة وتمثيلها ، بحيث لا تكاد تقرأ هذا الشعر حتى تتأثر به ، وتقطع بأن قائله لم يكن متكلفاً ولا متحلاً ، وإنما كان رجلاً يألم حقاً ويصف ألمه وصفاً صادقاً . أو قل : كان رجلاً يألم وكان ألمه يصف نفسه . وانظر إلى هذه الآيات :

ولم أرَ لَيْلَى بَعْدَ مَوْقِفِ سَاعَةٍ بِيَطْنِ مِئِي تَرْمِي جِمَارَ الْمُحْصَبِ
ويُبْدِي الْحَصَى مِنْهَا إِذَا قَدَفَتْ بِهِ مِنْ الْبُرْدِ أَطْرَافَ الْبَنَانِ الْمُخْضَبِ
فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الْغَدَاةَ كَنَاطِرٍ مَعَ الصَّبْحِ فِي أَعْقَابِ نَجْمٍ مُغْرَبِ

ألا إنما غادرت يا أم مالك صدى أينما تذهب به الريح يذهب
 وحدتى ، أتجد في هذا الشعر لفظاً حوشياً أو مبتدلاً ؟ أتجد فيه معنى
 جافاً أو سخيلاً ؟ ألت تحسّ في لفظه جلالاً ، وفي معناه رقة وليناً ، وفي روحه
 ألماً ولوعة ؟ انظر إلى هذا الشاعر كان يحج ، وما أحسب أنه كان يعرف ليل
 هذه أو يتعشقها من قبل ، ولكنه ذهب يؤدي الفريضة الدينية وفي نفسه ما تعلم
 مما وصفت لك من هذا الشوق إلى الجمال ، والطموح إلى المثل الأعلى ، والميل
 الذي أسمىه تصوفاً ، لأنى لا أجد لفظاً آخر أطلقه عليه .

ذهب هذا الشاعر إلى الحج ، وكان المجتمع بمنى ، فرأى فيمن رأى هذه
 المرأة الجميلة التي خلبتة ، وصادفت هوى نفسه إلى الجمال وطموحها إلى الأناس ،
 ولكنه لم يستطع أن يدنو منها ، ولا أن يتحدث إليها ، ولا أن يتبين من أمرها
 شيئاً . ثم انصرف الناس فلم يبق في نفسه من هذه المرأة ، أو قل من هذا الأمل
 القوى الذي هزّ نفسه ، إلا ذكرى أعقبته يأساً ولوعة ، وردته إلى ما كان فيه
 قبل أن يراها من غلة يتحرّق لها دون أن يستطيع لها شفاء . أليس هذا هو
 الذى تحسه في هذا الشعر ؟ ألت تعجب معى بهذا القصد في اللفظ والمعنى ؟
 لم ير ليل بعد موقف ساعة بمنى حين كانت ترى الجمال ، أو حين كانت
 حركاتها الحلوة الرقيقة المحتشمة تعبث بنفسه ، حين كان رميا الجمال يظهر
 أطراف أصابعها الحسان ، وقد طمع في هذه المرأة وطمحت نفسه إليها ، ولكنها
 فاتته فليس له فيها أمل ، فهو ينظر إليها كما ينظر إلى النجم يهوى آخر الليل
 وليس من سبيل إلى إدراكه ، وقد وقع من نفسه اليأس موقفاً شديداً فسلبها
 قوتها وثباتها وقدرتها على المقاومة ، فهي أداة تعبث بها الأهواء ، وتتنازعها
 العواطف والميول :

ألا إنما غادرت يا أم مالك صدى أينما تذهب به الريح يذهب
 وانظر معى إلى هذه الأبيات :

وخبرك الوائشون أن لن أجيبكم بلى وستور الله ذات المحارم
 أصد وما الصد الذى تعلمينه شفاء لنا إلا أجترع العلاقم
 حياءً وبقياً أن تشيع نائمة بنا وبكم ، أف لأهل النائم

فا تقول في هذا اللفظ الجيد ، وفي هذه العاطفة الصادقة ، وفي هذا المعنى الذى يرى من كل إسراف ، وفي هذه الصراحة التى برئت من كل نفاق ؟
 زعموا لك أنى لا أحبك لأنى لا أزورك ولا أصلك . كذبوا ، وإنك لتعلمين أنهم كاذبون . وإنك لتعلمين أنى أنكلف هذا الصدّ وأتجشم فيه الأهوال إبقاء عليك وعلى ، وحرصاً على شرفك ، فأفّ لأهل النمام . مثل هذا الشعر لا يمكن أن يوصف بالكذب ، ولا أن يعاب بالغموض أو الابتدال . ثم انظر إلى هذا الشاعر نفسه يمضى فى قصيدته ، تجد تصديق ما قدمت لك من أن سلطان المرأة على نفوس هؤلاء الأعراب كان قد انتهى إلى منزلة لا تعدلها منزلة :

وإنّ دماً لو تعلّمينَ جنيتيه على الحى جاني مثله غيرُ سالمٍ
 أما إنّه لو كانَ غيرُكِ أرقلتِ . إليه القنا بالراعفاتِ اللهازمِ
 ولكنّ لعمرُ الله ما كلُّ مُسلمٍ كُفّرُ الثنايا واضحاتِ المعاصمِ
 إذا هُنَّ ساقطنَ الحديثَ ليدى الهوى سقاطَ حصى المِرجانِ مِن كَفِّ ناظِمِ
 رمينَ فأقصدنَ القلوبَ فلمَ نجدُ دماً مائراً إلا جوى فى الحيازمِ

انظر إلى هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة التى يقسم فيها الشاعر ما أهدر دماء المسلمين شئاً كما يهدرها الحب . وانظر إلى هذين البيتين الأخيرين اللذين يمثلان تأثير حديث النساء فى نفوس الفتيان . إذا تحدثن إلينا قتلنا بهذا الحديث الذى ينثره كما ينثر اللؤلؤ من العقد ، قتلنا ولكن لم يسفكن دماءنا ، فأنت لا ترى هذه الدماء تسيل ، وإنما أيقظن جوى يضطرم بين الضلوع .

ولو أنى أردت أن أضرب لك الأمثال التى تثبت جمال هذا الشعر وبهجته وروعته وصدقه لأطلت وأسرفت فى الإطالة . على أنى سأعود فأخصص له فصلاً أو فصولاً . وإنما ضربت ما ضربت من هذين المثلين لأثبت إحدى هاتين الحقيقتين اللتين ذكرتهما ووصفتها بالتناقض منذ حين . قلت إن هذا الشعر العذرى جميل جيد ؛ ولكن هناك حقيقة أخرى ، وهى أن أخبار العذريين

أو القصص التي نسجت حول أشعارهم ليست شيئاً يذكر بالقياس إلى هذه الأشعار : فيينا تجد في هذه الأشعار من صدق اللهجة وحرارة العاطفة وحدة الشعور ما يملك عليك نفسك ، لا تجد في هذه الأخبار التي تروى حول هذا الشعر إلا تكلفاً وتصنعاً وإسرافاً في المبالغة واتباء إلى السخف . فكيف تستطيع أن تفسر هذا ؟ كيف تستطيع أن تلتأم بين سخف هذه الأخبار وجودة هذا الشعر ؟ وهل يمكن أن تلهم الحوادث السخيفة الفاترة شعراً جيداً حاراً ؟ كلا ! ... إنما أنت مضطر إلى أن تذهب مذهبي ، وهو أن هذا الشعر قد صدر صدوراً طبيعياً عن قوم كانوا يشعرون ويألون ، ويصفون آلامهم ويمثلون شعورهم ؛ وأن هذه القصص قد أنشئت فيما بعد ، أنشأها رواة هادئون لم يكونوا يجدون في أنفسهم ما كان يجد هؤلاء الشعراء من لوعة وأسى ، ومن ألم وحسرة على آمال يطمعون فيها ويطمحون إليها دون أن يظفروا منها بشيء . وبعبارة واضحة : كان شعر هؤلاء الغزلين يصف نفوسهم ، وكانت أقاصيص هؤلاء الرواة لا تصف شيئاً إلا طمع أصحابها في إرضاء الجماهير . ومع ذلك فإننا نجد بين هذه القصص ضروباً من الاختلاف وضروباً من التشابه ، لا بأس بالوقوف عندها حيناً ، فقد نستفيد منها أشياء كثيرة .

وأحب أن ألاحظ قبل كل شيء أن هذه القصص جميعاً تشترك في خصلة واحدة لا تمتاز بها عن غيرها من الأخبار ، وهو هذا الجمال الفني اللفظي الذي تجده في القصص وفي سياق الرواية . ولست أغلو إن قلت إن قطعاً من هذه الأخبار تصلح نماذج يحسن أن يتأثرها الكتاب الذين يحرصون على الإجابة . وسأروى لك من هذا أمثالا . ولكني أعود فأقول : إن هذه ليست ميزة لهذا النوع من القصص ، وإنما هي لغة الرواة في ذلك العصر ، كان لها حظ من الصفاء والجمود والسذاجة البدوية والحلو من التكلف اللفظي قلما تجده عند الكتاب المتأخرين . وأحسب أن من خير ما ينبغي أن يقرأ الكتاب ، الذين يحرصون على الإجابة ، نثر هؤلاء الرواة في الأغاني وفي تاريخ الطبري وما يشبههما من كتب الأدب والتاريخ .

لا أعرض في هذا السبيل إلا لثلاث من هذه القصص : قصة المجنون ، وقصة قيس بن ذريح ، وقصة جميل . وإذا أردت أن أحكم على هذه القصص

فأنا مضطر إلى أن أسجل أن أشدها سخفاً وأكثرها غلوّاً وإحالة ، وأخلاها من المغزى النافع أو المعنى المفيد ، قصة المجنون . فلست تجد في هذه القصة شيئاً يبين لك شخصية هذا الرجل الذى اتخذ لها بطلاً . بل كل ما تجده ألوان من المبالغات وضروب من الإسراف .

* * *

قيس بن الملوّح رجل أحب ليلي حين كانا طفلين ، أو أحبها حين كانا على حظ من الشباب ، ولكن هذا الحب يظهر دائماً مظاهر غريبة غير مألوفة ولا ملائمة للطبيعة الإنسانية حتى طبيعة العشاق المدلّين . فلست أعرف عاشقاً أغمى عليه كما أغمى على قيس بن الملوّح . ولست أعرف عاشقاً شق وزفر كما شق قيس بن الملوّح وكما زفر . كان يكفي أن تتحدث إليه ليلي بمحديث يشعره أنها تحبه ليسقط على وجهه مغشياً عليه . وكان يكفي أن يذكر له شيء عن ليلي يدل على أنها تحبه ، أو يدل على أنها تعرّضت لمكروه ، ليسقط على وجهه مغشياً عليه . بل كان يكفي أن تتحدث إليه عن ليلي ليسقط على وجهه مغشياً عليه . كان يقضى حياته كلها أو أكثرها ساقطاً على وجهه مغشياً عليه ، أو قل إنه كان يقضى حياته كلها إما ساقطاً على وجهه وإما هائماً على وجهه ، فهو لم يعرف أو لم يكده يعرف الحياة الهادئة العاقلة ، وإنما كانت حياته كلها اضطراباً ، كانت حياته مقسمة بين إغماء وجنون .

هذه هي الصورة التى تستطيع أن تستخلصها من قصة المجنون ، وإذا كان المجنون قد أنفق حياته بين الجنون والإغماء . فليس يسيراً أن تتبين شخصيته ولون نفسه ، ولا أن تتميز عواطفه وخصاله . فليست له عاطفة ولا خصلة ، وإنما هو مريض ، إما مغشياً عليه وإما مجنون ؛ أو قل : إن الجنون والمرض هما اللونان اللذان يميزان نفسه ويحدّدان شخصيته . مثل هذا الشخص لا يمكن أن يكون حقيقة ؛ وإن كان حقيقة فلا يمكن أن يصدر عنه شعر متقن كبعض هذا الشعر الذى نقرؤه ، ولا يمكن أن يكون بطلاً لقصة صادقة ، وإنما هو رجل خليق بالبيارستان ، بل هو لا يصلح بطلاً لقصة خيالية منحولة ، فن الخير أن يتخترع الكاتب وأن يتخيل ، ولكن من الحق عليه أن يجتهد في ألا يكون خياله سخفاً واختراعه محالاً ، ذلك أنه يتعرّض بهذا إلى أن يكذبه الناس

ويسخروا منه ومن خياله ، وقد سخر الناس من واضع قصة المجنون وكذبوه ، فقد ذكرت لك في غير هذا الفصل أن الثقات من الرواة ينكرون وجود المجنون أو يشكون فيه أو يختلفون في أمره اختلافاً عظيماً . والغريب - أو المعقول - أنهم لا ينكرون قيس بن ذريح ولا جميلاً ولا يشكون فيهما ولا يكادون يختلفون في أمرهما . فلم هذا ؟ لأن قصة المجنون سخيصة ضعيفة مملوءة بالإحالة والمبالغة ، لا يستطيع الناس أن يؤمنوا لها أو يطمئنوا إليها مهما يكن حظهم من السداجة . وكيف تريدني على أن أومن لهذا الخبر الذي يزعم أن المجنون وقف يتحدث إلى ليلي وفي يده نار فأخذت النار تحرق برده حتى أتت عليه ونالت من جسمه وهو لا يشعر ! ثم كيف تريدني على أن أصدق أن هذا الرجل جنّ وانتهى به الجنون لا إلى أن يهيم على وجهه ، بل إلى أن يستأنس الوحش ويعيش معها كما كان يعيش مع الإنسان أما أن يؤثر هذا الوحش فقد نفهمه ، ولكن من فيلسوف لا من مجنون ! وأما أن تؤثره الوحش وتأنس إليه فشيء يحسن أن نسأل عنه علماء الحيوان . ومع هذا فأحب أن تقرأ من أخبار هذا المجنون القصة التي يرويها رجل من بني مرة ويصف فيها موت المجنون وأثر موته في قومه . فستجد في هذه القصة لفظاً عذباً وأسلوباً متيناً ، وتجدها في الجزء الثاني من الأغاني (صحيفة ١٤ جزء ثان طبعة بولاق) .

* * *

أما قصة جميل فلست أدري بم أصفها ! فيها سخف كثير ، وفيها إحالة كثيرة ، وما أحسبها أصدق من قصة المجنون . ولكن جميلاً رجل تاريخي وجد حقاً وشعره واضح للدلالة على شخصيته ، ولم يكن مجنوناً ولا مذهبياً به ، بل لم يكن ذاهلاً . ومن هنا خلقت قصته من هذه الألوان التي ننكرها في قصة المجنون ؛ خلقت من هذه الألوان وامتلأت بألوان أخرى أقل ما توصف به أنها تناقض الحب العذري ، ولا تلتأم هذا الهوى الذي يحزن النفس ويملأ القلوب حسرة . ولست أذكر لك من هذه الألوان إلا لونين اثنين : أحدهما يدل على أن واضع القصة كان رجلاً متكلفاً ميالاً إلى المحاجاة ، فإنك تجد في غير موضع من أخبار جميل ضرباً من الرمز والإلغاز بين هذين العاشقين حين كانت تتصل بينهما الرسائل . وأرى أن أروى لك أحد هذه الألغاز لتشعر

معى أنه متكلف من غير شك ، ولتغنيى عن الاستدلال . تحدث كثير قال :
 « لقيى مرة جميل فقال لى : من أين أقبات ؟ قلت : من عند أبى الحبيبة ،
 أعنى بشينة ؛ فقال : وإلى أين تمضى ؟ قلت إلى الحبيبة ، أعنى عزة ؛ فقال :
 لا بدّ من أن ترجع عودك على بدئك فتستجدى لى موعداً من بشينة . فقلت :
 عهدى بها الساعة ، وأنا أستحي أن أرجع ! فقال : لا بد من ذلك . فقلت
 له : فتى عهدك ببشينة ؟ فقال : فى أول الصيد وقد وقعت سحابة بأسفل وادى
 الدوم فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابها ، فلما أبصرتنى أنكرتنى ، فضربت
 يديها إلى ثوب فى الماء فالتحفت به ، وعرفتنى الجارية ، فأعدت الثوب فى
 الماء ، وتحدثنا حتى غابت الشمس ؛ وسألها الموعد فقالت : أهلى سائرون ؛
 وما وجدت أحداً آمنه فأرسله إليها . فقال له كثير : فهل لك فى أن آتى
 الحى فأنزع بأبيات من شعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخلوة
 بها ؟ فقال : ذلك الصواب ؛ فأرسله إليها ، فقال له : انتظرنى . ثم خرج
 كثير حتى أناخ بهم ؛ فقال له أبوها : ما ردك ؟ قال : ثلاثة أبيات عرضت
 لى فأحييت أن أعرضها عليك ؛ قال : هاها ؛ قال كثير : فأنشدته وبشينة
 تسمع :

فَقَلْتُ لَهَا يَا عَزُّ أَرْسِلْ صَاحِبِي إِلَيْكَ رَسُولًا وَالْمَوْكَلُّ مُرْسِلُ
 بِأَنْ تَجْعَلِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا وَأَنْ تَأْمُرِنِي مَا الَّذِي فِيهِ أَفْعَلُ
 وَأَخِيرُ عَهْدِي مِنْكَ يَوْمَ لَقِيْتِنِي بِأَسْفَلِ وَادِي الدَّوْمِ وَالثُّوبِ يُغْسَلُ

قال : « فضربت بشينة جانب خدرها ، وقالت : انخسأ ! انخسأ ! فقال
 أبوها : مههم يا بشينة ؟ قالت : كلب يأتينا إذا نؤم الناس من وراء الراية !
 ثم قالت للجارية : ابغينا من الدومات حطباً لنذبح لكثير شاة ونشويها له ؛
 فقال كثير : أنا أعجل من ذلك . فراح إلى جميل فأخبره ؛ فقال له جميل :
 الموعد الدومات (الأغانى ص ٨٦ جزء ٧ طبعة بولاق) .

فما رأيك فى هذه القصة ، وفى هذه المصادفة البديعة التى أتاحت لكثير
 أن ينصرف من عند أبى حبيبة جميل إلى حبيبتة هو ، وأن يأتى جميلا فى هذه
 الساعة ؟ ثم فى هذه الأبيات السخيفة المتكلفة ؟ ثم فى جواب بشينة « كلب يأتينا

إذا نَوَمَ الناس من وراء الراية . . . ؟ جعلت صاحبها كلباً ، ثم في صمت
أبي بثينة وانخداعه إلى هذا الحد ؟ أظن أني لست في حاجة إلى أن أقول : إن هذه
القصة نوع من هذه النوادر التي كان يندّر بها الناس على الأعراب .

اللون الثاني : شيء من الغدر لا يمكن أن يصدر عن حبيب عنصري كما
نفهمه ، ولا كما كان يفهمه القدماء . زعموا أن أهل بثينة أذاعوا في الناس
أن جميلًا لا ينسب بابنتهم ، وإنما ينسب بأمة لهم ، فغضب جميل لهذه القالة
وأراد أن يكذبها ، فواعد بثينة والتقيا ذات ليلة فتحدثا ، ثم عرض عليها جميل
أن تصبح ، فأنعت ثم قبلت ، فاضجعت وأخذها النوم ، فلما استوثق جميل
من ذلك نهض إلى راحلته ففضى ، وأصبح الناس فرأوا بثينة نائمة في غير بيتها ،
فلم يشكوا في أنها كانت مع جميل . وقال جميل في ذلك شعراً . أظن أن مثل
هذا الخبر يمكن أن يكون حقاً ، وأن رجلاً كجميل كان يجب بثينة حباً
كالذي نجده في شعره يستطيع أن يعرضها لمثل هذه الفضيحة !

وهناك لون آخر يحسن أن أشير إليه ، وهو أن صانع هذه القصة كان
فيما يظهر متأثراً بشعر امرئ القيس من جهة ، وعمر بن أبي ربيعة من جهة
أخرى ، فأنت تذكر قصيدة امرئ القيس التي أولها :

أَلَا عَمَّ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي ؟

وأنت تذكر أن امرأ القيس يحدثنا في هذه القصيدة بقصته مع صاحبتة
حين زارها ففضى معها الليل ، وذكر زوجها فسخر منه واعتز بسيفه وسهامه
فقال :

يَغْطُ غَطِيطَ الْبَكْرِ شُدَّ خِنَاقَهُ لِيَقْتُلُنِي وَالْمَرْءُ لَيْسَ يَقْتَالِ

أَبَقْتُلُنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرُقٌ كَأَنْيَابِ أَعْوَالِ

وأنت تذكر قصيدة عمر بن أبي ربيعة التي أولها :

أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتَ غَادَ فَمُبَكَّرٌ غَدَاةَ غَدٍ أَمْ رَاتِحٌ فَمَهْجَرٌ
والتي ذكر لنا فيها قصته حين زار صاحبتة ففضى معها الليل ، ثم أسفر
الصبح وأراد أن ينصرف ، فأشفقت عليه صاحبتة من الحى فقال :

فَقُلْتُ أَبَادِيهِمْ فِيمَا أَفْوَتْهِمْ وَإِمَا يَنَالُ السَّيْفُ ثَارًا فَيُثَارُ

ولكنها أشفقت عليه وكرهت هذه المخاطرة ودعت أختها وتشاور القوم
وانتهوا إلى أن اقتنع عمر وخرج يبين كأنه إحداهن ، وقال :

فكان مِجْنَى دُونَ ما كُنْتُ أَتَقِي ثلاثُ شُخُوصٍ : كاعِيانٍ ومُعَصِرُ

كان واضح هذه القصة متأثراً بشعر هذين الرجلين ، فهو يمثل لنا جميلاً
في أكثر الأحيان عند بثينة ليلاً ، ثم يسفر الصبح ، أو يكاد ، فتشفق بثينة
وتأمر صاحبها أن ينصرف خوفاً عليه ، فيأبى معتزلاً بسيفه وسهامه ، ولكن بثينة تلح
عليه وتذكر أنها تخشى الفضيحة ، وحينئذ ينصرف جميل .

والغريب أن جميلاً مثل في هذه القصة ما ذكره عمر بن أبي ربيعة ، ولكن
في صورة أشد إجحالا وخزياً مما ذكره عمر . زعموا أنه لقي حى بثينة في بعض
سفرهم ، وكان الليل قد تقدم فرمى حصاة لينبه بثينة ، فأصابت الحصاة صاحبة
لها فاضطربت وجزعت وما شكت في أنه جنى ، وأقرتها بثينة على ذلك ، وهي
تعلم أن هذا الجنى هو جميل . فلما انصرفت هذه المرأة خلت بثينة إلى جميل
فتحدثتا ليلهما . ثم اضطجعا فأخذهما النوم ، وأسفر الصبح وأقبل غلام زوجها
يحمل إليها صبوحتها من اللبن فرأها مضطجعة إلى جانب جميل ، فانصرف مذعوراً
يريد أن ينبئ سيده ، ولقيته صاحبة لبثينة فاستوقفته وعلمت علمه - وكانت
صديقة لبثينة شفيقة على حباها - فاحتجزت الغلام وتلطفت في إرسال جارية لها
لبثينة تحذرهما ، وفعلت الجارية ، وأتمرت بثينة وجميل ماذا يصنعان . فأما جميل
فأراد أن يلتقي القوم واعتز بسيفه وسهامه ، وأما بثينة فأشفقت عليه من سيوف قومها
وخافت على نفسها الفضيحة ؛ وما زالت به حتى أقنعتة فنام ووضعته عليه من
الوسائد والأحمال ما أخفاه ، ثم جاءت صاحبها فاضطجعت إلى جانبها وأظهرتا
النوم ، وأقبل زوجها وأبوها وأخوها فلم يروا جميلاً وإنما رأوا امرأتين مضطجعتين ،
فانصرفوا خجلين ؛ وقضى جميل يومه مع بثينة .

وأخبار جميل من هذا النحو كثيرة ، وهي لا تدل إلا على أن واضح هذه
القصة كان مقلداً قليل البضاعة يلتمس أخباره حيث وجدها دون أن تكون
له شخصية قوية .

وفي الحق أن قصة جميل تخلو خلواً تاماً من النفع والفائدة . أحب جميل

بشينة وخطبها فأبوها عليه وزوجها غيره . واشتد هيامه بها وهيامها به ، فكانا يتواعدان ويلتقيان ، وأمضى هو حياة يقول فيها الشعر . وبطبيعة الحال تدخلت الحكومة في أمر جميل كما تدخلت في أمر هؤلاء العشاق جميعاً ، فأهدرت دمه ، فاضطر إلى أن يضرب في الأرض ، فذهب إلى اليمن وذهب إلى الشام ، وذهب إلى مصر وفيها مات .

والغريب من أمر جميل أن الرواة يذكرون اتصاله بالخلفاء من بني أمية ، فيزعم بعضهم أنه اتصل بمرwan بن الحكم ، ويزعم آخرون أنه اتصل بالوليد ابن عبد الملك ، ويقول : إن بشينة نفسها دخلت على عبد الملك ، وكان بينها وبينه مزاح . فكيف مع هذه الصلات أهدر السلطان دم جميل حتى اضطر إلى أن يهرب في أقطار الأرض ويموت غريباً ! . . .

كل هذه الأخبار متكلفة منحولة قد وُصل بعضها ببعض تفسيراً لشعر جميل وتلهية للناس ، ولكن هذه القصة كما قلت لا تدل كقصة المحنون على براعة صاحبها أو أصحابها ؛ وإنما هناك قصة أخرى هي خير هذه القصص . لها قيمتها ، وليست هذه القيمة قليلة ولا ضئيلة . وأحسب أن هذه القصة هي خير ما حفظ لنا من القصص الغرامية أيام بني أمية : أريد بها قصة ابن ذريح . ولكني لا أحدثك عنها اليوم فرمما احتاجت لفصل خاص .



الغزلون^(١)

قصة قيس بن ذريح

أما هذه فقصة جيدة حقاً ، لا ينبغي أن تقرن إلى هذا السخف الذي تحدثت الرواة به عن المجنون ، ولا إلى هذا الفتور الذي ذكروا به حب جميل .
وما أظن إلا أن واضح هذه القصة قد امتاز من الذين وضعوا أنواع القصص الغرامية بشيء من الإجادة والبراعة لم يسبق إليه ولم يلحق فيه ؛ فيها ما في غيرها من القصص من هذه الصفات المشتركة التي لا يكاد يخلو منها حب علري :
فيها مثلاً تدخل الحكومة بين العاشقين ، أو بين العاشق وبين حبيبته ، وفيها هذه المبالغات التي لا بدّ منها والتي تشرف بالعاشق على الموت وتكافئه ألواناً من الخطوب وتعرضه لضروب من المرض . ثم فيها هذه الأحاديث الكثيرة التي لا رأس لها ولا ذيل - كما يقول الفرنسيون - والتي إنما اخترعت اختراعاً لتفسير شعر جميل وقع إلى الرواية فأراد أن يجد له تأويلاً . فيها كل هذا ، فهي من هذه الناحية تشبه قصة المجنون وتشبه قصة جميل وتشبه غيرهما من القصص .

ولكنّ فيها شيئاً تمتاز به ، وتستمد منه قيمتها ونفعها وانفرادها بالجودة والإتقان ، وهو أنها قصة إنسانية ؛ أريد أن الخيال لم يبتدعها اختراعاً وإنما ألفها تأليفاً . والفرق بين الاختراع المطلق والتأليف واضح ، فقد يستطيع الكاتب أن يبتدع أشياء يضيف بعضها إلى بعض دون أن يكون لهذه الأشياء أصل في الحياة الواقعة ، وهو إذن سخيف حقاً . وقد يستطيع أن يؤلف بين أشياء مختلفة يأخذها من الحياة الواقعة ولكنه لا يوفق إلى موضع الصلة بين هذه الأشياء فتخطئه الإجادة ويتورط في الخطأ أو سوء الذوق أو رداءة التأليف . وأنت تجد هذين النوعين في قصة المجنون وفي قصة جميل .

أما هذه القصة التي نحن بإزائها فقد وفق صاحبها إلى حسن التأليف وحسن

(١) نشرت بمجريدة السياسة في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

الذوق ، ووصف فيها أشياء تجدها في الحياة اليومية الواقعة وأتقن وصفها ، حتى إن قصته لتجد في نفسك صدى قوياً وتحملك على أن تقول : إن هذا الحق ، وإن هذا بلعيد . ذلك أنه لم يلتمس أخباره وحوادثه في السماء ولا في الهواء ، وإنما التمسها بين الناس في حياتهم اليومية ، وفي صلاتهم المألوفة ، وفي عواطفهم التي تمثل ما يجلدون من حس وشعور .

وأى شيء غريب أو محال في أن تنشأ العداوة بين امرأة وزوج ابنها ! وأى شيء غريب أو محال في أن تغضب الأم أشد الغضب لأن ابنها قد شغل عنها بامرأته ! ثم أى شيء غريب أو محال في أن تفنن هذه الأم المحزونة المحنقة وتلتمس الوسائل المختلفة لتفسد الصلة بين ابنها وزوجه ، وتتغص الحياة على هذه المرأة الغريبة التي أقبلت فاحتكرت الابن احتكاراً وصرفته عن أمه وأبيه واختصت نفسها بوقته وصفوه وعنايته ؛ ثم أى شيء غريب أو محال في أن يشتد حقد الأم وحنقها كلما أحست ضعفها وقصورها عن الإفساد بين الزوجين ! فيبعث ذلك على أن تحتال في قطع الصلة بينهما ، تسلك إلى ذلك ما استطاعت من سبيل ، رقيقة حيناً وعنيفة حيناً آخر ، ناصحة مرة وغاشة مرة أخرى ؛ ليس في ذلك شيء من الغرابة ولا الإحالة ، وإنما هو أمر مألوف يسير الفهم والتفسير .

ونحن نعلم أن الخصومة قديمة عنيفة بين الأمهات وزوجات أبناهن . فالأم بطبيعتها شديدة الميل إلى أن تستأثر بحب ابنها ووده ، وحرصتها كل الحرص على ألا ينازعها في ذلك منازع . وهي تردّد بين عاطفتين متناقضتين لا تكاد ترى ابنها شاباً قوياً يستقبل الأيام في روعة شبابيه وعنفوان قوته حتى تشعر بالميل الشديد إلى أن تراه زوجاً وزعيم أسرة ، فتسعى في تزويجه وتجلد فيه ؛ وهي بذلك سعيدة حقاً مغتبطة أشد الغبطة ؛ حتى إذا تم لها ما تريد ورأت ابنها زوجاً ، وأحست أنه بهذه الحياة الجديدة سعيد ، انتقلت من هذه العاطفة الأولى إلى عاطفة أخرى تناقضها أشد مناقضة ؛ فندمت على ما كان من تزويج ابنها ، وأسفت على ما فاتها من عطف هذا الابن ووده ، وكرهت هذه المرأة الجديدة التي أقبلت فشاركتها في حب ابنها وعطفه ومودته ، ثم لا تلبث أن تحسّ الميل إلى الخصومة وأن تجد في سيرة هذه المرأة الجديدة ما تنكره

عليها وتنقمه منها . ويجب أن ننصف الأم ، فهذه العاطفة عندها ليست قائمة على الأثرة وحدها ، وإنما هي قائمة على الإيثار أيضاً . فالأم تريد أن تنفرد بحب ابنها والعطف عليه ، تريد أن تكون هي الوحيدة التي تراه ابنها وتحسن إليه . هي أثيرة في إيثارها . ثم يجب أن ننصفها من جهة أخرى ؛ فليست الزوج أقل أثرة من الأم ، بل هي أشدّ منها أثرة وأقلّ منها إيثاراً ، ولا تكاد الزوجة تستقر في حياتها الجليدة حتى تنزع بطبيعتها إلى الاستئثار بزوجها والانفراد بحبه وعطفه ، وحتى تجتهد - عالمة أو جاهلة - في صرفه عن كل إنسان غيرها وعن كل شيء سواها . وإذن فليست الأم وحدها هي الراغبة في الخصومة الميالة إليها ، وإنما الزوج أيضاً تعين على هذه الخصومة وتزيد نارها اضطراباً .

... كل هذا شيء مألوف لا ينكره الناس ولا يعجبون له ، وإنما يعجبون أن تحسن الصلة بين الأم وزوج ابنها ، كما يعجبون أن تحسن الصلة بين الزوج وأم امرأته . فعداوة الأحماء والأضهار شيء يوشك أن يكون طبيعياً . وهذا الشيء الذي يوشك أن يكون طبيعياً هو الذي اتخذه واضع هذه القصة أساساً لقصته ، فأحسن وأجاد وبلغ من الإتيان خطاً عظيماً .

ثم يجب أن نلاحظ شيئاً آخر وهو أن الرجال يختلفون في مثل هذا الموقف اختلافاً شديداً ، فمنهم الرجل القوي الأسر الذي لا يفكر إلا في نفسه وسعادته ، والذي يستطيع أن يقاوم هذا التنازع بين امرأتين مخلصتين في حبه ، ولكنهما مختلفتان لإخلاصهما نفسه . يستطيع أن يقاوم فيعدل بين أمه وزوجه ، وينصف تلك ، دون أن ينحاز إلى إحداهما ، ودون أن تستطيع إحداهما أن تأخذه من قبيل الحب الزوجي فتصرفه عن أمه وتضطره إلى العقوق ، ودون أن تستطيع الأخرى أن تأخذه من قبل الأمومة فتستغل ضعفه من هذه الناحية وتفسد عليه حياته المنزلية ، وتضطره إما إلى أن يبسبب العشرة في بيته وإما إلى الطلاق . ولكن هذا الرجل ليس مثلاً شائعاً وإنما هو مثل نادر . والكثرة مع الأسف ضعيفة من إحدى الجهتين ، فلما أن ينحاز الرجل إلى زوجته فيتورط في العقوق ويبسبب إلى أبيه مؤثراً المستقبل على الماضي ، مؤثراً نفسه على من منحه هذه النفس . وإما أن يضعف فينحاز إلى أبيه ويشقى بأمرته وتشقى به الأسرة .

وقد كان بطل هذه القصة من هؤلاء ؛ فقد استطاع أبواه أن يغلباه على

أمره ويضطرّاه إلى الطلاق .

من هذا كله تتبين أن قصة قيس بن ذريح أبعد القصص عن الإحالة والمبالغة ، وأنها قصة إنسانية كما قلت آنفاً . ولكن هذه القصة تمتاز بما اختص به بطلها من عاطفة قوية ، وحب لا يعدله حب ، وحرص على الوفاء شديد . وحول هذه العاطفة وهذا الحب وهذا الوفاء تدور القصة من أولها إلى آخرها . فإذا أردنا أن نختصرها أو أن نتلمس لها صيغة تقوم عليها استطعنا أن نقول : إنها جهاد بين البرّ والحب . . . رجل يريد أن يكون برّاً بأبويه ووفياً لزوجته . فيستحيل عليه التوفيق بين هاتين الخصلتين ، فيضحي بإحدهما في سبيل الأخرى . ولكن هذه التضحية تنغص عليه حياته كلها ، وتضطره إلى ألوان من الحول ، وضروب من الألم لا تكاد تحصى . فقصتنا إذن قصة نفسية خلقية بالمعنى الحديث لهاتين الكلمتين .

تمتاز هذه القصة أيضاً بأن أشخاصاً ممتازين قد لعبوا فيها دوراً كما يقولون ، فاكسبت من هؤلاء الأشخاص شيئاً من الجلال غير قليل ، ثم اكتسبت من هؤلاء الأشخاص أيضاً شيئاً يملك على أن تنزلها منزلتها الحقيقية ، وتعتقد أنها قصة خيالية مخترعة أكثر من أن تكون قصة حقيقية واقعة ، فليس من اليسير أن نتصور تدخل الحسين والحسن ابني علي رضي الله عنهم في عشق فتى من فتيان البادية لفتاة من فتيات البادية ، وليس من اليسير أن نتصور تدخلهما مع نفر من أشرف قريش في التفريق بين الزوجين ليرضوا عاشقاً ملتاعاً .

* * *

أحب قيس بن ذريح لبني لأنه رآها وتحدث إليها في بعض أسفاره ، وأراد أن يتخذها زوجاً له فوجد من أبيه ممانعة شديدة ، لأن أباه هذا كان ثرياً ، وكان يكره أن تنتقل الثروة من قومه إلى قوم آخرين ، وكان يريد أن يصر ابنه إلى شريف من أشرف قومه ، فلما أيس منه قيس لجأ إلى الحسين بن علي — وكان أخاه في الرضاعة — فتوسل إليه أن يتوسط بينه وبين أبي لبني في هذا الزواج ، وقبل الحسين ذلك وأسرع إليه ، فركب مع قيس إلى البادية حيث كان حتى لبني ، فلما رأى الشيخ ابن رسول الله قد أقبل يزوره ، أكرمه واحتفى به .

وتحدّث الحسين إليه بهذه الخطبة ؛ فقبل الشيخ ولكنه ذكر للحسين أنه عربي وأن للعرب عادات وأخلاقاً ليس من اليسير تجاوزها ، وأن الوجه في هذا الأمر أن يأتي أبو قيس فيخطب إليه ابنته ، وأنه يكره أن يزوج ابنته من هذا الفتى الغنى الشريف على غير رضا من أبيه فتحدّث العرب بما لا يجب ؛ وقبل الحسين من الشيخ هذا العذر فرجع أدراجه مع قيس ، ثم ارتحل مرة أخرى إلى البادية حيث كان يقيم حتى قيس . فلما رأى أبو قيس ابن رسول الله مقبلاً إليه نهض فأكرمه وأجلّ مكانه . وتحدّث الحسين إليه بأمر هذه الخطبة ! فأدعن الشيخ وكره أن يردّ لابن رسول الله أمراً ، وما هي إلا أن ارتحل إلى حيث أبو لبني ، فخطب إليه ابنته لابنه وكان الزواج .

وكان قيس بهذا الزواج سعيداً مغتبطاً أحسن حظاً من المحنون وجميل وغيرهما من أبطال هذه القصص الغرامية . ذلك أن الدهر قد أتاح له ما لم يتح لهؤلاء الأبطال فلم يحل بينه وبين حبه ، ولم يستطع أهل لبني أن يقولوا مقالة أهل لبلي وبثينة ، ولا أن ينكروا هذا الزواج مخافة العار ، فأى الفريقين نصدق ؟ أنصدق الذين كانوا يزعمون أن العرب كانوا من القسوة والغلظة في عاداتهم ونظمهم البدوية بحيث يحولون بين المحبين إذا ظهر حبهما مخافة الفضيحة وسوء القالة ، أم نصدق الذين تحدّثوا إلينا أن حتى لبني لم يكره تزويج هذه الفتاة من حبيبها برغم هذا الحب الذي ظهر وتحدّث به الناس ؟ نعم ! إن هناك سبيلاً للتوفيق بين هذين الوجهين المتناقضين ، وهو أن تدخل الحسين بن علي في هذه الخطبة وفي هذا الزواج هو الذي أتاح لقيس سعادته ، وأكره أهل لبني على أن يقبلوا هذا الزواج ويخالفوا ما توارث العرب من عادة ونظام .

ومهما يكن من شيء فإن واضح هذه القصة قد وفق إلى اختراع بديع حين اخترع تدخل شخص عظيم المكانة كالحسين بن علي في هذا الزواج ليجتنب هذه العقبة الكئود التي أقامها القصاص حتى أصبحت سنة لا تبيح للعاشقين أن يلتقيا .

كان قيس بن ذريح سعيداً بهذا الزواج حقاً ، ولم تكن لبني أقل منه سعادة واغتراباً ، فقد كان العشق بينهما مشتركاً ، كما كان مشتركاً بين جميل وبثينة ، وكما كان مشتركاً بين قيس بن الملوّح وليلى العامرية .

ولست في حاجة إلى أن أحدثك بأن هذين العاشقين لم يكادا يلتقيان حتى انصرفا إلى عشقهما عن كل إنسان وعن كل شيء . وقد ذكرت لك أن هذا الزواج قد وقع على كره من أهل قيس ، لأنهم كانوا يأبون أن تنتقل الثروة إلى حيّ أجنبي . فليس غريباً ألا يتلقوا لبني لقاء حسناً . وليس غريباً أن تنزل منهم منزلة البغيض . وأنت تعلم الحصومة بين الأمهات وزوجات أبناهن . فإذا أضفت إلى ذلك أن الزوجين كانا مسرفين في حبهما منصرفين به عن كل شيء وعن كل إنسان ، فهمت في سهولة ويسر ما تحدثت به الرواة من أن أم قيس نكرت ابنها ونقمت منه أنه أهملها وقصر في ذاتها ولم يعض في ملاحظتها ومودتها على ما كان عليه قبل الزواج ، فوجدت على لبني وأضمرت لها الشر . ولكنها امرأة ، وكيد النساء عظيم ، وهي أمهر وأحذق وأشدّ فطنة من أن تجاهر ابنها بالأمر فتعاتبه وتلومه وتنكر عليه تقصيره في ذاتها . فهي إن فعلت ذلك لم تصل إلا إلى إحدى اثنتين : فإما أن ينصفها فيعود إلى برّها وملاحظتها ويمسك لبني ، وهي لا تريد ذلك ، وإنما تريد الطلاق . وإما أن يكون ابنها جافياً ، عاقاً ، فلا يزيد عتاب أمه وتعللها إلا حباً للبناء وحرصاً عليها ، وهي لا تريد ذلك وإنما تريد الطلاق . لهذا انصرفت الأم عن ابنها فلم تلمه ولم تتعلل عليه ولم تظهر له شيئاً ، وإنما أقبلت إلى الشيخ والتزمت أذنه ، فما زالت به تحرضه وتغريه حتى وصلت إلى ما كانت تريد . ولم يكن هذا عسيراً ، فأنت تعلم أن الشيخ قد خطب هذه الفتاة كارهاً . وأنت تعلم أنه كان يضمن بثروته الضخمة على حيّ لبني ، فأخذته زوجه من هذه الناحية الضعيفة ، وزينت له أن هذه المرأة عقيم ، وأن قيساً إذا أمسكها وحدها فلن يعقب ؛ وإذن فستنتقل الثروة بعد قيس إلى لبني وحيها ، وسيقطع نسل الشيخ ويصبح وجوده عقيماً لغواً لا خير فيه ، فإما أن يطلق لبني ويتخذ له زوجاً أخرى تعقب له ، وإما أن يمسك قيس لبناء إذا كان يهواها إلى غير حدّ ، ولكن على أن يتزوج أخرى تعقب له حتى لا ينقطع النسل ولا تنتقل الثروة .

وقبل الشيخ من الشیخة هذا الكلام واطمأن إليه . وكيف لا يقبله ولا يطمئن إليه ؛ أليس طبعياً أن يحرص الإنسان على الخلود واتصال النسل ! أليس طبعياً أن يحرص الإنسان على أن يحفظ بثروته في قومه ويكره انتقالها إلى

قوم آخرين : وقيل الشيخ كلام امرأته ودعا ابنه وجمع له مشيخة قومه وتحدث إليه بما أوجت به إليه امرأته . وكان قد انتهز لذلك فرصة صالحة ، فقد كان قيس اعتل وأشرف على الموت ، فلما برئ تحدث إليه أبوه هذا الحديث بمحضر قومه ، ذكر له علته وإشرافه على الموت وأنه لا عقب له ، وأن هذه المرأة غير ولود ، وطلب إليه أن يتزوج امرأة أخرى لعل الله يرزقه منها ولدًا يرثه ويرث ثروته ، فأبى قيس عليه ذلك وكره أن يسوء امرأته أو يتخذ لها ضرة . قال أبوه : فتسر بالإماء . فأبى قيس وكره أن يسوء امرأته بهذا النوع الآخر من الزواج . هنالك غضب أبوه وانتهى من الأمر إلى أقصاه ، فأقسم على ابنه ليطلقن امرأته ، وأبى قيس ذلك . واشتد الخصام بينهما حتى أعلن الشاب إلى أبيه أنه يؤثر الموت على الطلاق . ثم أخذ يختار أباه بين خصال ثلاث : عرض عليه أن يتزوج هو لعل الله أن يرزقه ولدًا آخر يخلد اسمه ويرث ثروته . قال الشيخ : فما في فضلة ؛ فعرض عليه قيس أن يرتحل عنه وبعه لبني ، وأن يفترض أن ابنه قد مات في علته التي برئ منها . قال الشيخ : لا أرضى . قال قيس : فأترك عندك لبني وأرتحل وحدي لعل أسلوها . فأبى الشيخ وأقسم لا يكنه سقف بيت أبداً حتى يطلقها .

وهذا أول مظهر من مظاهر الجهاد العنيف بين البر والحب . انظر إلى قيس تتنازعه هاتان العاطفتان القويتان : حب زوجته ، والبر بأبيه .

وقد مثل الرواة لنا هذا الجهاد قويا عنيفاً حقاً ، فزعموا أن الشيخ كان إذا أضحى تعرض للشمس لا يظله منها شيء ، وأقبل ابنه فأظله بردائه ، وتلقى هو حر الشمس ، ولم يزل كذلك حتى ينوء النوء ؛ حينئذ ينصرف إلى لبني فيعتقان ويبكيان ويتبادلان ألفاظ التشجيع ، ويقول له لبني : احذر يا قيس أن تطيع أباك فهلك نفسك وتهلكني ؛ فيؤكد لها وفاءه وولاءه وصبره ومضيه في المقاومة .

كم أنفق قيس من الدهر في هذا الجهاد وهذه المقاومة ؟ يختلف الرواة . والغريب أن أبا الفرج ينكر أقرب الروايات إلى الحق وأدناها من المألوف . ذكر بعض الرواة أن قيساً قاوم أربعين يوماً ثم أتى السلاح . ولكن أبا الفرج لا يرضى ، لأن أربعين يوماً ليست شيئاً يذكر ، وهو أميل إلى إحدى الروايتين الأخرين

اللتين تزعمان أن قيساً قاوم سنة أو سبع سنين .

مهما يكن من شيء فإن البرّ انتصر على الحب ، ولم يستطع هذا الشاب أن يمضى فى عقوق أبيه . ولا تنس أن قيساً كان أخصاً للحسين فى الرضاعة ، أى أنه كان يعيش فى أول عهد الناس بالإسلام ، فكان شديد التأثير بالدين ووصاياه . وأمر الدين فى البرّ بالوالدين صريح قاطع لا يحتمل تردداً ولا التواء ، فضحى قيس بامرأته ابتغاء مرضاة أبيه . انتصر البرّ . ولكن انتصاره لم يكن كاملاً بل قل إنه لم يكن إلا هزيمة منكورة . فلم يكده قيس يطلق لبني حتى طلقَ معها عقله وأمنه وسعادته . وكاد يطلق الحياة . أصابه أول الأمر ذهول أو شيء يشبه الذهول ، فلم يصدق أنه طلق لبني ، وخيل إليه أنه لم ينطق بهذه الكلمة التى أراد الله أن تقطع أوثق الأسباب وأمن العرى . فلما قضت لبني عدتها وأقبل أهلها فاحتلموها أنكر قيس ذلك ، وكأنه حاول ممانعة أهلها فرد إلى الصواب ، ثم أخذ يتبع ركبها حتى أنذر ، فوقف وأخذ يتبعها يبصره حتى غابت عنه ، ثم عاد إلى بيتها وأخذ يتلمس آثارها فيقبلها ويمرغ خده فى ترابها ويسكب دموعه عليها وينشئ فى ذلك أجمل الشعر وأعذب وأرقه .

من ذلك الوقت أخذت قصة قيس تشبه قصة المجنون ، ولكن دون أن تبلغ المسخف أو المحال ، وتشبه قصة جميل ، ولكن دون أن تبلغ الكلف أو الغمر أو الإلغاز الذى أشرت إليه فى الفصل الماضى ، وإنما هى قصة إنسانية مؤلمة ينفطر لها القلب حزناً ولوعة : لأنها لا تبعث على عجب ولا تحمل على ددش ، وإنما بين أيدينا إنسان أكره على طلاق من يحب ، ثم تبعته نفسه هواه ، وقد حيل بينه وبينه ، فهو يبكيه ويتحسر عليه ويلتاع له ، وهو يجتهد كما يجتهد كل عاقل أريب فى أن يسلو ويتعزى دون أن يجحد إلى السلو أو العزاء سبيلاً ؛ بل كلما حاول سلواً أو عزاء ناله من الحب لون لم يكن يعرفه من قبل .

وانظر إلى هذه الأبيات ولا تقل إنها مصنوعة متكلفة ، فأنا أيضاً أرى أنها مصنوعة متكلفة . ولكن ألم أقل لك إن القصة كلها موضوعة مصنوعة ؛ وإذن فهذه الأبيات التى أروىها لك تمثل ما أشرت إليه من عجز قيس عن السلوا ، وافتنانه فى ألوان من الحب كلما قضى منها لوناً أقبل عليه منها لون آخر ، وهذه هى الأبيات :

أُحِبُّكَ أَضْنَاقاً مِنَ الْحَبِّ لَمْ أَجِدْ . لَهَا مَثَلاً فِي سَائِرِ النَّاسِ يُوصَفُ
فَمِنْهُنَّ حَبٌّ لِلْحَبِيبِ وَرَحْمَةٌ بِمَعْرِفَتِي مِنْهُ بِمَا يَتَكَلَّفُ
وَمِنْهُنَّ أَلَا يَعْزِضُ الدَّهْرَ ذِكْرُهَا عَلَى الْقَلْبِ إِلَّا كَادَتْ النَّفْسُ تُتَلَفُ
وَحُبٌّ بَدَأَ بِالْجِسْمِ وَاللَّوْنُ ظَاهِرٌ وَحُبٌّ لَدَى نَفْسِي مِنَ الرُّوحِ الْطَفُّ

وقد عرض عليه أهله ، كما عرض أهل المجنون على المجنون وأهل جميل على جميل ، أن يتزوج فأبى ، كما أبى المجنون وكما أبى جميل . وقد أصابه ما أصاب المجنون من مرض لم يبلغ به الجنون ، ولكن أشرف به على الموت . واجتهد أهله كما اجتهد أهل المجنون في تسليته وشفائه ، فأغروا به النساء والفتيات ، ودعوا إليه الأطباء ، فعجز النساء والفتيات عن استصباته ، وعجز الأطباء عن شفائه . ولم يبلغ منه وعظ أبيه إياه . وقد اجتهد في الرحلة والتسلي عنها بالأسفار فلم يظفر من ذلك بشيء ، وإنما كان كما قال المجنون أو جميل أو كثير أو هو :

أُرِيدُ لِأَنسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا تَمَثَّلُ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلٍ
ثُمَّ أَخَذَ فِيهَا كَانَ قَدْ أَخَذَ فِيهِ الْمَجْنُونُ وَجَمِيلٌ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْعِشَاقِ مِنْ طَلَبِ
لَبْنَى وَابْتِعْرَاضِ لِحْيَا وَابْتِعْرَاضِ الْأَوْقَاتِ وَالْفُرْصِ يَخْلُصُ فِيهَا إِلَيْهَا ؛ فَكَّرَهُ أَهْلُهَا
ذَلِكَ ، كَمَا كَرَهُ ذَلِكَ أَهْلُ لَيْلَى وَأَهْلُ بَشِينَةَ ، وَشَكُّوا ذَلِكَ إِلَى السُّلْطَانِ كَمَا شَكَاهُ
أَهْلُ لَيْلَى وَبَشِينَةَ ، وَتَدَخَّلَ السُّلْطَانُ كَمَا تَدَخَّلَ فِي أَمْرِ لَيْلَى وَبَشِينَةَ ، فَأَهْلَرُ دَمَ
قَيْسِ بْنِ ذَرِيحٍ ، كَمَا أَهْلَرُ دَمَ قَيْسِ بْنِ الْمَلَوَّحِ ، وَكَمَا أَهْلَرُ دَمَ جَمِيلٍ .
ولكن القصة هنا تثب وثبة لم نألفها في قصة جميل ولا في قصة قيس بن
الملوِّح ، فقد نجد في هاتين القصتين وغيرهما أمراً عجبياً ، نجد هؤلاء العشاق
يكلفون بنساء يكلفن بهم أيضاً ، ولكن هؤلاء النساء قد خضعن لأهلهن
فتزوجن ، وهنّ وفيات لأزواجهن يصلنهم وينلنهم ما يتحرَّق عليه العاشقون
حسرة ولوعة ؛ حتى كان أهل هؤلاء العاشقين يتخذونهم موضوعاً للهزء والسخرية ،
ويعيرونهم الحب والألم لنساء يخدعنهم ويمنحن حين وودهن لرجال آخرين ،
وحتى استطاع المجنون أن يقول هذا البيت الذي يختصر هذه الحال العجيبة :

قَصَّاهَا لِغَيْرِي وَابْتَلَانِي بِحُبِّهَا فَهَلَا بِشَيْءٍ غَيْرِ لَيْلَى ابْتِلَانِيَا
 أما قصة قيس فلم يكن بدءاً من أن تنتهي إلى هذا الموقف الذي توارثته
 القصص الغرامية ، أى لم يكن بدءاً من أن تتزوج لبنى رجلاً غير قيس ، حتى
 يصبح قيس كجميل والمجنون هائماً بامرأة يتسلط عليها رجل آخر . ولكن
 واضح هذه القصة امتاز من سعة الحيلة ولطف المدخل بما لم يمتز به أصحاب
 المجنون وجميل . ذلك أنه تخيل هذه الحيلة ، وهى أن معاوية أهدر دم قيس ،
 فأخذ قيس يضرب فى الأرض يلتمس العزاء والسلوان ، فرَّبجى من بنى فزارة
 ورأى فتاة صبيحة وضيئة تشبه لبنى فتحدث إليها وسألها فإذا اسمها لبنى ،
 فاضطرب لذلك والتاع له . وكان لهذه الفتاة أخ لم يلبث أن عرف قيساً فألح
 عليه فى أن يتزوج أخته ، وما أزال به حتى ظفر بالرضا وتزوج قيس هذه الفتاة
 متورطاً من جهة ، ومحاولاً أن يجد فيها لبناء من جهة أخرى ، ولكنه لم يكده
 يتم الزواج ويخلو إلى امرأته الجديدة حتى قامت لبناء القديمة بينه وبين زوجه ،
 فلم يستطع أن ينظر إليها ولا أن يدنو منها ، ثم ارتحل وتركها على أن يعود إليها
 ولكنه لم يعد .

أريد قبل أن أنتقل من هذه الحيلة البديعة أن ألفتك إلى أن هذا الاختراع
 كثيراً ما تجده فى القصص الغرامية الحديث ، وكثيراً ما تجده فى الفن الحديث
 عشاقاً حيل بينهم وبين عشيقاتهم ، فأخذوا يلتمسونهن فى نساء آخر يشبهن
 شياً قليلاً أو كثيراً . ومهما يكن من شىء فقد وصل خبر هذا الزواج إلى لبنى ،
 وكانت لبنى من الألم والوجد والحمران على مثل ما كان عليه قيس ، وكانت
 قد رفضت الزواج كما رفضه قيس ، فامتازت بهذا من ليلى وبثينة .

قال الرواة : إن معاوية لما أهدر دم قيس أشار على أبى لبنى أن يزوج
 ابنته من رجل سماه له ، وكانت لبنى تأبى الزواج ، فلما بلغها ما كان من أمر
 قيس مع الفزارية أخذتها الغيرة والحنى فأرادت أن تجزيه بمثل خيانتة فقبلت
 وتزوجت هذا الرجل ، وارتحلت معه إلى المدينة فأقامت فيها ، وبلغ الخبر قيساً
 فاضطرب له واعتل وأخذ من أجله حزن شديد .

فأنت ترى كيف تلتطف واضح القصة فى الانتهاء بقيس إلى هذا الموقف

الموروث ، موقف من يعشق امرأة متزوجة . ومن ذلك الوقت تغير وجه قيس فأخذ لا يطلب لبني في البادية ، وإنما يطلبها في المدينة .

وللرواة في ذلك أحاديث لذيذة ، منها قصة الناقة . فقد زعموا أن قيساً أراد أن يدنو من لبني فاقطع قطعة من إبل أبيه ، وزعم لأهله أنه مرتحل إلى المدينة فباع هذه الإبل فمتار لهم . وعرف أبوه دخيلة أمره فلامه ؛ ولكن قيساً لم يسمع له ، وذهب إلى المدينة . فبينما هو يعرض إبله أقبل عليه رجل فساومه ناقة فاشتراها منه ، وواعده بيته ليقبض ثمنها ، وقبل قيس وكان هذا المشتري زوج لبني ، وكان قيس لا يعرفه ولم يكن هو يعرف قيساً . فلما كان من الغد ذهب إلى دار صاحبه يلتمس ثمن الناقة فصوت بالخادم لتبني سيدها بمكانه .

قال الرواة : وعرفت لبني نغمته . فلما دخل أمرت الخادم أن تسأله ما باله أشعث أغبر ؟ فأجاب قيس : هذه حال من فارق الأحبة واختار الموت على الحياة . قالت لبني للخادم : سليه يحدثنا حديثه ؛ فأخذ قيس يقص قصصه ؛ وما هي إلا أن رفعت لبني سترها وقالت : حسبك قد عرفنا حديثك . قالوا : فبهت قيس ، ثم انفجر باكياً ونهض مسرعاً فاغترز رحله ومضى لا يلوى على شيء ، وصاحب البيت يدعوه فلا يجيب . قالوا : فقالت لبني لزوجها : ويحك ! هذا قيس ا قال : ما عرفته .

ومنها قصة هذه المرأة التي تسمى بريكة ، والتي كانت زوجاً لرجل من قريش شريف في المدينة ، فقصد إليها قيس وتوصل إليها أن تصل بينه وبين لبني ؛ فتلطف في ذلك حتى جمعت بينهما ؛ فتحدثتا وتعاتبا وأقسم قيس لصاحبه أنه لم يملأ عينه من الفزارية ولا كانت بينه وبينها صلة ؛ ثم تركته على أن تعود إليه ، ولكنها لم تفعل فانصرف عن المدينة .

وأخبار أخرى كثيرة تصف لنا حال قيس وحال لبني لا أذكر منها إلا خبراً واحداً يمثل لنا وفاء لبني لصاحبها بعد الزواج ، كما كانت وفيه له قبل الزواج . زعموا أن شعر قيس شاع وتناقله الناس وتغنى فيه المغنون في المدينة فأكثروا ، وتأذى لذلك زوج لبني فتنكر لامرأته ولامها . قال الرواة : فأجابته جواباً عنيماً ولفته إلى أنها لم تتزوجه رغبة فيه ولا فيما عنده ، وإنما تزوجته حين أهدر السلطان دم قيس مخافة على قيس أن يعرض فيقتل . ثم ذكرت له أنها لم تخف

عليه من أمرها شيئاً وأنه يستطيع فراقها متى أحب . قالوا : فأخذ منذ ذلك الوقت يتلطف لها ويترضاها ، ويبلغ في ذلك حتى لقد كان يُحضر الجوارى يغنيها شعر قيس فيها .

كل ذلك يمثل لك ما تمتاز به قصة قيس بن ذريح من الجودة والإتقان والفائدة . فأولها قيم ، لأنه يعتمد على أساس متين . وسياقها كله قيم ، لأنه بعيد من المبالغة يكاد يخلو مما لا يقبله العقل . أما آخرها ففيه قولان ، كما يقول الأزهريون ، ذلك أن من الناس من أراد أن تكون آخره قيس بن ذريح كآخره جميل والمجنون ، وأنت تذكر أن المجنون وجد ميتاً في بعض الأودية ، وأن جميلاً مات غربياً في مصر ، كلاهما قتله الحب ، فيجب أن يقتل الحب قيس بن ذريح ، كما قتل صاحبيه ، وكما قتل عروة بن حزام من قبله ، ومنهم من أراد أن تنتهي هذه القصة انتهاء آخر ، فيه انتصار الحب وظفر العدل ، وفيه اطمئنان الإنسان إلى أن العشق الطاهر البريء ليس كمدأ كله .

وقد اتفق أولئك وهؤلاء على أن قيساً بعد أن تلى لبيء وتحدث إليها انصرف عن المدينة فارتحل إلى الشام يريد أن يطلب إلى السلطان إلغاء الأمر الذي أهدر به دمه . قالوا : فتلطف إلى يزيد بن معاوية حتى لقيه وطلب إليه ما كان يريد ؛ فظفر له يزيد من أبيه بإلغاء هذا الأمر .

ومن الرواة من زعم أن يزيد بالغ في الرفق بقيس حتى عرض عليه أن يكتب إلى والى المدينة ليحمل زوج لبيء على تطليقها ؛ ولكن قيساً أبى ذلك وقد ألغى السلطان إهدار دمه ، وأباح له أن يذهب وأن يقيم حيث شاء .

وهنا يختلف الرواة ، فأما أكثرهم فيزعم أن قيساً قضى بقية حياته يتبع لبيء فيدنو من المدينة حيناً ، وينأى عنها حيناً ، حتى ماتت لبيء وتبعها حزناً عليها أو مات قبلها . وأما غير هؤلاء فيزعمون أن ابن أبي عتيق - ولا بد من أن نخصص في يوم من الأيام فصلاً لابن أبي عتيق - سعى بعد تأمين قيس إلى الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وجماعة من أشراف قريش فقال لهم : إن لي حاجة عند رجل أخشى أن يأبأها عليّ وأريد أن أتوسل إليه فيها بجاهكم وأموالكم ؛ قالوا : ذلك لك منا مبتذل ؛ فواعدهم يوماً اجتمعوا إليه فيه . ثم ذهب معهم إلى زوج لبيء وهم لا يعرفون ما يريد ، فتلقاهم الرجل لقاء حسناً . فقالوا :

إن هذا يتوسل بنا إليك في حاجة له عندك . قال : هي مقضية كائنة ما كانت .
فاستعاده ابن أبي عتيق ، فأعاد قوله . قال ابن أبي عتيق : فحاجتي أن تطلق
لبنى . فطلق الرجل امرأته ، واستخزي هؤلاء الأشراف من قریش ، لأنهم
ما كانوا يقلرون أن ابن أبي عتيق يتوسل بهم للفرق بين الزوجين .

وتزوج قيس لبناه ، وقال يمدح ابن أبي عتيق :

جَزَى الرَّحْمَنُ أَفْضَلَ مَا يُجَازِي عَلَى الْإِحْسَانِ خَيْرًا مِنْ صَدِيقِي
فَقَدْ جَرَّبْتُ إِخْوَانِي جَمِيعًا فَمَا أَلْفَيْتُ كَابْنَ أَبِي عَتِيقِي
سَعَى فِي جَمْعِ شَمْلِي بَعْدَ صَدْعِ وَرَأْيِي حِدَّتْ فِيهِ عَنِ الطَّرِيقِي
وَأَطْفَاءَ لَوْعَةٍ كَانَتْ بِقَلْبِي أَغْصَنِي حَرَارَتُهَا بِرِيقِي
فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَبِي عَتِيقٍ : يَا حَبِيبِي ، أَمْسِكْ عَنِ هَذَا الْمَدِيحِ ، فَمَا يَسْمَعُهُ
أَحَدٌ إِلَّا ظَنَّنِي قَوَادِمًا .

شعر الغزلين^(١)

ولإنما أقصر حديث اليوم على هؤلاء الغزلين من أهل البادية لا أجاوزهم إلى أولئك الغزلين من أهل الحاضرة كعمر بن أبي ربيعة والأحوص وغيرهما ، بل لست أتناول في هذا الحديث طائفة من شعراء البادية قالوا الغزل وتأنقوا فيه ، وظفروا بإجادته وإتقانه ، ولكنهم لم يكونوا عشاقاً ، أو لم يريدوا أن يكونوا عشاقاً ، كما كان جميل وقيس بن ذريح والمجنون ، أو كما أرادوا أن يكونوا ، وإنما كانوا أصحاب لذة وعبث ، وأهل دعاية ومجون ، فلم يقصر الله اللذة والعبث والدعاية والمجون على أهل الحاضرة ، وإنما وفر منها حظوظاً مختلفة لأهل البادية ، فإذا كان عمر بن أبي ربيعة ممثلاً للهو شبان الحضرة في الحجاز ، فقد نرى في يوم من الأيام أن يزيد بن الطثيرة كان يمثل هو شبان البدو .

وخلاصة القول أنا نستطيع أن نقسم الغزل في ذلك العصر إلى ثلاثة أقسام : (الأول) : هذا الغزل العفيف الذي يمثله شعر جميل وقيس بن ذريح والمجنون ، والذي هو بدوي خالص ، والذي نتخذه موضوعاً لحديثنا اليوم . (الثاني) : هذا الغزل الذي يمثل هو الحضرة وعبث أهله ، والذي يمثله عمر والأحوص والعرجي وغيرهم من شعراء مكة والمدينة . (الثالث) : هذا الغزل الذي ليس بالعفيف إلا في لفظه والذي يمثل هو أهل البادية وعبث شبابهم ، على نحو من البداوة والسداجة يذكر بالعصر الجاهلي ويخالف أشدّ المخالفة ما نجد في مكة والمدينة بعد الإسلام ، ومن زعماء هذا الغزل يزيد بن الطثيرة وغيره ممن سأحدثك عنهم في غير هذا الفصل .

أما هذا الفصل فقد قلت إنى أريد أن أقصره على شعراء القسم الأول من الغزل ، على العنريين وأصحاب النسب العفيف ، وفي الحق إنه ليس من اليسير أن نتيين هؤلاء الشعراء شخصيات متباينة . فكلهم قد نسى نفسه أو فنى في موضوعه فناء محاً شخصيته وأخفاها على مؤرخي الآداب إخفاء تاماً .

(١) نشرت بمجريدة «السياسة» في أول أكتوبر سنة ١٩٢٤ .

ومن هنا اختلط أمرهم على الرواة اختلاطاً شديداً ، فهم يضيفون إلى المخنون شعر جميل وقيس بن ذريح ، وهم يضيفون إلى قيس بن ذريح شعر جميل وشعر المخنون ، وهم يضيفون إلى جميل شعر ابن ذريح وابن الملوّح . ماذا أقول ! بل هم يضيفون إلى كل واحد من هؤلاء الشعراء شعر كثير من أولئك الشعراء الذين لم يُنحَ لأسمائهم الخلود ولم يعرف عنهم إلا بعض ما قالوا من الشعر . ولعلك تذكر ما رويت لك في حديث مضى عن الجاحظ من أنه كان يقول : ما ترك الناس شعراً مجهول القائل ذكرت فيه ليلي أو لبني إلا نسبوه إلى المخنون أو إلى قيس بن ذريح . وتستطيع أن تقول أنت : ما ترك الناس شعراً مجهول القائل فيه ذكر بثينة أو عزة إلا نسبوه إلى جميل أو إلى كثير . بل تستطيع أن تقول : ما ترك الناس شعراً مجهول القائل فيه ذكر عفراء إلا نسبوه إلى عروة ابن حزام . وعلى هذا النحو تستطيع أن تمشي .

والحقيقة التي ما أحسب أنها تتعرض للشك هي أن ليلي ولبنى وعزة وبثينة وعفراء وهنداء ودعداء وسعاد ، كل هذه أسماء ما أظن أنها تعين مسميات ممتازات ، وإنما هي أسماء نساء اتخذها الشعراء لهذا المثل الأعلى الذي كانوا يلتمسونه ويطمحون إليه حين كانوا يتغنون الحب ، سواء منهم في ذلك الشعراء المعروفون والشعراء المجهولون . ليلي ولبنى وبثينة بالقياس إلى هذا النوع من الغزل أسماء تشبه « هيلانه » بالقياس إلى القصاص من شعراء اليونان المتقدمين ، لسنا ندرى أوُجدت حقاً ! بل أكبر الظن أنها لم توجد وإنما هي المثل الأعلى في الجمال والحب واللين والرقّة واللذعة وغير ذلك من هذه الخصال التي يتغناها الغزلون .

هنالك حقيقة أخرى ما أحسب أنها تتعرض للشك أيضاً وهي أن المجهولين من هؤلاء الشعراء الذين اصطنعوا الغزل العفيف وأكثروا القول فيه وظفروا بإجادته وإتقانه أكثر من المعروفين . بل أكاد أعتقد أنهم لا يكادون يحصون . بل أكاد أعتقد أن الكثرة من شباب الأعراب في ذلك العصر كانوا يصطنعون هذا النوع من الغزل فيتغنون الحب وحسان العذارى . ولكن دواوين الرواة وذاكرتهم ضاقت بهذه الأسماء الكثيرة التي لا يبلغها الإحصاء ، فلم تثبت منها إلا قليلاً . وليس من شك أيضاً في أن هذا الفن الذي ظهر ظهوراً

طبيعياً في هذا العصر ؛ لأنه كان يترجم عن ميل عام وعواطف مشتركة لهؤلاء البدو . أقول : ليس من شك في أن هذا الفن لم يكبد يظهر ويفتن به الناس حتى تخصص له شعراء قصروا حياتهم عليه واتخذوه لأنفسهم صناعة وحرقة ، فهؤلاء الشعراء هم الذين أخفوا غيرهم من الأعراب المجهولين ، وهم الذين بقيت أسماؤهم فحفظها الرواة واجتهدوا في أن يخلقوا حولها من القصص والأحاديث ما كان موضوعاً لبحثنا في الفصول الماضية ، إذ لم يكن جميل وقيس بن ذريح والمجنون وغيرهم من هؤلاء الشعراء عشاقاً بالمعنى الذي يريد الرواة أن يخيّلوه إلينا ، وإنما كانوا شعراء ، أو كان الذين وجدوا منهم شعراء قد اختصوا بهذا النوع من الشعر ووقفوا عليه حياتهم ؛ لأنه كان فناً رائجاً في البادية حينئذ ، اختصوا به كما اختص غيرهم بالهجاء ؛ لأن الحياة الاجتماعية كانت تدعو إلى أن يختص به الشعراء ، وكما اختص غيرهم بالمدح ؛ لأن الحاجة كانت تدعو إلى أن يختص به شعراء ، وكما اختص غيرهم بالشعر السياسي ، وكما اختص غيرهم بوصف الخمر وهلم جراً .

ومن هنا كان من الحق أن نلاحظ أن الحياة الأدبية ليست من السهولة واليسر والسذاجة بحيث نظن أو بحيث كان يعتقد الرواة ، وإنما هي معقدة أشد التعقيد . غامضة أشد الغموض ، محتاجة إلى ألوان من البحث والعناء فيه لنستخلص شيئاً من حقائقها المجهولة ، فن الخطأ الفاحش أن نظن أن أكبر هذا الشعر الذي يروى لنا عن شعراء العصر الأموي الإسلامي قد صلب عن الفطرة والسليقة صدوراً طبيعياً من غير تكلف ولا صنعة ، كما يتفجر الينبوع عن الماء دون أن يكون للإنسان في تفجيره عمل . ليس هذا حقاً ، وإنما الكثرة المطلقة من هؤلاء الشعراء كانوا عمالاً صناعاً يمدون في فنونهم ويكدهون ويخضعون لما يخضع له غيرهم من العمال والصناع وأهل الفن من هذه القوانين الطبيعية والاجتماعية المختلفة .

ومهما يكن من شيء ، فنحن مضطرون إلى أن نقسم هذا الغزل العفيف نفسه إلى قسمين : أحدهما هذا الغزل الذي قاله شعراء مجهولون ذهب أسماؤهم ، إما لأنهم لم يكتروا من الشعر ولم يتخلوه صناعة ، وإما لأن حظهم من الإجابة لم يكن كحظ غيرهم من هؤلاء الذين بقيت أسماؤهم . والآخر شعر هؤلاء الشعراء

المعروفين الذين اتخذوا الغزل صناعةً وفناً .

ولا بدّ من أن نجتهد في بيان الأسباب التي نشأ عنها هذا الفن في البادية العربية . ولعلك لم تنس ما قدّمناه في غير هذا الفصل من حال هؤلاء الأعراب بعد أن استقر الأمر للمسلمين . فقد قلنا إنهم كانوا في شيء من اليأس والفقر غير قليل ، وإن هذا اليأس والفقر قد أحدثا في البادية مثل ما أحدث اليأس والغنى في الحاضرة من نشأة هذا الفن الشعري . ولكن يأس البادية وفقرها أحدثا هذا الغزل العفيف على حين قد أحدث يأس الحاضرة وغناها هذا الغزل العابت الماخن .

يكفي أن توازن بين حياة البدو بعد الإسلام وقبله ، لترى أن هناك فروقاً عظيمة بين هذين النوعين من الحياة . ولكن هذه الفروق تكاد تقتصر على الحياة المعنوية وحدها . فلم تكده الحياة المادية تتغير عند هؤلاء الناس بعد الإسلام ، وإنما كانوا في ظل الخلفاء كما كانوا في عصر الجاهلية : يخضعون لقوانين البداوة ويقاسون من شظفها وخشونتها مثل ما كانوا يقاسون في العصر الجاهلي . وربما أتبع لهم شيء من سعة الحياة ، ولكنه لم يكن كثيراً ولا موفوراً . ذلك لأنهم لم يكونوا يشركون في الحياة السياسية . فإن فعلوا فلم يكونوا يحتفظون بالحياة البدوية . أريد أن البدويين الذين كانوا ينتظمون في الجيش أو يتصلون بالخلفاء والأمرء والعمال لم يكونوا يحتفظون بحياة البداوة ، وإنما كانوا يتحضرون فيستقرون في العراق أو الشام أو مصر أو غيرها من بلاد المسلمين . أما الذين كانوا يبقون في الجزيرة العربية فقد كانوا لا يكادون يستمتعون بشيء من هذه الثروة الضخمة التي أفاءها الإسلام على المسلمين .

وربما كان من الحق أن نلاحظ أنّ هؤلاء الناس من أهل البادية كانوا قد احتملوا أعباء في الإسلام لم يكونوا يحملونها في الجاهلية ، أريد أعباء الصدقة والزكاة . فقد كانوا قبل الإسلام أحراراً لا يؤدون إتاوة ولا يخضعون لنظام إلا ما اصطنعوا لأنفسهم من نظمهم الخاصة فيما بينهم . أما بعد الإسلام فقد ضربت عليهم الضرائب وأخذوا بالصدقات في سائرهم . ولعل ما كانوا يظفرون به بعد الكدّ من ثمرات الأرض لم يكن بمأمن من العشر . وإذن فقد ضيقت الحياة الجديدة عليهم بعض التضييق . أضف إلى هذا شيئاً آخر ، وهو أن الإسلام قد أخذ على هؤلاء الناس شيئاً من طرق الكسب التي كانت مألوقة

في الجاهلية ، لأن الإسلام أقرّ السلام بين القبائل البدوية وحال بينها وبين ما كانت تتخذه مجداً وشرفاً ومكسباً من الغزو وضروب الإغارة . فلم يكن يتاح للقبائل بعد الإسلام أن تتغازى ويغير بعضها على بعض ، كما كانت الحال في الجاهلية . وإذن فهذا نوع آخر من التضييق أحدثه الإسلام لهؤلاء الناس ، ثم لا تنس أن الإسلام قد أدخل النظام في الحياة العربية ، فقيّد حرية الفرد والجماعة بهذه القيود المعروفة . وإذن فقد كانت الحياة المادية عند أهل البادية بعد الإسلام شراً مما كانت عليه قبل الإسلام ، ولهذا لم تلم الحياة الإسلامية المنظمة في البادية عصراً طويلاً ، ولم يكد يضعف سلطان الخلفاء أو لم يكد الخلفاء ينصرفون إلى تدبير البلاد المفتوحة حتى انتهز أهل البادية هذه الفرصة ، فاستأنفوا ما كانوا فيه أيام الجاهلية من غزو وإغارة وحرب وخصومة ، بل لم يدع أهل البادية فرصة تمكنهم من الفرار من أداء الصدقات والضرائب إلا انتهزوها واستفادوا منها ، وربما كان من اللذيذ أن ندرس في يوم من الأيام أثر هذا في شعراهل البادية .

لم تتغير إذن حياتهم المادية في جملتها ، بل ظلوا يلقون من الضيق ويقاسون من الشظف مثلما كانوا يلقون ويقاسون في العصر الجاهلي . أما حياتهم العقلية والمعنوية بنوع خاص فقد تغيرت تغيراً شديداً . وحسبك أن تقارن حياة بدوية متأثرة بهذه الطائفة من الآراء التي كان يتأثر بها الجاهليون ، بحياة بدوية أخرى متأثرة بالقرآن الكريم وما فيه من دين وخلق وأدب وحكمة ونظام ، لتشعر بالفرق بين نفسية البدوي المسلم في أول عهد الناس بالإسلام ونفسية البدوي الجاهلي . كان هذا الفرق عظيماً وكان التوازن مختلفين الحياة العقلية والحياة المادية؛ تغيرت الأولى تغيراً تاماً ، ولم تتغير الأخرى أو لم ينلها من التغير إلا شيء قليل .

ومن هنا نشأ في نفوس هؤلاء الناس شيء من اليأس الذي أشرت إليه آنفاً ووصفته وصفاً مفصلاً في غير هذا الفصل ، شيء من اليأس في الحياة المادية تبعه شيء من الأمل في حياة أخرى ليس واضحاً في هذه النفوس الساذجة وضوحه في نفوس أهل الحضرة . ومن هذا اليأس والأمل تكوّن لهؤلاء البدو مزاج خاص لا هو بالبدوي الغليظ ولا هو بالحضري الرقيق ، وإنما هو شيء بين بين .

ولعل أوضح ما يمتاز به هذا المزاج ميله إلى أن ينكبّ على نفسه انكباباً خاصاً ، فيتعرّف أسرارها ودخائلها ، ويحاول أن يستكشف فيها هذه الحاجات الغريبة التي تشعر بها دون أن تستطيع لها لإرضاء أو شفاء . لعلّ أوضح ما يمتاز به هذا المزاج شيء من الحزن الساذج المؤلم غير المحدود ولا البين ، هذا الحزن العام الغامض الذي نستطيع نحن بوجه من الوجوه أن نتبين أسبابه في هذا اليأس وفي هذا الفقر وفي هذه العزلة التي كانت تحول بين هؤلاء الناس وبين العمل السياسي وغير السياسي . نستطيع نحن أن نتبين أسباب هذا الحزن فنفهمه ونفسره . أما أولئك الناس فلم يكونوا يتبينون هذه الأسباب ولا يشعرون بها . بل لعلمهم لم يكونوا يشعرون بهذا الحزن نفسه ، مثلهم في ذلك مثل غيرهم من الشعوب المختلفة التي أحدثت أعظم الأحداث وخضعت لضروب من الثورات المادية والعقلية العنيفة ، حتى إذا هدأت العاصفة وأخذت الأمور تستقر في نصابها ، نظرت هذه الشعوب فإذا هي لم تجن من هذه الثورات والاضطرابات العنيفة شيئاً أو لم تكده تجنى منها شيئاً ، فما أسرع ما يأخذها اليأس ويملكها الحزن ، وتنشأ فيها فنون أدبية جديدة ما كانت لتنشأ فيها لولا هذه الثورات وما أحييت من أمل قوى تبعه يأس قوى ، وما لنا نذهب بعيداً والمثل قائم بين أيدينا لا تزال له حياته وقوته ! أريد الشعب الفرنسي بعد الثورة ، والأدب الفرنسي بعد أن أخفقت الثورة والإمبراطورية الأولى ، والعقل الفرنسي في هذا العصر الذي يقع بين الإمبراطورية الأولى والإمبراطورية الثانية والذي أنتج هذا النوع من الأدب الحزين البائس بل اليائس الذي نقرؤه في (شاتوبريان) و(لامارتين) و (موسيه) و (فيبي) . أتظن أنا كنا نقرأ هذه الآثار الحزونة المؤلمة التي تركها هؤلاء الكتاب والشعراء لو لم يحدث الشعب الفرنسي هذه الثورة العنيفة التي كانت على روعها وفظاعتها مفعمة بالآمال ثم انجلت عن «واترلو» ؟ كلا ! وما كنا لنقرأ شعر جميل والمجنون وابن ذريح لو لم تحدث الأمة العربية هذه الثورة العنيفة التي اضطرت لها العالم القديم وتغير لها فيه كل شيء ، والتي كانت مملوءة آملا والتي استتبع ألواناً من الفظائع والآثام فيما أحدثت من فتن وما شنت من حروب ، والتي انتهت بالقياس إلى هؤلاء البدو إلى ما وصفت لك من هذه الحياة الحاملة الضيقة الحشنة الغليظة التي كان يجيها

الأعراب في صحارى جزيرة العرب ؛ حينما كان الخلفاء والأمراء ومن إليهم يستمتعون بالملك والمجد والثروة وألوان الترف .

إن الشبه لشديد جداً بين أثر الثورة الفرنسية في نفوس هؤلاء الشعراء والكتاب الذين ذكرتهم ، وأثر الثورة العربية في نفوس جميل وقيس بن ذريح ومن إليهما من الشعراء الغزلين في البادية . الشبه شديد ، ولكن على أن تلاحظ الفرق بين الأمة الفرنسية التي كانت متحضرة مترفة عالمة بارعة في الفن حينما أحدثت ثورتها ، والأمة العربية التي كانت بادية ساذجة جاهلة خشنة العيش حينما أحدثت ثورتها أيضاً .

✶ مهما يكن من شيء ، فإن حركة عقلية وشعورية أنشأت في أهل البادية من العرب — بعد أن انتهت الفتوحات والفن — فنا أدبيّاً يشبه من بعض الوجوه هذا الفن الذى أحدثته في فرنسا هذه الحركة العقلية الشعورية التي نشأت بعد فشل الثورة والإمبراطورية الأولى . والغريب أنك تجد في هذين الفئتين العربى والفرنسى وجهين مختلفين في مظهرهما متفقين في أسبابهما ، تجد عند العرب وعند الفرنسيين شعراء يتسوا فذكروا الحب وتغنوه في غير فجور ولا مجون ، وآخرين يتسوا فلهوا وأسرفوا في اللهو وتغنوا طوهم وإسرافهم . ولو أن أولئك وهؤلاء وجدوا من الحياة العملية ما يحول بينهم وبين اليأس ، ويصرفهم عن أنفسهم إلى الحياة وعقباتها ومصاعبها لما تركوا لنا من الآثار ما تركوا . أتظن أن جميلاً وعمر ابن أبي ربيعة — وهما يمثلان هذين اللونين من اليأس — كانا يقضيان حياتهما في حزن عميق يمثله هذا الغزل العفيف أو هذا اللهو المبتسم ، لو أنهما وجدوا من الحياة العملية ما يصرفهما عن أنفسهما إلى هذا الجهاد الحصب المنتج الذى كان يعنى فيه أهل العراق والشام !

أظن أن الأسباب التي أثرت في نشأة هذا الغزل واضحة جلية الآن . وأظن أننا نستطيع أن نتتقل منها إلى شيء آخر ، إلى هذا الغزل نفسه وإلى خصائصه ومميزاته .

ولنلاحظ قبل كل شيء أن هذا الغزل كان يستطيع أن يكون أخصب وأغنى منه في حقيقة الأمر لو لم تحط به هذه الظروف الخاصة التي أنشأتها وأشرفت على حياته . أريد . هذه البداوة وما استتبعته من سداجة وجهل حاد

بين هذا الغزل وبين أن يكون خصباً غنياً حقاً ، وجعلت من اليسير أن نستغنى ببعضه عن بعض وأن نحكم ببعضه على بعض ، وحالت بين هؤلاء الشعراء وبين أن تكون لهم شخصيات قوية بارزة كهذه الشخصيات التي نجدها لشعراء الفرنسيين وكتابهم بين الإمبراطوريتين . فإنك تستطيع أن تستغنى بجميل عن قيس بن ذريح أو بقيس بن ذريح عن جميل ، بل تستطيع أن تستغنى بواحد من هؤلاء الشعراء عن الشعراء الآخرين جميعاً ، لأنهم طرقتوا موضوعاً بعينه هو الحب ، وتناولوه بأسلوب واحد وعلى نحو واحد من اللفظ . فما أسرع ما انتهوا إلى أقصى ما كان يمكن أن يصلوا إليه ! وما أيسر ما تشابهت ألفاظهم ومعانيهم وأساليبهم ! حتى إنك لتضيف إلى أحدهم ما قاله غيره دون أن يحول بينك وبين ذلك حائل في ما . كلهم أحب امرأة أو زعم أنه أحب امرأة . وكلهم اتخذ هذه المرأة مثالا أعلى للجمال المادى والمعنوى . وكلهم وصفها بما يتصف به هذا المثل الأعلى من صفات الحسن والكمال . وكلهم اعتمد في تكوين هذا المثل الأعلى وفي وصفه على السنن الموروثة وألوان التشبيه التي سبقهم إليها الشعراء الأولون أو التي تواضع عليها الناس فيما بينهم ، كلهم شبه صاحبتة بالشمس والقمر . وكلهم وصف أجزاء صاحبتة بما كان يصفها به غيرهم من الشعراء . وكلهم استعمل أو كاد يستعمل نفس الألفاظ ونفس المعاني التي كان يستعملها الشعراء من قبل .

فيم امتازوا عن هؤلاء الشعراء ؟ بشيئين اثنين فيما أعتقد : أحدهما أنهم قصروا حياتهم الفنية على الغزل . وكان الشعراء في العصر الجاهلي يعنون بالغزل كما يعنون بغيره من فنون ، وربما اتخذوه وسيلة في أكثر الأحيان لا غاية . أما أصحابنا هؤلاء فقد اتخذوا الغزل غاية لا وسيلة . ولم نعرف أنهم مدحوا أو عنوا بفن آخر من فنون الشعر إلا ما كان يضطرهم إليه الغزل . فنحن نعلم مثلاً أن جميلًا هجا وفاخر ، ولكننا نعلم أنه لم يهج رغبة في الهجاء ، ولم يفاخر رغبة في الفخر ، كما كان يفعل الأخطل والفرزدق وجريير ؛ وإنما هجا لأن غزله اضطره إلى الهجاء ، وفاخر لأن غزله اضطره إلى الفخر . هجا قوماً كانوا يعيبونه ويهجوته لغزله ونسيبه ، وفاخر هؤلاء القوم أنفسهم ، ولو لم يعرضوا له لما فاخر ولا هجا ، ونحن نعلم أن قيس بن ذريح لم يجاوز الغزل إلى غيره من فنون الشعر ، وقد

أضيفت إليه أبيات مدح بها ابن أبي عتيق ؛ ولكننا نعلم أن هذه الأبيات مصنوعة من جهة ، وأنها - إن صحت - فلم يقلها قيس إلا لأن ابن أبي عتيق جدّ في وصل الحبل بينه وبين لبني .

والآخر أن غزل هؤلاء الشعراء الإسلاميين أرقى بكثير من غزل الجاهليين من حيث إن غزل الجاهليين كان مادياً خالصاً في حين كان في غزل الإسلاميين شيء غير المادة . وأظن أن هذا يحتاج إلى شيء من الإيضاح .

ما الذي كان يعنى به امرؤ القيس أو النابغة أو الأعشى إذا تغزلوا وذكروا النساء ؟ لم يكونوا يعنون بذكر الحب وتأثيره في النفس ولا بهذه الآلام المختلفة التي تنشأ عنه ، أى لم يكونوا يعنون بلخائل نفوسهم ، وإنما كان الغزل عندهم ضرباً من الوصف ، كانوا يصفون النساء كما كانوا يصفون الإبل . وقلما تجد عندهم عناية بالعاطفة أو حرصاً على تمثيلها ، فإن وجدت عندهم هذه العناية بالعاطفة لم تلبث أن تزدرى هذه العاطفة ازدراء ؛ لأنها كانت عاطفة مادّية غليظة إن صح هذا التعبير . كانت عواطفهم تصدر عن الشهوات وإيثار اللذة قبل كل شيء . ومن هنا تجد عند امرئ القيس والنابغة مثلاً هذا الوصف المادى الذى يتناول أجزاء المرأة فيصفها وصفاً تفصيلاً يختلف حظه من العفة قوة وضعفاً ؛ ولكنه مادى قبل كل شيء . فإذا تركوا هذا الوصف وانصرفوا إلى أنفسهم يصفون ما تعاني من الحب وما تلقى من آلامه ، فهم يعرضون لذلك كما يعرضون لوصف اللذات وحاجتهم إليها ورغبتهم فيها ، يصفون لذة الحب كما يصفون لذة الصيد ولذة الحرب . ومن قبل ذلك قلنا : إنهم كانوا يصفون النساء كما كانوا يصفون الإبل ، كذلك كان الغزل في الجاهلية ، كان وسيلة وكان مادياً . أما غزل الإسلاميين فلم يكن وسيلة وإنما كان غاية ، ولسنا نستطيع أن نقول إنه برىء من المادة وخالصاً خلواً تاماً ، فذلك غير صحيح ، ولم يستطع الأدب العربى في وقت من الأوقات أن يبرأ من المادة ، ولنا نستطيع أن نقول : إن الغزل الإسلامى العذرى أضاف إلى المادة شيئاً آخر جعله قوام الشعر ، نريد به الحب نفسه وما يترك في القلب من أثر ، وما يبعث في النفس من عاطفة ، وما يسبغ على المحب من كآبة وحزن ، وما يجيى فيه من أمل ورجاء ، لسنا نشك في أن جميلاً وقيس بن ذريح والمجنون قد وصفوا أجسام

بشينة ولبنى وليلى ، بل وصفوا هذه الأجسام وصفاً مفصلاً لا يخلو من دقة وتحقيق ، ولكننا لا نستطيع أن نشك في أن هذا الوصف المادى لم يكن الغرض الذى كان يرمى إليه هؤلاء الشعراء ، إنما كان وسيلة إلى الغرض الذى كانوا يرمون إليه ، وهو وصف النفس وما تلقى بالحب من شقاء أو سعادة ومن بؤس أو نعيم .
انتقل إذن موضوع الغزل فى الإسلام ، كان فى الجاهلية جسم المرأة فأصبح فى الإسلام نفس العاشق ، ومن هنا لم يكن العذريون المسلمون يصفون المرأة كما كانوا يصفون الإبل ، ولم يكونوا يذكرون لذة الحب كما كانوا يذكرون لذة الصيد ، وإنما كانوا يصفون المرأة كما ينبغى أن يصفها إنسان يشعر ويحس ويمتاز بشيء من الشعور والحس لا يخلو من رقة ورقى معاً . لم تكن المرأة عند هؤلاء الشعراء حاجة تطلب أو شيئاً يطمع فيه ، وإنما كانت شطراً من النفس لا تطيب للنفس حياة إلا به . ولعلك تقرنا على أن هذا رقى عظيم ، وعلى أن العقل العربى والشعور العربى عند ما بلغا هذا الطور من تصور المرأة والحكم عليها والميل إليها ؛ كانا قد جاوزا كل المجاوزة طور الوحشية التى كان يعيش فيها الجاهليون . وليس غريباً أن يعظم الفرق بين هذين الطورين فقد كان بينهما القرآن ، وأثر القرآن فى نفوس المسلمين عظيم .

وأريد أن أضرب لك أمثالا تشخص هذا التطور تشخيصاً ظاهراً قوياً ، فأبدأ بهذه الأبيات من شعر جميل وألفتك إلى أنها مادية فى أولها ولكنها لا تلبث أن تترك المادة إلى المعنى ، وأن تتناول الصلة بين العاشقين فى رقة ولطف وحنان ما كان ليجدها قلب كقلب امرئ القيس ، وأحب أن تلتفت إلى أن هذا الشعر كغيره من شعر جميل وأصحابه لا يخلو من أبيات مصنوعة دسها المغنون ، ولكن شيئاً من الفقه الأدبى يمكنك فى يسر من أن تفرق بين المطبوع والمصنوع :

وَكأنَّ طَارِقَهَا عَلَيَّ عَلَلِ الْكَرَى	وَالنَّجْمُ وَهنا قَدْ دنا لِتَغَوْرِ
يَسْتَأقُ رِيحَ مُدَامَةٍ مَعْجُونَةٍ	بذِكْرِى مِسْكُ أَوْ سَحِيقِ العَنْبَرِ
لِأنى لَأَحْفَظُ غَيْبِكُمْ وَيَسْرُنِي	إذْ تَذْكُرِينَ بِصالحِ أَنْ تَذْكُرِي
وَيَكُونُ يَوْمَ لا أَرى لَكَ مُرْسَلاً	أَوْ نَلْتَقِي فِيهِ عَلَيَّ كَأَشْهُرِ
لِئِنِّى أَلْقَى المَنِيبَةَ بَعَثَةً	إِنْ كانَ يَوْمَ لِقاِئِكُمْ لَمْ يُقَدِّرِ

أَوْ أَسْتَطِيعُ تَجَلُّدًا عَن ذِكْرِكُمْ
لَوْ قَدْ تُجِنُّ كَمَا أُجِنُّ مِنَ الْهَوَى
وَاللَّهِ مَا لِلْقَلْبِ مِنْ عِلْمٍ بِهَا
لَا تَحْسَبِي أَنِّي هَجَرْتُكَ طَائِعًا
فَلْتَبْكِيَنِي الْبَاكِياتُ وَإِنْ أَبَخْ
يَهْوَاكِ مَا عَشْتُ الْفَوَاذُ فَإِنْ أَمْتُ
فِيغِيقُ بَعْضُ صَبَابَتِي وَتَفَكَّرِي
لَعَذْرَتَ أَوْ لَطَلَمْتَ إِنْ لَمْ تَعْدِرِ
غَيْرَ الظُّنُونِ وَغَيْرَ قَوْلِ الْمُخْبِرِ
حَدَّثَ لِعَمْرُكَ رَائِعٌ أَنْ تُهْجَرِي
يَوْمًا بِسِرِّكَ مُعَلِنًا لَمْ أُعْذِرِ
يَتَّبِعُ صَدَائِي صَدَاكَ بَيْنَ الْأَقْبِرِ

فهل ترى ألدّ من هذه النجوى وأعذب من هذا الحديث ؟ وهل تقدّر هذا الجمال الفنى الذى يمثله هذا الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ثم من الخطاب إلى الغيبة ، كلما دعا إلى ذلك موضوع الحديث ؟ ثم هل تعلم أرق من هذا الكلام عاطفة وأرق منه شعوراً ؟

وانظر إلى هذه الأبيات التى قالها بعد أن حاول لقاء بثينة فلم يوفق إليه ، فرجع كئيباً ، وأخذ نساء الحى يلمنه ويعرضن له مجهن ووصلهن :

أَبْشِينُ إِنْ ذَكَ قَدْ مَلَكْتُ فَأَسْجِحِي
فَلَرُبُّ عَارِضَةٍ عَلَيْنَا وَصَلْهَا
فَأَجَبْتُهَا فِي الْقَوْلِ بَعْدَ تَسْتَرِ
لَوْ كَانَ فِي صَدْرِي كَقَدْرِ قَلَامَةٍ
وَيَقْلَنَ إِنْكَ قَدْ رَضِيتَ بِبَاطِلِ
وَلِبَاطِلٍ مِمَّنْ أَحَبُّ حَلِيبُهُ
لِيُزِلْنَ عَنْكَ هَوَايَ ثُمَّ يَصِلَنِي
صَادَتْ فَوَايِدِي يَا بَشِينُ حِيَالِكُمْ
مَنْبِتِي فَلَوَيْتَ مَا مَنْبِتِي
وَتَأَقَلَّتْ لَمَّا رَأَتْ كَلْفِي بِهَا
وَأَخَذِي بِحِظِّكَ مِنْ كَرِيمٍ وَاصِلِ
بِالْجِدِّ تَخْلِطُهُ بِقَوْلِ الْهَازِلِ
حُبِّي بَشِينَةَ عَن وَصَالِكَ شَاغِلِ
فَضْلاً وَصَلْتِكِ أَوْ أَتَيْتِكِ رَسَائِلِ
مِنْهَا فَهَلْ لَكَ فِي أَجْتِنَابِ الْبَاطِلِ
أَشْهَى إِلَيَّ مِنَ الْبَغِيضِ الْبَاذِلِ
وَإِذَا هَوَيْتُ فَمَا هَوَايَ بِزَائِلِ
يَوْمَ الْحَجُونِ وَأَخْطَأْتِكِ حَبَائِلِ
وَجَعَلْتِ عَاجِلًا مَا وَعَدْتِ كَآجِلِ
أَحْبَبُ إِلَيَّ بِذَلِكَ مِنْ مُتَأَقِلِ

وأطعت في عواذلاً فهجرتني
 حاولتني لأبت حبلاً وصالكم
 فرددتهن وقد سعين بهجركم
 يعضضن من غيظ على أناملا
 ويقلن إنك يا بثين بخيلة
 وعصيتُ فيك وقد جهدت عواذلي
 مني ، ولست وإن جهدت بفاعلي
 لما سعين له بأفوق ناصلي
 ووددت لو يعضضن صم جنادلي
 نفسي فدأوك من ضنين باخلي

رويت لك هذه الأبيات على علاقتها في رواية أبي الفرج مع تغيير قليل جداً في ترتيب الأبيات الأولى لم يكن منه بد لاستقامة المعنى . ولست أشك في أن هذه الأبيات رعيها من شعر الغزلين تروى في كتاب الأغاني وقد فقدت ترتيبها الطبيعي ؛ لأن أبا الفرج لا يلتفت إلا إلى الغناء وأصوات المغنين ، فأما النظام الطبيعي للقصيدة فلا يحفل به ، وعندى أن هذه الأبيات التي نحن يلزأها قد رويت معكوسة وأن آخرها يجب أن يقع في أولها . وشيء من التأمل يقنعك بهذا . ولكن لهذا البحث موضعاً آخر . أما الآن فأنا ألفتك إلى الأبيات الأولى من هذا الشعر وإلى لطف هذا التخلص من تلك التي كانت تتبع جميلاً وتطمعه ، تريد أن تصرفه عن صاحبه إلى نفسها . ثم ألفتك أيضاً إلى هذا الجمال الفني الذي يمثله الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ون الخطاب إلى الغيبة ، وإلى هذه الجملة المعترضة التي يأتي بها الشاعر إما للتأكيد وإما للتلطف في حديث صاحبه . ثم ألفتك إلى هذه السهولة في اللفظ والمعنى . فكل هذه الحلال التي تجدها في أكثر شعر جميل تبعدك كل البعد عن شعر الجاهليين وغزلهم .

• • •

ولأنقل بك من جميل هذا البدوي المتحضر في شعره إلى رجل آخر احتفظ في شعره بالبداءة دون أن يخطئه الجمال الفني أو يقل حظه من الرقة وشرف العاطفة ، وهو قيس بن ذريح . وأروى لك من شعره الجميل هذه الأبيات :

أَقْضَى نَهَارِي بِالْحَلِيبِ وَبِالْمَنَى
 نَهَارِي نَهَارُ النَّاسِ حَتَّى إِذَا بَدَأَ
 لَقَدْ رَسَخْتُ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَوَدَّةً
 أَحَالَ عَلَى الْهَمِّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
 أَلَا إِنَّمَا أَبْكِي لِمَا هُوَ وَاقِعٌ
 وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي وَالنَّوَى مَطْمَئِنَّةً
 وَأَهْجُرُكُمْ هَجْرَ الْبَيْضِ وَحُبِّكُمْ
 وَأَعْمِدُ لِلْأَرْضِ الَّتِي لَا أُرِيدُهَا
 وَأَشْفِقُ مِنْ هِجْرَانِكُمْ وَتَرْوَعُنِي
 فَمَا كُلُّ مَا مَنَّكَ نَفْسُكَ خَالِيًا
 لَعَمْرِي لَمَنْ أَمْسَى وَلِبْنَى ضَجِيعُهُ
 فَتِلْكَ لُبْنَى قَدْ تَرَاحَى مَزَارَهَا
 وَلَيْسَ لِأَمْرِ حَاوَلَ اللَّهُ جَمْعُهُ
 فَلَا تَبْكِينَ فِي إِذْرٍ لِبْنَى نَدَامَةً
 وَيَجْمَعُنِي وَالْهَمُّ بِاللَّيْلِ جَامِعٌ
 لِي اللَّيْلُ هَزَنَتْنِي إِلَيْكَ الْمَضَاجِعُ
 كَمَا رَسَخْتُ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ
 وَدَامَتْ فَلَمْ تَبْرَحْ عَلَى الْفَوَاجِعِ
 فَهَلْ جَزَعِي مِنْ وَشْكِ ذَلِكَ نَافِعٌ
 بِنَاوِيكُمْ مِنْ عِلْمٍ مَا الْبَيْنُ صَانِعٌ
 عَلَى كَيْدِي مِنْهُ شُؤْنٌ صَوَادِعُ
 لَتَرْجِعَنِي يَوْمًا إِلَيْكَ الرَّوَاجِعُ
 مَخَافَةٌ وَشْكِ الْبَيْنِ وَالشَّمْلُ جَامِعُ
 تُلَاقِي، وَلَا كُلُّ الْهَوَى أَنْتَ تَابِعُ
 مِنَ النَّاسِ مَا اخْتَبِرْتَ عَلَيْهِ الْمَضَاجِعُ
 وَتِلْكَ نَوَاهَا غَرْبَةٌ مَا تُطَاوِعُ
 مُشْتٌ وَلَا مَا فَرَّقَ اللَّهُ جَامِعُ
 وَقَدْ نَزَعْتَهَا مِنْ يَدَيْكَ النَّوَاجِعُ

أما أنا فأرى أن هذه القصيدة آية من آيات الغزل العربي ، فيها جمال اللفظ ورسائنه ؛ وفيها جلال المعنى ومثاقنه ، وفيها جمال هذه النفس التي تألم هذا الألم الشريف ، وتدعن لقضاء الله وقدره هذا الإذعان الشريف .
 وأحب أن تقدّر معي جمال هذا البيت وما فيه من صدق وسداجة طبيعية وجودة للتشبيه :

لَقَدْ رَسَخْتُ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَوَدَّةً كَمَا رَسَخْتُ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ
 انظر إليه ! أراد أن يشبه ثبوت حبه ومثاقنه ، فلم يلتمس التشبيه بعيداً من نفسه ، وإنما وجهه فدّ إليه يده أو لم يملها ، وجهه في يده ، كما رسخت

في الراحتين الأصابع . ثم أحب أن تلتفت إلى هذا اليأس والإذعان اللذين ذكرتهما في أول هذا الفصل . أحب أن تلتفت إلى هذا البيت وتحدثني أيمثل اليأس والإذعان تمثيلاً صحيحاً :

وَلَيْسَ لِأَمْرِ حَاوِلَ اللَّهِ جَمْعُهُ مُشْتٌ وَلَا مَا فَرَّقَ اللَّهُ جَامِعُ

أحب أن تقرأ هذه القصيدة وتقرأها ؛ فإنك لا تجد فيها نفس الشاعر وحده وإنما تجد فيها نفس هؤلاء الغزلين جميعاً . بل تجد فيها نفس البادية العربية في هذا العصر . أحب أن تقرأ هذه القصيدة وتقرأها وأن تقرأ أمثالها من شعر قيس وجميل وغير قيس وجميل ؛ فإنك ستجد في هذا الشعر ما تسكت به الذين يزرون الأدب العربي ويحدثون مكانة الشعر العربي ويخندعون بجمال الشعر الإفرنجي ، والله يعلم أنهم ما فهموه ولا ذاقوه ، فيزعمون أن العرب لم يحدثوا شيئاً ولم يفهموا الجمال ولم يقدروه : إنهم ليزعمون ذلك ، وإنهم ليتحدثون به إلى الشباب ، وإنهم ليكتبونه في الصحف والكتب ، والله يعلم ما زعموه ولا كتبوه ولا تحدثوا به إلا عن جهل فاحش للأدب العربي والإفرنجي جميعاً .

ولكني أشعر بأني أشطت عن موضوع هذا البحث ، فلأعدت إليه ولأختمته بهذه الأبيات القليلة التي قالها مجهول ونسبت إلى الخنون ، والتي تمثل بداوة الغزل العربي ناصعة خلاصة في جمالها الساذج الطبيعي وهي :

تَمُرُّ الصَّبَا صَفْحًا بِسَا كِنِ ذِي الغَضَا وَيَصْدَعُ قَلْبِي أَنْ يَهَبَّ هُبُوبُهَا
إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ الشَّمَالُ فَإِنَّمَا جَوَاىِ بِمَا تُهْلِي إِلَى جَنُوبُهَا
قَرِيبَةٌ عَهْدٍ بِالْحَبِيبِ ، وَإِنَّمَا هَوَى كُلِّ نَفْسٍ حَيْثُ كَانَ حَبِيبُهَا
وَحَسْبُ اللَّيَالِي أَنْ طَرَحْنَاكَ مَطْرَحًا بَدَارِ قَلِي تُمْسِي وَأَنْتَ غَرِيبُهَا
حَلَالٌ لِلَّيْلِ شَتْمَهَا وَأَنْتِقَاصُهَا هَنِيبًا ، وَمَغْفُورٌ لِلَّيْلِ ذُنُوبُهَا
ألفتك إلى هذه البداوة في قوله : « وَيَصْدَعُ قَلْبِي أَنْ يَهَبَّ هُبُوبُهَا »

في قوله : « بَدَارِ قَلِي تُمْسِي وَأَنْتَ غَرِيبُهَا » يريد وأنت غريب فيها . ثم ألفتك إلى هذه المعاني الساذجة الحلوة الخلاصة لا شيء إلا لأنها ساذجة . ألفتك إلى

هذا كله . وأودّ لو تقرأ وتقرأ ما لم أستطع أن أرويه لك من شعر هؤلاء الغزلين :
وهو كثير ، كثير بحيث يمكننا من أن نتصور هذه النفس اليائسة البائسة
الهائمة في طلب المثل الأعلى وإن كان قليلاً جداً بالقياس إلى ما ذهبت به
الأحداث .

والآن وقد ألمنا بالغزلين وأشعارهم وأخبارهم إمامة قصيرة ولكنها نافعة ، فقد
نستطيع أن نتقل منهم إلى طائفة أخرى من الشعراء في الفصول المقبلة .

عود إلى الغزلين^(١)

وضاح اليمن

كنت أريد أن أنصرف عن الغزلين إلى طائفة أخرى من شعراء العصر الأموي ، ثم بدآلى ، فأثرت العودة إليهم ، لأن البحث ، ولأن هؤلاء الغزلين من الحضرة ليسوا أقل حظاً في الإجابة من أولئك الغزلين من أهل البادية ، بل ربما كان درس الغزلين الحاضرين أعظم نفعاً وأشدّ غناء من درس الغزلين البادين . ذلك لأنّ الغزلين من أهل الحضرة يمثلون نحواً من أنحاء الحضارة التي عاشوا فيها . ومن الخير أن نلمّ بهذه الحضارة الإسلامية في أوّل عهدنا بالظهور والإزهار . وقد يعيننا درس هذا الغزل الحضريّ وما يتصل به من ألوان الحياة في أيام بني أمية على أن نفهم هذا العبث الذي نجده مستأثراً بالحياة الأدبية أيام بني العباس ؛ فإن السنة الشعرية لم تنقطع بين هذين العصرين : عصر دمشق وعصر بغداد .

ثمّ قد نجد من درس الغزلين الحاضرين أيام بني أمية ما يمكننا من تحديد الفروق الفنية والنفسية بين هؤلاء الشعراء الأمويين الذين كانوا أشدّ تأثراً بالحياة العربية القديمة ، وهؤلاء الشعراء العباسيين الذين كانوا أشدّ تأثراً بالحياة الفارسية الجديدة . ولكل هذا نفعه وقيمته ، ثمّ إنّ هؤلاء الشعراء الحاضرين لهم شخصياتهم البارزة وآثارهم القوية في تكوين الأدب الإسلامي والنفس العربية الإسلامية ، فلا بد من درسه والإلمام بأطرافهم من حياتهم وآثارهم . وكيف نستطيع بعد أن درسنا جميلاً وقيس بن ذريح والمجنون أن نهمل الأحوص والعرجي وعمر بن أبي ربيعة وعبيد الله بن قيس الرقيات ! على أنى لا أحدثك اليوم عن واحد من هؤلاء ، وإنما أحدثك عن رجل آخر لست أدري في الحق أوجد بالفعل أم لم يكن إلا خيالاً اخترعه القصاصون اختراعاً وانتحلوا شعره انتحالاً ،

(١) نشرت بمجلة « السياسة » في ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٤ .

ونسجوا ما حوله من الأحاديث والأخبار ما فيه لذة ومتعة وما يدعو درسه إلى تأمل وتفكير ؟

أريد أن أحدثك عن هذا الشاعر الذى يلقبونه وضاح اليمن ، والذى فتن به بعض أساتذة الأدب المحدثين حتى خيل إليهم أنه اخترع الشعر التمثيلي وأضافه إلى تراثنا الأدبي القديم . اخترع الشعر التمثيلي لا لأنه وضع قصة تمثيلية شعرية ، ولا لأنه تصوّر شيئاً يشبه القصص التمثيلية أو يقارنها ، بل لأن قصيدة من شعره فيها شيء من الحوار ؛ فخيل إلى هؤلاء الأدباء أنه قد اخترع التمثيل منذ أدخل الحوار فى الشعر ، ونسوا أن الحوار ليس هو التمثيل ، وإنما هو أصل من أصول التمثيل ، ونسوا أيضاً أن هذا الحوار الذى يجدونه فى شعر وضاح والذى سأظهره عليه بعد حين قد سبق إليه الشعراء جميعاً فى جاهليتهم وإسلامهم فحاور امرؤ القيس عشيقاته ، وحاور ابن أبي ربيعة أخلدانه ، وحاور جميل بثينة ، وحاور كثير عزة ، وحاور ابن ذريح لبني ، ومهما يكن من شيء فليس عسير أن ننكر ما زعم هؤلاء الأساتذة المحدثون لوضاح اليمن من استكشاف التمثيل الشعرى ، وأن نبين أن مصدر هذا الزعم إنما هو أن هؤلاء الأساتذة يجهلون التمثيل من جهة ، ويريدون أن يضيفوا إلى الأدب العربى ما فيه وما ليس فيه ، حتى لا يظهر فضل للأدب اليونانى أو الأدب الأوروبى على أدبنا العربى .

الجهل من ناحية ، والغرور من ناحية أخرى ، هما اللذان أحدثا هذه الفكرة السخيفة فى نفس طائفة من أدبائنا .

إنما العسير حقاً هو أن نقطع بشيء فى أمر هذا الشاعر : أوجد أم لم يوجد ؟ أقال هذا الشعر أم لم يقله ؟ أوقعت له هذه الأخبار أم لم تقع ؟ مسائل عسيرة ولكن حلها ليس مستحيلاً .

أنا أشك فى وجود هذا الشاعر شكاً قوياً ، وحسبك أن رواته يختلفون فيه اختلافاً كثيراً ، فمنهم من يزعم أنه عربى حميرى ، ومنهم من يزعم أنه من سلالة الفرس الذين جاءوا اليمن مع سيف بن ذى يزن ليردوا عنها غارة الحبشة ، ومنهم من يحاول التوفيق بين هاتين الروايتين ، فيزعم أنه عربى ولكن أباه مات عنه طفلاً ، فتزوجت أمه رجلاً من سلالة هؤلاء الفرس الذين

كانوا يسمون « الأبناء » وشب الطفل في حجر هذا الفارسي ، ثم جاءت عمومته تطلبه فادعاه الفارسي ، وكانت حول الغلام خصومة رفعت إلى الحاكم فقضى للعرب على الفارسي ، قالوا : وكان الغلام بارع الجمال فأعجب به الحاكم فسح على رأسه وقال له : أنت وضّاح اليمن ؛ فغلب عليه هذا اللقب .

غير أن هذه القصة المتكلفة ، وهذا التوفيق الغريب بين الروایتين لا يثبتان أمام شيء نجاهه في أخبار وضّاح ، وهو أنه بينما كان في دمشق متصلاً بقصر الوليد بن عبد الملك - كما سترى بعد حين - تلقى كتاباً من اليمن فيه نعي أبيه وأخيه ، فرتاهما بقصيدة قافية طويلة يرويهما أبو الفرج . ولإذن فلم يمت عنه أبوه وهو طفل ، وإنما مات عنه وهو رجل في عنفوان قوته قد سما به المجد حتى اتصل بقصور الخلفاء .

ثم لا يختلف الرواة في أمر وضّاح وحده ، بل يختلفون في أمر عشيقته الأولى - فله عشيقتان - : أفارسية هي أم عربية .

فكل هذا الاضطراب لا يحمل على الاطمئنان إلى وجود وضّاح . ولكن هناك شيئاً آخر يحمل على الشك في وجود وضّاح ، وهو أن الغزليين الذين بعد صوتهم في القرن الأول والثاني للهجرة مضرّيون كلهم أو أكثرهم ، سواء في ذلك منهم البادون والحاضرون . فن كان من بينهم يمانياً كالأحوص الأنصاري ، وإنما هو يمانى النسبة ليس غير ، قد اشتدّ اتصاله بالمضرية عامة وقريش خاصة ، حتى لم يأخذ بحظه من العصبية اليمانية التي كانت قاعدة الحياة السياسية وآفتها في ذلك العصر . وقد حاولت اليمانية أن تدعى جميلاً ولكنها لم توفق ، لأن النسابين اشتدّ اختلافهم في نسب قضاة قبيلة جميل ، حتى إن جميلاً نفسه كان يزعم ويعلن أنه من معدّ .

كان الغزليون كلهم أو أكثرهم مضرّيين . وكانت العصبية بين المضرية واليمانية قد عظم أمرها وأخذت تحدث في الحياة السياسية العربية آثارها المنكرة المعروفة . فكانت المضرية لا تفتخر بشيء إلا حاولت اليمانية أن تفتخر بما يعدله أو يفضله ، وقد افتخرت المضرية بالغزليين من شعرائها في الإسلام ، وكانت السنة المتصلة أن الغزل يمان ، لأن امرأ القيس هو الذى مهد طريقه في الجاهلية ، فلم يكن من اليسير على اليمانية أن تحتمل هذا

الخلدان ، وأن تسلم للمضرية بهذا التفوق الشعري الذي اغتصته اغتصاباً وظفرت به في غير حق ولا وراثة . وإذن فلا بدّ من أن يكون للبانة شعراء غزلون تقفهم أمام الشعراء الغزلين من المضرية . وليس وضاح هذا - فيما أرجح - إلا تجربة من هؤلاء الشعراء الذين كانوا اليمانيون يبتغونهم اختراعاً في القرن الثاني للهجرة ليفاخروا بهم المضريين .

اخترعت اليمانية وضاحاً وشعره - فيما أعتقد - حتى لا يقال إنها خلت من شاعر غزل في الإسلام . وهبه قد وجد حقاً ، وقال الشعر واتصل بالخلفاء ووقعت له هذه الأخبار المعروفة كلها أو بعضها ، فليس من سبيل إلى الشك في أن الكثرة المطلقة من هذا الشعر الذي يضاف إليه منحولة مصنوعة لم يقلها ولم يعلم بها .

ولماذا ؟ لأن هذا الشعر الذي يضاف إلى وضاح لا يمكن أن يكون قد صدر عن شاعر مات قبل أن ينتهي القرن الأول للهجرة .

أنت قد قرأت شعر الغزلين من أهل البادية وعرفت أنه يمتاز بمتانة اللفظ ورسانة الأسلوب . وهذه المسحة البدوية التي إن لم تكن شديدة الخشونة فليست شديدة النعومة . وأنت قد قرأت وستقرأ شعر الغزلين من أهل الحاضرة ، وسترى أن هذا الشعر إذا برئ من خشونة البادية قليلاً أو كثيراً فهو عربي ، عربي بريء من الابتذال والسقوط وهذا اللين الذي يملك على أن تقسم ما قال هذا الشعر عربي ، وإنما هو صنعة مولد ضعيف .

شعر وضاح لين مسرف في اللين ، سهل مفرط في السهولة ، هو شعر مخنث إن أذنت لي باستعمال هذا اللفظ . ثم هو على لينة وخنوثته لا يخلو من تكلف منكر قد يخرجه أحياناً عن أصول النحو . ثم هو على هذا كله لا يخلو من تكلف آخر في القافية لم يكن يذهب إليه الشعراء الأولون . تراه يتكلف قافية شينية مثلا ويريد أن يطيل ، والقافية الشينية عزيزة تعسر عليه ، فيضطر إلى أن يصطنع جيد اللفظ وسخيفه ؛ لأنه مفلس ، ولأنه يريد أن يظهر مظهر الموسر . وانظر إلى هذه القصيدة فقد تغنيك عن إطالة القول :

طَرَبَ الْفُؤَادُ لَطِيفَ رَوْضَةِ غَاشِيٍ وَالْقَوْمُ بَيْنَ أَبَاطِحِ وَعِشَاشِ

أَنِي اهْتَدَيْتِ وَدُونَ أَرْضِكَ سَبَبٌ
 قَالَتْ تَكَالِيفُ الْمُحِبِّ كَلِيفَتُهَا
 أَذْعُوكِ رَوْضَةَ رَحَبٍ وَأَسْمُكَ غَيْرُهُ
 قَالَتْ فَزُرْنَا قُلْتَ كَيْفَ أَزُورُكُمْ
 قَالَتْ فَكُنْ لِعُمُومَتِي سَلْمًا مَعًا
 فَتَزُورُنَا مَعَهُمْ زِيَارَةَ آمِنٍ
 وَلَقَيْتَهَا تَمْشِي بِأَبْطَحَ مَرَّةٍ
 فَظَلَلْتُ مَعْمُودًا وَبِتُ مُسَهَّدًا
 يَا رَوْضُ حُبِّكَ سَلِّ جِسْمِي وَأَنْتِ حَيَّ
 قَفَرٌ وَحَزْنٌ فِي دُجَى وَرَشَاشٍ
 إِنْ الْمُحِبُّ إِذَا أُخِيفَ لَمَاشِي
 شَفَقًا وَأَخْشَى أَنْ يَشِي بِكَ وَاشِي
 وَأَنَا أَمْرٌ لَخُرُوجِ سِرِّكَ خَاشِي
 وَالطَّفُّ لِإِخْوَتِي الَّذِينَ تَمَاشِي
 وَالسُّرُّ يَا وَضَاحُ لَيْسَ بِفَاشِي
 بِخَلَاخِلٍ وَبِحُلَّةٍ أَكْبَاشِي
 وَدُمُوعٍ عَيْتِي فِي الرَّدَاءِ غَوَاشِي
 فِي الْعَظْمِ حَتَّى قَدْ بَلَغْتَ مُشَاشِي

أترى إلى هذه القصيدة في ألفاظها ومعانيها وقوافيها ؟ ولنبدأ فلنلاحظ أن معنى هذه القصيدة أقرب إلى ما نجده في حياة المدن أثناء العصور المتأخرة منه إلى ما نعلم من أخلاق العرب في العصور الأولى . فهذه المرأة التي تريد وضاحاً أن يزورها ، فإذا ذكر لها عسر ذلك أغرته بأن يتلطف لأعمامها وإخوتها حتى تكون الصداقة بينه وبينهم ، فتسهل عليه زيارتها معهم دون أن يتعرض لخطر أو أن يذاع سرهما . أقول : إن هذه المرأة أقرب إلى أن تكون بغدادية من الطبقات المنحطة في أهل بغداد منها إلى أن تكون عربية يمانية أو مصرية قريبة عهد بأخلاق البادية وما فيها ، لا أقول من عفة وطهارة ، ففي البادية فحشها وفجورها ، بل أقول من كرامة وسداجة وترفع عن مثل هذه الدنيات .

وأما القافية فقد لاحظت من غير شك مطاع القصيدة الذي يقول فيه :
 * طرب الفؤادُ لطيفَ رَوْضَةَ غَاشِي * وما أحسبك في حاجة إلى أن أنبهك إلى موضع « غَاشِي » من العسر والخرج . ، وفطنت إلى قوله : * إِنْ المُسْحَبَّ إِذَا أُخِيفَ لَمَاشِي * وفطنت إلى قوله : « وَأَخْشَى أَنْ يَشِي بِكَ وَاشِي » دون نصب الفعل ؛ وفطنت إلى غير ذلك مما تشمل عاياه القصيدة من مهمل اللفظ وردى القافية .

ولست أريد أن أطيل برواية الكثير من شعر وضاح ؛ فقد تجد ذلك

في كتاب الأغاني . وأنا أوصيك بالقافية التي يرقى بها أباه وأخاه . وأروى لك هذه الأبيات التي يمزج فيها على أم البنين وقد أخذتها علة :

حَتَّامَ نَكْتُمُ حُزْنَنا حَتَّامًا وَعَلَامَ نَمْتَبِقِي الدُّمُوعَ عَلَامًا ؟
 إِنَّ الذِي بِي قَدْ تَفَاقَمَ وَاغْتَلَى وَنَمَّا وَزَادَ وَأَوْرَثَ الْأَسْمَامَا
 قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الْبَنِينِ مَرِيضَةً نَخْشَى وَنُشْفِقُ أَنْ يَكُونَ جِمَامَا
 يَا رَبُّ أَمْتَعْنِي بِطُولِ بَقَائِهَا وَاجْبُرْ بِهَا الْأَرْمَالَ وَالْأَيْتَامَا
 وَاجْبُرْهَا الرَّجُلَ الْغَرِيبَ بِأَرْضِهَا قَدْ فَارَقَ الْأَحْوَالَ وَالْأَعْمَامَا
 كَمْ رَاغِبِينَ وَرَاهِبِينَ وَبُؤْسِ عُصِمُوا بِقُرْبِ جَنَابِهَا إِعْصَامَا
 بِجِنَابِ ظَاهِرَةِ الثَّنَا مَحْمُودَةً لَا يُسْتَطَاعُ كَلَامُهَا إِعْظَامَا

فمن زعم أن هذا الشعر عربي قد صدر عن قائله في القرن الأول للهجرة ، فلإني أزعم أنه لم ينشأ في القرن الأول ولا في الثاني ، وإنما أنشأه ناظم جاهل لاحظ له من قوة ، ولا نصيب له من فن القرن الثالث أو الرابع للهجرة . ويحدثنا أبو الفرج أن كتاباً غشا مصنوعاً كان في أيدي الناس عن الوضاح ، وأنه كره أن ينقل منه شيئاً . وإذن فوضاح اليمن هذا بطل غرامى من أبطال العامة ، لا من أبطال الخاصة كأولئك الذين درسنا أخبارهم في الفصول الماضية .

على أن اللذيد من أمر الوضاح ليس شعره ولا نسه ، وإنما هو هذه القصة الغرامية التي أنشئت حوله ، والتي اشتركت في تكوينها عناصر مختلفة : منها السياسي ومنها العصبي ومنها المبالغات العامية ، والتي ما زالت تصلح موضوعاً لقصة غرامية موسيقية حديثة على نحو ما يسميه الفرنج بالأوبرا .

زعموا أن وضاحاً أحب في أول أمره امرأة يقال لها روضة ، يمانية أو فارسية ، وزعموا أنها أحبته ، وزعموا أن حبهما ذاع بين الناس ، فلما خطبها أبى عليه أهلها ما أراد على نحو ما هو معروف في القصص الغرامية لذلك العهد ، ولكن هذه القصة اختزلت اختزالاً ، فلم يستطع الشاعر أن يحتفظ بغرامه ويتعرض لأخطار الحب ، ولم يتح للسلطان إهدار دمه كما هي العادة في القصص الغرامية . ذلك لأن « روضة » أصابها الجذام فلم تصبح أهلاً للعشق ، وإنما أصبحت أهلاً للرحمة ، وقد رحمها الشاعر وعطف عليها ، ومع أن أكثر شعر

وضاح إنما هو في روضة هذه ، فإن قصته الحقيقية التي عبثت بحياته بل عصفت بها ، والتي أشرت إليها آنفاً إنما هي سيرته مع أم البنين .

أم البنين هذه بنت عبد العزيز بن مروان ، وزوج الوليد بن عبد الملك . كانت جميلة فاتنة ، يشهد بذلك شعر عبيد الله بن قيس الرقيات فيها . وقد استأذنت زوجها في الحج فأذن لها ، فبلغت مكة في جوار حسان لم ير أهل مكة مثلهن ، وكن سافرات يتعرّضن للغزلين من أهل الحجاز . وكان الوليد قد توعد الشعراء إن تغزلوا بالملكة أو إحدى وصائفها . ولكن الملكة كانت تريد أن يتغزل بها الشعراء كما تغزلوا بأخت زوجها فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر ابن عبد العزيز ، وكما تغزلوا بسكينة بنت الحسين ، وكما تغزلوا بينت معاوية من قبل ، وكما كانوا يتغزلون بكل شريفة وردت مكة ، لا يريدون بذلك إنما ولا نكراً ، وإنما يذهبون في ذلك مذهب المدح والدعابة . فطلبت إلى كثير وإلى وضاح أن يذكرها ، فأما كثير فخاف الخليفة وأراد أن يرضى الملكة ، فذكر جارية لها يقال لها غاضرة ، وأما وضاح فتغزل بالملكة نفسها ، ولم ينقل الرواة إلينا ما قال فيها ، ولكنه نعى إلى الوليد فحقت عليه واغتاله .

هذا ما يمكن أن يكون صحيحاً من القصة ، وهو الموضوع الذي نسجت حوله هذه القصة المتقنة التي سأوجزها في أسطر ، والتي قلت إنها تصلح موضوعاً لمأساة موسيقية حديثة .

زعموا أن أم البنين أحببت وضاحاً وأحبها وضاح ، وكانت بينهما دعابة ثم جاوز الأمر الدعابة إلى ما هو شرٌّ منها . قال : وأهدى إلى الوليد جوهر أعجبه فأراد أن يهديه إلى أم البنين ؛ فأرسله إليها مع خادم له ودخل الخادم على الملكة فرأى عندها وضاحاً . قال : فأسرعت الملكة إلى صندوق فأخضت فيه صاحبها ، ثم أخذت الجواهر من الخادم وقد رأى ما صنعت فطمع فيها ، وأراد أن يستغل ما يعلم ، فطلب إليها أن تمنحه حجراً من هذا الجواهر ؛ قالوا : فأبت عليه ذلك وسبته ، فانصرف محنقاً حتى بلغ الخليفة فأنبأه بما رأى ؛ فأظهر الخليفة تكذيبه وأمر به فقتل ، ثم نهض من فورهِ فدخل على الملكة ، فإذا هي تتمشط ، فجلس على الصندوق الذي وصفه له الخادم ، وأخذ يتحدث إلى الملكة في ملاطفة حتى سألتها أن تهدي إليه هذا الصندوق . فلم تستطع رده ، فأمر بالصندوق

فاتحتمل إلى مجلسه . ثم أمر فاحتضرت بئر في هذا المجلس : ثم ألقى الصندوق في البئر ، وهيل عليه التراب وسويت الأرض ، ورد البساط إلى مكانه ولم يعرف أحد لوضّاح خبراً ، ولم تنكر الملكة من زوجها شيئاً .

قال أبو الفرج : إن هذه القصة مصنوعة ، وضعها أحد الشعوية . وقد كانت بينه وبين «أحوى» ملاحاة أيام بنى العباس ، وأكبر الظن أن هذه القصة موضوعة كلها ، ولكنها في نفسها جيدة مؤثرة صالحة كما قلت لأن تكون موضوع مأساة موسيقية .

فأنت ترى أمر وضاح هذا كله نكر في نكر : فشخصه موضوع شك وشعره منحول ، وأخباره متكلفة ، ومع ذلك فنحن نجد في شعره شيئاً لا يخلو من جودة ، وأنا أوصيك باللاميتين اللتين مدح بهما الوليد .

وأختتم هذا الحديث بهذه الأبيات التي أشرت إليها في أول الفصل والتي خيلت إلى بعض الأدباء المحدثين أن وضاحاً قد استكشف الشعر التمثيلي . وإنما أروى هذه الأبيات لأن فيها سداجة حلوة إن لم تمثل النفس العربية فهي تمثل النفس العامية البغدادية :

قَالَتْ أَلَا لَا تَلِجَنَّ دَارَنَا	إِنَّ أَبَانَا رَجُلٌ غَائِرٌ
قُلْتُ فَإِنِّي طَالِبٌ غَيْرَةٌ	مِنْهُ وَسَيُنْفِي صَارِمٌ بَاتِرٌ
قَالَتْ فَإِنَّ الْقَصْرَ مِنْ دُونِنَا	قُلْتُ فَإِنِّي فَوْقَهُ ظَاهِرٌ
قَالَتْ فَإِنَّ الْبَحْرَ مِنْ دُونِنَا	قُلْتُ فَإِنِّي سَابِغٌ مَاهِرٌ
قَالَتْ فَحَوِّلى إِخْوَةٌ سَبْعَةٌ	قُلْتُ فَإِنِّي غَالِبٌ قَاهِرٌ
قَالَتْ فَلَيْتُ رَابِضٌ بَيْنَنَا	قُلْتُ فَإِنِّي أَسَدٌ عَاقِرٌ
قَالَتْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ فَوْقِنَا	قُلْتُ فَرَبِّى رَاحِمٌ غَائِرٌ
قَالَتْ لَقَدْ أَعْيَيْنَنَا حُجَّةٌ	قَالَتْ إِذَا مَا هَجَعَ السَّائِرُ
فَاسْقَطْ عَلَيْنَا كَسْفُوطِ النَّدى	لَيْلَةٌ لَا نَأْوِ وَلَا زَاجِرُ

الغزلون^(١)

العرجى

أريد اليوم أن أحدثك عن شاعر ظريف خفيف الروح محبب إلى النفس ، فيه خصال الرجل العربي حقاً ، لا أريد عربيّ البادية ، ولا أريد الحضريّ الفقير ، وإنما أريد العربيّ الذي قضى الله له مولداً كريماً وثروة ضخمة ومكانة ممتازة ، فاستمتع بهذا كله كما ينبغي أن يستمتع به ، وظفر من هذا كله بما يستتبع من الخلال الحسنة والسيئة . فأنت تجد عنده مزايا الثروة ونقائصها ، وأنت تجده مصدراً لكل ما يصدر عن الأرستقراطية من خير وشر . وأنت تجده مثلاً صادقاً لهذه الطائفة من الشباب الحجازي الذي حدثتلك عنه غير مرة ، وزعمت لك أنه كان حسن المولد ضخيم الثروة قوى المروءة ، عظيم الحظ من الذكاء ، ولكنه كان مع ذلك ، أو قل كان لذلك نفسه ، مبعداً عن الحياة السياسية العامة ، مضطراً إلى أن ينفق أيامه في اللهو واللعب ، ويبلى حياته في العبث والمجون .

حدثتلك عن هذا الشباب غير مرة ، وسأحدثك عنه غير مرة أيضاً ؛ فإن حياة هؤلاء الشبان الذين كانوا زهرة الأرستقراطية الإسلامية ، سواء أكانت هذه الأرستقراطية معتمدة على الدين أم على المولد أم على الثروة أم على هذه الأشياء جميعاً . أقول إن حياة هؤلاء الشبان خليقة بالدرس والعناية ؛ لأنه كان قد قُدر أن أبناء الذين أسسوا الدولة الإسلامية الأولى يجب أن يكون لهم أثر عظيم في حياة المسلمين . فلو أن الخلفاء من بني أمية أشركوهم في حديث الأمر كما اشترك آباؤهم في قديمه لتغيرت من غير شك وجهة الحياة السياسية الإسلامية ، ولقامت دولة بني أمية على الشورى لا على الاستبداد ، ولحيل بين المسلمين وبين الثورات التي مزقت دولهم تمزيقاً . ذلك أن هذا الشباب القوى

(١) نشرت بمجريدة «السياسة» في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٢٤ .

الذكي الحصب كان يستطيع أن يقيم شيئاً من التوازن المتين بين سلطة الخلفاء وسلطة الزعماء ، يمنع هؤلاء الخلفاء من الظلم والإسراف في الاتقياد للمعصيات . ولكن الخلفاء فهموا هذا حق الفهم واستيقنوا أن اشترك الشباب الحجازي في أمور الدولة يقبض سلطانهم ويضطرهم إلى شيء من الحكم الدستوري . مناف كل المنافاة لما كانوا يسمون إليه من الحكم المطلق ، فلم يروا بدءاً من إبعاد هذا الشباب من أمور الدولة واضطراره إلى أرض الحجاز لا يجاوزها إلا بإذن ، ولا يخرج منها إلا في حاجة ماسة .

ولقد جاهد هذا الشباب الحجازي جهاداً عنيفاً في سبيل الاحتفاظ بمرتته التي تركها له أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فما كانت ثورة ابن الزبير ، وما كانت ثورة الجرة ، وما كان خروج الحسين بن علي ، إلا مظاهر لهذا الجهاد . ولكن هذا الشباب الحجازي لم يوفق ، وتمت الكلمة للاستيلاء الأموي . واضطرت أبناء الصحابة والخلفاء الراشدين إلى هذه الحياة الفارغة يحيونها في الحجاز . ولم يحل بينهم وبين الاشتراك في أمور الدولة فحسب ، بل حيل بينهم وبين الحياة في غير الحجاز من أقطار البلاد الإسلامية ، وتخبر بنو أمية عمالهم أو كثرة هؤلاء العمال من غير هذه الأرستقراطية الحجازية . رأينا أبناء أبي بكر وعمر وعثمان وزهرة الشباب الهاشمي مضطرين إلى أن يجيوا في ضياعهم . فأما أكثرهم فانصرف إلى اللهو والمجون ، وأما أقلهم فانصرف إلى الدين والتقى ، ووقف فريق بين بين ، يحتفظ بمكانته الدينية ، ويأخذ مع ذلك بحظه من متاع الحياة .

ولعلك تعلم أن هذا الماخن الذي ازدان به الحجاز حيناً ، وهو ابن أبي عتيق ، كان من سلالة أبي بكر ، وأن العرجي الذي أريد أن أحدثك عنه اليوم كان من سلالة عثمان . ولعلك تعلم مكانة عبد الله بن جعفر وهذا الجلال الديني الذي كان يحيط به ، وأنه لم يجز يكره أن يسمع الغناء ولا أن يختلف إلى مجالس المغنيات . ليس لهذا كله مصدر ، فيما أعتقد ، إلا أن الخلفاء من بني أمية حاولوا بين هذه القوة العاملة وبين العمل ، ففسدت لذلك أمور الدولة من جهة ، وأمور هذا الشباب الحجازي من جهة أخرى .

لم يكن بد من أن يكون لأبناء الذين أسسوا الدولة الإسلامية أثر في الحياة الإسلامية ، وقد أبى الخلفاء عليهم أن يؤثروا في السياسة فأثروا في الأدب والحضارة . نعم ، أثروا فيما آثاراً باقية ؛ فنحن مدينون لهم بالغزل ، ونحن

مدينون لهم بالغناء ، ونحن مدينون لهم بكل هذه الناحية الحلوة الظريفة من الحضارة الإسلامية أيام بنى أمية .

وأحب أن تلاحظ معي أن هذه الناحية الحلوة الظريفة من الأدب الأموي والحضارة الأموية ظلت تقيّة طاهرة بريئة من الإثم والفحش إلى حدّ ما ، احتفظ بها الحجاز وزهد فيها خلفاء الشام . فلما جاوزت الحجاز إلى قصور دمشق ، ولما أراد الخلفاء أن يلهوا كما كان يلهو شباب الحجاز ، ولما انتقل الغزل والغناء والعبث من الأرض المقدّسة إلى قصور بنى أمية ، ظهر فيها هذا الفساد الذى ننكره حين نراه .

أليس مما يلفتك أنك لا تكاد تظفر بشيء من الفحش فى عبث هؤلاء الحجازيين وهوهم ؟ بل إنك ترى الفقهاء والمحدثين وأصحاب الزهد والنسك يستعذبون هذا الطّرف الحجازى ويستحبونه ولا يتخرجون من الاستماع له ، بل من الاشتراك فيه ما ظلّ حجازياً ، حتى إذا انتقل إلى الشام ظهر النفور منه والسخط عليه .

رضى الفقهاء قليلاً أو كثيراً عن ظرف ابن أبى ربيعة ، وعبث العرجى ، ومجون ابن أبى عتيق ، ولكنهم أنكروا لهو يزيد بن معاوية ، وسخطوا على عبث يزيد بن عبد الملك ، وكفّروا الوليد بن يزيد . ومصدر ذلك فيما أظن أن شباب الحجاز كان يلهو بمقدار ، وكانت مكانته الدينية والاجتماعية وخوفه من رقابة الخلفاء يعصمانه من مجاوزة الحدود . أما شباب بنى أمية فلم يكذب يعرف اللهو حتى اندفع فيه إلى غير حد ، لا ينجش مراقبة ولا يحفل بسطان .

نحن مدينون لهذا الشباب الحجازى ، بدوه وحضره ، بالغزل والغناء . وقد حدثتلك عن غزل أهل البادية ، وأحدثتلك الآن عن غزل أهل الحاضرة ، وأبدأ بهذا العرجى الذى كان من سلالة أحد الخلفاء الراشدين .

كان عثمان جده الثانى ، وكان كغيره من أبناء الخلفاء والصحابه غنياً ضخماً الثروة ، يتردد بين مكة وإقطاع له قريب من الطائف يسمى العرج فنسب إليه . وقد حاول أن يكسب لنفسه منزلة تلاميذ مولده وثروته ، فأبلى فى الغزو بلاء حسناً مع مسلمة بن عبد الملك ، وأنفق فى سبيل الله أموالاً ضخمة . تحدثوا أن ضائقه أصابت الجيش فوقف ثروته على إطعام المسلمين ووكّل

غلامين له بقدره يقومان عليه طوال الليل . وتحدثوا أيضاً أن ضائقة أصابت الجيش في بعض غزواته فتقدم العرجي إلى تجار أن يقضوا حاجات المسلمين وأن يرجعوا بذلك عليه ، فرجعوا عليه بعشرين ألف دينار ، وانتهى الأمر إلى عمر بن عبد العزيز فقال : بيت المال أحق بهذا ، وأدّى عن العرجي دينه للتجار . ومع ذلك لم ينفعه عند بني أمية بلاؤه في الحرب ولا سخاؤه بالمال . ، كما لم ينفعه عندهم اتصاله بعمان ، مع أن دولتهم قامت على الثأر لعثمان ، فلم يولوه عملاً ولم يكلوا إليه أمراً ، واضطر إلى أن يعود إلى الحجاز فيحيا فيه يائساً محزوناً ، حياة غيره من أبناء الصحابة والخلفاء .

كان كريماً إذن ، وكان شجاعاً ، وكان — فيما ذكر الرواة — أرى الناس بالسهم وأبراهم له ، كما كان فارساً شديد الخندق بالفروسية . وكان ذكي القلب عزيز النفس قوى الفطنة ، وكان مع ذلك مبعداً عن الحياة العاملة . فلم يكن بُدُّ هذه الملكات من أن تظهر وتؤتي ثمرها في اللهو والعبث ، إذ حيل بينها وبين هذه وتلك دون أن ينحاز إلى إحداها ، ودون أن تستطيع إحداها أن تأخذه الجلد . وقد أخذ العرجي بحظه من اللهو والعبث فنهج منهج ابن أبي ربيعة . ولكنه خالفه من وجهين : أحدهما أن ابن أبي ربيعة كان هادئاً وادعاً مطمئناً إلى لين الحياة وخفض العيش وحديث النساء ، كان حمامة من حمام الحرم ، كل حظه من الحياة أن يحب وأن يتغنى في الحب . ولهذا استطاع أن يهون على أخيه ، فقد حضرت الوفاة عمر بن أبي ربيعة فجزع عليه أخوه الحارث إشفاقاً عليه من عذاب الله ، فاستطاع عمر أن يهون على أخيه وأن يقسم له ما أتى فاحشة قط .

أما العرجي فقد كان فيه فضل من قوة وعنق ، ولم يكن له بدّ من أن يصرف هذا الفضل . وقد حاول أن يصرفه في سبيل الدولة ، فأبى عليه الخلفاء ذلك ، فصرفه في سبيل نفسه . وكان أقرب إلى الفاتكين منه إلى أهل الدعة والهدوء . كان يتفق حياته في الصيد والشرب . ولم يكن يكتفي من النساء بالحديث والنزل ، وإنما كان يطلب إليهن أكثر من هذا ، فكان اسمه خطراً أيضاً .

والآخر أن عمر بن أبي ربيعة كان قانعاً في حياته العامة كما كان قانعاً في حياته الخاصة ، فلم تكن له أطماع سياسية ولم يكن له أعداء سياسيون ، وكأنه كان يحقر السياسة وأهلها ، فقصر شعره على النساء ، وصرفه عن الخلفاء ومن

يتصل بهم فلم يمدح أحداً ولم يهج أحداً .

أما العرجى فقد حاول الحياة السياسية وأراد أن يكون له شأن في أمور الدولة فلم يفلح . وأحسب أنه لم يتعزّ عن هذا الإخفاق ، فأضمر للخلفاء ومن اتصل بهم حقداً وبغضاً . وكان هذا الإخفاق قد أثر في نفسه تأثيراً قوياً فأصبح سيئ الخلق فاحش اللسان قليل الرضا عن الناس ، ينصرف عنهم ما صرفه عنهم اللهو والعبث ، فإذا اضطر إلى مواجهتهم لم يجدوا منه خيراً ، ومن هنا هجا ناساً وعادى ناساً آخرين . وانتهى به عنقه في حياته الخاصة وسوء خلقه في حياته العامة إلى أن ضرب وشهر وسجن حتى مات في السجن .

ولابد من ملاحظة هذين الأمرين لفهم شعر العرجى وما روى لنا من أخباره ، فإلى عنقه وفتكه وهالكه على اللذة يرجع قسم من شعره وأخباره ، وإلى سخطه السياسى وحقده على رجال الدولة يرجع القسم الآخر من هذا الشعر وهذه الأخبار . ولعلك تريد الآن أن تعرف رأينا في شعر العرجى ، وقد قدمنا هذا الرأى في أول هذا الحديث حين قلنا إن العرجى كان ظريفاً خفيف الروح محبباً إلى النفس ، فإننا نجد هذه اللحلال كلها في شعر العرجى ، وستجدها أنت فيه أيضاً ، وقد اتفق رأينا في هذه المرة مع رأى القدماء ، فقد كان أهل الظرف والأدب منهم ، بل كان الفقهاء والنساک أيضاً ، يحبون شعر العرجى ويكلفون به كلفاً شديداً ، ولم في ذلك أحاديث لا تكاد تظفر بمثلا لشاعر آخر ، ومن هذه الأحاديث ما يضحك ، ومنها ما يرضى ويحمل على الإعجاب .

تحدث مصعب بن عبد الله عن أبيه قال : أتاني أبو السائب الخزومي ليلة بعد ما رقد السامر فأشرفت عليه ، فقال : سهرت وذكرت أخاً لي أستمع به فلم أجد سواك ، فلو مضينا إلى العقيق فتناشدنا وتحدثنا ! فمضينا فأنشدته في بعض ذلك بيتين للعرجى :

باتا بِأَنعمَ لَيْلَةٍ حَتى بَدَا صُبْحَ تَلَوِّحِ كالأَغْرِ الأشقرِ

فَتَلَازَمَا عِنْدَ الفِرَاقِ صِبابَةَ أَخَذَ الغَريمِ بِفَضْلِ ثَوْبِ المُعَسِرِ

فقال : أعده على ، فأعدته ، فقال : أحسن والله ! امرأته طالق إن نطق بحرف غيره حتى يرجع إلى بيته . قال : فلقينا عبد الله بن حسن بن حسن ، فلما صرنا إليه ، وقف بنا وهو منصرف من ماله يريد المدينة ، فسلم ثم قال :

كيف أنت يا أبا السائب؟ فقال له :

فَتَلَازِمًا عِنْدَ الْفِرَاقِ صَبَابَةٌ أَخَذَ الْغَرِيمِ بِفَضْلِ ثَوْبِ الْمُعْسِرِ

فالتفت إلى فقال : متى أنكرت صاحبك؟ فقلت : منذ الليلة ! فقال :

إننا لله ! وأى كهل أصيبت منه قريش ! ثم مضينا فلقينا محمد بن عمران التيمي قاضي المدينة يريد مالا له ، على بغلة له ، ومعه غلام على عنقه مخلاة فيها قيد البغلة ، فسلم ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب؟ فقال :

فَتَلَازِمًا عِنْدَ الْفِرَاقِ صَبَابَةٌ أَخَذَ الْغَرِيمِ بِفَضْلِ ثَوْبِ الْمُعْسِرِ
فالتفت إلى فقال : متى أنكرت صاحبك؟ قلت : آنفأ . فلما أراد المضي

قلت : أفندعه هكذا ! والله ما من أن يهور في بعض آبار العقيق . قال : صدقت ، يا غلام ، قيد البعنة ، وأخذ القيد فوضعه في رجله . وهو ينشد البيت ويشير بيده إليه يريد أن يفهم عنه قصته . ثم نزل الشيخ فقال لغلامه : يا غلام ، احمله على بغلتى وألحقه بأهله . فلما كان بحيث علمت أنه قد فاته أخبرته ببخره ، فقال : قبحك الله ماجناً ! فضحت شيخاً من قريش وغررتني .

وتحدث داود الثقفي قال : كنا في حلقة ابن جريج وهو يحدثنا ، وعنده جماعة فيهم عبد الله بن المبارك وعدة من العراقيين ، إذ مر به ابن نيزن المغني وقد اثترر بثمرر على صدره ، وهي إزرة الشطار عندنا ، فدعاه ابن جريج فقال له : أحب أن تسمعني . قال : أنا مستعجل . فألح عليه . فقال : امرأته طالق إن غناك أكثر من ثلاثة أصوات . فقال له : ويحك ! ما أعجلك إلى اليمين ! غنى الصوت الذي غناه ابن سريج في اليوم الثاني من أيام منى على جمره العقبة ، فقطع طريق الذهاب والرجاء حتى تكسرت الحامل . فغناه :

• عوجى على فسلمى جبر •

فقال له ابن جريج : أحسنت والله ! ثلاث مرات ويحك ! أعده . قال : من الثلاثة ، فإنى قد حلفت ! قال : أعده . فأعاده فقال : أحسنت ! فأعده من الثلاثة . فأعاده ، وقام ومضى ، وقال : لولا مكان هؤلاء الثقلاء عندك لأطلت معك حتى تقضى وطرك . فالتفت ابن جريج إلى أصحابه فقال : لعلكم أنكروم ما فعلت ! فقالوا : إننا لننكره عندنا بالعراق ونكرهه . قال :

فما تقولون في الرجز؟ - يعنى الحذاء - قالوا : لا بأس به عندنا ! قال : فما الفرق بينه وبين الغناء ؟

ولهذه الأبيات نفسها قصة أخرى مع عطاء وابن سريج ليست أقل من هذه القصة ظرفاً . ولعلك تعلم قصة أبي حنيفة مع جاره الذى كان يسكر ويتغنى في كل ليلة بقول العرجى :

أضَاعُونِي وَأَيَّ فِتَى أَضَاعُوا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادٍ تُغْرِ
ثم انقطع الغناء عن أبي حنيفة ليلة ، فسأل عن جاره فعلم أن العسس قد أخذه ، فجدّ أبو حنيفة حتى أطلقه من سجنه ، ثم قال له : هل أضعتك يا فتى ؟ قال : لا والله ! قال أبو حنيفة : فعد إلى ما كنت فيه من غناء فليس فيه بأس .

وأخبار أخرى تروى عن شعر العرجى ورواجه بين الظرفاء والفقهاء من أهل الحجاز ، وتجدها في كتاب الأغاني .

ولم يكن العرجى ظريفاً في شعره وحده ، بل كان ظريفاً في سيرته أيضاً ، ولا سيما مع النساء . ولست أروى لك من ظرفه هذا إلا قصة واحدة .

قالوا : مر العرجى في بعض نزهته بأمر الأوقص ، وهو محمد بن عبد الرحمن الخزومي القاضي ، وكان يتعرض لها ، فإذا رآها رمت بنفسها وتستر منه ، وهى امرأة من بنى تميم ، بصر بها في نسوة جالسة وهن يتحدثن ، فعرفها وأحب أن يتأملها من قرب ، فعدل عنها ولقى أعرابياً من بنى نصر على بكر له ومعه وطبا لبن ، فدفع إليه دابته وثيابه ، وأخذ قعوده ولبنه ولبس ثيابه ، ثم أقبل على النسوة ، فصحن به : يا أعرابي ، أمعك لبن ؟ قال : نعم ، ومال إليهن وجلس يتأمل أم الأوقص ، وتواثب من معها إلى الوطيين ، وجعل العرجى يلحظها وينظر أحياناً إلى الأرض كأنه يطلب شيئاً ، وهن يشربن من اللبن ، فقالت له امرأة منهن : أى شيء تطلب يا أعرابي في الأرض ؟ أضاع منك شيء ؟ قال : نعم ، قلبي ! فلما سمعت التميمية كلامه نظرت إليه ، وكان أزرق ، فعرفته فقالت : العرجى بن عمر ورب الكعبة ! وثبتت وسترها نساؤها وقلن : انصرف عنا لا حاجة بنا إلى لبنك . فضى منصرفاً وقال في ذلك :

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَمِثْلُ مَا بِي شَكَاهُ الْمَرْءُ ذُو الْوَجْدِ الْأَلِيمِ
إِلَى الْأَخْوَيْنِ مِثْلِهِمَا إِذَا مَا تَأَوَّبَهُ مُورِقَةُ الْهَمُومِ
لِحَيَّتِي وَالْبَلَاءُ لَقِيتُ ظَهْرًا بِأَعْلَى النَّعَمِ أُخْتِ بَنِي تَمِيمِ
فَلَمَّا أَنْ رَأَتْ عَيْنَايَ مِنْهَا أَسِيلَ الْخَدِّ فِي خَلْقِ عَمِيمِ
وَعَيْنِي جُودِرِ خَرِقٍ وَثَغْرًا كَلَوْنَ الْأَقْحَوَانَ وَجَبَدَ رِيمِ
حَنَّا أَنْرَابَهَا دُونِي عَلَيْهَا حُنُوَّ الْعَائِدَاتِ عَلَى السَّقِيمِ

لقد كنت أريد أن أروي لك قصة أخرى ظريفة قاسية للعرجي مع أمة يقال لها كلابة ، ولكني قد أطلت ، ولست أريد أن أسرف في الإطالة ، ولست أكتب هذه الأحاديث لأقول كل ما أريد ، وإنما قصارى أن أحب إليك قراءة الأدب العربي وأرسم لك نهج هذه القراءة .

كان العرجي كما قلنا عفيفاً شديد البغض لرجال الحكم ، وقد قتله عنقه وبغضه هذان . زعموا أن هشام بن عبد الملك ، لما استخلف ولّى على مكة خاله محمد بن هشام المخزومي . فأخذ العرجي يسرف في هجاء محمد بن هشام . ثم لم يكتف بالإسراف في الهجاء فأخذ يتغزل بأُم الوالي وزوجه ، ويدفع غزله إلى المغنين ، فما أسرع ما تنطلق به الألسنة ! قال في أم الوالي هذه الأبيات المشهورة :

عُوجِي عَلَيْنَا رَبَّةَ الْهُودَجِ إِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلِي تَخْرَجِي
إِنِّي أَتَيْتُ لِي يَمَانِيَّةُ إِخْدَى بَنِي الْحَارِثِ مِنْ مَلْجَجِ
نَلْبَتْ حَوْلًا كَامِلًا كُلُّهُ لَا نَلْتَقِي إِلَّا عَلَى مَنْهَجِ
فِي الْحَجِّ إِنْ حَجَّتْ وَمَاذَا مِنِّي وَأَهْلُهُ إِنْ هِيَ لَمْ تَحْجُجِ

وقال في زوجه جيرة :

عُوجِي عَلَى فَسَلْمِي جَبْرُ فِيمِ الصُّدُودِ وَأَنْتُمْ سَفَرُ
مَا نَلْتَقِي إِلَّا ثَلَاثَ مِنِّي حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَنَا النَّفَرُ
الْحَوْلُ بَعْدَ الْحَوْلِ يَتَّبِعُهُ مَا الدَّهْرُ إِلَّا الْحَوْلُ وَالشُّهْرُ

فوجد عليه محمد بن هشام وجداً شديداً ، وأخذ يلتمس العلل للإيقاع به .
فما أسرع ما وجد عليه سيلاً !

كان العرجي عنيفاً فزعموا أنه خاصمه أحد الموالى ، فسبه وبالغ في سبه ،
فرد المولى عليه ، فأمهله العرجي حتى إذا كان الليل هجم في نفر من رجاله على
دار المولى ، فأمر أصحابه فأوثقوه وفضحوا امرأته أمامه ثم قتلوه وحرقوه ، فاستعدت
المرأة عليه محمد بن هشام ؛ فقبض عليه وضربه وحلق رأسه وصبّ عليه الزيت
وعرضه للناس ، ثم سجنه فظل في السجن تسع سنين ولم يخرج منه إلا ميتاً . ثم
جاء الوليد بن يزيد فاتخذ قصة العرجي علة للانتقام من خالي هشام ، فضربهما
ثم أرسلهما إلى يوسف بن عمر ، فعذبهما واستصنى أموالهما وأتلفهما ضرباً .
ونختم هذا الحديث بهذه الأبيات التي قالها العرجي في سجنه ، والتي تمثل
نفسيته السياسية قبل السجن وبعده :

أَضَاعُونِي وَأَيُّ فِتْنَى أَضَاعُوا	لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادٍ نَغْرٍ
وَصَبْرٍ عِنْدَ مُعْتَرِكِ الْمَنَايَا	وَقَدْ شُرِعَتْ أَسِنَّتُهَا بِنَحْرِي
أَجْرٌ فِي الْجَوَامِعِ كُلِّ يَوْمٍ	فِي اللَّهِ مِظْلَمَتِي وَصَبْرِي
كَأَنِّي لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ وَسِيطاً	وَلَمْ تَكُنْ نِسْبَتِي فِي آلِ عَمْرُو

الغزلون^(١)

عبيد الله بن قيس الرقيات

صاحبنا اليوم شاعر معروف بالغزل ، يذكر مع أصحاب النسيب من قریش وأهل الحجاز عامة . ولكنه ليس كهؤلاء الغزلين الذين اتخذناهم موضعاً لبحثنا إلى اليوم ، فهو لم يقصر جهوده الفنية على الغزل ، وهو لم يقصر حياته على اللهو والعبث ، وإنما تنوّعت حياته وتنوّع حظه من الفن الشعري . فكان في حياته العاملة صاحب لهو وجدّ ، وكان في حياته الشاعرة صاحب غزل ومدح ووصف وفخر ونضال سياسي . ويظهر أن النضال السياسي وحده هو الذي ينبغي أن نتخذه وسيلة إلى فهم هذا الشاعر في حياته العملية والشعرية . فنحن إذن بعيدون كل البعد عن هؤلاء الشعراء الذين لم تخطر لهم السياسة على بال ، أو الذين لم يحاولوا أن يأخذوا منها بحظ ؛ لأنهم علموا مقدماً أن ليس لهم فيها نصيب ، فوقفوا حياتهم على اللهو واللعب وذكر النساء .

نحن بعيدون عن عمر بن أبي ربيعة وعن جميل وأصحابه ، بل نحن بعيدون عن هؤلاء الشعراء الذين حاولوا أن تكون لهم منزلة سياسية ، فلما أخفقوا في ذلك اضطهرهم اليأس من الحياة العاملة إلى نوع من الحياة ملؤها اللهو والدعابة والمجون ، كالعرجي الذي حدثتلك عنه في الأسبوع الماضي ، وإنما نحن يلزّاء شاعر آخر يخالف أولئك مخالفة شديدة . خطرت له السياسة وخلبت عقله ففرق فيها إلى رأسه ، واحتمل من آلامها وأثقالها شيئاً كثيراً جداً . وأثر ذلك في شعره وفي حياته تأثيراً ظاهراً غلب على كل شيء من الأشياء التي يمكن أن تعمل في حياة الشعراء . فهو إلى الشعراء السياسيين أقرب منه إلى الشعراء الغزلين . ولكنه مع ذلك كان غزلاً ، ماهراً في الغزل ، أو قل متفوقاً فيه . وربما صح أن يقدم على العرجي والأحوص ، بل قد استباح بعض المتقدمين لنفسه أن يقرنه إلى ابن أبي ربيعة . وليس يعيننا الآن أن نثبت أنه أشعر من ابن أبي ربيعة ،

(١) نشرت بمجريدة « السياسة » في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

أو دون ابن أبي ربيعة في الشعر ، وإنما الذى يعنينا قبل كل شيء هو أن نتيين شخصيته وما بينها وبين شعره من صلة : أى أن نتيين الخصائص التى يمتاز بها شعره . حتى إذا فرغنا من ذلك كان من اليسير علينا أن نقلر هذا الشعر ونترله منزله من أدب الأمويين .

وقد أراد الله أن يجعل هذا يسيراً ، فحفظ لنا مقداراً صالحاً من شعر عبيد الله بن قيس الرقيات يجمعه ديوان مخطوط في دار الكتب المصرية طبعت منه نسخة في « فيينا » . ونستطيع إذن أن نقرأ هذا الديوان ونحكم عليه . وأنا أحب أن نقرأ أخبار هذا الشاعر في كتاب أبي الفرج ، فستشعر بشيء شعرت به ، وهو أنه حلو النفس ، خفيف الروح ، عذب الشعر ، خصب الخيال قويه . وستشعر بأن أبا الفرج قد قصر في ذات هذا الشاعر ، فلم يرو من شعره إلا أطرافاً موجزة مقتضبة ، كل أثرها في نفسك هو أن تستثير الإعجاب والأسف على أن ما حفظ من شعره قليل . ولكن هذا الأسف يزول حين تعلم أن له ديواناً محفوظاً ، وأنتك تستطيع أن ترجع إلى هذا الديوان ، فإذا رجعت إلى هذا الديوان فستشعر بشيء آخر شعرت به أيضاً ، وهو أن الجيد من شعر هذا الشاعر كثير أكثر مما ينبغي ، إن جاز مثل هذا القول ، وأن الرديء من شعره قليل أقل مما ينبغي ، إن أبيع مثل هذا التعبير .

وأنا أستبجح لنفسى مثل هذا التعبير ؛ لأنى أريد في هذه الأحاديث أن أقدم إليك صورة صادقة ولكنها موجزة من الشعراء الذين أدرسهم . وقد أستطيع أن أقدم إليك صورة صادقة من صاحبنا هذا ، ولكنى أجد مشقة شديدة في الإيجاز . فليس من اليسير أن تختار من شعره ، فكل شعره أو أكثره حرى أن يختار . ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أنت مضطر إلى أن تروى له شعراً كثيراً أكثر مما يحتمل هذا الحديث .

وهنا ألاحظ شيئاً يكاد يختص به عبيد الله بن قيس الرقيات : وهو أنه كان صاحب لهو وسياسة ، وأنه اتخذ الغزل وسيلة إلى اللهو والسياسة . فكان يتغزل حيناً ليلهو أو ليصف عواطف نفسه حقاً ، وكان يتغزل حيناً آخر لا للهو ولا لوصف حب صادق ، بل ليعبث بمضومه السياسيين ، إذ يذكر نساءهم بما يحسن وبما لا يحسن . وقد رأينا العرجى يتغزل بجيداء أم محمد بن

هشام ، وبجيرة زوج محمد بن هشام ، ليغيط محمد بن هشام هذا . وكذلك فعل عبيد الله بن قيس الرقيات قبل العرجي ، فسنّ له ولغيره هذه السنة . وبلغ من هذا الغزل الهجائي ما لم يبلغه أحد من شعراء العصر الأموي . فلم يكن يكتبني بالنسيب المألوف يذكر فيه المرأة التي يريد أن يهجو أهلها كما كان يفعل العرجي ، وإنما كان يتخيل القصص والأخبار فيقصها في شعره مسرفاً في تفصيلها إسرافاً شديداً .

لم يكن عبيد الله بن قيس الرقيات شريفاً ولا سيئاً اللخيلة ، وإنما كان — مع الخصومات السياسية التي اندفع فيها اندفاعاً شديداً — محباً لقومه ، يؤثرهم على الناس جميعاً ويحرص على كرامتهم أشدّ الحرص . ومن هنا تظهر في غزله الهجائي خصلة جميلة ، رقيقة مؤثرة ، لا نجد لها عند غيره من الهجائيين السياسيين : وهي أنه كان يخاصم الرجال دون النساء ، وكان يتخذ النساء وسيلة إلى حرب الرجال ، فكان يحرص الحرص كله على ألا يؤذيهن أو يذيع بينهن الفاحشة كذباً وزوراً . بل كان يمتنع إلى أبعد من هذا ، كان يريد أن يتملق هؤلاء النساء ، وأن يرضيهن عن نفسه ، وأن يحب إليهن هذا الغزل الهجائي الذي كان يسوء أزواجهن وأبناءهن وعصبتن بوجه عام .

كان يخاصم بني أمية ، فتغزل بأم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك ، وبنت عبد العزيز بن مروان ، يريد من غير شك أن يغيط عبد الملك وابنه الوليد وأخاه عبد العزيز وغيرهم من رجالات بني أمية ؛ ولكنه لم يكن يريد أن يسوء أم البنين ولا أن يؤذيها ولا أن يعرضها لمكروه تسمعه أو تلقاه ، بل كان يريد أن يتلطف لها ويتعجب إليها ، وأن يتزل شعره من نفسها مترلة الرضا والإعجاب . وأنت تعلم أن النساء في ذلك العصر — ولا سيما نساء الأشراف والأسرة المالكة — كن يجبن الغزل ويكلفن به ويطلبته إلى الشعراء . فليس غريباً أن يطمع ابن قيس الرقيات في إرضاء أم البنين ، وهو يخاصم أباه وعمها وزوجها . وسأروى لك بعد حين قصيدة ذكر فيها أم البنين ذكراً مفصلاً تفصيلاً ، من شأنه أن يؤدي ويسوء ، ولكنه احتاط لنفسه ولأم البنين ، فزعم أن هذه القصيدة الطويلة المفصلة إنما وقعت له في المنام . فكرامة أم البنين موفورة ، وهي خليقة أن تبه بهذا الجمال الذي أحدث في نفس الشاعر ما أحدث حتى ملك عليه

يومه ونومه . وإذن فليس على الشاعر نفسه لوم إذا غرق في الرقاد .

وقد وصل ابن قيس الرقيات من هذا الغزل المهجائي إلى كل ما كان يريد . فأحفظ بنى أمية عليه أشدّ إحفاظ حتى هدروا دمه ، وأبرعوا ذمتهم ممن آواه كما سترى . ولكنه أرضى أم البنين عن نفسه ، وبلغ منها مبلغاً حسناً ، حتى شفعت له وكسبت له أمان عبد الملك .

هذا الغزل المهجائي ، الذي يكاد ابن قيس الرقيات يكون مبتدعه ، خليق بالعباية . فهو لون من الألوان الفنية الجديدة التي استحدثها الشعراء المسلمون ، ولكنه شديد الخطر من جهة أخرى ، لأنه يلبس عليك أمر الشاعر ويجعل حكمك على عاطفته عسيراً جداً . فأنت لا تكاد تتبين أجاداً هو في غزله أم لاعب ؟ أمادح هو صاحبته لأنه يحبها أم لأنه يكره أهلها ؟ وأنت مضطر إلى أن تنظر إلى هذا الغزل من حيث هو فن مجرد من النفسية الصادقة للشاعر ومن عواطفه الحقيقية . وفي الحق أنك لا تكاد تجد فرقاً بين غزل ابن قيس الرقيات : فهما تختلف موصوفاته فهو قوى ، رقيق ، خلاب شديد الحرارة ، سهل التناول ، سواء أكان الشاعر يتغزل بأم البنين يهجو قومها ، أم بإحدى هؤلاء الرقيات اللاتي كان يذكرهن حتى غلب عليهن اسمه ، أم بأى امرأة أخرى كان يحبها أو يرى فيها جمالا وروعة .

ولقد يكون من الحق أن نقول : إن عبد الله بن قيس الرقيات لم يعرف هذا الحب العذرى ، بل لم يعرف الحب العادى ، الذى يقصر حياة الرجل أو شرطاً من حياته ، على امرأة واحدة تلامه هواه ، وإنما كان يحب النساء جميعاً ، يحبهن حباً قوياً يوشك أن يكون طاهراً ؛ يحبهن لا ليلهو بهن بل ليتخذ منهن مثله الأعلى في الجمال . ومن هنا نستطيع أن نقول : إنه كان صادق اللهجة في كل ما كان يقول من غزل ؛ لأنه كان يحمل في نفسه صورة من جمال النساء يخلعها على من أراد أن يذكرها في شعره لأى سبب . وكانت هذه الصورة تسمى أم البنين حيناً ، ورؤية بنت عبد الواحد حيناً آخر ، وكثيرة مرة ثالثة ، وثرياً مرة رابعة ، وسعدة ، وسلامة ، إلى غير ذلك من أسماء النساء اللاتي لم يكن خيالاً متكلفاً وإنما كنّ أشخاصاً يستمتعن بالحياة حقاً .

وقد أراد حظ ابن قيس الرقيات أن يحبه النساء كما أنه يحب النساء ،

وأن يجيبه لا للهو واللذة ، بل لليل بعيد من اللهو واللذة . وأراد حظه أن يكون مديناً بحياته لامرأتين . آوته إحداهما بالكوفة حين أهدر الأمويون دمه ، فلبث عندها سنة كاملة وتركها وهو لا يعرف إلا اسمها ، وشفعت له الأخرى عند عبد الملك فظفرت له بالأمان . وكذلك أراد حظ قيس ألا يستطيع لهاتين المرأتين مكافأة إلا بالجزل والنسيب ، فقد تغزل بهما جميعاً . ولسنا نشك في أنه تغزل بكثيرة ليشكرها على ما قدمت إليه من معروف .

وأكاد لا أعرف شاعراً ، أرق لهجة وأعذب لفظاً وأحسن أدباً في مخاطبة النساء وذكرهن ، من ابن قيس الرقيات حين يذكر كثيرة هذه . وانظر إلى قوله فيها :

عَادَ لَه مِنْ كَثِيرَةِ الطَّرَبِ فَعَيْنُهُ بِالدَّمْعِ تَنْسَكِبُ
كُوفِيَّةٌ نَازِحٌ مَحَلَّتْهَا لَا أُمَّمٌ دَارُهَا وَلَا صَقَبُ
وَاللَّهِ مَا إِنْ صَبَّتْ إِلَيَّ وَلَا إِنْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا سَبَبُ
إِلَّا الَّذِي أَوْرَثَتْ كَثِيرَةً فِي الْقَلْبِ وَالْحُبِّ سَوْرَةٌ عَجَبُ
لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي الْغَوَانِي فَمَا يُصْبِحُنْ إِلَّا لَهُنَّ مَطْلَبُ
أَبْصَرَنْ شَيْباً عَلَا الدُّوَابَةَ فِي السَّرَّاسِ حَدِيثاً كَأَنَّهُ الْعَطَبُ
فَهُنَّ يُنْكِرْنَ مَا رَأَيْنَ وَلَا يُعْرِفُ لِي فِي لِدَاتِي اللَّعِبُ

على أتى أريد أن أم ابن قيس الرقيات قبل أن ألم بشعره . فلاؤجز لك مذهبه السياسي ، أو قل حياته السياسية .

كان صاحبنا من أنصار عبد الله بن الزبير ، وكان مغالياً في نصر الزبيريين ، يحبهم أشد الحب ، ويغض خصومهم من بني أمية بغضاً شديداً ، جاهد معهم بسيفه ولسانه أشد جهاد ، ومدحهم أحسن مدح ، حتى إن عبد الملك بعد أن عفا عنه لم يستطع أن يغفر له قوله في مصعب بن الزبير ، وقد خرج مع مصعب هذا في العراق على عبد الملك ، ولزمه حتى أحس مصعب أنه مقتول ، فأذن له في أن ينصرف وجاه مالا كثيراً . ولكن الشاعر أقسم لا يريم حتى

يعرف سبيل مصعب ، فما زال معه حتى قتل . ثم فرّ فبلغ الكوفة فلجأ إلى أول دار لقيته ، وفي هذه الدار صادف امرأة أنصارية آوته سنة كاملة ، وكانت تغلو عليه كل يوم فتحية وتساله حاجته ولا تسأله عن اسمه ، وهو لا يسألها عن اسمها ؛ حتى سمع ذات يوم الصباح العام ينادى ببراءة الذمة ممن يؤوى ابن قيس الرقيات ، فترزّل إلى صاحبه فأنبأها باعتزام الرحلة . قالت : لا يرعك هذا الصباح ، فنحن نسمعه منذ سنة . ، ولكنه أصرّ على الرحلة . فلما كان المساء قدّمت إليه راحلتين وزاداً ووهبهت عبداً ؛ وانصرف عنها وقد أبت أن تنبئه من هي ، وإنما علم أن اسمها كثيرة وأنها خزرجية . فضى حتى بلغ المدينة فاستجار بعبد الله بن جعفر ، فأجاره وأحسن مثواه ، وكتب فيه إلى أم البنين وإلى عبد العزيز بن مروان أبيها ، فشفعت فيه عند عبد الملك وضمنت له الأمان . ثم دخل هو على عبد الملك فدحه بهذه القصيدة التي قدّمت لك شيئاً من غزلها ، وفيها يقول مادحاً :

ما نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ إِلَّا	أَنَّهُمْ يَحْطُمُونَ إِنْ غَضِبُوا
وَأَنَّهُمْ مَعْدِنُ الْمُلُوكِ فَلَا	تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ
إِنَّ الْفَنِيْقَ الَّذِي أَبُوهُ أَبُو الْعَا	صِي عَلَيْهِ الْوَقَارُ وَالْحُجْبُ
خَلِيْفَةُ اللَّهِ فَوْقَ مِنْبَرِهِ	جَفَّتْ بِذَلِكَ الْأَقْلَامُ وَالْكَتُبُ
يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرَقِهِ	عَلَى جَبِينِ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ

ولكن عبد الملك أبي عليه أن يأخذ عطاءه من بيت المال ، فشكا ذلك إلى عبد الله بن جعفر ، فعوضه أضعاف ما حرمه عبد الملك . ثم اتصل بعبد العزيز ابن مروان ، وهو حينئذ أمير مصر من قبل أخيه ، فدحه مدحاً كثيراً جيداً ، فيه ذكر لبابليون وحلوان ولليل وسفائنه . وكنت أريد أن أروي لك منه شيئاً ، ولكني أريد أن أجنب الإطالة وأنصح لك بقراءته في الديوان . ومدح عبيد الله ابن قيس الرقيات عبد الله بن جعفر مدحاً جيداً آية في الإقتان .

فأنت ترى أنه اتصل بأحزاب ثلاثة مختلفة ، اتصل بحزب الزبيريين ، وفيهم قال أجود مدحه ، واتصل بالأمويين وفيهم قال الكثير الجيد ، واتصل

بالهاشمين وفيهم أحسن المدح وأجاده ؛ ولم يكن مع ذلك متلوناً ولا فاسد الضمير .

وأحسب أني أصيب الحق إن قلت : إنه كان قرشياً قبل كل شيء ، وإن له مذهباً سياسياً لم يتغير قط ، وهو أن السلطان الأعلى يجب أن يكون لقريش قولاً وفعلاً . فإذا كان قد كره بني أمية فهو لم يكرههم لأنهم بنو أمية ، وإنما كرههم لأنهم اعتزوا على القرشية خاصة والمضرية عامة بالقبائل اليمانية .

شيثان اثنتان يختصران الرأي السياسي لابن قيس الرقيات : (الأول) أن السلطان يجب أن يكون لقريش وأن تعتر قريش فيه بمصر . (والثاني) أن من الإثم والحياة أن تنقسم قريش على نفسها ، وأن تتفرق كلمتها هذا التفرق المنكر الذي كان بعد موت معاوية . وسأروى لك في آخر هذا الفصل قصيدة طويلة تختصر رأيه السياسي هذا ، وتمثل عواطفه الوطنية القرشية تمثيلاً قوياً صادقاً . ولكني شديد الحيرة ، فبين يدي ست عشرة قصيدة مختارة من شعر ابن قيس الرقيات ، وأنا أرى أن ليس بدءاً من إظهارها وإذاعتها لتظهر شخصية الشاعر واضحة ، ولتظهر الحياة السياسية في قريش واضحة أيضاً . ولكن من لي بالصحف التي أنشر فيها هذا الشعر الكثير ! ومن لي بالأ تغضب « السياسة » ولا يحتج أصحابها وكتابها على هذا الاحتلال الأدبي الذي يسرف في العدوان ! أنا إذن مضطر إلى أن أشير إشارة إلى هذه القصائد ، وألا أروى لك منها إلا أربعا .

أما إحداها في اللهور ، وهي تمثل لك نفسية الشاعر وفهمه للحياة ، كما أنها تمثل لك خفته الشعرية وميله إلى العبث اللفظي . ولم أروها كلها ؟ يحسن أن أكتفي منها بهذه الأبيات :

بَكَرَتْ	عَلَى	عَوَازِلِي	يَلْحَجِّنِي	وَأَلْوَمُهُنَّ
وَيَقُلْنَ	شَيْبٌ	قَدْ عَلَا	كَ وَقَدْ كَبُرَتْ	فَقُلْتَ إِنَّهُ
إِنَّ	العَوَازِلَ	لُحْمَنِي	وَلَنْ أُطِيعَ	أُمُورَهُنَّ
فَمَا	أَفِيدُ	مِنَ العَنِي	وَاللَّهُ	سَوْفَ يُهَيِّنُهُنَّ

ولقد عَصَيْتُ النَّاهِيَا تِ النَّاشِرَاتِ جُبُوبَهُنَّ
حَتَّى ارْعَوَيْتُ إِلَى الرَّشَا دِ وَمَا ارْعَوَيْتُ لِنَهْيِهِنَّ

والأخرى قصيدة يتوجع فيها ، وقد جاءت أبناء الحرة ومقتل نفر من إخوانه ،
فيها هذا العبث اللفظي ، وفيها سهولة تفتقر القلب ؛ وما أظن إلا أنها صنعت
للناثحات :

ذَهَبَ الصُّبَا وَتَرَكْتُ غَيْبِيَّةً وَرَأَى الْغَوَايَ شَيْبَ لِمَتِيَّةً
وَهَجَرْتَنِي وَهَجَرْتُهُنَّ وَقَدْ عَنَّتْ كَرَائِمُهَا يَطْفَنَ بِيهَ
إِذْ لِمَتِي سَوْدَاءُ لَيْسَ بِهَا وَضَحُّ وَلَمْ أَفْجَعْ بِإِخْوَتِيَّةً
الْحَامِلِينَ لَوَاءَ قَوْمِهِمْ وَالذَّائِدِينَ وَرَاءَ عَوْرَتِيَّةً
إِنَّ الْحَوَادِثَ بِالْمَدِينَةِ قَدْ أَوْجَعْنِي وَقَرَعَنَ مَرُوتِيَّةً
وَجَبَيْتَنِي جَبَّ السَّنَامِ فَلَمْ يَتْرُكَنَّ رِيشًا فِي مَنَاكِيَّةً
وَأَتَى كِتَابٌ مِنْ يَزِيدٍ وَقَدْ شُدَّ الْحِزَامُ بِسَرَجِ بَغْلَتِيَّةً
يَنْعَى بَنِي عَبْدِ إِخْوَتَهُمْ حَلَّ الْهَلَاكُ عَلَى أَقَارِبِيَّةً
وَنَعَى أَسَامَةَ لِي وَإِخْوَتَهُ فَظَلَلْتُ مُسْتَكًّا مَسَامِعِيَّةً
كَالْهَارِبِ النَّشْوَانِ قَطْرُهُ سَمَلُ الرِّقَاقِ تَفِيضُ عَبْرَتِيَّةً
سَدِيمًا يُعْزِيئَنِي الصَّحِيحُ وَقَدْ مَرَّ الْمَنُونُ عَلَى كَرِيمَتِيَّةً
كَيْفَ الرِّقَادُ وَكَلِمَا هَمَجَتْ عَيْنِي أَلَمَ خِيَالُ إِخْوَتِيَّةً
تَبْكِي لَهُمْ أَسَاءَ مُعْوَلَةٍ وَتَقُولُ لَيْلَى وَارْزِيَّتِيَّةً
وَاللَّهِ أَبْرَحُ فِي مُقَدِّمَةٍ أَهْدَى الْجِيُوشَ عَلَى شِكْمِيَّةً
حَتَّى أَفْجَعَهُمْ بِإِخْوَتِهِمْ وَأُسْرِقُ نِسْوَتَهُمْ بِنِسْوَتِيَّةً

ولندخ الآن رثاءه ، وإن كان فيه أجود مما رويت لك ، لنستقل إلى هذه القصيدة التي ذكر فيها أم البنين والتي أشرت إليها آنفاً . وأنا أترك للقصيدة وصف نفسها ، وهي مدح مصعب بن الزبير :

أَلَا هَزَاتُ بِنَا فُرْشِيَّةٌ يَهْتَزُّ مَوْكِبُهَا
رَأَتْ بِي شَيْبَةً فِي الرَّأْسِ مَنَى مَا أَعْيَبُهَا
فَقَالَتْ أَبْنُ قَيْسٍ ذَا ؟ وَغَيْرُ الشَّيْبِ يُعْجِبُهَا
رَأْتَنِي قَدْ مَضَى مِنِّي وَغَضَّاتُ صَوَاحِبُهَا
وَمِثْلِكَ قَدْ لَهَوْتُ بِهَا تَمَامُ الْحُسْنِ أَعْيَبُهَا
لَهَا بَعْلٌ غَيْرٌ قَا عَدُّ بِالْبَابِ يَحْجُبُهَا
يَرَانِي هَكَذَا أَمْثِي فَيُوعِدُهَا وَيَضْرِبُهَا
ظَلَلْتُ عَلَى نَمَارِقِهَا أَفْلَيْهَا وَأَخْلَبُهَا
أَحَدْتُهَا فَتُومَنُ لِي فَأُصَدِّقُهَا وَأَكْلِبُهَا
فَدَخَ هَذَا وَلَكِنْ حَا جَعَدْتُ أَطْلِبُهَا
إِلَى أُمِّ الْبَنِينِ مَنَى يُقَرِّبُهَا مُقَرِّبُهَا
أَتَيْتَنِي فِي الْمَنَامِ فَقُلْتُ هَذَا حِينَ أَعْقَبُهَا
فَلَمَّا أَنْ فَرِحْتُ بِهَا وَمَالَ عَلَى أَعْدَبُهَا
شَرِبْتُ بِرِيْقِهَا حَتَّى نَهَلْتُ وَبَيْتٌ أَشْرِبُهَا
وَبَيْتٌ صَجِيعٌ جَدَلَا نَ تَعْجِبُنِي وَأَعْجِبُهَا
وَأُضْحِكُهَا وَأَبْكِيهَا وَأَلْبِسُهَا وَأَسْلُبُهَا
أَعَالِجُهَا فَتَضْرَعُنِي فَأَرْضِيهَا وَأَغْضِبُهَا
فَكَانَتْ لَيْلَةً فِي النَّوْمِ نَسَمُرُهَا وَنَلْمُهَا

فَأَيْقَظَنَا مُنَادٍ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ يَرْقُبُهَا
فَكَانَ الطَّيْفُ مِنْ جَنَّةٍ لَمْ يَدْزُرْ مَذْهَبُهَا
يُورِقُنَا إِذَا نَمْنَا وَيَبْعُدُ عَنْكَ مَسْرِبُهَا

ثم يمضي بعد ذلك في مدح مصعب . وماذا تريد أن أقول لك في هذا الشعر ؟
وهل تعرف أعذب منه لفظاً وأجود منه معنى وأخف منه روحاً !
وبين يدي قصيدة كافية يتنزل فيها شاعرنا بإحدى زوجات عبد الملك .
ولكني أعدل عنها إلى هذه القصيدة التي وعدتك بروايتها ، والتي قلت إنها تختصر
مذهب ابن قيس في السياسة ، وهي في مدح مصعب ، وهي التي أحقت
عبد الملك على الشاعر ، ولكنها أطول من أن تروى كلها ، فلأجترئ منها بأبيات
أختارها ، وإن كانت كلها مختارة :

حَبَدًا الْعَيْشُ حِينَ قَوْمِي جَمِيعٌ لَمْ تُفَرِّقْ أُمُورَهَا الْأَهْوَاءُ
قَبْلَ أَنْ تَطْمَعَ الْقَبَائِلُ فِي مُذْ لِكِ قُرَيْشٍ وَتَشْمَتَ الْأَعْدَاءُ
أَيُّهَا الْمُشْتَهَى فَنَاءَ قُرَيْشٍ بِيَدِ اللَّهِ عُمْرُهَا وَالْفَنَاءُ
إِنْ تُوَدَّعَ مِنَ الْبِلَادِ قُرَيْشٍ لَا يَكُنْ بَعْدَهُمْ لِحَى بَقَاءُ

ثم يمضي في الفخر البديع بقريش لا يفرق بين أحزابها السياسية ، حتى
يصل إلى مصعب ، فيقول فيه هذه الأبيات التي غاظت عبد الملك :

إِنَّمَا مُضَعَبٌ شِهَابٌ مِنَ الْأَلَا بِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلَمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبَرِيَاءُ
يَتَّقَى اللَّهَ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أَفْ لَمَحَ مِنْ كَانَ هَمَّهُ الْإِنْتِقَاءُ

ولأدع هذه الآية الشعرية كارهاً ، فقد أسرفنا في الإطالة ، ولأختم هذا
الحديث بهذه الأبيات الحلوة :

حَبَدًا الْإِذْلَالَ وَالْغُنْجُ وَالَّتِي فِي طَرْفِهَا دَعَجٌ
الَّتِي إِنْ حَلَّتْ كَذَبَتْ وَالَّتِي فِي وَصْلِهَا خَلَجٌ

تلكَ إنْ جَادَتْ بِنَائِلِهَا فابْنُ قَيْسٍ قَلْبُهُ ثَلِجٌ
وترى في البيتِ صُورَتَهَا مِثْلَ ما في البَيْعَةِ السُّرْجُ
حَدَّثُونِي هل عَلَى رَجُلٍ عَاشِقٍ في قَبْلَةِ حَرَجٍ

أعيد ما قلته غير مرة من أن في الشعر العربي لهذا العصر كنوزاً خليقة أن
تستكشف وأن تدرس على وجهها ، ولكن كثيراً من الناس لا يعلمون .

الغزلون (١)

الأحوص بن محمد الأنصاري

حدثتكَ في بعض الفصول الماضية عن أصحاب الغزل من أهل الحاضرة الحجازية ، بعد أن حدثتكَ عن أصحاب الغزل من أهل البادية . ولكنني لم أتجاوز ، فيما كتبت إلى الآن ، الغزلين من قريش وأهل مكة ، وسأعود إليهم حين أختَم هذه الفصول بزعم الغزل الحضري في عصر بني أمية ، وهو عمر ابن أبي ربيعة .

أما اليوم فأريد أن أحدثك عن رجل ليس قرشيًّا ولا مكبيًّا ، وإنما هو أنصاري مدني . وسترى من هذا الحديث أن هذا الرجل ليس أقل خطراً من شعراء قريش ، وأن جنسيته اليمنية لم تؤثر في شعره قليلاً ولا كثيراً ، كما أن الجنسية القرشية المضرية لم تؤثر في شعر القرشيين قليلاً ولا كثيراً ؛ لأن هذا الشعر تأثر في حقيقة الأمر بأسباب ومؤثرات أخرى مخالفة كل المخالفة للجنسية وما إليها : تأثر بتلك المؤثرات التي أكثرت ذكرها والإشارة إليها ؛ والتي سأكثر من ذكرها والإشارة إليها ، لأن الذين يدرسون الأدب العربي لم يقدروها قدرها بعد ، وهي خليفة أن تقلد ، إذ عليها وحدها تستطيع أن تعتمد في فهم الشعر الإسلامي عامة ، وشعر هؤلاء الغزلين من أهل مكة والمدينة خاصة .

- لعلك تذكر العرجي وما ذكرت من يأسه السياسي ، وما اضطره إليه هذا اليأس من حياة اللهو والعنف والسخط . ولعلك إذا درست الأحوص تشعر بشيء من الميل إلى المقارنة بينه وبين العرجي . وقد كانا في الحق صديقين ، وكان بينهما تشابه قوي من بعض الوجوه ، وكان بينهما اختلاف أيضاً ، أصابتهما عن سياسية متشابهة ، فكلاهما أُضرب ، وكلاهما شُهر ، وكلاهما أهين علناً ، وكلاهما حبس .

-- أما العرجي فقد حبس في مكة . وأما الأحوص فقد نفى إلى دَهْلَك .

(١) نشرت بمجريدة «السياسة» في ٥ نوفمبر سنة ١٩٢٤ .

وكلاهما كان صاحب هو وعبث ، وكلاهما كان صاحب غزل وذكر للنساء .
ولكن هو الأحوص كان أفحش من هو العرجي ، وهو العرجي كان أعنف
من هو الأحوص ، وكما أن التشابه بين هذين الرجلين يرجع إلى مصدر واحد
هو السياسة ، فكذلك الاختلاف بينهما يرجع إلى مصدر واحد هو السياسة أيضاً .
كان الشباب من أشرف مكة والمدينة مضطراً إلى هذا اليأس السياسي
الذي ذكرته . ولكن هذا اليأس قد كان متفاوتاً أشدّ التفاوت ، بالقياس إلى
شباب قريش وإلى شباب الأنصار . كان الملك في قريش ، وكان الشباب
القرشي يستطيع أن يعتر بهذا الملك وإن أقصى عن مناصبه وحيل بينه وبين
تصريف أموره . وكانت لهذا الشباب دالة على الخلفاء من أبناء أعمالهم ،
وكان الخلفاء مضطرين إلى أن يصانعوهم ويرفقوا بهم تكريماً لصلة القرابة والعصية
القرشية ، ومداراة لهذه الأطماع الخفية الظاهرة التي كانت توشك في كل وقت
أن تنفجر فتدبل من دولة لأخرى .

أما شباب الأنصار فقد كان مضطراً إلى يأس مظلم شديد الظلام ليس له
إلى الأمل من سبيل قريبة أو بعيدة . لم يكن قرشياً ، ولم يكن الخلفاء في حاجة
إلى إكرامه والرفق به ولا مداراته ومصانعته ، وإنما كانوا يخشونه ويكرهونه ويفتنون
في ظلمة والقسوة عليه ، لا يخشون في ذلك حسيباً ولا رقيباً .

« منا أمير ومنكم أمير » كذلك قال الأنصار حين احتاج المسلمون إلى
خليفة ، وكانوا مقتنعين بحقهم في الخلافة ، وكان كل شيء يبيح لهم هذا
الافتتاح ، فلم يكونوا أقل بلاء في تأييد الإسلام من المهاجرين ، وربما كانوا
أحسن بلاء من المهاجرين ، فهم آووا الإسلام ونزلوا للنبي وأصحابه من قريش
عن ديارهم وأموالهم ، وبدلوا في نصر النبي وأصحابه من قريش نفوسهم ودماءهم .
وعرف لهم النبي هذا كله ، فآخى بينهم وبين المهاجرين وآخى بين رجالهم ،
حتى وجد بين الفريقين حلف أو شيء يشبه الحلف كان من الحق أن يكون أساساً
للحياة الإسلامية المقبلة . ومن يدري لعل المسلمين لو قبلوا رأي الأنصار فأقاموا
أميراً قرشياً وآخر أنصاريّاً لعصموا الإسلام من الفتن ، وأقاموا أخلاقاً دينية
حقاً معتمدة على أساس من العدل ، معتزة بشيء من التوازن يحول دون ظهور

العصبيات التي أحدثت ما أحدثت من الشرّ في تاريخ المسلمين .
 الأنصار يمانية ، وقريش مضرية . فلو استقام الأمر للأنصار والمهاجرين ،
 على أن يكون لكل من القريشيين أمير ، لأمكن إيجاد التوازن بين المضرية واليمانية
 من جهة ، ولقامت الخلافة المزدوجة على أساس صحيح من الدين بصرف عنها
 أطماع الطامعين ، ويؤخر استحالتها إلى ملك قيصريّ أو كسرويّ .

أكان المسلمون بعد موت النبي يجهلون النظام الروماني حقاً ؟ أم كانوا
 يعلمونه بعض العلم ؟ أما أنا فأرجح أنهم كانوا يلتمون به إلاماً ما . ولا أستطيع
 أن أفهم هذين المذهبيين اللذين ظهرا في أول عهد المسلمين بالحياة السياسية
 إلا على أنهما محاولة لتقليد الرومان في حياتهم السياسية . فقد كان مذهب الأنصار
 أكثر ميلاً إلى النظام الجمهوري القنصلي الذي كان في عصر رقيّ الجمهورية
 الرومانية ، يقوم على انتخاب قنصلين ، أحدهما يمثل الأرسوقراطية القديمة :
 أرسوقراطية المولد ، والآخر يمثل الأرسوقراطية الجديدة : أرسوقراطية الثروة والحد
 والعمل . وقد كان مذهب المهاجرين أكثر ميلاً للنظام الإمبراطوري ، ولا سيما
 في العصر الأخير الذي كان يجمع السلطة كلها إلى الإمبراطور دون أن يجعله
 ملكاً يورثه الملك أبناءه من بعده .

كان مذهب الأنصار أقرب إلى الديمقراطية من جهة ؛ لأنه كان يقوم
 على المساواة والعدل ، وكان أقرب إلى الشيوقراطية من جهة أخرى ؛ لأنه كان يكفل
 أمور الدين إلى الذين اشتركوا في إقامة الدين وتأييده .
 أما مذهب المهاجرين فقد كان أقرب إلى الأرسوقراطية وإلى الحكومة
 المدنية معاً .

ومهما يكن من شيء فقد فشلت دعوة الأنصار وحيل بينهم وبين الخلافة ،
 وانتصرت العصبية على الفكرة الديمقراطية الدينية ، وأجمع المسلمون أو كادوا
 يجمعون على هذا المذهب الغريب المتناقض الذي يجعل الخلافة وراثية أو غير
 وراثية : وراثية لأنها في قريش ، وغير وراثية لأنهم أبعادوا عنها بني هاشم .
 فشلت دعوة الأنصار ، وظهر الأنصار في ذلك مظهرأ خليقاً بالعطف
 والإعجاب ، فأذعنوا في غير ملل ولا ضيق صدر ، وطابت نفوسهم عن هذا الأمر
 الذي كان لهم فيه حق ظاهر . ولم يمتص منهم في الإباء والمشاورة إلا رجل واحد

هو : سعد بن عبادة ، الذى قتله الجن فيما تزعم الأساطير ، والذى قتله السياسة غيلة فى حقيقة الأمر ؛ لأن حياته كانت خطراً على النظام السياسى الجديد . وكان هذا الفشل الذى أصاب الأنصار أول عهدهم باليأس السياسى .

ولكن الدهر كان يدخر لهم ألواناً أخرى من اليأس . فقد ظهر أنهم لم يجرموا الخلافة وحدها ، بل حرموا أن يكون لهم فيها رأى . وليس أدل على ذلك من عهد عمر بن الخطاب إلى أهل الشورى . فأنت ترى أن هؤلاء نفر الذين عهد إليهم عمر فى اختيار الخليفة كانوا جميعاً من المهاجرين : عبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة ، والزبير ، وعثمان ، وعلى بن أبى طالب ، كلهم قرشى .

ومهما تكن الأسباب الدينية التى أذيت يومئذ لتعليل هذا الاختيار ، فإن الحقيقة الواقعة تشهد بأن الأنصار أبعدوا عن الخلافة وعن المشورة فى أمرها ، وأن الخلافة أصبحت شيئاً قرشياً خالصاً . ومع هذا فقد طابت نفس الأنصار عن المشورة فى أمر الخلافة ، كما طابت أنفسهم عن الخلافة وأذعنوا لرأى السنة ؛ وكانوا ناصحين للخلفاء الراشدين جميعاً . ولكنهم كانوا منطقيين مع أنفسهم ، كانوا يحسون أنهم مبعوضون عن الأمر إبعاداً ، فكان هواهم مع بنى هاشم ، أليست قريش قد استأثرت بالأمر لأن النبي منها ؟ فلم لا يستأثر بنو هاشم بالأمر ، وهم أهل النبي ورهطه الأذنون !

على أن غيظ الأنصار لم يظهر حاداً إلا حين استحالت الخلافة الإسلامية إلى ملك قيصرى أو كسروى ؛ وحين ظهر الميل من بنى أمية إلى أن يستأثروا بالأمر وحدهم دون قريش ، وحين ظهر ميل معاوية إلى أن ينقل الأمر من بعده إلى ابنه يزيد .

فى ذلك الوقت ظهر سخط الأنصار واضحاً جلياً ، وأحسه بنو أمية وأرادوا أن يتقوه باللين والعنف ، واستأجروا الشعراء لهجاء الأنصار . ولعلك تذكر هذه الحملة التى حملها عليهم الأخطل فى قصيدته المشهورة التى يقول فيها :

ذَهَبَتْ قُرَيْشٌ بِالْمَكَارِمِ كُلِّهَا وَاللُّومُ تَحْتَ عَمَائِمِ الْأَنْصَارِ

ولعلك تذكر احتجاج النعمان بن بشير على هذا البيت عند معاوية واضطراب معاوية لهذا الاحتجاج .

ظهرت معارضة الأنصار ، ولكن معاوية استطاع أن ينتصر عليها كما انتصر على غيرها من ألوان المعارضة أثناء حياته . فلما صار الأمر إلى ابنه يزيد ظهرت كل هذه المعارضات عنيفة قوية . فأما الأنصار فأنكروا هذه القيصرية ، وأما قريش فنازعت بنى أمية الأمر .

انتقض الأنصار في المدينة ، وانتقضت قريش في مكة بزعامه عبد الله ابن الزبير . وانتقض بنو هاشم في العراق بزعامه الحسين بن علي . واعتزم بنو أمية أن يقمعوا هذه المعارضات قمعاً عنيفاً . ولكنهم أسرفوا في العنف بالأنصار وإرهاقهم إسرافاً اضطر كثيراً منهم إلى الهجرة ، فتركوا بلاد العرب ومضوا إلى أفريقيا ، وأخذوا يتبعون فيها الفتوح حتى انتهوا إلى الأندلس . واشتد الخلفاء وعمالمهم على من بقي منهم بالمدينة ؛ فقد كان العمال يأبون أن يتخذوا حرس المدينة وشرطتها من أهل المدينة أنفسهم ، وكانوا يتخذون الشرطة من الأعراب الذين لا تصلهم بالمدينة صلة ما . ويكنى أن تقرأ أخبار الشعراء والظرفاء من أهل المدينة ، وأخبار الولاة والعمال الذين كانوا يرسلون إلى المدينة ، لتستيقن أن الخلفاء من بنى أمية كانوا يكرهون الأنصار كرهاً شديداً ، ويسرفون في إساءة الظن بهم ، ويأخذونهم من ضروب العنف والإذلال بما لم يكن يلائم قديمهم في تأييد الإسلام ، بل بما لم يكن يلائم مكائهم من حيث هم مسلمون .

كانوا يحرمون شباب قريش مناصب الدولة ويمسكونهم في الحجاز ، كما كان قياصرة الرومان في أول الأمر يضيّقون على شباب الأرستقراطية الرومانية ويمسكونهم في إيطاليا . ولكنهم كانوا يذلون شباب الأنصار إذلالاً ، فانصرف هذا الشباب عن السياسة وعن المجد المألوف إلى اللهو أو إلى الفقه . وكان أهل المدينة ظرفاء وفقهاء ، فنفعوا الأدب العربي ونفعوا الإسلام نفسه في محتهم ، كما نفعوه حين كانوا أعزاء .

الآن تستطيع أن تفهم شيئين يوصف بهما الأحوص : أحدهما أنه كان شديد الكبرياء مزهواً على الناس ، مزدرياً لهم جميعاً ، بهجومهم ويسرف في هجائهم ، لا يفرق في ذلك بين قومه الأنصار وقريش وغير قريش . أما الأنصار فقد كان يزدريهم ويكره منهم الإذعان والخشوع . وأما قريش فقد كان يحقد عليهم وينقم منها ما هي فيه من سلطان وجبروت . وما أسرع

ما اشتدّ تأثير ذلك في نفسه فأصبح سقيماً سباباً يهجو حباً في الهجاء ! وقد انتهى به ذلك إلى أن كانت له حادثة ، أعتقد أن الناس لم يفهموها بعد على وجهها . زعموا أنه كان عند سكينه بنت الحسين فأذن المؤذن ، فلما انتهى إلى قوله : « أشهد أن محمداً رسول الله » قالت سكينه : هذا جدى ، وفخرت بالنبي . ففاخرها الأحوص وذكر جده الذى حمته النحل من المشركين واحتمله السيل حتى لا يصلوا إليه ، وذكر خاله الذى غسلته الملائكة . قالوا : وغضبت سكينه وغضبت غيرها وكفروا الأحوص . واتخذ بنو أمية هذا وغيره وسيلة إلى إهائته وفيه . وقد أراد سوء الحظ ألا تبنى من هذه القصيدة إلا هذه الأبيات القليلة :

فخرت وانتمت فقلتُ ذرني ليس جهلُ أتيتيهِ ببديعٍ
فأنا ابنُ الذي حمّت لحمهُ الدبُّ رُقَيْيلُ اللّحيانِ يوم الرجيعِ
غسلتُ خالي الملائكةُ الأبَّ رارُ مَيْتاً طوبى له من صريعِ

لم يكن الأحوص مجنوناً ولا سخيماً ، ولم يكن يريد أن يفاخر سكينه ولا أن يضع جده وخاله بإزاء النبي ، وإنما كان رجلاً بائساً محزوناً يريد أن يقول لسكينه : فيم هذا الفخر والأمر في هذه الأيام لقوم آخرين لم يبلوا في الدين بلاء حسناً ؟ فيم هذا الفخر ؟ وهل عصمكم اتصالكم بالنبي من هذه المنكرات التى جناها عليكم بنو أمية ؟ وهل حقن دماءكم وردّ إليكم أمركم ؟ ولم نذكر قديماً ونحن نرى أبناء النبي وأبناء أصحابه وأنصاره يزُدرون ويسامون ألوان الخسف ؟ ! لم يرد أن يفاخر سكينه ، وإنما رثى لها ولنفسه وأمثالهما ، وهجا بنى أمية . إذن فلم يكفر ولم يتجاوز حدود الأدب والدين ، وإنما كان شاعراً سياسياً ، لا أكثر ولا أقل .

هذه الأبيات التى أفهمها على هذا الوجه تمثل نفسية الأحوص ، كما تمثل نفسية الشباب الأنصارى والقرشى ذلك الوقت . وهى تفسر لنا هذا الشيء الثانى الذى كان يوصف به الأحوص ، وهو الإسراف فى اللهو والاندفاع فى الهجون إلى غير حدّ .

لا ينبغى أن تطلب إلى الناس جميعاً أن يكونوا أصحاب زهد ونسك ودين .

ولا ينبغي أن تطلب إليهم جميعاً أن يكونوا من قوّة الإرادة بحيث يقاومون اليأس ويحتنبون آثاره المؤلّة .

كان الأحوص رجلاً كغيره من الناس يطمع فيما يطمع فيه أمثاله . فلما رأى أن أبناء المهاجرين والأنصار قد حرّموا ثمره جهاد آبائهم ، وعمولوا معاملة الأسرى والمجرمين ، وانتفع غيرهم بهذا الدين الذى أقاموه ، وبهذا الملك الذى شيدوه ، حقد فأنكر الناس ، ثم انتهى إلى إنكار الدين نفسه ، ثم لما عن الناس ودينهم وشؤونهم المختلفة بهذه اللذات المنسكرة التى كان يتهاك عليها تهالكاً شديداً . وأنا أصدّق أنه قال تلك الحملة المنكرة ، التى أخجل أن أرويها فى هذا الحديث ، والتى تمثل نفساً فاجرة حقاً لا تحفل بأدب ولا مروءة ولا دين .

كان الأحوص فاجراً بأوسع ما تدل عليه هذه الكلمة ، كان يشرب ويسرف فى الشرب ، وكان يحب النساء والغلمان ، وكان يحب شيئاً آخر غير هذا ، وكان بنو أمية معنورين فى القسوة عليه وأخذ به بما أخذوه به من شدة ، فينبغى أن نلاحظ أنه ضرب وأهين ونفى أيام سليمان بن عبد الملك . فلما جاء عمر بن عبد العزيز ، وهو رجل عدل منصف صالح ، أبى أن يسمع للأنصار وأمسكه فى نفيه حتى أطلقه يزيد بن عبد الملك ، لأسباب سياسية سترها بعد حين . ولكنى أرى لك قصتين : إحداهما تمثل حلم الوليد بن عبد الملك وتغاضبه عن زلات الأحوص ، والأخرى تمثل رأى عمر بن عبد العزيز فيه .

تحدثوا أن الأحوص وفد على الوليد بن عبد الملك فأكرمه وأعزّه مكانه وأنزله عنده ، ولكن الأحوص كان يراود غلمان الوليد الخبازين عن أنفسهم ، ثم أشفق أن يظهر ذلك ، فهدس وكاد لضيف آخر من ضيوف الوليد — هو شعيب ابن عبد الله بن عمرو بن العاص — ثم ظهرت جلية الأمر للوليد فغضب على الأحوص وأقصاه ، ولكنه لم يضربه ولم يهينه كما فعل أخوه سليمان .

أما رأى عمر بن عبد العزيز فيه فأنقله لك حرفياً من الأغاني : « أتى رجال من الأنصار إلى عمر بن عبد العزيز فكلّموه فيه وسألوه أن يقُدّمته وقالوا له : قد عرفت نسبه وموضعه وقديمه ، وقد أخرج إلى أرض الشوك ، فنطلب

منك أن تردّه إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودار قومه ؛ فقال لهم عمر :
فن الذى يقول :

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا فُجَاءَةً فَأُبْهَتَ حَتَّى مَا أَكَادُ أُجِيبُ
قالوا : الأحوص . فقال : من الذى يقول :

أَدُورُ وَلَوْ لَا أَنْ أَرَى أُمَّ جَعْفَرٍ بِأَبْيَاتِكُمْ مَا دُرْتُ حَيْثُ أَدُورُ
وَمَا كُنْتُ زَوَّارٌ وَلَكِنْ ذَا الْهَوَى إِذَا لَمْ يُزْرَ لَا بُدَّ أَنْ سَيَزُورُ
قالوا : الأحوص . فقال : فن الذى يقول :

كَأَنَّ لَبْنَى صَبِيرُ عَادِيَةٍ أَوْ دُمَيْةٌ زَيْنَتْ بِهَا الْبَيْعُ
اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ قَيْمِهَا يَفِرُّ مِنِّي بِهَا وَأَتَّبِعُ
قالوا : الأحوص . قال : بل الله بين قيمها وبينه . فن الذى يقول :

سَتَبَقَى لَهَا فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا سَرِيرَةٌ حُبُّ يَوْمِ تُبَلَى السَّرَائِرُ
قالوا : الأحوص . قال : إن الفاسق عنها يومئذ لمشغول ، والله لا أردّه ما كان
لى سلطان .

ولعلك تريد أن تعلم فيم عذّب وفيم نقي ؟ وليس علم ذلك بالعسير . فقد
كان أمره كأمر العرجى سواء بسواء ، كان العرجى عنيقاً فاجراً كارهاً للحكومة
هجاءً لعامل الخليفة على مكة ، وكان الأحوص فاسقاً ماجناً مخنثاً ، كما سماه
عبد الملك بن مروان ، وكان يهجو أشراف الأنصار وقريش ويتغزل بنسائهم ،
وكان هذا هو السبب الحقيقي في أنه كان يكره ابن حزم عامل سليمان بن عبد الملك
على المدينة ويهجوه هجاء صريحاً قبيحاً . فلست أشك في أن هذا الوالى حرّص
الناس على الأحوص ، فشكوه إليه وطلبوا منه أن يكتب فيه إلى سليمان ففعل .
وكان سليمان شديد الغيرة يكره الغزليين والمغنين ، وأمره مع ظرفاء المدينة مشهور ،
فكتب إلى عامله أن يضرب الأحوص ويشهره ، ويقمه للناس في السوق ،
ويصبّ على رأسه الزيت ، وينفيه إلى دهلك . وكان موقف الأحوص في هذه
المحنة كموقف العرجى جليلاً وصبراً وعزة نفس . وانظر إلى هذه الآيات التي
كان يصيح بها وهو يشهر في السوق :

ما من مُصِيبَةٍ نَكَبَ أَمْنِي بِهَا
وَنَزُولُ حِينَ تَزُولُ عَنِّي مُتَحَمِّطٌ
إِلَّا تَعْظُمُنِي وَتَرْفَعُ شَانِي
تُخْشِي بِوَادِرِهِ عَلَيَّ الْأَمْرَانَ
إِنِّي إِذَا خَفِي اللَّثَامُ رَأَيْتَنِي
كَالشَّمْسِ لَا تَخْفَى بِكُلِّ مَكَانٍ

وانظر إلى هذا الشعر يهجو به الوالي :

أَقُولُ وَأَبْصَرْتُ أَبْنَ حَزْمِ بْنِ قَرْتَنِي
تُرَى قَرْتَنِي كَانَتْ بِمَا بَلَغَ أَبْنُهَا
وَقَوْفًا لَهُ بِالْمَأْزَمِينَ الْقَبَائِلُ
مُصَدِّقَةٌ لَوْ قَالَ ذَلِكَ قَاتِلُ

وانظر إلى هذا الشعر يقول لسليمان بن عبد الملك في غير تردد ولا وجل :

سُلَيْمَانُ إِذْ وَلَاكَ رَبِّكَ حَكْمَنَا
يَوْمَ حَجِيجِ الْمُسْلِمِينَ ابْنَ قَرْتَنِي
وَسُلْطَانَنَا فَاخُكُمُ إِذَا قُلْتَ وَأَعْدِلِ
فَهَبْ ذَاكَ حَجًّا لَيْسَ بِالْمُتَقَبَّلِ

وهجاؤه لابن حزم ونعيه على سليمان كثير . ولا تنس أنه كان ثقيلاً على قومه ، يتخذ هجاءهم وسيلة إلى اللهو والعبث ، ويتخذ نساءهم موضوعاً للغزل ، يعفّ فيه حيناً ، ويفحش فيه حيناً آخر . فلما ولي الأمر يزيد بن عبد الملك عفا عنه وأكرمه وأحسن صلته . ويقول الرواة : إنه فعل ذلك لأبيات قالها الأحوص فيه ودسها إلى جاريتته حيابة ، فغنته إياها ذات ليلة فطرب وأطلق الأحوص .

وليس من شك في أن الأحوص استعطف عمر بن عبد العزيز ، واستعطف يزيد بن عبد الملك . ولكن سيرة يزيد في أمر الأحوص كانت كسيرة الوليد ابن يزيد في أمر العرجي . انتقم الوليد للعرجي ، لا حباً فيه بل نكاية بآل هشام بن عبد الملك ، وانتقم يزيد للأحوص ، لا حباً فيه بل نكاية بابن حزم وانتقاماً لنفسه .

حج يزيد بن عبد الملك في خلافة أخيه الوليد ، فتزوج في حجه هذا فتاة هاشمية هي بنت عون بن محمد بن علي بن أبي طالب ، وأمهرها مالا كثيراً . وبلغ الأمر الوليد ، فغضب وكتب إلى ابن حزم أن ينقض هذا الزواج ويسترد المال من عون ، فإن رده فذاك ، وإلا فليضربه بالسياط حتى يؤدي إليه هذا المال . وأنفذ الوالي أمر الخليفة بمحضر يزيد ، فلما آلت الخلافة إلى يزيد

انتقم لنفسه من ابن حزم هذا ، ونقض جميع أعماله ، ومنها نفي الأحوص .
وإذا صحت أخبار الرواة فإن الأحوص لم ينتفع بهذه الفرصة ، لأن الظرف أخطأه ،
وملكه حب الانتقام فأهان الخليفة من حيث لا يريد .

قالوا : أمر يزيد أن يحمل إليه الأحوص وابن حزم ؛ فلما بلغا دمشق
أذن يزيد للأحوص وظل ابن حزم بالباب ، فلما دخل الأحوص على الخليفة
قال : يا أمير المؤمنين هذا ابن حزم الذى سفه رأيك وفسخ نكاحك ؛ فغضب
يزيد وقال : كذبت عليك لعنة الله ! اكسروا أنفه ؛ فأخرج ذليلاً .

ويظهر أن الأحوص أدركه الطمع فى آخر أيامه وأراد أن يكون مقرباً
من يزيد ، فوقف موقفاً آخر لم يشرفه ولم يجن له إلا شراً .

لما قتل يزيد بن المهلب أراد يزيد بن عبد الملك أن يقول الشعراء شعراً
فى هجاء آل المهلب ، فاعتذر أكثر الشعراء لأنهم كانوا ملحقوا آل المهلب ،
فكرهوا أن يكذبوا أنفسهم بهجائهم أثناء المحنة ، ولشد ما أحب أن يقرأ هذا قوم !
أما الأحوص فأجاب وهجا آل المهلب ، ثم كانت منه رحلة إلى فارس حيث
العصية لآل المهلب قوية ، فاحتاط الولى حتى دس إليه قرأ دخلوا عليه ومعهم
زق من الخمر ، فصبوه على رأسه ثم قادوه إلى الولى فأنفذ فيه الحد ؛ وجعل
يقول الأحوص : ما هكذا تقام الحلود ؟ فيجيبه الولى : نعم ولكن لما تعلم .
ثم كتب الولى إلى يزيد معتذراً ، فاضطر يزيد إلى أن يقبل العذر لقوته العصية
البيانية فى فارس .

أظنك استطعت الآن أن تتمثل شخصية الأحوص ، وأظننا نستطيع أن
نلخص هذه الشخصية فى أنه كان رجلاً ساخطاً ، واضطوره السخط إلى الإسراف
فى اللهو والفجور والسفه ، جعل للسلطان على نفسه سيلاً . كان معنوياً فى
إسرافه ، وكان السلطان معلوراً فى معاقبته .

ولكنى لم أحدثك إلى الآن عن شخصيته الشعرية ، وهى عظمة جدا
لم ينكرها عليه أحد ، حتى من أشد الناس بغضاً له وسخطاً عليه . لقد اضطرت
أبو الفرج إلى أن يشيد بمكانته الشعرية مرتين ، ولقد أبى الفرزدق وجرير أن
يهجوا مخافة لسانه ، ولقد كان أشرف الناس يتقونه بالملاطفة حيناً ، وبالندير

الغنيف حيناً آخر ، ولقد أقسم بعض آل الزبير بمحرجات الأيمان ليقتلنه إن هجا زبيرياً بشعر قليل أو كثير .

كان الأحوص غزلاً ولكنه كان مفتنناً في ضروب الشعر كلها ، له الفخر -الرائع ، والملح البديع ، والهجاء المقذع ؛ وذلك لأنه لم يكن متكلفاً ولا محتشماً ، وإنما كان يرسل نفسه على سجيئتها ، وكانت نفسه خصبة غنية بضروب الخير والشر ، فكان يكتفى أن يعكف على هذه النفس لحظة فيجد فيها كل ما يريد . كان حلو اللفظ متينه ، قوي الأسلوب رصينه ؛ يبلغ الإجادة اللفظية في غير تكلف ولا مشقة ، ولم يكن كغيره من الغزليين المكيين يعنى بالمعنى ويسخف بالألفاظ ، وإنما كان حريصاً على التجويد في لفظه ومعناه جميعاً .

كان إذا أراد وقياً حسن الحديث إلى من يحب ، ولكنه كان عابثاً أيضاً ، وكان يلهو بالغزل كما يلهو بالهجاء ، فكان يكذب على نساء الأنصار فيحرجهن ، ويحرج أزواجهن .

زعموا أنه أسرف في ذكر أم جعفر ، وهي أنصارية عفيفة ، فلما ضاق بها الأمر أقبلت ذات يوم متنكرة حتى وقفت عليه وهو في جماعة من قومه ، فقالت له : اقضني ثمن الغنم التي اشتريتها مني . فأنكر ذلك ، وألحت وصدقتها الناس ، وأخذ هو يحلف ما رآها ولا يعرفها ؛ فكشفت عن وجهها وأصر هو على إنكاره ، وقد اجتمع حولهما الناس ؛ فلما بالغ في الإنكار قالت أم جعفر : صدقت : يا عدو الله ! والله ما أعرفك وما تعرفني ، ولكنك تذكرني في شعرك فتقول : قالت لي أم جعفر ، وقلت لها ، ويشيع ذلك في الناس ؛ فنجعل الأحوص .

ولست أريد أن أسرف في الإطالة أكثر مما أسرفت ، فلأروك هذه القصيدة في شعر الأحوص ، فهي تعطيك صورة من سهولة لفظه ومعناه في جودة ومتانة :

ثَنَّتَانِ لَا أَدْنُو لَوْضَلِيهِمَا عِرْسُ الْخَلِيلِ وَجَارَةُ الْجُنْبِ
أَمَّا الْخَلِيلُ فَلَسْتُ فَاجِعُهُ وَالْجَارُ أَوْصَانِي بِهِ رَبِّي

عُوجُوا كَذَا نَذَرَ لِغَانِيَةٍ بَعْضَ الْحَدِيثِ ، مَطِيئِكُمْ صَحْبِي
 وَنَقَلَ لَهَا فِيمَ الصُّلُودُ وَلَمْ نُذْنِبَ بَلْ أَنْتِ بَدَأْتِ بِالذَّنْبِ
 إِنْ تَقْبِلِي نُقْبِلْ وَنُنزِلْكُمْ مِنَّا بِدَارِ السَّهْلِ وَالرَّحْبِ
 أَوْ تُدْبِرِي تَكْذُرْ مَعِشَتَنَا وَتُصَدِّعِي مُتَلَاتِمَ الشَّعْبِ

فانظر إلى هذا الماخذ الفاجر كيف عفا في هذه الآيات عن الجارة وعرس
 الخليل ! وكيف أحسن الحديث إلى صاحبه في ظرف ورفق وصفاء طبع !
 وانظر إلى قوله « عوجوا كذا » وإلى موضع « كذا » من هذا البيت ، فهو يختصر
 الظرف الحجازي كله .

وأنا أوصيك بكل ما قال الأحوص في أم جعفر ، فهو على قلته كثير الغناء .

الغزلون^(١)

يزيد بن الطّرية

وكذلك لا أحدثك اليوم عن زعيم الغزلين من أهل الحجاز عمر بن أبي ربيعة، لأنى أريد أن أستقصى الغزلين ما استطعت إلى هذا الاستقصاء سيلاً ، ليكون البحث عنهم تاماً مستوفى ، وإذن فلا بد من أن أحدثك عن وجلين ممتازين ، يمتاز أحدهما بأنه يشخص البيئة التي كان يعيش فيها تشخيصاً صحيحاً لذيلاً ممتعاً ، وهو يزيد بن الطّرية . ويمتاز الآخر بأنه كان غزلاً متكلفاً لا يعشق أحداً ولا يعشقه أحد ، وهو مع ذلك متقن للغزل بارع فيه ، وهو : كُشَيْر .

وليكن يزيد بن الطّرية موضوع حديثنا اليوم . وإن لدى لشيئاً كثيراً أريد أن أذكركه عن يزيد بن الطّرية ، ولكنى سأكون في هذا الحديث ناقلاً أكثر منى كاتباً ؛ فنحن بإزاء قصة غرامية ، وإن شئت فقل بإزاء سيرة غرامية بارعة رائعة في لفظها وفي معناها وفي نتائجها ، والخير كل الخير ألا تشوه هذه القصة بالتخليص والتحليل ، وأن نعرض منها عليك ما نستطيع عرضه ، فستجد فيها لذة ونفعاً .

ولنلاحظ قبل كل شيء أننا لسنا بإزاء شاعر من أشراف مكة أو المدينة من أولئك الذين لجأوا إلى الغزل واللهم ، حين حالت السياسة بينهم وبين الجدل والعمل . وإذاً فلن نلتبس تفسير شعره وغزله في الحياة السياسية والاجتماعية للمسلمين أيام بنى أمية . ولسنا بإزاء شاعر من أهل البادية الحجازية التي وصفنا حالها في فصولنا الماضية وعرفنا أن غزلها لم يكن لهواً ولا عبثاً ، وإنما كان طموحاً إلى المثل الأعلى المعنوى ؛ مصدرى اليأس من الحياة العاملة والزهد فيها .

(١) نشرت بمجريدة « السياسة » في ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٢٤ .

لسنا بإزاء شاعر من حاضرة الحجاز ولا من باديته ، وإنما نحن بإزاء رجل آخر بعيد كل البعد عن السياسة وتأثيرها . بل نستطيع أن نقول إنه شديد الاتصال بالحياة البدوية الخالصة التي لم تكد تعرف من الإسلام إلا أنه دين يأخذ الناس بالصلاة والزكاة ، وبواجبات أخرى مادية ثقيلة على هؤلاء الناس الذين عاشوا أحراراً وكانوا يودون لو يعيشون أحراراً .

لم يتصل صاحبنا هذا بالحجاز ولا الحجازيين ، ولم يعرف ما كان فيه الحجاز وأهله من هو ويأس ، كما أنه لم يتصل بالشام ولا بما كان فيه من ضخامة السلطان الأموي ، ولا بما كان يحيط بهذا السلطان من كيد ودس ، ولا بما كان يصدر عن هذا السلطان من بأس وانتقام ، كما أنه لم يتصل بالعراق وما كان فيه من هذه المذاهب السياسية والدينية المختلفة التي كانت تنشأ وتصطدم في الكوفة والبصرة .

لم يتصل بشيء من هذا كله . ونستطيع أن نقول : إنه لم يعلم بشيء من هذا كله ، ولم يفترض له وجوداً . وإذا فهو لم يتأثر به في شعره ولا في حياته ، ولم يصدر في هذه الحياة ولا في ذلك الشعر إلا عن بداوته الخالصة وطبيعته الصريحة . على أن هذه البداوة نفسها تأثرت بشيئين مختلفين : تأثرت بالإسلام فسهلت بعد شدة ، ولا نت بعد عنف ، وصفت بعد غلظة ، ثم تأثرت في العصر الذي كان يعيش فيه صاحبنا بانتفاض الأمر على بني أمية واضطراب سلطانهم ، وضعف الحكومة المركزية عن أخذ أهل البادية بالطاعة والإذعان للنظام ، فعادوا إلى ما كانوا فيه أو إلى شيء يشبه ما كانوا فيه قبل الإسلام ، وظهرت بينهم الخصومات وألوان العدا ، فأخذوا فيما كانوا فيه في أثناء العصر الجاهلي من غزو وغارة ، ومن حرب وجهاد متصل . ولا ينبغي أن ننسى أن صاحبنا قد قتل في غزوة من هذه الغزوات أول عهد بني العباس .

هو إذاً يمثل نوعاً آخر من أنواع الغزليين ، يمثل هؤلاء الفتيان من أهل البادية المتعمقة في بداوتها الذين كانوا يحمون حياة حرة طليقة لا تكاد تتأثر بشيء خارجي ، وإنما تصدر عن الطبيعة المطلقة المرسلّة . وليس من شك في أن هؤلاء الفتيان قد كانوا كثيرين جداً ، وفي أن حياتهم كانت خليقة بالبحث

والدرس والعناية ، لأنها تمثل لنا حياة البادية العربية الحرة في العصر الإسلامي من جهة ، وتعيننا على تصور العصر الجاهلي بوجه ما من جهة أخرى . ولكن الرواة شغلوا عن هؤلاء الفتيان بفحول الشعراء وزعمائهم في العراق والشام والحجاز ، ولم يكادوا يعنون بأهل البادية من هذه الناحية . وكل عنايتهم بالبادية انحصرت أو كادت تنحصر في أخذ اللغة عن أهلها ، ورواية شيء عنها من غريب الشعر والرجز . فأما حياة فتيانها وكهولها وفتياتها ونسائها فقد انصرف الرواة عنها انصرافاً تاماً .

وماذا كان يعنى الرواة من أمر هذه البادية وأهلها ، وهى بعيدة كل البعد عن أن تؤثر في الحياة العامة بوجه من الوجوه ، وهى منقطعة إلى حياتها البدوية منغمسة فيها ، لا تكاد تشعر بأن في الوجود شيئاً آخر غيرها ! أضف إلى هذا أن الرواة كانوا يؤثرون من غير شك أن يحبوا في هذه البلاد السهلة الغنية التي يجدون فيها من اليسر واللين ما يسهل عليهم الحياة ويتيح لهم ما يطلبون من رواية الشعر وتدوين التاريخ .

فقليل جداً من هؤلاء الرواة من كان يجتنب الحجاز والعراق والشام ليقذف بنفسه في صحارى البلاد العربية ويخالط أحياء هذه الصحارى . ومن هنا ضاعت علينا حياة البادية العربية الإسلامية ، وضاع علينا قسم عظيم جداً من الأدب العربي ، لعله لم يكن أقل ثروة ولا خصباً ولا روعة مما حفظنا . على أن حياة هذا القى العربي البدوي ، الذي نتحدث عنه اليوم ، تعطينا صورة من هذا الأدب ، إن لم تكن قوية مفصلة ، فهى واضحة بعض الوضوح صادقة أشد الصدق .

لم يكن يزيد بن الطثيرة غزلاً ليس غير ، وإنما كان قى من فتيان العرب بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، أى إنه كان يحيا حياة لهو وعبث وفخر وغزو وكرم وهجاء . كان يستمتع بقوته وشبابه وطبيعته الحرة الطلقة ، فيأنس إلى الحياة ولذاتها في غير تكلف ولا تصنع ولا استتار . وكان يستمتع بهذه الحياة استمتاعاً طبيعياً ساذجاً لم تفسده الحضارة ولم تكدر صفوه . ومن هنا لم يكن فاحش اللفظ ولا منكر السيرة . ولست تجد فيما حفظ لنا من شعره وسيرته شيئاً تكرهه ، إلا حواراً واحداً وقع بينه وبين امرأة من أهل

البادية لم يخل من تصريح تمقته أذواقنا الخلقية ، ولكنه يضحكنا ويلذنا من الوجهة الأدبية الخالصة .

كان يزيد بن الطثيرة من بني قشير من قيس عيلان ، وكان حيه يقيمون في بادية اليمامة . ويقال إن الطثيرة هي وإن كانت يمانية من بني جرم ، فإنها تنهى إلى طي . وإذا فقد اجتمعت في صاحبنا شدة المضرة وسهولة اليمانية . وكان يزيد من أجمل الناس وجهاً ، وأحسنهم صورة ، وأرقهم لفظاً وأعذبهم حديثاً ، وكان فتاناً للنساء مفتوناً بهن ، والغريب من أمره أنه كان يفتن النساء ويفتن بهن ، وأن الطبيعة أرادت أن تكون الصلة بينه وبينهن أفلاطونية خالصة . ولم يمنعه ذلك من أن يعشق ، ومن أن يؤله العشق ويبرح به ويحشمه خطوباً وأموالاً .

على أن الذي يعنينا من أمر يزيد بن الطثيرة ليس هو يزيد وإنما هي الصلة بين رجال البادية ونسائها ، هذه الصلة التي يظهر أنها كانت تختلف اختلافاً شديداً باختلاف القبائل والأحياء . وقد قلت في أول هذا الفصل : إنى سأكون ناقلاً أكثر منى كاتباً في هذا الحديث ، فلأترك للرواة أن يحدثوك بشيء من خبر يزيد ، وأنا أحب أن تنظر إلى هذا الحديث نظر عناية وتدبر في اللفظ والمعنى جميعاً .

« . . . وأن الناس أمحلوا حتى ذهب الدقيقة من المال ، وتهتكت الحيلة ، فأقبل صيرم من جرم ساقته البسة والجذب من بلاده إلى بلاد بني قشير ، وكانت بينهم وبين بني قشير حرب عظيمة ، فلم يجدوا بداً من رمي قشير بأنفسهم لما قد ساقهم من الجلب والمجاعة ودقة الأموال وما أشرفوا عليه من المهلكة ، ووقع الربيع في بلاد بني قشير ، فانتجعها الناس وطلبوها ، فلم يعد أن لقيت جرم قشيراً ، فنصبت قشير لم الحرب ، فقالت جرم : إنما جئنا مستجيرين غير محاريين ؛ قالوا : لماذا ؟ قالوا من السنة والجذب والمهلكة التي لا باقية لها . فأجارتهم قشير وسألهم وأرعتهم طرفاً من بلادها . وكان في جرم فتى يقال له ميساد ، وكان غزلاً حسن الوجه تام القامة أخذاً بقلوب النساء . والغزل في جرم جائر حسن ، وهو في قشير نائرة . فلما نازلت جرم قشيراً وجاورتها أصبح ميساد الجرمي فغدا إلى القشيريات يطلب منهن الغزل والصبا والحديث ،

واستبراز الفتيات عند غيبة الرجال واشتغالهم بالسقى والرعى وما أشبه ذلك ، فدفعته عنهن وأسمعته ما يكره ؛ وراحت رجالهن عليهن وهن مغضبات ، فقالت عجائز منهن : والله ما ندرى أرعيتم جرماً المرعى أم أرعيتموهم نساءكم ! فاشتد ذلك عليهم فقالوا : وما أدراكُنَّه ؟ قلن : رجل منذ اليوم ظلُّ مُحجراً لنا ما يطلع منا رأس واحدة ، يدور بين بيوتنا ! فقال بعضهم : يبتوا جرماً فاصطلموها ، وقال بعضهم : قبيح ، قوم قد سقيتموهم مياهكم ، وأرعيتموهم مراعيكم وخلطتموهم بأنفسكم . وأجرتموهم من القمح والسنة ، تفتاتون عليهم هذا الافتيات ! لا تفعلوا ، ولكن تصبحوا وتقدموا إلى هؤلاء القوم في هذا الرجل فإنه سفيه من سفهائهم ، فليأخذوا على يديه ؛ فإن يفعلوا فأتموا لهم إحسانكم ، وإن يمتنعوا ويقروا ما كان منه يحل لكم البسط عليهم وتخرجوا من ذمتهم . فأجمعوا على ذلك ، فلما أصبحوا غدا نفر منهم إلى جرم فقالوا : ما هذه البدعة التي قد جاورتونا بها ؟ إن كانت هذه البدعة سجية لكم فليس لكم عندنا إرعاء ولا إسقاء ، فبرزوا عنا أنفسكم وأذنوا بحرب ، وإن كان افتياتاً فغيروا على من فعله ، وإنهم لم يعدوا أن قالوا لجرم ذلك ، فقام رجال من جرم وقالوا : ما هذا الذي نالكم ؟ قالوا : رجل منكم أمس ظل يجر أذياله بين أبياتنا ما ندرى علام كان أمره ! ففقهته جرم من جفاء القشيريين وعجرفيتها ، وقالوا : إنكم لتحسون من نساءكم ببلاء ، ألا فابعثوا إلى بيوتنا رجلاً ورجلاً . قالوا : والله ما نحس من نساتنا ببلاء ، وما نعرف منهن إلا العفة والكرم ولكن فيكم الذي قلتم . قالوا : فلإنا نبعث رجلاً إلى بيوتكم يا بني قشير إذا غدت الرجال وأخلف النساء ، وتبعثون رجلاً إلى البيوت ، وتتحالف أنه لا يتقدم رجل منا إلى زوجة ولا أخت ولا بنت ولا يعلمها بشيء مما دار بين القوم ، فيظل كلاهما في بيوت أصحابه حتى يردا علينا عشيئاً الماء ، وتخلي لهما البيوت ولا تبرز عليهما امرأة ولا تصادق منهما واحداً فلا يقبل منهما صرفاً ولا عدلاً إلا بموثق يأخذه عليها وعلامة تكون معه منها ، قالوا : اللهم نعم . فظلوا يومهم ذلك وياتوا ليلتهم ، حتى إذا كان من الغد غدوا إلى الماء وتحالفوا أنه لا يعود إلى البيوت منهم أحد دون الليل . وغدا مياد الجرمي إلى القشيريات ، وغدا يزيد بن الطرية القشيري إلى الجرميات ، فظل عندهن بأكرم مظل لا يصير

إلى واحدة منهن إلا افتتنت به وتابعته إلى المودّة والإخاء ، وقبض منها رهناً
وسألته ألا يدخل من بيوت جرم إلا بيها ، فيقول لها : وأى شيء تخافين
وقد أخذت مني الموائيق والعهود وليس لأحد من قلبي نصيب غيرك ! حتى
صلبت العصر . فانصرف يزيد بفتسخ كثير وبراقيع ، وانصرف مدهوناً مكحولاً
شبعان ريان مُرَجَّل اللَّمَّة . وظل مياد الجرمي يدور بين بيوت القشيريات
مرجوماً مقصياً لا يتقرب إلى بيت إلا استقبلته الولايد بالعمد والجنادل . فهالك
لهنّ وظن أنه ارتياد منهن له ، حتى أخذه ضرب كثير بالجنادل ، ورأى اليأس
منهن وجهه العطش ، فانصرف حتى جاء إلى سمرة قريباً إلى نصف النهار ،
فتوسد يده ونام تحته نويمة حتى أفرحت عنه الظهيرة وفاءت الأظلال ،
وسكن بعض ما به من ألم الضرب وبرد عطشه قليلاً . ثم قرب إلى الماء حتى
ورد على القوم قبل يزيد . فوجد أمة تذود غنماً في بعض الظعن ، فأخذ برفعها
وقال : هذا برقع واحدة من نساتكم ، فطرحه بين يدي القوم ، وجاءت الأمة
تعدو فتعلقت برفعها فرُدَّ عاها . ونحجل مياد خجلا شديداً . وجاء يزيد
مسياً وقد كاد القوم أن يتفرقوا فنثر كفه بين أيديهم ملآن براقع وفتخاً . وقد
حلف القوم ألا يعرف رجل شيئاً إلا رفعه ، فلما نثر ما معه اسودت وجوه جرم
وأمسكوا بأيديهم إمساكة . فقالت قشير : أنتم تعرفون ما كان بيننا أمس من
العهود والموائيق وتحرج الأموال والأهل ، فمن شاء أن ينصرف إلى حرام فليمسك
يده : فبسط كل رجل يده إلى ما عرف فأخذه وتفرقوا عن حرب ، وقالوا :
هذه مكيدة يا قشير . فقال في ذلك يزيد بن الطثرية :

فَإِنْ شِئْتَ يَا مَيَادُ زُرْنَا وَزَرْتُمْ وَلَمْ تَنْفَسِ الدُّنْيَا عَلَى مَنْ يُصِيبُهَا
أَيُّهُبُ مَيَادُ بِالْبَابِ نِسْوَتِي وَنِسْوَةَ مَيَادٍ صَحِيحَ قُلُوبِهَا
فقال مياد الجرمي :

لَعَمْرُكَ إِنَّ جَمْعَ بَنِي قَشِيرٍ لِحَرَمٍ فِي يَزِيدَ لظَالِمُونَا
أَلَيْسَ الظُّلْمُ أَنْ أَبَاكَ مِنَا وَأَنْكَ فِي كَتِيبَةِ آخِرِينَا
أَحَالِفَةُ عَلَيْكَ بَنُو قَشِيرٍ يَجِينُ الصَّبِيرُ أُمَّ مَتَحَرِّجُونَا ۝

ليس لدى من الوقت ولا من المكان ما يمكنني من شرح هذه القصة والتعليق على ألفاظها وأسلوبها ومعانيها ، فكل ذلك محتاج إلى شرح ، وكل ذلك محتاج إلى تفسير . ولكني أسرع فأقول : إنى لا أقبل هذه القصة على علائها ، ولا أصدق ما فيها من تفسير . وأكاد أرجح أن فيها كذباً ونحلاً مصدره العصبية المضرية .

ولكن هذه القصة في جملتها تمثل شيئاً خليقاً بالعناية ، وهو أن الصلة بين الرجال والنساء كانت سهلة ميسورة مستحبة في اليمانية ، وكانت عسيرة ممقوتة في المضرية ، كما أنها تثبت شيئاً آخر وهو أن يزيد بن الطثرية قد كانت بينه وبين النساء الجرميات صلة ما .

على أننا لسنا في حاجة إلى هذه القصة لنثبت أن يزيد كان على اتصال بالجرميات ، فإن حياة يزيد وشعره يثبتان ذلك إثباتاً لا شك فيه .

ليس من شك في أن الجلب قد اضطر بنى جرم إلى جوار بنى قشير ، وفي أن الصلة اشتدت بين يزيد وبين الجرميات أو بينه وبين امرأة بعينها من الجرميات يقال لها وحشية ، فكان بينهما حباً ومودة . ونشأت عن هذا الحب قصة إكالكصص التي نشأت عن حب جميل وبشينة ، وعن حب قيس بن ذريح ولُبنى ، تمتاز بكل ما تمتاز به هذه القصص ، ففيها مرض العاشق وإشرافه على الموت ويأس الأطباء منه ، وفيها احتيال هذا العاشق في زيارات صاحبه واختلاسه هذه الزيارات وتكلفه الأعاجيب ، بل فيها أن يزيد احتال في زيارة صاحبه مرة فراح عليها بين الغم يمشى على أربع ، وقد اتخذ من اللباس ما يقرب الشبه بينه وبين الكباش . وفيها هذه الخصلة الأخرى التي تمتاز بها هذه القصص ، وهي استعداد الحكومة على العاشق وتدخل السلطان في هذه الأمور الغرامية الخالصة . ولكن الذى نستطيع أن نصدق من كل هذه القصة هو أن يزيد قد عشق وحشية وعشقه وحشية أيضاً ، وكان بينهما تزاور ، فغضب لذلك « فُدَيْتُك » الجرمى وهو زعيم أسرة وحشية هذه ، وأنزل نساء أسرته إنذاراً شديداً وخوفهن الموت ، فاستل سيفه وضرب به بين أيديهن غلاماً له ثروباً هن وتخويفاً . ولكن وحشية لم تخف ولم يأخذها الروح ، فاتصلت المواعيد بينها وبين يزيد ، وعرف ذلك فديك فاتخذ زبية وأضرم فيها

ناراً خفيفة وانتظر حتى خرجت وحشية للقاء صاحبها ، فسقطت في الذبية
واحترقت رجلها ، وأخذها غلمان فديك فردوها إلى بيتها . ونشأ الهجاء بين فديك
وزيد؛ فقال فديك :

شَفَى النَّفْسَ مِنْ وَحْشِيَّةِ الْيَوْمِ أَنهَا تَهَادَى وَقَدْ كَانَتْ سَرِيعاً عَنِيْقَهَا
فَالَا تَدَعُ خَبْطَ الْمَوَارِدِ فِي الدُّجَى تَكُنْ قَمِيْنَا مِنْ غَشِيَّةٍ لَا تُفِيْقَهَا
دَوَاءً طَيِّبٍ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَدَاوِي الْمَجَانِينَ الْمُخْلِى طَرِيْقَهَا
فأجاب يزيد :

سَتَبْرَأُ مِنْ بَعْدِ الضَّمَانَةِ رِجْلَهَا وَتَأْتِي الَّذِي تَهْوَى مُخْلِى طَرِيْقَهَا
عَلَى هَدَايَا الْبُدْنِ إِنْ لَمْ أَلَاِقَهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا فُدَيْكَ بِسُوقِهَا
يُحْصِنُهَا مِنِّي فُدَيْكَ سَفَاهَةً وَقَدْ ذَهَبَتْ فِيهَا الْكِبَاسُ وَحُوقِهَا
تَذِيْقُونَهَا شَيْئاً مِنَ النَّارِ كُلَّمَا رَأَتْ مِنْ بَنِي كَعْبٍ غُلَاماً بِسُوقِهَا
وقال يزيد أيضاً :

يَا سُخْنَةَ الْعَيْنِ لِلْجَرِي إِذْ جَمَعَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ مَزَارٍ وَحَشَّةِ الدَّارِ
خَبْرَتُهُمْ عَذَبُوا بِالنَّارِ جَارَتُهُمْ وَمَنْ يُعَذِّبُ غَيْرَ اللَّهِ بِالنَّارِ
ويظهر أن الأمر اشتد بين يزيد وفديك فاستعدى عليه صاحب الإمامة .
ولكن تدخل السلطان في هذا الحب لم يكن كتدخله في حب جميل وقيس
ابن ذريح ، فلم يهلر دمه ولم يفه من الأرض ، وإنما تقدم إلى أخيه في تأديبه ،
وكان له أخ يسمى ثوراً - سنعرض له بعد حين - وكان ثور هذا رفيقاً بيزيد
حُبّاً له ، فلم يتجاوز في تأديبه أن حلق لته تشويهاً له وصرفاً للنساء عنه ؛ فقال
يزيد في ذلك :

أَقُولُ لِثَوْرٍ وَهُوَ يَحِطُّ لِمَتِي بِحَجْنَاءِ مَرْدُودٍ عَلَيْهَا نِصَابُهَا
تَرَفَّقَ بِهَا يَا ثَوْرُ لَيْسَ ثَوَابُهَا بِهَذَا وَلَكِنْ غَيْرُ هَذَا ثَوَابُهَا
أَلَا رُبَّمَا يَا ثَوْرُ قَدْ عَلَّ وَسَطَهَا أَنَامِلُ رَخَصَاتٍ حَدِيثُ خِصَابُهَا

وَتَسْلُكُ مِذْرَى الْعَاجِ فِي مُدْلِهِمَةِ إِذَا لَمْ تَفْرَجْ مَاتَ غَمًّا صُوبُوبُهَا
فَرَاخَ بِهَا ثَوْرٌ تَرِفٌ كَأَنَّهَا سَلَّاسِلُ دِرْعٍ لَيْنِهَا وَأَنْسِكَابُهَا
مَنْعَمَةٌ كَالشَّرْبَةِ الْفَرْدِ جَادَهَا نِجَاءُ الثَّرِيَا هَطْلَهَا وَذَهَابُهَا
فَاضْبَحَ رَأْسِي كَالصَّخِيرَةِ أَشْرَفَتْ عَلَيْهَا عِقَابٌ ثُمَّ طَارَتْ عِقَابُهَا

على أن الحصومة بين يزيد وغيره من الناس لم تقف عند الحب ، بل تجاوزته إلى شيء آخر . فقد قلت : إن يزيد كان من فتيان العرب ينفق حياته في اللهو والحب ، وكان متلافاً يسرف في الاستدانة ، وكان أخوه يبيع له ماله ، ويحمل عنه دينه . وكأنه أسرف في الدين ، فتقاضاه دائته ، وهو رجل يعرف بالبربري ، وجسه الحاكم عقبة بن شريك في هذا الدين ، فقال في سجنه :

فَلَوْ قَلَّ دَيْنُ الْبَرْبَرِيِّ قَضَيْتُهُ وَلَكِنْ دَيْنُ الْبَرْبَرِيِّ كَثِيرٌ
وَكَنتُ إِذَا حَلَّتْ عَلَيَّ دِيُونُهُمْ أَضْمُ جَنَاحِي مِنْهُمْ فَأَطِيرُ
عَلَيَّ لَهُمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ أَدِيَةٌ ثَمَانُونَ وَأَفِ نَقْدُهَا وَجَزُورُ
نَحْنُ إِلَى ثَوْرٍ فَقِيمٍ رَحِيلُنَا وَثَوْرٌ عَلَيْنَا فِي الْحَيَاةِ صَبُورُ
أَشَدُّ عَلَى ثَوْرٍ وَثَوْرٌ إِذَا رَأَى بِنَا خَلَّةَ جَزْلِ الْعَطَاءِ غُفُورُ
فَذَلِكَ دَابِي مَا بَقِيَتْ وَمَا مَشَى لِثَوْرٍ عَلَى ظَهْرِ الْبِلَادِ بَعِيرُ

وقد طال عليه السجن وضاق به الحال فاجتهد حتى خلص من سجنه وعمد إلى نجيب لقيه يقال له ابن الكميت ، فركبه ومضى به إلى الإمامة حتى وصل إلى عقبة ، فلما عرفه عقبة أنكر ما فعل من الأمر ، ولكن يزيد ملحه بقصيدة من أجود ما قال أهل البادية ، فعفا عنه عقبة ، وأبرأه من دينه ، ووهب له النجيب وحكمه في ماله ، وإليك بعض هذه القصيدة :

وَمُدْلَةٌ عِنْدَ التَّبَدُّلِ يَفْتَرِي مِنْهَا الْوِشَاحُ مَخْصَرًا أُمْلُودًا
نَازِعَتُهَا غَنَمَ الصَّبَا إِنْ الصَّبَا قَدْ كَانَ مِنِّي لِلْكَوَاعِبِ عَيْدًا
يَا لَرَجَالٍ وَإِنَّمَا يَشْكُو الْفَتَى مَرَّ الْحَوَايِثِ أَوْ يَكُونُ جَلِيدًا

بَكَرَتْ نَوَارُ تَجْدُ بِأَقْيَةِ الْقَوَى يَوْمَ الْفِرَاقِ وَتُخْلِفُ الْمَوْعِدَا
وَلَرُبُّ أَمْرٍ هَوَى يَكُونُ نَدَامَةً وَسَبِيلِ مَكْرَهَةٍ يَكُونُ رَشِيدَا
ثم يقول :

لَا أَتَقَى حَسَكَ الضَّغَائِنِ بِالرَّقَى فِعْلَ الدَّلِيلِ وَإِنْ بَقِيَتْ وَحِيدَا
لَكِنْ أَجْرُدُ لِلضَّغَائِنِ مِثْلَهَا حَتَّى تَمُوتَ وَلِلْحَقُودِ حَقُودَا
وممايم تمثيل هذه الشخصية البدوية اللاهية العابثة في مزح ورضاء ، هذه
القصة التي كانت له مع أخيه ثور :

فقد زعموا أنه راح في إبل أخيه فرآه بنسوة حسان ، فطلب إليه أن يطعمهن
لحماً ، فسألهن سكيناً وعقر لمن ناقة وأقبل عليه أخوه يلومه ويضربه ، فقال :

يَا ثُورُ لَا تَشْتَمَنَّ عِرْضِي فِدَاكَ أَبِي فَإِنَّمَا الشَّمُّ لِلْقَوْمِ الْعَوَاوِيرِ
مَا عَقَرُ نَابٍ لِأَمْثَالِ الدَّمِيِّ خَرْدٍ عَيْنِ كِرَامٍ وَأَبْكَارٍ مَعَاصِيرِ
عَطْفَنَ حَوْلِي يُسْبِئِلُنَ الْقِرَى أَصْلًا وَلَيْسَ يَرْضَيْنِ مِنِّي بِالْمَعَاذِيرِ
هَبْنِي ضَيْفًا عَرَاكِمَ بَعْدَ هَجَّتِكُمْ فِي قَطْقَطٍ مِنْ سَقِيطِ اللَّيْلِ مَنْشُورِ
وَلَيْسَ قُرْبِكُمْ شَاءٌ وَلَا لَبْنٌ أَيْرَحْلُ الضَّيْفِ عَنْكُمْ غَيْرَ مَجْبُورِ
مَا خَيْرٌ وَارِدَةٌ لِلْمَاءِ صَادِرَةٌ لَا تَنْجِلِي عَنْ عَقِيلِ الرَّجُلِ مَنْحُورِ
ولقد أريد أن أفصل القول في شعر يزيد ، وأبين مكانة هذا الشعر من

الجودة والمتانة والرقّة التي يمتاز بها شعر أهل البادية في هذا العصر الأموي خاصة ،
ولكنني قد أطلت . فانظر إلى هذه الأبيات ؛ فستجد فيها أحسن مثالا ،
لا أقول يزيد وحده ، بل أقول لنفسية هؤلاء الفتيان الذين كانوا يحيون حياته
ويلهون لهوه :

أَلَا حَبْدًا عَيْنَاكِ يَا أُمَّ سُنبُلٍ إِذَا الْكُخْلُ فِي جَفْنَيْهِمَا جَالَ جَائِلُهُ
فِدَاكِ مِنَ الْخُلَانِ كُلِّ مُمَزَّجٍ تَكُونُ لِأَذْنِي مَنْ يُلَاقِي وَسَائِلُهُ
فَرَحْبًا تَلْقَانَا بِهِ أُمَّ سُنبُلٍ صَحِيًّا وَأَبْكَئْنَا عَشِيًّا أَصَائِلُهُ

وَكُنْتُ كَأَنِّي حِينَ كَانَ كَلَامُهَا
 رَهِينٌ بِنَفْسِي لَمْ تُفَكِّ كُبُولَهُ
 فَقَالَ: دَعُونِي سَجْدَتَيْنِ وَأُرْعِدْتُ
 بِنَفْسِي مَنْ لَوْ مَرَّ بِرُدِّ بَنَانِهِ
 وَمَنْ هَابَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ وَهَبْتُهُ
 وَدَاعَاً وَخِجْلِي مُوثِقُ الْعَهْدِ حَامِلُهُ
 عَنِ السَّاقِ حَتَّى جَرَّدَ السَّيْفَ قَاتِلُهُ
 حِذَارِ الرَّدَى أَحْشَاوُهُ وَمَفَاصِلُهُ
 عَلَيَّ كَيْدِي كَانَتْ شَفَاءً أَنَامَلُهُ
 فَلَا هُوَ يُعْطِينِي وَلَا أَنَا سَأَلْتُهُ

الغزلون^(١)

كثير

وإنما أعده في الغزلين لأخرجه منهم ، فالناس يُجمعون أو يكادون يجمعون على أنه أحد الغزلين اللذين أتيحت لهم الإجابة ، وقسم لهم التفوق في الغزل . وهم يقرنون اسمه باسم جميل فيقولون : كثير عزة ، كما يقولون : جميل بثينة ، وكما يقولون : مجنون ليلي . وهم بهذا نفسه يقدمونه على ابن ذريح ، ويقدمونه على الأحوص والعرجي وغيرهما من أصحاب الغزل في بادية الحجاز وحاضرتهم . والرواة لا يكتفون بهذا بل يقدمونه على الشعراء عامة ويضعونه بين الفحول . فهو مقدّم على ابن أبي ربيعة ، وهو في مرتبة الفرزدق والأخطل وجرير والراعي . ولست أدري أكان الرواة منصفين في وضعه بين هؤلاء الفحول ، وتقديمه على عامة شعراء العصر الأموي ؟ وليس سبيل إلى الفصل في ذلك ، فقد ضاع شعر كثير كله ولم يبق منه إلا الشيء القليل جداً ، لم يبق منه إلا أبيات ومقطوعات لا تبيح الحكم له ولا عليه . وإذا فقد يكن شاعراً فحلاً ، وقد يصح أن يقرن إلى الفرزدق وإلى جرير . ولكن شيئاً لا يقبل الشك ، هو أنه ليس من الغزلين المتقدمين ، ولا يصح أن يقرن إلى جميل ، ولا أن يقاس بابن أبي ربيعة ، ولا أن يقدم على ابن ذريح .

ليس هو من هؤلاء كلهم في شيء . وإذا كان له أن يتقدّم أو أن يظفر بمكانة عالية بين الشعراء فلا ينبغي أن يكون ذلك لغزله ، وإنما ينبغي أن يكون ذلك لشيء آخر قد يتاح لنا أن نعرفه بعد حين .

سقول : وإذا لم يكن من الغزلين فلم أضفته إليهم وحشرته فيهم ؟ وقد أجبته على هذا السؤال في أول هذا الحديث ، فقلت : إنني أعده في الغزلين لأخرجه منهم . وهل تظن أن الناس يقبلون بحثاً تناول الغزلين جميعاً وسكت

(١) نشرت بجريدة «السياسة» في ٣ ديسمبر سنة ١٩٢٤ .

عن كثير ، وهم كما قلت لك مجموعون على أنه غَزَلٌ "مقدم بارع في الغزل !
أليس من الحق على من يبحث عن الغزلين ويستقصيهم أن يزيل هذا الوهم ويحو
آثاره من نفوس الناس !

كل شيء في حياة كثير يدلنا على أنه لم يكن غزلاً بطبعه ، ولم يكن ماهراً
ولا موفقاً في تكلف الغزل ؛ فهو لم يكن صافي الطبع ولا رقيق الحس ولا دقيق
الشعور ولا قوي العاطفة ولا ذكي الفؤاد ، وإنما كان بريئاً من هذا كله ؛
وهو لم يكن على براءته من هذه الخصال حسن الخلق ولا مقبول الصورة ؛ وإنما
كان دميماً قبيحاً بشع المنظر مضحكاً لمن يراه ، مضحكاً لمن يسمعه ويتحدث
إليه أيضاً : كان قصيراً مسرفاً في القصر ، حتى قال بعض الرواة : « لقد
رأيتَه يطوف بالكعبة فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فقد كذب » .
وكان أحمق مسرفاً في الحمق ضعيف العقل إلى حدّ غريب ، كان الناس
يتخذونه هزواً وسخرية . والغريب من أمره أنه لم يكن يحس هذا الاستهزاء
ولا يشعر بهذه السخرية ، وإنما كان يصدق كل ما يلقي إليه ، ويسمع المزاح
فيجيب إليه جاداً مقتنعاً .

زعموا أن نفرأ من قریش دخلوا عليه يعودونه وكان مريضاً فسألهم : بم
يتحدث الناس ؟ قالوا : يتحدثون بأنك الدجال ، قال : أما إذ قلم هذا فإني
لأجد في عيني هذه؛ ألماً منذ أيام . والدجال في الأساطير أعور .
وأشد من هذا غرابة أن أمر كثير لم يكن مقصوداً على الغفلة والحمق ،
وإنما كان يتجاوزهما إلى التيه والخيلاء ، فالرواة يحدثوننا أنه كان من أشد الناس
إعجاباً بنفسه ومن أغلام في الكبرياء ، حتى لقد اتخذته معاصروه ولا سيما أهل
المدينة سخرية في هذا أيضاً ، فكانوا يتبعونه في شوارع المدينة يشتمونه وينالون
منه ، لعله يلتفت إليهم فلا يفعل ، وربما غلوا في ذلك فيمدّ الرجل منهم يده
إلى رداء كثير فينتزعه ، فلا يلتفت إليه كثير بل يمضى في قميص . وكان إلى
هذا كله يرى في نفسه الذكاء والفطنة ، وربما رأى فيها القوة والبأس أيضاً . وقد
حفظ الرواة لنا من هذا أخباراً مضحكة :

زعموا أنه لقي الشاعر المعروف بالحزين فكان بينهما مزاح بدأه كثير حين
قال للحزين : لست شاعراً وإنما أنت نظام ! فاستأذنه الحزين في أن يهجو ،

فأذن له ساخرًا منه مزدرياً له ، فهجاه الحزین بیست لانستطیع أن نرویه . فلم یکد یسمع هذا البیت حتی أخذته حفیظة منكرة ، فهض إلى الحزین فلكزه . ولكن الحزین قال له : لست من هذا فی شیء ، ثم مال إليه فرفعه فی یده فإذا هو فیها كالكرة حتی خلاص بینهما من حضر .

ومع هذا كله فلیس من شك فی أن كثيراً قد كان شاعراً مجیداً ، بل عظیم الحظ جداً من الإیادة . وما أظن أن محمد بن سلام الجمحی قرنه إلى الفرزدق ، وجریر تحکماً أو عبثاً .

وقد حدثنا الرواة أنهم كانوا یحفظون له شعراً كثيراً ، ویذکرون بتوع خاص ثلاثین لامية لم یبق لنا منها إلا آیات تکاد أو لا تکاد تؤلف قصیدته المشهورة الی مطلعها :

خلیلی هذا ربیع عزة فاعقلا قلو صیکمًا ثم أبکیا حیث حلت
وكان أبو عبیده فیما ذکروا یملی شعر کثیر بثلاثین دیناراً . ولکننا سنری أن إیادته ومنتزته بین الشعراء لم تأتیاه من الغزل ، وإنما وفق إليهما من سبیل السیاسة والتقرب إلى الملوك والخلفاء .

كان کثیر أصغر نفساً وأردأ طبعاً وأشدّ حمقاً وغفلة من أن یتأثر بتلك المؤثرات المختلفة الی فصلناها فی الأحادیث الماضیة الی كونت الغزلین من أهل الحاضرة والبادية فی الحجاز . لم یکن کبیر النفس ، ولم یکن له أمل فی الحیاة السیاسیة العامة ، ولا طمع فیما كان یطمع فیہ شباب الحجاز من رفعة وسلطان . بل ربما كان من الحق أن نسأل أنفسنا قبل کل شیء : من کثیر ؟ وإلى آیة قبیلته من قبائل العرب یتسمى ؟ فقد یظهر أن کثیراً نفسه لم یکن یعرف من هذا شیئاً ، أو لم یکن یرید أن یعرف من هذا شیئاً ، أو كان یرید أن یعرف منه أكثر مما ینبغی أن یعرفه صاحب النسب الصحیح .

كان یتسبب فی ایمن خزاعیاً ، وكان ینسب فی مضر کنبائیاً ، وكان ایمانون والمضربون ینفونه ویزدرونه ویسخرون منه ، وإذن فكیف یطمع فی رفعة المنتزلة وعلو المكانة ! وكیف یقرن بهذا الشباب الأرسقراطی الحجازی الذی عبث به الطمع والیأس فاضطراره إلى اللهو والعبث واصطناع الغزل والغناء . ثم لم

يكن كثير من هؤلاء البدو الذين وصفنا حياتهم غير مرة ، والذين قلنا : إن إهمال الدولة لإياهم قد اضطرهم إلى أن يعكفوا على أنفسهم ويفرغوا لحياتهم البدوية ، فنشأ عن ذلك ما كانوا فيه من حزن خالط نفوسهم وصرف شبابهم إلى هذا الحب البريء وهذا الغزل العفيف ، اللذين ليسا في حقيقة الأمر إلا مرآة لما كانوا يطمعون فيه ، ويطمحون إليه من المثل الأعلى .

ليس كثير من أولئك ولا من هؤلاء ، ليس بدويًا خالصاً ، وليس حضريًا ذا مكانة في الحضر ، وإنما كان يتردد بين البادية والحاضرة ، كان شديد الاتصال بقصر دمشق بمدح بني أمية ويتملقهم ويأخذ جوائزهم ؛ وكان كاذباً أحسن الكذب في هذا المدح والتلق ، وكان بنو أمية يعلمون منه ذلك كان يتردد بين مكة والمدينة ، يعاشر أشرافهما ، ويأخذ منهم ما أتيج له من جائزة أو عطاء .

كان ذا مذهب سياسي ، أو قل كان له مذهبان متناقضان أشدّ التناقض ، رجعان آخر الأمر إلى مذهب واحد معروف في ذلك الوقت هو النفاق السياسي . كان فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين الله متشيعاً غالباً في التشيع يرى مذهب الكيسانية ، ويقدم محمد بن الحنفية ويؤمن بالرجعة . وله في ذلك أعاجيب وشعر جيد . وكان فيما بينه وبين الناس نصيراً لبني أمية يمدحهم ويغلو في مدحهم ويعاشرهم ويفاخر بعشرتهم .

ولم يكن التوفيق بين هذين المذهبين المتناقضين عليه شاقاً ولا عسيراً ؛ فهو حين كان يمدح بني هاشم وبني أمية كان يخاصم الزبيريين الذين كانوا أعداء للأمويين والهاشميين معاً . ولعلك تذكر أني حدثتك في الصيف الماضي عن شاعر عباسي مسرف في التشيع ، كان يذهب مذهب كثير نفسه ، كان كيسانيًا يقدم ابن الحنفية ويؤمن بالرجعة ، وكان مع ذلك يمدح بني العباس ويأخذ جوائزهم ، وكان بنو العباس يفضون له عن تشيعه للعلويين ، كما كان بنو أمية يفضون لكثير عن تشيعه للعلويين أيضاً . هذا الشاعر هو السيد الحميري الذي كان ككثير يتقرب ببني هاشم إلى الله ، ويرضى بمدحهم عاطفته الدينية ، ويتقرب ببني العباس إلى الدنيا ويرضى بهم حاجته إلى اللذة والثروة .

وكما أن كثيراً كان يتخذ ابن الزبير وسيلة إلى إرضاء الهاشميين والأمويين ؛ لأنه كان خصماً مشتركاً للحزبين ، فقد كان السيد الحميري يتخذ بنى أمية وسيلة لإرضاء بنى علي وبنى العباس ، وكما أن كثيراً كان أحق مغفلاً مسرفاً في الإيمان بالسخف والاطمئنان إليه ، فلم يكن حظ السيد الحميري من الحق والغفلة وضعف العقل قليلاً ، حتى إن الرواة ليضيفون إلى كثير شعر السيد ، كما يضيفون إلى السيد شعر كثير . بل هما يشتركان في شيء آخر : كلاهما كان سيئ الصلة بأبويه ؛ فقد يحدثنا الرواة أن السيد ولد لأبوين من الخوارج الغلاة في مذهب الخوارج ، فكان كارهاً لهما مسيئاً إليهما . وهم يحدثونا أيضاً أن كثيراً كان يعق أباه ويسمى إليه .

وهما يكاد يشتركان في خصلة أخرى ! لكنها أقوى عند كثير منها عند السيد : كلاهما كان منفراً صارفاً للنساء ، أما كثير فلقبه ودمايته وقصره ؛ وأما السيد فلتنن إبطيه .

ولعلك تذكر ما رويت لك من شعر الحميري في الرحمة ، وأنا أرى لك الآن شيئاً من شعر كثير فيها . فانظر إلى هذه الآيات الجيدة التي يتعجل بها عودة ابن الحنفية إلى الأرض ليرفع فيها لواء بنى هاشم :

أَطَلْتُ بِذَلِكَ الْجَبَلِ الْمُقَامَا	أَلَا قُلْ لِلْوَصِيِّ فِدَتَكَ نَفْسِي
وَسَمُّوكَ الْخَلِيفَةَ وَالْإِمَامَا	أَضْرُ بِمَعْشِرِ وَالْوَكِّ مِنَّا
مُقَامَكَ عَنْهُمْ سَتِينَ عَامَا	وَعَادُوا فِيكَ أَهْلَ الْأَرْضِ طَرَا
وَلَا وَارَتْ لَهُ أَرْضٌ عِظَامَا	وَمَا ذَاقَ ابْنُ خَوْلَةَ طَعْمَ مَوْتِ
تَرَاجَعُهُ الْمَلَائِكَةُ الْكَلَامَا	لَقَدْ أَوْفَى بِمُورِقِ شَعْبِ رَضْوِي
وَأَنْدِيَّةٌ تُحَدِّثُهُ كِرَامَا	وَلِإِنَّ لَهُ بِهِ لَمَقِيلَ صِدْقِ
بِهِ وَلَدَيْهِ نَلْتَمِسُ التَّعَامَا	هَدَانَا اللَّهُ إِذْ جُزْتُمْ لِأَمْرِ
تَرَوَا رَايَاتِنَا تُتْرَى نِظَامَا	تَمَامَ مَوَدَةِ الْمَهْدِي حَتَّى

ولعلك تلاحظ معي أن غياب محمد بن الحنفية إن كان قد أضرب بقوم فليس « كثير » من هؤلاء القوم ، فهو لم يعاد فيه أهل الأرض طراً كما يقول ، وإنما

عادى فيه عبد الله بن الزبير وحزبه ليس غير .

وانظر إلى هذه الأبيات التى يدافع فيها عن محمد بن الحنفية حين حبسه ابن الزبير ، وأراد تحريق بنى هاشم ، وهى من جيد الشعر السياسى :

من ير هذا الشَّيخَ بِالْحَيْفِ مِنْ مَنِيَّ مِنْ النَّاسِ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ ظَالِمٍ
سَمِيَّ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَأَبْنُ عَمِّهِ وَفَكَأَنَّكَ أَغْلَالٌ وَنَفَاعٌ غَارِمٍ
أَبَى فَهُوَ لَا يَشْرَى هُدًى بِضَلَالَةٍ وَلَا يَتَّقَى فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمٍ
وَنَحْنُ بِحَمْدِ اللَّهِ نَتْلُو كِتَابَهُ حُلُولًا بِهِذَا الْحَيْفِ خَيْفِ الْمَحَارِمِ
بِحَيْثُ الْحَمَامِ آمِنُ الرُّوعِ سَاكِنٌ وَحَيْثُ الْعَلْوُ كَالصِّدِيقِ الْمُسَالِمِ
فَمَا فَرَحَ الدُّنْيَا بِبَاقٍ لِأَهْلِهِ وَلَا شَدَّةَ الْبَلْوَى بِضَرْبَةٍ لَازِمِ
تُخَبِّرُ مَنْ لَاقَيْتَ أَنَّكَ عَائِدٌ بِلِ الْعَائِدِ الْمَظْلُومِ فِي سِجْنِ عَارِمِ

وكان ابن الزبير يسمى العائد ، ويزعم أنه يعوذ بالبيت وحرمه .

وانظر إلى هذه الأبيات التى اختلف الرواة فيها فأضافها بعضهم إلى السيد ، وأضافها بعضهم الآخر إلى كثير ، وهى أبيات مشهورة تخص مذهب الكيسانية فى الإمامة :

أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَوَلَاةَ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءٌ
عَلِيٌّ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ هُمْ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ لَهُمْ خَفَاءٌ
فَسَبَطُ سَبَطُ إِيْمَانٍ وَبِرٍّ وَسَبَطُ غَيْبَتِهِ كَرَبْلَاءُ
وَسَبَطُ لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ حَتَّى يَقُودَ الْخَيْلُ يَتَّبِعُهَا اللَّوَاءُ
تَغِيَّبَ لَا يُرَى عَنْهُمْ زَمَانًا بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءٌ

وانظر إلى هذه الأبيات يفخر بها بتلطف ابن الحنفية به وعطفه عليه

وسؤاله عنه :

أَقْرَّ اللَّهُ عَيْنِي إِذْ دَعَانِي أَمِينُ اللَّهِ يَلْطَفُ فِي السُّوَالِ
وَأَنْتَ فِي هَوَايَ عَلَى خَيْرٍ وَسَأَلَ عَن بَنِيَّ وَكَيْفَ حَالِي

وكيف ذكّرتُ حال أبي خبيبٍ وزَلّة فعلِهِ عند السؤالِ
هو المَهْدِيُّ خبرناه كَعْبُ أَخُو الْأَخْبَارِ فِي الْحَقْبِ الْخَوَالِي
وأبو خبيب هذا هو عبد الله بن الزبير ، وليس من شك في أن محمد
ابن الحنفية كان يحمد لكثير نضاله عنه وهجاءه لابن الزبير ، ولكن البيت
الأخير من هذه المقطوعة يلفتنا بنوع خاص ، لأنه يمثل عقلية كثيرٍ وأمثاله
من غلاة الشيعة الذين كانوا صادقين في غلوهم يستيحبون فيه الكذب ويعتقدون
مع ذلك أنهم لا يكذبون ، ذلك أن كثيراً لم يلق كعب الأخبار ، ولا يمكن
أن يكون كعب قد خبره بما ذكر من أن ابن الحنفية هو المهدي . وقد سأله
بعض معاصريه : أأنجرك كعب حقاً ؟ قال : لا . قال محدثه : وإذن
فكيف قلت ما قلت ؟ أجاب : بالتوهم . وكذلك كان السيد الحميري يتلمس
القرص ويتحلها إذا لم يجدها ، ليذيع فضل بني هاشم ويثبت حقهم في
الإمامة .

على أن شيئاً واحداً يعيننا من أمر كثير مع بني هاشم ، وهو أنه كان صادقاً
في حبه ، وكان ساذجاً في هذا الحب أيضاً ؛ وكان هذا الحب الصادق
السادج ينتهي به أحياناً إلى شيء من الحنان مؤثر شديد التأثير ، وينتهي به
أحياناً إلى شيء من الغفلة مضحك شديد الإضحاك . كان شديد العطف على
أطفال بني هاشم يسميهم : الأنبياء الصغار ، ويقول كلما رآهم : بنفسى الأنبياء
الصغار ! وكان يأخذ عطاءه فيمر بالكتاب حيث كان أطفال بني هاشم
فيهم لهم الدراهم .

قال الرواة : وكان مع هؤلاء الأطفال صبيّ من ولد عثمان ، وكان أنما
هؤلاء الأطفال الهاشميين لأهمهم ، وكان يختلف معهم إلى الكتاب ، وكان
إذا رأى كثير يفرق الدراهم على إخوته تعلق به وقال يا عمّ : هب لي ، فيجيبه :
لا ، لست من الشجرة .

قلت إن هذا الحب الصادق الساذج لبني هاشم كان ينتهي بكثير إلى الغفلة
أحياناً . وكان بنو هاشم يعلمون من كثير وغيره من شيعةهم صدق هذا الحب ،
وسداجته فلا يجمعون عن استغلاله والانتفاع به .

ويحدثنا الرواة أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية كان يعلم من كثير هذه السداجة ويريد أن يمسكه فيها ويحفظ بسلطانه عليه ، فكان يكلف أرساداً من أصحابه أن يرقبوا كثيراً وينقلوا إليه مختلف أمره ، فإذا حضر كثير مجلسهم قال له : قلت كذا وكذا . وفعلت كيت وكيت ، فَيُبهرُ كثير ، حتى قال له ذات يوم : أشهد أنك رسول الله .

كان بنو هاشم يستغلون حب كثير ، ويقبلون منه نفاقه وملحه لئني أمية . ولم لا ! ألم يك بنو هاشم أنفسهم يدارون بني أمية ويسألونهم ما عجزوا عن مناوأتهم وإشهار الحرب عليهم ! ثم أي الأحزاب السياسية يستطيع أن يستغني في أي عصر من العصور عن هؤلاء المنافقين السياسيين الذين أتاحت لهم السنة طوال وأخلاق

مرّة ، فهم يتنفعون وينفعون . ولهذا كان بنو أمية يصنعون مع كثير صنيع بني هاشم ، فيقبلون منه نفاقه السياسي ويقرونه عليه ، وكانوا يعلمون حق العلم أنه ليس صادقاً في مدحهم ولا مخلصاً في الدفاع عنهم ، وكانوا مع ذلك يميزونه ويقربونه ويستريدونه ملحه ؛ ويذيعون هذا المدح في القصر وفي دمشق وفي العراق حيث كان خصومهم السياسيون بنوع خاص .

وهذه الحادثة تعطيك صورة من المداراة السياسية وحرص الزعماء السياسيين

المهرة على استغلال النفاق السياسي .

قالوا : لما خرج عبد الله للحرب مصعب بن الزبير ، لحظ في عسكره « كثيراً » يمشى مطرقاً وكأنه حزين ، فدعاه فسأله : أتصدقني إن أنبأتك بما في نفسك ؟ قال : نعم ! قال : فاحلف بأبي تراب : فحلف كثير بالله ليصدقني ! قال عبد الملك : لا بد من أن تحلف بأبي تراب ؛ فحلف له بأبي تراب . قال عبد الملك : تقول في نفسك : رجلان من قريش يلقي أحدهما الآخر لحربه فيقتله والقاتل والمقتول في النار ؛ وما آمن أن يصيبني سهم فيقتلني فأكون معهما . قال كثير : ما أخطأت يا أمير المؤمنين . قال عبد الملك : فعد من قريب ، وأمر له بجائزة . وكان عبد الملك إذا أراد الصدق من كثير في أمر من الأمور لا يرضى منه إلا أن يحلف بأبي تراب .

إذا فقد كان كثير لا ينحني على بني أمية تشييعه للهاشميين ، وكان مع ذلك .

بمدحهم ويأخذ جوائزهم ، أى أنه كان يأجر نفسه من خصومه السياسيين ، وكان خصومه السياسيون يقبلون منه هذا فرحين به مبتهجين له . ومن ذا الذى لا يتهيج بأن يرى خصمه السياسى يهين نفسه ويلطأ فيملحه ويقدمه رغبة في المال ! وكذلك كانت صلة السيد الحميرى بالعباسيين .

أظنك الآن قد استطعت أن تمثل شخصية كثير ، وما هى بالشخصية الجذابة ولا التى تسهوى النفوس وتستثير العطف .

وإذا كان كثير بغيضاً إلى هذا الحد ، فليس من السهل ولا من اليسير أن يستهوى النساء ويستصيبهن . وقد برأه الله من جمال الصورة كما برأه من جمال الأخلاق . ومن هنا لا أميل إلى تصديق ما يرويه الرواة من أن نساء المدينة احتفلن بكثير يوم مات . فلن كنّ قد فعلن شيئاً من هذا ، فما أظن مصدر ذلك إلا أن كثيراً كان شاعراً ممتازاً وكان يذكر النساء فيحسن ذكرهن . وأظن أن قد آن لنا أن نذكر شيئاً عن حب كثير .

فأول شيء نذكره أن كثيراً كان كاذباً في حبه ، كما أنه كان كاذباً في نسه ، وكما أنه كان كاذباً في موقفه السياسى . وأنا أعتقد أن كثيراً رأى شعر الغزلين وكلف الناس به فتعاطى هذا الفن كما تعاطاه الغزلون ، تمريناً لقوته الشعرية . وقلنا : كان كثير مغروراً تياهاً ؛ كان - كما يقول الجاحظ - قصيراً ويّزعم أنه طويل ، دميماً ويرى أنه جميل ، وقد رأى البدع في أيامه عند أهل الحجاز أن تكون لكل شاعر خلية يذكروها ويهيم بجبها ، فأراد أن تكون له كغيره من الشعراء خلية ، فذكر عزة ، وأكثر من الهيام بها . والرواة أنفسهم يقولون : إن كثيراً كان مدعياً للعشق لا عاشقاً ، ويروون في ذلك أحاديث تجددها في الأغاني . ولست أستطيع أن أقول : إن هذه الأحاديث صحيحة أو غير صحيحة ، ولكنى أتخذها دليلاً على أن حب كثير لم يندفع الناس قديماً فلا ينبغي أن يندعنا الآن .

ليس من الحق إذاً أن نقرنه إلى جميل ولا إلى ابن ذريح ، ولا أن نقدمه على أحد من هؤلاء الغزلين . بل ليس من الحق أن نعهده غزلاً ، وإنما هو شاعر أراد أن يكون غزلاً فعالج الغزل معاملة فنية خالصة ؛ ولعله إن لم يوفق في تكلف الحب وفق في تكلف الغزل ، ولكننا لا نستطيع أن نقبل ذلك ولا أن

نرفضه ، لأن ما لدينا من غزل « كثير » أقل من أن يبيح لنا ذلك . ومع هذا فلاني أتحم هذا الحديث بهذه الأبيات التي تكاد تكون وحدها كل ما بقى من غزل كثير ، وأنا أرى أن فيها من جودة اللفظ ورصانة الأسلوب شيئاً كثيراً ، ولكنها خالية خلواً تاماً من صدق اللهجة وحرارة العاطفة :

خليلي هذا رشمُ عزة فاعقِلا	قلوصيكما ثم أبكيا حيث حلتِ
وما كنت أدري قبل عزة ما البكا	ولا موجعات القلب حتى تولتِ
فليت قلوصي عند عزة قيدت	بحبلٍ ضيف بان منها فضلتِ
وأصبح في القوم المقيمين رحلها	وكان لها باغٍ سواى فبلتِ
فقلت لها يا عز كل مصيبة	إذا وطنت يوماً لها النفس ذلتِ
أميى بنا أو أحسني لا ملومة	لدينا ولا مقلية إن تقلتِ
يكلفها الغير أن شتبي وما بها	هوانى ولكن للمليك استذلتِ
هنيئاً مريئاً غير داء مخاير	لعزة من أعراضنا ما استحكمتِ
تمنيتها حتى إذا ما رأيتها	رأيت المنايا شرعاً قد أظلتِ
كأنى أنادى صخرة حين أعرضت	من الصم لو تمشى بها العصم زلتِ
صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلة	فمن مل منها ذلك الوصل ملتِ
ولاني ونهياي بعزة بعد ما	تخلت مما بيننا وتخلتِ
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما	تبوأ منها للمقبل أضمحلتِ

زعيم الغزليين^(١)

عمر بن أبي ربيعة

تمهيد

نعم ! هو زعيم الغزليين من أهل الحضر في عصره ، لا يختلف في ذلك الناس . وقد تحس فيما تقرؤه من أخبار هؤلاء الغزليين أن الرواة كانوا يضعون عمر من أهل الحضر بليضاء جميل من أهل البادية ، فكأن عمر كان زعيم الغزل الحضري حينما كان جميل زعيم الغزل البدوي . ولكن شعر جميل قد ضاع ولم يبق لنا منه إلا شيء قليل جداً ؛ فلم يبق سبيل إلى المقارنة بينه وبين عمر الذي حفظ الدهر لنا شعره كله أو أكثره ، والذي استقامت لنا أخباره وصحت لنا طائفة من الحوادث المتصلة بحياته ، فأصبح من اليسير أن ندرسه ونعلن فيه رأياً صحيحاً أو مقارباً .

ومهما تكن مكانة جميل من شعراء البادية والحاضرة ، فليس من شك في أن عمر بن أبي ربيعة كان مقدماً عليه عند أهل عصره . ويجب أن يظل مقدماً عليه من الوجهة الفنية ؛ لأننا لا نعرف شاعراً عربياً أمويّاً افنّ في الغزل افنتان عمر . فعمر إذن زعيم الغزليين الأمويين جميعاً لا نستثنى منهم أحداً ، ولا نفرق فيهم بين أهل البادية وأهل الحاضرة . بل نحن نذهب إلى أبعد من هذا فترعم أن عمر بن أبي ربيعة زعيم الغزليين في الأدب العربي كله ، على اختلاف ظروفه وتباين أطواره منذ كان الشعر العربي إلى الآن .

وليس هذا بالشيء الذي يحتاج إثباته إلى عسر ومشقة ؛ فإن الغزل العربي الخالص لم يوجد مرتين وإنما وجد مرة واحدة في أيام بني أمية ، ولم يكن له قبل الإسلام وجود مستقل ، ولم يكن الشعراء الجاهليون يعنون به إلا على أنه

(١) نشرت بجزيرة «السياسة» في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢٤ .

وسيلة شعرية إلى ما كانوا يذهبون فيه من مذاهبهم الشعرية المختلفة . ولا نكاد نعرف بين الجاهليين شاعراً قصر حياته الشعرية على الغزل ؛ بل قليل جداً عدد القصائد الجاهلية التي لم يتناول فيها أصحابها إلا الغزل وحده .

أما عصر بني العباس فلم توجد فيه مدرسة غزلية ، إن صح هذا التعبير الحديث . ولستنا نجهل أن الشعراء العباسيين قد تغزلوا ونسبوا وأتقنوا الغزل والنسيب ، ولكننا نزعم أنهم لم ينقطعوا للغزل ، ولم يسلكوا فيه سبيل أصحابنا هؤلاء الذين ندرسهم في هذه الأحاديث ، وإنما كانوا كالجاهليين يتخذون الغزل وسيلة شعرية ، أو يتعاطونه كما يتعاطون غيره من الفنون .

وإذا كان الشعراء العباسيون قد استحدثوا في الأدب العربي شيئاً ، فهم لم يستحدثوا الغزل . وأكاد أقول : إنهم انصرفوا عنه إلى شيء آخر ، أو أكاد أقول : إنهم حولوا إلى شيء آخر ، هو العبث والحجون .

أعلم أنك ستذكر العباس بن الأحنف ، وقد ذكرته أنا أيضاً ، ولكنه استثناء يثبت القاعدة . ويكفي أن تقرأ الشعر العباسي لتعلم أنه كان غريباً في عصره ، وأنه « سقط بين كرسيين » كما يقول الفرنسيون ؛ فلم يبلغ إتقان الغزلين من شعراء بني أمية ، ولم يبلغ إجادة العابثين من شعراء بني العباس ؛ وإنما جاء فاتراً قلما يترك في النفس أثراً قوياً ؛ لأن الفن الذي أراد أن يختص به كان قد انقضى عصره ، وانتهت الأسباب التي أوجدته ومكنت الناس من إتقانه والإجادة فيه .

وإذا كان العصر العباسي قد خلا من مدرسة غزلية خالصة ، فما أحسبك تريد أن تعرض للعصور الأخرى التي جاءت بعده ، فهي فيما أعتقد لا تستحق عنايتنا الآن .

لم يوجد الغزل في الأدب العربي مرتين كما قلت . وإذا كان عمر بن أبي ربيعة هو زعيم الغزلين في العصر الأموي ، فيجب أن يكون زعيم الغزل في الأدب العربي كله . على أن هناك وجوهاً أخرى تحملنا على أن نؤكد أن الغزل لم يوجد مرتين ، ولست أذكر منها إلا هذا الوجه الفني ، فأنت مهما تقرأ من الغزل العربي ، فلن تجد في هذا الغزل ما تجده في الغزل الأموي من صدق اللهجة وصفاء الطبع ، ومن التمثيل الصادق الصحيح لنفس الشاعر ،

بل لنفس الجماعة التي يعيش فيها ؛ ومن إظهار هذه النفس على ما كانت عليه من سذاجة جذابة وسهولة محببة إلى القلوب . لن تجد شيئاً من هذا كله في غزل العباسيين وأهل الأندلس وغيرهم من شعراء البلاد العربية المختلفة . وإنما أنت في هذا الغزل يلزاء فن شعري ظهر فيه التكلف اللفظي والمعنوي ، وعظم فيه أثر الصنعة ، واصطبغ بهذه الصبغة الحضرية التي تحملك دائماً على أن تقرأ الشيء وأنت تقدر أن صاحبه ليس صادقاً فيه ، وأنه يتكلف ويتصنع ليلائم عصره ويبيته ، ليرضى الناس أو يفتنهم .

أما الغزل الأموي فقد كان شيئاً غير هذا كله . ولا تحسبني قد فتنت بهذا الغزل فأنا أسرف في مدحه والثناء عليه ، وأتجاوز الحد في تقديمه على غيره من ألوان الغزل العربي . فأنا بعيد كل البعد عن هذه الفتنة ، وأنا مجتهد كل الاجتهاد في أن يكون رأيي صادقاً بريئاً من الهوى . وأنا أجد في هذا الغزل الأموي شيئاً هو الذي يحببه إلى ويحبلني على تقديمه ، وهو أنه لم يخلص من السذاجة البدوية ، ولم يبرأ من تأثير الحضارة الحديدية ، ففيه من البداوة سذاجة تستخفك وتستصيبك ، وفيه من الحضارة طلاء يبعث في نفسك الميل إلى الاستقصاء والاستطلاع . وأنت تجد بعد هذا كله عذوبة ولذة في هذا المزاج الذي يتألف منه الغزل الأموي ، والذي يمثل لك هذا الشعب العربي البادى وقد أخذ يحضر ويترف ، ويحس على بداوته كما يحس الحاضرون والمترفون .

قلت : إن هذا الغزل الأموي يمثل نفس الشاعر والجماعة التي كان يعيش فيها تمثيلاً صادقاً صحيحاً . ومن هذه الناحية أرى أن عمر بن أبي ربيعة هو زعيم الغزلين الأمويين حقاً ، وأن الأدباء والمؤرخين لن يستطيعوا أن يقلدوا هذه النعمة التي أتاحت لهم حين حفظ الدهر لهم شعر عمر بن أبي ربيعة كله أو أكثره . فلست أعرف شاعراً إسلامياً استطاع أن يمثل العصر الذي كان يعيش فيه ، والبيئة التي كان يحيا فيها ، كهذين الرجلين اللذين نستطيع أن نتخذهما مرجعاً في درس الجماعة التي كانت تحيط بهما . تريد أن تدرس العراق في صدر الدولة العباسية ، وأن تدرس مدينة بغداد أيام الرشيد والأمين خاصة ، فارجع إلى أبي نواس . تريد أن تدرس حياة الحجاز في صدر الدولة الأموية ، فارجع

إلى ابن أبي ربيعة ، وليس من شك في أنك ستجد شيئاً كثيراً نافعاً في درس مسلم بن الوليد ، وفي درس الحسين بن الضحاك ، وأبي العاتبة ، كما أنك ستجد شيئاً كثيراً نافعاً في درس العرجي ، والأحوص وابن ذريح . ولكنك لن تجد عند واحد من هؤلاء ، بل لن تجد عند هؤلاء مجتمعين ، ما ستجده عند أبي نواس من تمثيل الحياة البغدادية على وجهها ، ولا ما ستجده عند عمر بن أبي ربيعة من تصوير الحياة الحجازية على حقيقتها . تلك نعمة يتيحها الدهر من حين إلى حين للباحثين عن التاريخ الأدبي حين يظهر لهم شاعراً أو كاتباً قد انتهت إليه كل الخلال ، كما ظهرت فيه كل النقائص التي كانت تمتاز بها بيئته ، والتي كانت بعيدة الأثر في عصره . وإنما يظهر هؤلاء الشعراء والكتاب في العصور التي تقوى فيها الحياة الأدبية قوة خاصة ممتازة ، كذلك العصر الأموي في الحجاز ، وكذلك العصر العباسي في بغداد .

تريد أن تشخص الحياة العباسية أيام الرشيد والأمير ، فلن تجد لها تشخيصاً أقوى ولا أظهر ولا أصدق من أبي نواس . فإذا أردت أن تشخص حياة القرن الثالث فلن تجد ذلك عند البحترى ولا عند أبي تمام ولا عند شاعر من الشعراء ، وإنما أنت ووجد ذلك عند الجاحظ ؛ لأنه الكاتب الوحيد الذي انتهت إليه كل الخلال ، كما ظهرت فيه كل النقائص التي كان يتأثر بها العقل البغدادى في ذلك العصر ، والتي جاءت من قوة الحياة الأدبية والفلسفية معاً .

ولكني بعدت بك بعض الشيء عن عمر بن أبي ربيعة . ومسا بعدت بك عنه إلا لأدنيك إليه ، فأنا أقول : إنه أصدق مثال للعصر والبيئة اللذين كان يعيش فيهما . وإن المؤرخ الذي يريد أن يدرس حياة الأرسقراطية القرشية في الحجاز أثناء القرن الأول للهجرة يجب أن يلتبس هذه الحياة في شعر عمر ابن أبي ربيعة قبل أن يلتبسها في أخبار التاريخ وحوادثه المختلفة . فسيجد في هذا الشعر كيف كان سراة قريش والحجاز يقضون حياتهم الهادئة الفارغة ، بل سيجد في الشعر ألوان الصلوات المختلفة الحلوة المبتسمة التي كانت تصل بين هؤلاء السراة .

والمؤرخ الذي يريد أن يدرس حياة المرأة العربية المترفة في هذا القرن الأول ، يجب أن يلتبس هذه الحياة في شعر عمر بن أبي ربيعة ، فلن يظفر في

مصدر آخر من مصادر الأدب والتاريخ يمثل ما يظفر به في هذا الشعر :
فيه ترى المرأة العربية المترفة واضحة جلية الصورة ، تتفق حياتها في هذه الدعة
والنعمة اللتين ، على عفتها وطهارتهما ، لا تخلوان من هو ودعابة ، ولا من
عبث وفكاهة . والمؤرخ الذي يريد أن يدرس الصلة بين الرجال والنساء في هذا
العصر يجب أن يلتمس ذلك عند عمر بن أبي ربيعة ، فسيجد منه في شعر هذا
الشاعر كل ما أراد .

لا تلتمس في شعر عمر بن أبي ربيعة وصفاً للحياة السياسية الأموية ،
فلن تكاد تظفر من هذا بشيء صريح ، ذلك لأن صاحبنا هذا قد اجتنب
السياسة في حياته اجتناباً تاماً ، وانقطع للحب شطراً من حياته ، وللتسك
المهادئ شطراً آخر ، فلم يغضب حزباً من الأحزاب ولم يوال حزباً آخر ،
وإنما كان رجلاً متوقفاً من قريش ترك السياسة لأصحابها وانصرف إلى الحياة
يأخذ منها كل ما كانت تستطيع أن تمنحه من لذة ونعمة ؛ حتى إذا استوفى
من ذلك حظه وأحس أن الوقاء خلت به ، انصرف عن الاضطراب والعبث
إلى حياة هادئة مبتسمة تزينا الذكرى ، حتى فارق هذه الحياة راضياً كما
عاش فيها راضياً .

وكان انقطاعه عن السياسة مصدر خير للمؤرخ الذي يريد أن يدرس
الحياة الأدبية والاجتماعية في الحجاز ؛ لأنه لن يجد في شعره هذه الأهواء
السياسية التي تلبس الحق بالباطل أحياناً ، وتظهر الخطأ مظهر الصواب أحياناً
أخرى . ومع هذا فنحن مدينون للسياسة الأموية بشعر عمر بن أبي ربيعة وما فيه
من آيات أدبية خالصة من كلر السياسة . نحن مدينون بهذا الشعر لمسئله
السياسة الأموية ؛ فلولا أنها وقفت من شباب قريش ومتروى الحجاز هذا
الموقف الذي وصفناه لك غير مرة ، فحالت بينهم وبين الحياة العاملة ، وقصرتهم
في الحجاز على اللهو والترف ، وأوجدت منهم في مكة والمدينة هذه الجماعات
التي جمعت بين ذكاء القلب وحدة الشعور ورقة الحس وشرف المكانة وضخامة
الثروة ، لما ظهر شاعر كعمر بن أبي ربيعة . ليس شعره في حقيقة الأمر
إلا خلاصة صادقة لحياة هذه الجماعات الحجازية المترفة . وكذلك تنتفع الحياة
الأدبية أحياناً بما لا نجد منه الحياة السياسية إلا شراً ونكراً . فهذا الذكاء القرشي

الذي حرمت السياسة العربية منافعه حيناً ، والذي كان من الممكن أن يغير الوجهة السياسية لحياة المسلمين ، لو لم يكره على الانصراف إلى اللهو . هذا الذكاء انصرف إلى ما أريد أن ينصرف إليه فأنجح لنا هذه الحياة الأدبيّة الباهرة .

كان عمر بن أبي ربيعة من أسرة قرشية عظيمة الحظ من الشرف والمجد ، بعيدة الصوت في آخر العصر الجاهلي ، ضخمة الثروة جداً ، قد أقادت ثروتها الضخمة من التجارة بين الحجاز واليمن . وكان لهذه الأسرة رقيق كثير يذكرنا بما نقرأ في أخبار الأغنياء من اليونان والرومان ، حتى إن من المسلمين من عرض على النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يستعين في بعض غزواته بأحباش ابن أبي ربيعة . وكان عبد الله بن أبي ربيعة أبو شاعرنا من وجوه قريش وأهل الذكاء فيهم ، يقال إنه عمل في ولايات النبي (صلى الله عليه وسلم) وأبي بكر وعمر وعثمان ، ولكن ابنه : الحارث وعمر أقصيا عن السياسة الأموية إقصاء .

أما الحارث فقد استعمله عبد الله بن الزبير حين كان الأمر إليه على البصرة . ويقال إن عبد الملك بن مروان أكثر الثناء عليه حين علم باستعمال عبد الله بن الزبير إياه . وكان عمله لابن الزبير قد صرف عنه الأمويين ، فلم يسمع له ذكر في الحياة العامة بعد أن تم النصر لبني أمية ، على أنه لم يعجب أهل البصرة . ونحن نجد في الأغاني شعراً يطلب من ابن الزبير إعفاء البصريين منه .

أما عمر فلم تعرض له السياسة ولم يعرض لها ، وإنما شب في الشعر ومضى في حياة المترفين دون أن يتصل بحزب ، ودون أن يتخذ شعره وسيلة إلى الخصومة السياسية ، كما فعل قرشي آخر هو ابن قيس الرقيات ، وكان يتغزل بالقرشيات جميعاً ؛ كما كان يتغزل بغير القرشيات ، لا تعنيه صلاتهن الحزبية ، بل لا يعنيه منهن إلا شيء واحد هو الجمال .

لعلك تذكر براعة ابن قيس الرقيات تلك التي أشرت إليها حين حدثتلك عنه ، والتي أتاحت له أن يتخذ الغزل وسيلة من وسائل الخصومة السياسية ، فاخترع ما سميته الغزل الهجائي ، وكان في هذا الغزل عفيفاً حلوا للسان مؤدباً حسن الثناء ، لا يزيد إلا أن يغيظ خصومه السياسيين بذكر نساءهم والتعجب

البيّن . أما عمر بن أبي ربيعة فلم يصطنع من هذا كله شيئاً ، وإنما كان صادق اللهجة في غزله كله ، لا يريد بالغزل إلا الغزل ، ولا يذكر النساء إلا لأنه يحب النساء .

وهناك مسألة عنى القدماء بها عناية شديدة ، ولا بد من الإشارة إليها والقول فيها : أكان عمر بن أبي ربيعة صاحب طو وعبث وفتك . أم كان شاعراً لا أكثر ولا أقل ؟ وبعبارة أخرى : أكان عمر بن أبي ربيعة كالعرجي ، أم كان كجميل ؟

أما القدماء فيختلفون اختلافاً شديداً ، ويرون فيه رأيين منافضين يضيفونهما إلى عمر نفسه ؛ فمنهم من يقول إن عمر كان صاحب عبث وفجور ، ثم يزعم أن سائلاً سأله : أكل ما قلته في شعرك فعلته ؟ فأجاب : نعم ! وأستغفر الله . ومنهم من يزعم أنه كان صاحب عفة وطهر ، وأنه كغيره من الشعراء ، كان يقول ما لا يفعل ، ويزعمون أنه أقسم الأيمان المخرجة ما أقدم في حياته على حرام ، ثم يزعمون أنه عندما أشرف على الموت رأى أخاه الحامث جزعاً مشفقاً فقال له كلاماً هداً روعه ، وأكد له أنه لم يأت بما قال شيئاً .

وليس بين هذين الرأيين المسرفين فيما نعتقد رأى وسط . فلنكن نحن أصحاب هذا الرأي ، لا أستطيع أن أصدق مهما يقسم عمر ومهما يقل الرواة إن هذا الشاعر المترف الذي قضى شبابه في غير نسك ولا زهد ولا تدين ، والذي كان كل شيء يتيح له اللهو والعبث ، فكانت له الثروة وكان له الجمال ، وكانت البيئة كلها بيئة له وترف — لا أستطيع أن أصدق ، أن هذا الرجل قضى حياته طاهراً بريئاً من كل مجون . ثم لا أستطيع أن أصدق ، مهما يقل الرواة ومهما يقل عمر نفسه ، أن هذا القرشي الشريف ذا المكانة العالية والحسب الرفيع ، والذي كان متأثراً كغيره من الأشراف بطائفة من النظم والعادات الخاصة ، والذي كان يعيش في ظل سلطان ديني قوي من الوجهة السياسية ، إن لم يكن قوياً من الوجهة الخلقية — لا أستطيع أن أصدقك أنه أنفق حياته كلها في عبث وهو ، وفي فجور ومجون ، وأنه فعل كل ما قال .

ولنلاحظ قبل كل شيء أن الحجاز لم يخل في هذا العصر من شعراء عبثوا وطوا . وأسرفوا في العبث واللهو مضطرين أو مختارين . ولكن لنلاحظ أن هؤلاء

الشعراء لم يعيشوا وادعين كما عاش عمر بن أبي ربيعة ، ولم يظفروا بإجماع الناس على إكبارهم وإجلالهم كما ظفر عمر بن أبي ربيعة .
ومهما تكن الأسباب التي اقتضت محنة العرجي والأحوص فقد مُحنا وساء بهما ظن فريق من الناس عظيم ، وكان أشد الناس بهما حسن ظن لا يرى فيهما من الوجهة الخلقية خيراً .

أما ابن أبي ربيعة فلم ينله سلطان ابن الزبير ولا سلطان بني أمية بمكروه ولم يرو لنا التاريخ أن الناس غلوا في لومه أو تشددوا في النعي عليه .
وقد يشير بعض الرواة إلى أن أخاه أو غير أخيه لومه وألح عليه ، وإلى أنه سافر إلى اليمن اجتناباً لمكة وتأديباً لنفسه ؛ فحنّ إلى مكة وعاد إليها . ولكن التكلف في هذه الأخبار ظاهر . وكل ما نستطيع أن نستيقنه منها هو أن ناساً لاموا عمر من جهة ، وأن عمر قد سافر إلى اليمن كما سافر إلى العراق ، وكما كان يسافر إلى المدينة لبعض شئونه من جهة أخرى .

إذا لم يجد السلطان السياسي سيلاً على عمر كما وجد سيلاً على الأحوص وعلى العرجي . ومع هذا فقد كان أصحاب التقى والمروءة يدعونه الفاسق مازحين مرة وجادين مرة أخرى . وكان النساء يداعبنه بهذه الصفة ، وربما وصفنه بها جادات أيضاً . وكان أشرف قريش ربما تخرجوا من شعره واحتاطوا في حماية نسائهم من روايته والظهور عليه .

كان هذا كله . ولكن كان من جهة أخرى أن عمر بن أبي ربيعة لم يكذب يترك امرأة شريفة من نساء قريش إلا ذكرها وأسرف في ذكرها ؛ فقد تغزل بأخت عبد الملك وبتة ، وامرأة سهيل بن عبد العزيز بن مروان ، وتغزل بعائشة بنت طلحة ، وتغزل بسكينة بنت الحسين ، وتغزل بلبابة بنت عبد الله ابن عباس ، وتغزل بزینب بنت موسى الجمحي ، وهند بنت الحارث المرّي ، وتغزل بإحدى بنات محمد بن الأشعث الكندي من أهل العراق ، ونساء غير هؤلاء كثيرات من أشرف مكة والمدينة والشام والعراق . وكان يتغزل بهن جهرة في غير تكتم ولا استخفاء ، إلا ما يروى من أنه تحفظ بعض التحفظ في أمر فاطمة بنت عبد الملك .

والغريب أنه لم يكن يكتفي بإعلان غزله ، بل كان يستعين عليه نقرأ من

أشراف قريش فيعينونه ويجدون في هذه المعونة لذة وغبطة .
وسنذكر لك مكان ابن أبي عتيق من غزل عمر بن أبي ربيعة . سنذكر
لك مكان هذا الرجل للشريف من قريش من غزل عمر . لا أقول من لفظه ،
بل أقول من حياته الغزلية ، وكيف كان يحرص على التوسط بينه وبين صاحبه
الثرى .

ألست ترى أن هذا كله خليق بالتفكير ، وأنا مضطرون إلى أن نتوسط
بين الذين زعموا أن عمر كان مسرفاً في الفجور والذين زعموا أنه كان مسرفاً
في العفة ، فترى أنه لم يكن مسرفاً في اللهو كما أنه لم يكن مسرفاً في حسن السيرة :
ونرى أنه صادق كل الصدق حين يؤكد أنه لم يقدم على حرام ، ولكن صدقه
هذا مقصور على طائفة من شريفات قريش وغير قريش ، فليس من شك في
أن صلته بأخت عبد الملك وبنته وبسكينة بنت الحسين ولبابة بنت عبد الله
ابن عباس وعائشة بنت طلحة كانت طاهرة كل الطهر بريئة كل البراءة من
الإثم ، كانت لفظية ليس غير .

بل لست أدري ! أحق ما يروى من أن فاطمة بنت عبد الملك حرصت على
أن تراه واحتالت في ذلك إلى آخر ما سنذكره ؟ وأكبر ظنى أنه لم يتجاوز أن
احتال في رؤيتها ثم تنزل بها ، وأن هذا الغزل وقع من فاطمة موقفاً حسناً ، ولعلها
كانت تطمع فيه . وإذن فهو لم يقدم على غرام مع هذه الطبقة من النساء .

ولكن أنستطيع أن نقول إن سيرة عمر مع النساء جميعاً كانت كسيرته مع
هؤلاء الشريقات ؟ أنستطيع أن نقول إن هذا الرجل الذي لم يعرف الأدب العربي
الإسلامي إلى عصره شاعراً وصف اللهو بالنساء كما وصفه قد أنفق حياته — كما
قال بعض الرواة — يصف ولا يقصف ويحوم ولا يرد ؟ كلا ! كان عمر بن
أبي ربيعة مسرفاً في وصف اللهو مقتصداً في اللهو نفسه . ومن زعم أنه صادق
حقاً حين يقسم ما أقدم على حرام فهو مخلوع . ومن زعم أنه صادق حقاً في
أنه فعل كل ما قال فهو مخلوع أيضاً .

إنما كان عمر يعيش عيشة الرجل المترف الذي أتاحت له أسباب اللهو
وسائله ، ولكنه مع ذلك مقيد بشرفه ومكانته وما ألف الناس من الأوضاع
الاجتماعية ، فهو يلهو ولكن بمقدار ، وهو يصف ولكن بمقدار أيضاً .

ومن هنا كان من الحق أن يكون عمر بن أبي ربيعة يلزاه جميل ، أي أنه كان رئيس مذهب في الغزل الإباحي كما سميناه غير مرة ، لأنه لم يكن ينزل في الهواء ولا يطمح إلى المثل المعنوي الأعلى ليس غير ، وإنما كان يعيش في الأرض ويستبيح لنفسه من اللذات ما أباح له الدين وما لم يبح ، بينما كان جميل زعيم هذا الغزل العذري العفيف ، الذي لم يكن يطمح إلا إلى المثل الأعلى وإلى الجمال من حيث هو ، ولا يبتغي لذة ولا يستبيح شيئاً لم يبحه الدين ولم ترض عنه الأخلاق .

على أني لم أحدثك إلى الآن إلا بأشياء عامة ولم أعرض بعد لدرس مفصل دقيق لشعر عمر بن أبي ربيعة . وأنا مضطر إلى ذلك ؛ فليس عمر بن أبي ربيعة الذي يستطيع الباحث أن يدرسه في حديث واحد . ولا بد لي أن أحدثك عنه حديثاً آخر ، وقد أحتاج إلى غير حديث .

أما اليوم فأنا أهتم هذا الفصل بشيء أثقله لك عن القدماء يختصر رأيهم فيه اختصاراً حسناً ، وهو رأي مصعب بن عبد الله الزبيري ، وقد تناقله عنه رواية العصر العباسي ، وحرصوا عليه فكأنهم يقرونه ، بل قل إنهم يقرونه عليه . وإذا فهذا الرأي تستطيع أن تأخذه على أنه رأى القدماء جملة في شعر عمر . ولست أنقل لك كل ما يروى القدماء عن مصعب ، فذلك يقصر عنه هذا الحديث ، وإنما أروى لك منه جملة صالحة ، فإذا كان الفصل الآتي فسأجهد في أن أفصل بعض التفصيل رأيي في شعر عمر .

قال مصعب : راق عمر بن أبي ربيعة الناس وفاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر ، وشدة الأسر ، وحسن الوصف ، ودقة المعنى ، وصواب المصدر ، والقصد للحاجة ، واستنطاق الربع ، وإنطاق القلب ، وحسن العزاء ، ومخاطبة النساء ، وعفة المقال ، وقلة الانتقال ، وإثبات الحججة ، وترجيح الشك في موضع اليقين ، وطلاوة الاعتذار ، وفتح الغزل ، ونهج العلل ، وعطف المساءة على العذال ، وأحسن التفجع ، وبخل المنازل ، واختصر الخبر ، وصدّق الصفاء ، إن قلدح أورى ، وإن اعتذر أبرى ، وإن تشكى أشجى ، وأقدم عن خبرة ، ولم يعتذر بغيرة ، وأسر النوم ، وغم الطير ، وأغدّ السير ، وحير ماء الشباب ، وسهل وقول ، وقاس الهوى فأرني ، وعصى وأخلى ، وخالف بسمعه وطرفه ،

وأبرم نعت الرسل وحذر ، وأعلن الحب وأسر ، ويطن به وأظهره . وألح
 وأسف ؛ وأنكح النوم ، وجنى الحديث ، وضرب ظهره لبطنه ؛ وأذلّ صعبه ،
 وقنع بالرجاء من الوفاء ، وأعلى قاتله ، واستبكى عاذله ، ونقض النوم . وأغلق
 رهن ميني ، وأهدر قتلاه ، وكان بعد هذا كله فصيحاً .

فن سهولة شعره وشدة أسرهِ قوله :

فلما تواقفنا وسلّمتُ أشرقتُ وجوهُ زهاها الحُسنُ أن تتقنعا
 تبالهنّ بالعرفانِ لما رأيتني وقُلن أمرؤُ باغٍ أكَلٌ وأوضعا

ومن حسن وصفه قوله :

لها من الرّيمِ عيناها وسُنّته ونخوةُ الشّابِقِ المِخْثالِ إذْ صهّلا

ومن دقة معناه وصواب مصدره قوله :

عوجاً نحى الطللَ المُخولاً والرّيعَ من أسماءِ والمَنْزِلا
 بسابغِ البوّابةِ لم يعدّه تقادّمُ العَهدِ بأن يوهّلا

ومن قصده للحاجة قوله :

أيها المنكحُ الثريا سُهَيْلا عمركَ اللهُ كيفَ يلتقيانِ
 هي شاميةٌ إذا ما استقلّتُ وسُهَيْلٌ إذا استقلّ يمان

ومن استنطاقه الربع قوله :

سائلا الرّيعَ بالبليِّ وقولاً هجّتَ شوفاً لي الغداة طويلاً
 أين حى حلوكِ إذ أنت محفؤ ف بهم أهلُ أراك جبيلاً
 قال ساروا فأمعنوا واستقلوا وبرغبي لو قد وجدتُ سبيلاً
 سَمونا وما سَمنا جواراً وأحبوا دمانه وسُهَيْلا

ومن إنطاقه القلب قوله :

قال لي فيها عتيق مقالاً فجرتُ مما يقول أَلدُّمُوعُ
قال لي ودع سُليمي ودعها فأجابَ القلبَ لا أستطيعُ

ثم يمضي مصعب في الاستدلال بالأبيات من شعر عمر على ما قدم من وصفه فيما رويت لك ، وذلك أطول من أن أمّ روايته ، فاقرأه في الجزء الأول من الأغاني إن شئت ؛ بل أنا أشير عليك أن تقرأه لتمثل رأى القدماء في عمر ، ووجهتهم في تقده قبل أن نأخذ نحن في درسه منذ الأسبوع الآتي .

خاتمة القول في الغزلين (١)

الحب في شعر ابن أبي ربيعة

أظنك لم تنس حديثنا الماضي عن عمر بن أبي ربيعة . وأظنك تذكر ذلك الرأي الذي ختمت به ذلك الحديث ، وقلت إنه يمثل رأى القدماء في زعيم الغزلين . وهو رأى مصعب بن عبد الله الزبيرى الذى تناقله الرواة على اختلافهم وتباين أهوائهم وأعجبوا به ، وحفظه لنا صاحب الأغاني ، فكان هذا كله مرآة لرأى هذه الطبقات في عمر بن أبي ربيعة ، بحيث نستطيع أن نقول إنه يمثل رأى القرن الثانى والثالث في هذا الشاعر .

أعترف بأنى قرأت حديث مصعب بن عبد الله هذا مع شيء من اللذة كثير ، وأحسست شيئاً عظيماً من الغبطة لأن صاحب الأغاني استطاع أن يرويه في جملته ، حتى ينجح إليك وأنت تقرؤه أنه فصل كامل من كتاب ، أو أنه نص كامل لمخاضة ألقاها هذا الأديب . ومن ذا الذى لا يغتبط حين يظفر بشيء كهذا ! ولست أريد أن أنقد هذا الرأى ولا أن أناقشه ، وإنما نقلته لك لترى كيف كان القدماء من أصحاب اللغة والأدب ينظرون في الشعر ويحكمون عليه ، وكيف كانوا يقدرّون عمر بن أبي ربيعة ويعجبون به إلى غير حدّ .

وأنا أعلم حق العلم أن طريقة القدماء في فهم الشعر والحكم عليه لا ترضينا ولا تقنعنا ، ولا تلائم ذوقنا الحديث وأطماعنا العلمية الواسعة ، فهم كانوا يتعجلون الحكم تعجلاً ، ويحترقونه اجترأ ، ويعممون في غير موضع للتعميم ، وهم كانوا لا يستطيعون أن يتصوروا أن لشعر الشاعر وحدة يجب أن تدرس ، ويجب أن يتبين فيها الناقد شخصية الشاعر وقوته . وهم كانوا يجهلون أو يكادون يجهلون هذه الشخصية ، وينظرون لا إلى القصيدة ولا إلى المقطوعة بل إلى البيت أو البيتين ، فيحكمون بأن الشاعر أشعر الناس في هذا المعنى .

(١) نشرت بجريدة «السياسة» في ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٤ م .

وربما حكموا بأنه أشعر الناس في كل شيء ، لأنه قال بيتاً راقهم أو شطراً وقع منهم موقفاً حسناً . وهم كانوا إلى هذا كله يغمضون في ألفاظهم ويعمدون إلى معاني مبهمه بحيث لا تستطيع أن تتبين آراءهم كما هي ، فهم يذكرون الديباجة ، والحاشية ، والأدب ، وما إلى ذلك من ألفاظ مستعارة يعجبك وقعها ويخطئك معناها الدقيق .

أعلم هذا كله ، ولكني مع ذلك أحب هؤلاء القدماء ، وأحب آراءهم ، وأجد في قراءتها لذة وبهجة ، وإلى تفهمها راحة واطمئناناً . وإذا أخطأني رأيهم الدقيق في الشعر أو حكمهم الصحيح عليه ، فإنني أجد نقدهم مرآة صادقة لنفس جذابة حلوة أحب أن أدخل إليها من حين إلى حين .

نعم ! إن رأى مصعب بن عبد الله الزبيرى لا يعطى صورة واضحة من عمر ابن أبي ربيعة ولا من شعره ؛ ولكنه يعطى صورة واضحة من مصعب نفسه ومن أصحابه الذين استمعوا له وحفظوا عنه ، ومن الرواة الذين تناقلوا هذا الحديث وخلدوه ، وليس هذا بالشيء القليل . ثم من الذى يستطيع أن يزعم لك أن الأجيال المختلفة تستطيع أن تفهم الأدب على وجه واحد ، وتصدر فى الحكم عليه من مصدر واحد ؟ وكيف السبيل إلى ذلك وأنت لا تستطيع أن تضمن تشابه أطوار الحياة وظروفها فى الأجيال والبيئات المختلفة ؟ وإذن فلا تستطيع أن تضمن تشابه النوق . وإذن فلن تستطيع أن تضمن تشابه النقد . وإذن لن ينبغى لك أن تطلب إلى القدماء ما تطلبه إلى المحدثين . ولئن عجزت لشيء فإنما أعجب له هذه الميول والأهواء التى قد يشترك فيها القدماء والمحدثون ، على تباين الأطوار واختلاف الظروف وتبدل أحوال الحياة . أقول هذا كله بعد أن فرغت من قراءة رسالة صغيرة ؛ ولكنها ممتعة قيمة للدكتور « زكى مبارك » خريج الجامعة المصرية ؛ تناول فيها شعر عمر بن أبي ربيعة فدرسه من بعض نواحيه درساً حسناً يسرنى أن أهنته به ، ويسرنى أيضاً أن أنتهز هذه الفرصة لتسجيل ما للجامعة المصرية من فضائل على عقول الشباب . ولكن الدكتور « زكى مبارك » ، وهو شاب حادّ الشباب عفيفه ، قد أسرف فى نقد مصعب بن عبد الله إسرافاً جعله إلى الظلم أقرب منه إلى الإنصاف ، وليس مصدر هذا الإسراف إلا أنه لم يقدر ، كما ينبغى ، اختلاف المثل الأدبية

باختلاف العصور والأجيال . وما أحسب إلا أنه عائد إلى هذا النقد فلطف ما فيه من حداثة ومزِيل ما فيه من جور .

كان القدماء مجمعين أو كالمجمعين على إكبار عمر بن أبي ربيعة وتقديمه ، يستوى في ذلك خصومه وأنصاره ، فقد كان ضرباً من الإكبار والتقديم هذا التخرج من رواية شعر عمر ، وهذا الإشفاق من أثره في الفتيان والفتيات . فلم يكن لهذا التخرج والإشفاق مصدر إلا الاعتراف بأن هذا الشعر قوى خلاص ساحر للنفوس .

ولكن من أى ناحية نستطيع أن ندرس شعر عمر بن أبي ربيعة . أندرسه من حيث هو مرآة للحياة الاجتماعية الحجازية في القرن الأول للهجرة ؟ أم ندرسه من حيث هو مظهر من مظاهر الحياة الأدبية في ذلك العصر ؟ أم ندرسه من حيث هو مرآة لنفس المرأة الحجازية وحياتها بوجه عام ؟ أم ندرسه من حيث قيمته في لفظه وأسلوبه ومعناه ؟ أم ندرسه من حيث عبث الرواة به وإضافتهم إليه ؟ أم ندرسه من حيث تطوره ؟ فقد تطور شعر عمر بن أبي ربيعة كما تطور ابن أبي ربيعة نفسه ؟ ولعل أصدق دليل على أن القدماء أنفسهم أحسوا هذا التطور قول جرير : « ما زال هذا القرشي يهذى حتى قال الشعر » .

أما أن ندرسه من حيث هو مرآة لنفس عمر ومظهر لشخصيته ومثال لقوة حسه ودقة شعوره . فكل هذه النواحي خليقة بالدرس . وأنا زعيم لك بأنك ستظفر إن درستها بنتائج أدبية وتاريخية قيمة جداً . ولكنك تعلم حق العلم أنى لا أستطيع أن أعرض لهذا كله في هذه الأحاديث ، فليست هي مما يسع هذا البحث العلمي الدقيق ، ولو أنى عرضت لها لقصيت فيها سنة أو أكثر من سنة . وقد طلب إلى بعض أصدقائي منذ حين أن أنصرف عن الغزلين إلى غيرهم ؛ فأجبتهم إلى ما أراد . وأنا أريد أن يكون هذا الحديث خاتمة القول في الغزلين . ويسرنى جداً أن يعنى غير واحد من رجال الأدب بالبحث عن كل هذه النواحي التي أرى أنها خليقة بالدرس من شعر عمر بن أبي ربيعة .

أما أنا فلست أدرس في هذا الحديث إلا ناحية واحدة أو جزءاً من ناحية واحدة إن صح هذا التعبير . ولكنى أفتك إليه ، وأودّ لو استطاع الباحثون أن

بتموه ؛ فلن أزيد عن الإشارة الموجزة إليه . أريد أن أبحث عن حب عمر بن أبي ربيعة ما هو ؟ وما سبيله ؟ وما أثره في البيئة التي ظهر فيها ؟
 وقد رأينا في الحديث الماضي أن عمر لم يكن عذرياً ، ولم يكن يريد أن يذهب مذهب العنريين ، وإنما كان عملياً محققاً يلتزم الحب في الأرض لا في السماء . ورأينا كذلك أنه لم يكن يذهب في حبه مذهب أصحاب المحون من شعراء العصر العباسي ، فلم يكن يسرف في العبث ، وإنما كان يقتصد اقتصاداً ويتوسط في حبه توسطاً ، فيعف كثيراً ، ويعبث قليلاً . وكانت ظروف حياته نفسها تكرهه على هذه العفة ؛ لأنه لم يدع امرأة شريفة من قريش إلا شبب بها ؛ وما كان له أن يتجاوز العفة في هذا التشبيب ، إنما الذي نريد أن نتبينه هو طبيعة هذا الحب . فنلاحظ قبل كل شيء أن عمر لم يكن يجب بعقله ولا بقلبه ، وإنما كان يجب بحسه ، وبحسه ليس غير . كان موكلًا بالجمال يتبعه ، وله في ذلك أحاديث أذكر منها قصته مع عروة بن الزبير ، فقد سايره ذات يوم وأخذ يتحادثان ، فلذا عمر يسأله عن ابنه محمد ؛ فأجابه عروة : لقد تقدمنا ؛ فأظهر عمر الرغبة في أن يلحقه ويسايره ، وأنكر عروة ذلك ، فقال عمر : أنا موكل بالجمال أتبعه . وكان محمد بن عروة جميلاً رائع الطلعة ، وقد أذن عروة لعمر فلحق بالفتى وسايره .

وله أحاديث أخرى مع الشبان في البيت الحرام وخارج البيت الحرام ، وتستطيع أن تقرأ ديوان عمر بن أبي ربيعة كله فلن تجد فيه من وصف نفس المرأة وجمالها المعنوي إلا قليلاً جداً . فأما الذي تجده في هذا الديوان فوصف جمالها المادي من جهة ، ووصف ميولها وأهوائها من جهة أخرى . ولم يخطئ نصيب حين قال : « عمر بن أبي ربيعة أوصفنا لربات الحجال » . فلم يعرف العصر الأموي كله شاعراً وصف المرأة جملة وتفصيلاً بمثل ما وصفها به عمر ابن أبي ربيعة جودة وكثرة ودقة بنوع خاص .

كانت الصلة الجنسية أساس الحياة الأدبية وغايتها بالقياس إلى عمر ابن أبي ربيعة . فهو لم يكن يتصور المرأة إلا على أنها مكتملة للرجل ، لا يستطيع أن يعيش بدونها كما أنها لا تستطيع أن تعيش بدونه ، ولم يكن عمر يقصر هذه الصلة الجنسية على معناها المادي وحده ، وإنما كان يريد لها واسعة متناولة

جميع أطراف الحياة . ولست أشك في أن عمر بن أبي ربيعة كان صديقاً للمرأة بالمعنى الحديث الذى نفهمه لصداقة المرأة . كان يريد لها من الحرية مثل ما يريد للرجل ، وكان يريد أن تكون صلة الغزل بين الرجل والمرأة صلة ظاهرة لا حرج فيها ولا جناح ، وكان يريد أن تظهر المرأة فخراً بجمالها وروعها كما يظهر الرجل فخره بشجاعته وبأسه ، وكان يريد أن تستفيد الجماعة الإنسانية من خلال المرأة ، كما تستفيد من خلال الرجل ، كان يريد أن تزول الفروق بين الجنسين وألا يكون بينهما حجاب . وسواء علينا أشعر بذلك أم لم يشعر ، أكوّن فيه رأياً صريحاً أم لم يكوّن ، فهناك شيء لا شك فيه وهو أن شعر ابن أبي ربيعة كله ليس إلا تغنياً بجمال المرأة وتأثيرها في حياة الرجل ومكانتها من نفسه . وكان كل شيء في حياة عمر وسيلة إلى الاتصال بالمرأة وذكرها والتحدث إليها ولا سيما الحج ، فلم يكن ابن أبي ربيعة يفهم من موسم الحج إلا أنه معرض إسلامي للجمال ، وكان إذا قرب الموسم اتخذ أجمل ما كان يستطيع من زينة وظهر في مظهر الفتوة والقوة ، وفارق مكة فتعرض للحجيج في طريق المدينة والشام والعراق يتلمس نساءهم ، ويتبين هواجسهم . ويعرض منها لما تظهر عليها آثار النعمة والترف : فإذا وافى الحجيج مكة وغيرها من مواضع المناسك ، كان عمر قد أحصى النساء اللاتي يجب أن يكون بينه وبينهن لقاء أو حديث أو مكاتبة ، وكانت له رسل تعمل في ذلك فتأتيه المواعيد في مكة حيناً ، وفي منى حيناً آخر ، وكانت أحبّ ساعات الدهر إليه أوائل الليل من أيام الموسم حين ينزه النساء فرصة الليل فيخرجن للطواف . هنالك كان عمر ابن أبي ربيعة يترصدهنّ ، ومنهن من كانت ترصده . وهنالك كانت تبتدئ الأحاديث لتم بعيداً عن البيت ، حتى إذا انتهى الموسم وأزمع الحجيج العودة إلى بلادهم ، رأيت عمر مقسماً بين نساء المدينة ونساء الشام ونساء العراق ، يشيع هذه ثم يعود فيشيع تلك ، ثم يترك هاتين ليشيع امرأة أخرى . وهو لا يفرغ من تشيع امرأة إلا قال الشعر الجيد يسبقها إلى مواطنها ، ولا يلبث أن يسقط بين أيدي المغنين فإذا هو مصدّر للهو والطرب لهذه الأرستقراطية المترفة من أبناء قريش والأنصار . فكان موسم الحج موسم شعر وغناء في الحجاز .

وقد ذهب الشعراء مذهب عمر بن أبي ربيعة . وتأثر النساء تأثراً شديداً بهذه

الحركة الغزلية فأجيبنا وحرصنا عليها واجتهدنا في تقويتها وتذكية نارها ، واستبقنا إلى إرضاء الشعراء وتحريضهم على قول الشعر وإغرائهم بالغزل فيه .

أظنك تستطيع الآن أن تفهم السبب في افتتاح النساء بعمر ، وتنافسن فيه ، واستباقهن إلى مودته . وأظنك تشاركني في الحكم بأن عمر لم يكن مغروراً ولا مفتوناً ولا تياها ، كما كان يظن به بعض القدماء ، وكما يظن به بعض المحدثين أيضاً . كان عمر يصف نفسه كثيراً ، وكان يسرف في هذا الوصف أحياناً ، حتى قال له ابن أبي عتيق ذات يوم : لم تشب بها وإنما شببت بنفسك . ولكن مصدر هذا لم يكن غروراً ولا فتنة ولا تيهاً ، وإنما كان حب النساء إياه حقاً ، وبها الكهن عليه حقاً . وليس من المنكر أن يكون هذا قد اضطره إلى شيء من الغرور والتيه . ولكني لست أحسب أن الغرور والتيه وحدهما هما اللذان أنطقاه بهذا الشعر الكثير الذي اتخذ نفسه موضوعاً له .

لم يكن عمر مغروراً ولا تياهاً ، كما أنه لم يكن كاذب الحب ولا متكلفه ، وإنما كان صادق الحب حقاً قويه أيضاً . ستقول : فكيف يلاثم ذلك ما زعمت من أنه لم يكن عندياً ولم يكن يذهب مذهب جميل ؟ بل كيف يلاثم ذلك ما ذكرت من أنه كان يتبع النساء جميعاً بجه لا يكاد يدع امرأة إلا ليعرض لأخرى ، وربما اشتغلت نفسه في وقت واحد بغير امرأة ؟ كان هذا كله حقاً ، وكان عمر بن أبي ربيعة مع ذلك صادق الحب قويه أيضاً . ذلك لأنه لم يكن عندياً ، لم يكن يحب بعقله ولا بقلبه ، وإنما كان يحب بحسه وبحسه ليس غير ، كما قلت آنفاً ، لم يكن حسه يطبع قلبه فيرى الجمال في عشيقته ويميل إليها ، وإنما كان قلبه طوع حسه ، فكان يكتفي أن يرى جمال المرأة ليخلع عليها ما شاء له الشعر من الصور الرائعة الخلابه ، وليجد بها ما شاء له الحب من وجد لا حد له . كان عمر يرى كلما أحب امرأة أنه لم يحب قط امرأة كما أحبها ، وأنه لن يسلو عنها مهما تبدل الأحوال وتختلف ظروف الحياة . وكان صادقاً في هذا كله ، ولكنه لم يكن يلبث أن يقول هذا الشعر حتى يحب امرأة جديدة حباً ليس له بمثله عهد ، ولن يكون له بمثله عهد ، ولن يجد سبيلاً إلى الانصراف عنه . ومصدر هذا أن قلبه كان كما قلت يتبع حسه ، وأن النساء كنّ مفتونات به ، فكان لا يكاد يقف عند مظهر من مظاهر الجمال حتى يخلبه مظهر آخر ،

وكان لا يكاد يسمع ثناء امرأة حتى يستهويه ثناء امرأة أخرى . فكان طمعه متصلاً وأمله لا حد له .

ليس عمر بن أبي ربيعة بدعاً من الشعراء ولا من العشاق ، فأنت تجد في كل عصر من العصور وفي كل بيئة من البيئات عشاقاً أفلاطونيين وعشاقاً آخرين يحبون بالحس . ولكني أريد أن أتمس لعمر بن أبي ربيعة شبيهاً من أهل الأدب الحديث ، وأعتقد أن هذا الشبيه سيفسر عمر حتى التفسير ويوضح نفسه وجبه أحسن توضيح .

منذ سنين كتب صديقي الأستاذ ضيف رسالة باللغة الفرنسية قدمها إلى السربون وقارن فيها بين عمر بن أبي ربيعة وبين الشاعر الفرنسي « ألفرد دي موسيه » . وقد تكون هذه المقارنة خلافة في ظاهر الأمر ، فعمر بن أبي ربيعة أظهر عشاق العرب ، و « ألفرد دي موسيه » أظهر الغزلين من شعراء فرنسا في القرن الماضي ، وكلاهما وقف حياته على المرأة وحبا ، وكلاهما وقف شعره على جمال المرأة والتغنى به . ولكن الفرق عظيم جداً بين الشاعرين . عظيم إلى حد أن المقارنة بينهما مستحيلة ، فليس بين نفسيهما شبه ما .

أنت محزون حين تقرأ « ألفرد دي موسيه » يتفطر قلبك لوعة وأسى ، وبأخذك شيء من اليأس والسخط على الحياة والزهد فيها حين تنظر إلى هذا الحب القوي المتين ، فتري أنه على قوته وصدقه ومتانته جريح يدمى .

ولكنك مبتهج راض مبتسم للحياة حين تقرأ شعر ابن أبي ربيعة ؛ فلم يكن قلبه جريحاً ولم تكن نفسه كئيبة . ولم يكن يرى في الحياة إلا طراً أو سبيلاً إلى اللهو . وأنت حين تقرأ ما يظهر ابن أبي ربيعة فيه الحزن والأسى مطمئن راض بل مبتسم : لأنك تعلم أن هذا الحزن إنما هو وسيلة إلى السرور ومذهب من مذاهب الاستعطاف وسبيل من سبل اللذة .

لا أضغ ابن أبي ربيعة يلاًء « ألفرد دي موسيه » وإنما أضغه يلاًء رجل فرنسي آخر هو أخوه حقاً . هو صورته الصادقة لولا ما بينهما من فروق البيئة والحيل ، ولكن نفسيهما نفس واحدة ، ولكن حسيهما حس واحد ، ولكن مذهبيهما في الحب وإعلانه مذهب واحد ، ولكن ميليتهما في الحياة يوشكان أن يكونا ميلاً واحداً ، كلاهما أحب بحسه وأخضع قلبه لحسه ، وكلاهما فن النساء ، وكلاهما

تحدث بفتنته للنساء حديثاً حلواً خلافاً ، وكلاهما تعمق في الحب الحسى حتى وصل إلى قرارته ، وكلاهما أحب حتى كره الحب ، ولد حتى زهد اللذة ، وكلاهما لم يعرف لحبه موضوعاً يقصره عليه ، فكان يترك هذه ليحب تلك ، ويخلص من هذه ليقع في شرك تلك .

ستسألنى عن هذا الفرنسي الذى يشبه عمر بن أبى ربيعة هذا الشبه القوى الغريب ، ليس شاعراً ولكنه ناثر كالشاعر ، أنت تعرفه حق المعرفة لأن بينك وبينه صلة قوية ، لأنه صديق الشرق عامةً وصديق مصر خاصة : « بيير لوتى » .

أقرأت شيئاً من حب هذا الكاتب ؟ أقرأت كتبه عن فتيات قسطنطينية بنوع خاص ؟ إني أحب أن تقرأ هذه الكتب ، وأنا واثق كل الثقة بأنك لن تشك بعد قراءة ابن أبى ربيعة فى أن هذين الرجلين يصدران عن مصدر واحد . ولو أن لى أن أومن بالتناسخ لقلت : إن نفس ابن أبى ربيعة قد مرت بها أطوار الحياة المختلفة فهذبها تهذيباً وصفها تصفية ، ثم تمثلت فى هذا العصر الحديث فى شخص « بيير لوتى » فكتبت ما كتب « بيير لوتى » .

مكان هذا الكاتب الفرنسي من النساء عامة ومن فتيات القسطنطينية خاصة ، كمكان عمر بن أبى ربيعة من المرأة عامة والمكيات خاصة . أحب أن تقرأ هذه المذكرات الخاصة التى تنشرها « الألوستراسيون » منذ أسبوع والى تركها « بيير لوتى » فسترى فى هذه المذكرات والكتب نصوصاً لا تدع فى نفسك موضعاً للشك فيما أقول ، وقد أتخذ هذه المذكرات موضعاً لحديث من أحاديث الأحد .

وفى هذه المذكرات ينبئنا « بيير لوتى » فى ألفاظ أشبه بالنار منها بالكلام أنه أحب امرأة حباً حسيماً خالصاً لم يعرفه من قبل ولن يعرفه بعد ، أنساه كل شئ وكل إنسان وكل واجب ، وأن هذه المرأة تحبه حباً حسياً أيضاً ؛ ولكنها فى الوقت نفسه تحب رجلاً آخر ، وهى صادقة فى الحين ، ثم ينبئنا أنه شديد الألم لأنه لا يقف عند امرأة ولا يستطيع أن يقصر حياته على حب واحد . ومن غريب الأمر أنك تجد فى هذه المذكرات صديقاً (لبيير لوتى) ينصح له

ويشير عليه ، فلا تستطيع أن تمنع نفسك من التفكير في عمر بن أبي ربيعة وصديقه ابن أبي عتيق ، ثم تجد في هذه المذكرات فصولاً تصف لنا تنكر « بيير لوتي » وإخفاءه نفسه ، كما تجد ذلك أيضاً في قصة « الياثاسات » . فلا تستطيع أن تمنع نفسك من التفكير في ابن أبي ربيعة وما كان يسلك من سبل وحيل للوصول إلى النساء ، فإذا وصل « بيير لوتي » إلى صاحبه فالأمر بينهما كالأمر بين ابن أبي ربيعة وصاحبه : هو حيناً ، وعفة حيناً آخر ، والمرأة في كلتا الحالتين تعلم حق العلم أن عاشقها لعوب مغلاف لا يكاد يقف عند المرأة إلا حيناً كالنحل تنتقل بين الزهر .

اسمع إلى « بيير لوتي » وقد قضى مع صاحبه ساعات يراها أسعد ساعات حياته وهو يقول لها : إني أحبك ، فتجيبه : هذا شيء تقوله . ثم أقرأ ما شئت من شعر عمر بن أبي ربيعة وعتب النساء عليه وكلفهن به مع هذا العتب . وإن بين يدي الآن لصحفاً من كتاب « الياثاسات » كنت أريد أن أترجمها لك وأروى معها شيئاً من شعر ابن أبي ربيعة ، لتلمس تشابه النفسين لمساً ؛ ولكن من لي بالمكان الذي يسمح لي بالترجمة والرواية ، فحسبي أن أترجم لك هذه القطعة الموجزة من كتاب « الياثاسات » ل ترى كيف كانت الفتيات تتحدث إلى « بيير لوتي » ولتعلم أن « بيير لوتي » لم يكن أقلّ إيماناً بسلطانه على النساء من صاحبه العربي القديم . وهي من كتاب كتبه إليه إحدى عاشقاته وقد شربت السم وهي تموت :

« أيها الحبيب العزيز أسرع إلىّ فأنا أريد أن أنبئك نبئى
 ألم تكن تعلم أني كنت أحبك من أعماق نفسي ؟ ! يستطيع من مات أن يعترف بكل شيء . . . فهو لا يذعن لسلطان ما . . . وما لي لا أعترف لك وأنا مفارقة هذه الحياة بأنني كنت أحبك ! . . . أي أندريه ! في ذلك اليوم الذي جلست فيه إلى هذا المكتب حيث أكتب إليك هذا الوداع أرادت المصادفة أن أميل فألمسك . . . حيثلد أغمضت عيني ، ومن دون هاتين العينين المغمضتين مرت أحلام ما أجملها ! . . . وكانت ذراعاك تضياني إلى قلبك ، وكانت يداي

التان يملؤها الحب تسمان عينك في لطف وتذودان عنهما الحزن . . . آه ! لقد كان يستطيع الموت أن يأتي حينئذ ، ولقد كان يصادف لو أتى مَلَكُكَ وسَأَمَتِكَ ! ولكن ما كان أحلاه وما كان أملاً هذه النفس التي يحملها بالغبطة والشكر . . . آه ! كل شيء يختلط ويحتجب . . . زعموا لي أنني سأنام ، ولكني لا أحس النوم بعد ! ولكن كل شيء يضطرب ويتضاعف وكل شيء يرقص . . . وإن شمعاتي لكالشموس . . . وأرى زهراتي يعظمن ، يعظمن حتى لكأني في غابة من زهرشائق! تعالي أندريه . . . ادن مني . ماذا تصنع بين الورود ؟ ! . . . ادن مني حينما أكتب . . . أريد أن تطوفني ببنراعك وأريد أن تقبل شففتي عينيك الغاليتين . . . هنا أيها الحب فهكذا أريد أن أنام قريباً منك وأن أقول لك إنني أحبك . . . أدن مني عينيك ، فإن الموقى مثلي يستطيعون أن يقرعوا النفوس من طريق العيون . . . » .

لست أزمع أن إحدى صاحبات عمر تحدثت إليه بشيء يشبه هذا أو يقاربه وما كان لقرشية أن تتحدث في القرن الأول للهجرة بمثل ما تتحدث به هذه التركية المترفة في القرن الماضي ، ولكن هذه التركية تشبه تلك القرشية شبيهاً قوياً جداً ، فهي تحب صاحبها وتعلن إليه حبها في قوة وعنف وفي غير تحرج ولا تحفظ ، أو قل إن « بييرلوتي » يشبه عمر بن أبي ربيعة فهو ينطق هذه التركية بحبها إياه كما كان ينطق ابن أبي ربيعة القرشيات بحبهن .

ولنختصر حكمتنا في عمر بن أبي ربيعة ، كان هذا الحب حسياً صادقاً متنقلاً بطبعه شديد التأثير في النساء إلى حد الفتنة . وقد فتن عمر النساء وتيمهن فأخذن يطربنه ويتهاكن عليه حتى فتن بنفسه ، فلم يتغنّ بحبه إياهن كما تغنى بحبهن إياه . هو في هذا كله مشبه كل الشبه « لبييرلوتي » لا فرق بينهما إلا ما ينشأ من اختلاف أطوار الحياة ، ولكني لم أثبت شيئاً مما قلت عن عمر بشيء من شعره ؛ ولم أرو لك شعر عمر . وأنا لن أروى لك منه الكفاية ، وأنت تستطيع أن ترجع إليه . فديوانه شائع منشور ، وأنا واثق أنك ستنتفع بقراءته انتفاعاً جديداً إذا لا حظت ما قدمت لك من أمر حبه .

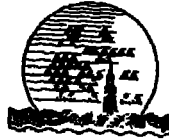
وأحسب أن قد آن لنا أن ندغ الغزلين بعد أن ألمنا بما ألمنا به من حياتهم
وفنونهم وشخصياتهم وأهوائهم المختلفة ، فلندعهم ؛ ولكن إلى من ؟ ذلك شيء
لا أعرفه الآن وقد أعرفه في الأسبوع المقبل .

تم الجزء الأول ، ويليه الجزء الثاني

فهرست الموضوعات

صفحة	
٥	المقدمة
٩	أثناء قراءة الشعر القديم
١٨	ساعة مع شاعر جاهلي
٢٨	» أخرى مع لبيد
٤٠	» » »
٥٥	» مع طرفة
٦٥	» أخرى مع طرفة
٧٧	» مع زهير
٩٠	» أخرى مع زهير
١٠٢	» » »
١١٤	» مع كعب بن زهير
١٢٦	» » الحطيئة
١٣٧	» أخرى مع الحطيئة
١٤٥	» مع عنبرة
١٥٤	» » سويد بن أبي كاهل
١٦٤	» » المثقب العبدى
١٧٣	الغزلون : قيس بن الملوح أو مجنون بنى عامر
١٨٤	الغزلون والغزل : نشأته وأسبابها
١٩٣	الغزلون وأخبارهم
٢٠٤	الغزلون : قصة قيس بن ذريح

٢١٧	صحيفة	شعر الغزلين
٢٣٢		عود إلى الغزلين : وضاح اليمن
٢٤٠		الغزلون : العرجى
٢٤٩		» : عبيد الله بن قيس الرقيات
٢٦٠		» : الأحوص بن محمد الأنصارى
٢٧٢		» : يزيد بن الطثرية
٢٨٣		» : كثير
٢٩٣		زعيم الغزلين عمر بن أبي ربيعة
٣٠٥		خاتمة القول في الغزلين : الحب شعر ابن أبي ربيعة



١٩٩٣/١٠٨٨١	رقم الإيداع
ISBN 977-02-4310-8	الترقيم الدولي

١/٩٣/١٢٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.٢٠٠٠ع.)

كتب أخرى للمؤلف

- في المباحث الإسلامية :
- في الأدب والنقد :
- في الأدب الجاهلي
- حديث الأربعة (٣ أجزاء)
- مع المتنبي
- من حديث الشعر رائتر
- في أدب التمثيل :
- في القصة والرواية :
- دعاء الكروان
- صوت باريس
- ما وراء النهر
- الحب الضائع
- شجرة البؤس
- المعذبون في الأرض
- في التراجم والسير :
- على هامش السيرة (٣ أجزاء)
- عثمان
- الشيخان
- الأيام (٣ أجزاء)
- في الاجتماع :
- في التربية :
- في سلسلة اقرأ :
- أحلام شهر زاد
- الوعد الحق
- المعذبون في الأرض
- مرآة الإسلام
- فصول في الأدب والنقد
- تجديد ذكرى أبي العلاء
- مع أبي العلاء في سجنه
- ألوان - جنة الشوك
- من الأدب التمثيلي اليوناني
- نظام الأثينيين
- مستقبل الثقافة في مصر
- الجب الضائع
- رحلة الربيع
- صوت أبي العلاء